السياسة في غير السياسة

الكتاب:السياسة فى غير السياسة
المؤلف : د . عبد المنعم سعيد
الناشر : دار مصر المحروسة
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٢
المدير العام : خالد زغلول
المستشار الفنى : عمر الفيومى
مدير النشر والتوزيع : يحيى إسماعيل
المراجعة اللغوية : عبد المنعم فهمى
الغلاف : عمر الفيومى
رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٤١ / ٢٠٠٢

١٣ شارع قولة - إمتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة
تليفون : ٣٩٦٠٥٠٠ فاكس : ٦٣٦٠٩٢٢

السياسة فى غير السياسة

د.عبد المنعم سعيد

تقديم



قصة هذا الكتاب تعود إلى عام ١٩٩٠، ففى ذلك العام كانت مصر كلها تخوض تجربة فريدة لم تعرف مثلها منذ وقت بعيد - وبالتحديد منذ عام ١٩٣٤ - وهى وصول فريقها القومى إلى التصفيات النهائية لكأس العالم لكرة القدم فى إيطاليا. أيامها كانت سعادة المصريين غامرة بهذا الحدث الهام ربما بدرجة لا تقل، إن لم تزد، عن فوز الأستاذ نجيب محفوظ بجائزة نوبل العالمية. ومع ذلك بدا الأمر وكأن طموحات مصر قد انتهت عند هذه النقطة، وبدأت المقالات والتحليلات تشير إلى أن المطلوب من الفريق القومى - الذى كان عليه أن يلعب فى باليرمو الإيطالية - أن يحقق لمصر التمثيل المشرف. فى ذلك الوقت وجدت نفسى أكتب مقالا فى الأهرام بعنوان «لماذا لا نفوز بكأس العالم؟» تناولت فيه الموضوع تناولا خفيفا كنقطة انطلاق لبحث قضايا أعمق وأكثر أهمية وتتعلق بتواضع طموحاتنا وأحلامنا ورغباتنا.

المفاجأة الكبرى جاءت من رد فعل القراء، فلم يحدث قبل هذا المقال أن جاءنى ذلك السيل من الخطابات والمكالمات التليفونية تعليقا على ما كتبت، بعد أن كنت قد ظننت أننى تجاوزت المسموح به فى المقالات الرصينة التى تخرج عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، والتى كان يفترض فيها الترفع عن الأحداث اليومية والاهتمام بالقضايا الكبرى. ومن ذلك الوقت وجدت أن هذا المدخل للموضوعات هو الذى يصل للناس فى النهاية، والأهم أن كل الأحداث اليومية، والكتابات الفنية والأدبية تحتوى على أبعاد سياسية كثيرا ما دارت فى الذهن ولكن نادرا ما تم تناولها وطرحها على القارئ.

وعلى مدى أكثر من عقد وجدت هذه الحصيلة التى سيجدها القارئ الكريم فى هذا الكتاب، والتى نشرت فى صحيفة الأهرام والحياة ومجلة الأهرام العربى، وكلها تنطوى على تأملات فى أحداث رياضية وفنية وأدبية شغلت اهتمام القراء، وشغلت اهتمامى أيضا بالضرورة. وإذا كان الزمار كما يقول المثل الشائع يموت وأصابعه تلعب على المزمار، فإن الباحث السياسى، حتى قبل أن يموت، لا يجد فى العالم من حوله إلا الظاهرة السياسية وأبعادها المعقدة داخليا وخارجيا. وربما يكون ذلك مدعاة لغضب الباحثين الآخرين فى مجال العلوم الاجتماعية التى قد يرى بعضهم أن أصولها توجد فى علم الاجتماع، والبعض الآخر يجدها فى علم الاقتصاد، والبعض الثالث يجدها فى علم النفس، وهكذا. ولكن غضب الآخرين لن يكفى بالنسبة للباحث السياسى ويجعله يقلل من أولوية العوامل السياسية، وبالتجربة فى المقالات وجد أنها الأهم والأكثر فعالية فى فهم ظواهر كثيرة.

وعلى أى الأحوال، فإن المسألة لم تكن كلها تحليلات سياسية فى ظواهر قد تبدو غير سياسية فى جوهرها وتنتمى إلى عوالم أخرى من النشاط الإنسانى، وإنما كان فيها الكثير من التأملات الخاصة التى يختلط فيها الحدث أو الواقعة بالمكونات النفسية والاجتماعية والفكرية للكاتب. ولذا فإن هذه المقالات فيها تحيزات خاصة لا يعتذر المؤلف عنها، ومن حق القارئ للكتاب أن يعرف بوجودها منذ البداية، وعلى الأرجح أنه لن يجد مشكلة فى اكتشافها.

وفى النهاية فإن الشكر والتقدير واجبان لكثيرين بدءاً من الناشر وحتى الصحف والمجلات التى نشرت أصول المقالات، ولكن التخصيص ضرورى هنا بالنسبة للأستاذة هناء عبيد التى قامت بجهد هائل فى عملية جمع هذه المقالات وتصنيفها بالشكل الذى ظهرت به، وللزميل حسنى إبراهيم الذى بذل جهدا فائقا فى التوصل إلى نسخة منتظمة من المقالات جاهزة على برنامج واحد للكمبيوتر. فلهؤلاء جميعا الشكر، أما المسئولية، كما هى العادة، فإنها تقع على عاتقى وحدى.

والله ولى التوفيق،،،

د. عبد المنعم سعيد

القاهرة ١ يونيو ٢٠٠١

الفصل الأول

فى الفن...



١. بين يدى سندريللا ... !!

يجب أن أعترف أننى أشعر بعتب شديد تجاه الراحلة سعاد حسنى، فقد اكتشفت أن شخصى ربما كان الوحيد فى مصر، الذى لم تقم بالاتصال به، أو تلتقى به بطريقة ما، أو حتى ترسل له رسالة مباشرة أو عبر وسيط. ففى وقت كتابة هذا المقال، أى بعد أسبوع من الوفاة، كان كم هائل من المقالات والتحقيقات قد تم نشره عن الفقيدة فى كل الصحف والمجلات بغير استثناء، مشفوعة بالصور والذكريات، وتحليلات الأفلام، والذكريات التى جمعت سندريللا الشاشة العربية كما وصفت مع كاتب أو كاتبة الموضوع. ولا أظن أن الأمر سوف يتغير كثيرا عند نشر المقال، فسوف يكون قد مر أسبوع آخر بعد عودة جثمان الفنانة الكبيرة ودفنه، ولا جدال أن حجم الكتابة والنشر والبرامج الإذاعية والتليفزيونية سوف يكون أكبر مما سبق، وسوف يتضمن أيضا تلك الصلات العميقة والذكريات والرسائل التى خلقت رابطة بين سعاد حسنى ومئات من البشر.

لماذا تم استبعادى من هذه الصلة الحميمة مسألة محل نظر، ولا يمكن القول إن ذلك يعود إلى أننى لم أحاول قط الاتصال بها، فمن كل الروايات التى سمعتها، والأرجح أننى سوف أسمعها، لم يكن من هم مثلى، أو من أبناء جيلنا الذى يضم سعاد حسنى شخصيا، هم الذين يبادرون بالطلب، وإنما كانت هى شخصيا التى تقوم

بذلك، ولساعات طويلة حسب الروايات الكثيرة التى سمعناها وقرأناها، وبعضها كان يأتى فى أول الليل وبعضها كان يأتى فى منتصفه. ولا يمكن أيضا الاحتجاج بأنها لم تكن تحب الكتاب السياسيين، خاصة هؤلاء الذين يعانون أمراضها أكاديمية واضحة، ومع ذلك فإن القصص التى ذاعت أكدت أنها لم تكن تفرق بين الكتاب، وبعضهم لا تقل كتاباته سخافة عن أى كاتب أكاديمى. وعلى أى الأحوال ربما لا يكون هذا السؤال المطروح هو السؤال الأهم، فالأهم منه هو إذا كانت سعاد حسنى تعرف كل هؤلاء وتتصل بهم غداة الليل وأطراف النهار، فلماذا ماتت من الاكتئاب؟!

السؤال ضرورى، وهو لا يرمى إلى اتهام أحد بالمسئولية عن قتلها، أو انتحارها أو ببساطة، رحيلها دون معرفة الذى حدث لها، فعلى الأرجح أن كل هذه الاتصالات لم تحدث، أو حدث القليل منها للغاية، وفى الأغلب أنها ذهبت فى وحشة وغربة ووحدة كبيرة، وأن لحظة الذهاب كانت لحظة انفصال كامل عن العالم الذى عرفته ولم تعد تعرف كيف تتصل به. وبالطبع فإن هناك احتمالا آخر، هو أنها كانت تعرف ما سوف تفعل، فكما قيل إنها قبل الذهاب أرسلت حقائبها إلى القاهرة، والأكثر من ذلك أنها خلعت حليها الذهبية ووضعتها على المائدة، وهى فى حالة وعى كاملة بالحدث القادم ونتائجه. وفى هذه الحالة فإن سعاد حسنى تريد أن ترسل لنا رسالة، ربما سوف نحتاج وقتاً طويلاً حتى نفك ونفهم مضمونها ودلالاتها، فقد كانت حياتها كلها رسالة ما، خلبت بها لب جيل بأكمله كممثلة وحبيبة وحالة راح الكل يقارنها بكل ما حوله.

ومن المؤكد أن ذلك لم يكن هو ما شعرت به إزاء الفنانة الراحلة منذ بدأت التمثيل، فبشكل ما، فإن الخيار المراهق كان قد انقسم بينها وبين نادية لطفى، ولكن سعاد حسنى فازت فى السباق لأنها كانت فى النهاية مصرية وخمرية و دمها زى الشربات، وهو نموذج نقى يحن له المصريون حتى ولو خلبت لبهم الشقراوات أحيانا. ومن المدهش أن أول من قدم التأصيل – فيما أعلم – لظاهرة سعاد حسنى، كان الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيرى الذى كتب مقالا رائعا نشره فى «الأهرام» عن فيلم (خللى بالك من زوزو) الذى كسر الدنيا وقتها، ولفت النظر ساعتها إلى كلمة (صح) التى قالتها زوزو بعد أول قبلة لها فى الفيلم، ورأى فى ذلك ثورة كبرى فى التفكير والإحساس المصرى الذى كان يجعل من هذه المشاهد مدعاة للخجل

والكسوف وربما الإحساس بالعار، واعتبر ذلك علامة صحة ونضج ودخول عصر جديد للفتاة المصرية. هذا الكلام بدا معقولا أيامها مهما كان الموقف من الفيلم ذاته أو حتى مهما تغير موقف الدكتور المسيرى إزاء مثل هذه القضايا، فقد كانت اللحظة هى التى أفرزتها مجانية التعليم ودفعت بأعداد هائلة إلى صفوف الجامعات المختلطة بالشباب والشابات الذين كان عليهم التعبير بعاطفة متدفقة وصريحة عن وطن يتطلع للانطلاقة الكبرى التى سيكون فيها تماثيل رخام على الترعة وأوبرا كما كان يغنى عبدالحليم حافظ.

وربما كان هذا التأصيل صحيحا وقتها، ولكنه لم يكن صحيحا مع كل الأوقات، فقد انتهى جيل سعاد حسنى نهاية عجيبة مع الثمانينيات عندما انتهى الفن الصريح والواضح، وعاد للف والدوران وإخفاء العلاقات فى تلافيف الخجل والعار والإثم والمعصية، ومع التسعينيات كان فن السينما قد انتهى تقريبا. والحقيقة أن موتها بعد ذلك كان مماثلا لموت كل من ماتوا من البارزين فى جيلها، إما بحوادث السيارات، وإما بالأزمة القلبية، وإما الانتحار مباشرة إذا عزت الخيارات الأولى. وزاد على سندريلا التى شاهدتها لمرة واحدة مندهشا من حجمها الدقيق على أعتاب جمعية الفيلم عام ١٩٧٥ قبل إعطائها جائزة فيلم «أين عقلى»، أنها كانت تتمتع بقدر هائل من رهافة الحس وحساسية الأعصاب، التى جعلتها تستقبل رسائل المعجبين المعلنة وغير المعلنة على مدى ثلاثة عقود، ومن بعدها لم تكن هناك رسائل ولا رسالات، وإنما الإهمال والقطيعة، وانتهاء عصر الصراحة، فلم يبق فى الدنيا متسع للبقاء.

لقد كانت سندريلا فى الأسطورة الأصلية خارجة من أصولها الفقيرة، لكى ترقص مع الأمير، ثم بعد ذلك تترك له حذاءها عندما ينتصف الليل وتجرى، فيأخذ الحذاء ويبحث عنها حتى يجدها. ومع سعاد حسنى فقد كان هناك فارق هام حين خرجت بالفعل من أصول فقيرة، ولكنها بعد ذلك أعطت كل من شاهدها على الشاشة الشعور بالرقص معها، وقطعة من نفسها – وليس حذاءها – لكى يبحث عنها طول العمر. وعلى عكس الأسطورة أيضا، فإنه لم يكن لكل أمراء الجيل أن يجدوها أو يعثروا عليها، ولم يكن أمامهم إلا أن يفتقدوها، ويفتقدوا العصر والزمن الذى تمثله،

والذى تم اغتياله واغتيابه، ولم يبق منه سوى الذكرى. ولذلك كان العتب من غياب الاتصال رغم كثرته مع كل من كتب وسطر، ولكنه عتاب يأتى بعد وقته، فقد هوى الجسد على الأرض، وصعدت الروح إلى السماء، و.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

٢ـ الست... !!

خلال فترة قصيرة للغاية لا تتعدى ثلاثة أسابيع انقلب وضع المرأة فى الخطاب العام المصرى فى الصحافة والمؤسسات العامة رأسا على عقب، وبعد أن كانت النساء ملائكة متوجة على عرش النبل والتضحية والفداء، وأساسا لا غنى عنه للعلاقات الإنسانية الحميمة، إذا بهن فجأة يمثلن قوى عاتية تفسد الدين والملة وتمثل قوى أجنبية لا تريد للوطن خيرا. كانت البداية بعد الأسبوع الأول من يناير عندما دخل التليفزيون المصرى فى إذاعة الحلقات الأخيرة من مسلسل أم كلثوم حيث صارت مناسبة كبرى للاحتفاء والاحتفال بعمل فنى متقن واسترجاع الكثير من «الزمن الجميل»، كما حرص كثرة من المعلقين على وصفه، وتجسدت فيه صورة «الست» المصرية فى أحسن صورها. ومع منتصف يناير وحتى نهاية الشهر، جاءت مناقشة قانون الإجراءات للأحوال الشخصية لكى تتغير الأحوال كثيرا فى شكل هجمة عارمة على النساء فى مجلس الشعب وخارجه فى الصحافة القومية والحزبية وفى الشارع المصرى عامة محملة بكل الأوصاف السلبية، دفعت طائفة من الصحفيات والكاتبات للاستغاثة بالرئيس محمد حسنى مبارك أثناء لقائه السنوى بالكتاب والمفكرين فى معرض القاهرة الدولى للكتاب لكى يخفف من غلواء الرجال ومواقفهم من النساء.

كانت صورة «الست» أم كلثوم باهرة للغاية، فالمرأة التى جاءت من أعماق الريف، حملت معها إرادة من حديد لكى تصعد على سلم الفن الجميل إلى القمة بما

فيها من نساء ورجال، غازية العاصمة الجبارة بقدراتها العظيمة، فتنحنى لها جباه الأمراء والعامة، وتقف وقفة «الرجال» وسط عالم من المواهب الجبارة فى الفن والأدب والسياسة والاقتصاد بلا وجل أو خوف، حتى أصبحت «صاحبة العصمة» فى زمن الملكية و «صاحبة الحظوة» فى زمن الجمهورية ولم يختلف عليها كثروة قومية، على كثرة اختلافهم، الملك فاروق، أو جمال عبدالناصر الذى ثار عليه وأطاح بعرشه. وفى كل ذلك كانت سيدة الغناء العربى عفيفة ومتواضعة، تعرف للعظماء أقدارهم، و «للسميعة» من الشعب حقها، وتقيس حياتها الشخصية بمعايير المصلحة العامة، والتى فى النهاية جعلتها «موحدة العرب» الذين عجز الرجال عن توحيدهم، والمناضلة التى يستعين بها الثائر العظيم لكى تعبئ الروح المعنوية للشعب فى وقت الانكسار لا بالأغانى الوطنية وحدها وإنما بأغانى الحب والعاطفة، وتنفيذا لوصيته يخرج الفن يدق كل باب رافضا الاستسلام، وغازيا للعواصم العربية والأجنبية يعبئ المشاعر ويرد على الصهاينة.

ولم تكن القضية التى أثارها المسلسل التليفزيونى الممتع هى شخصية أم كلثوم وحدها، ولكن الأهم ما عبر عنه فنها فى علاقة الرجل والمرأة فى بلادنا التى ظهرت نبيلة ورقيقة، وعلاقة المرأة بالوطن كله حتى بدت فى أحيان كثيرة هى الوطن ذاته، حتى إن الثوار الذين كانوا فى دور صناعة الثورة آنذاك فى الفالوجا لم يجدوا غيرها لكى يطلبوا منها لحظة الحصار مددا معنويا بأن تغنى فى حفلتها الشهرية أغنية «غلبت أصالح فى روحى». فغنتها، وأضافت لها أغنية أخرى هى «أنا فى انتظارك» فى شكل رسالة للمحاصرين الرجال ممتلئة بالرجاء والشوق. وسواء غنت «الست» للهجر أو الهوى الغلاب أو أمل حياتها الذى سهرها كثيرا وفى كل الأحوال طالبته بأن يأخذها فى حنانه أخذا، أو ذكرياتها معه حتى عندما صار «صرحا من خيال فهوى»، فإنها كانت تعبر عن امرأة قوية تأخذ وتعطى، تجيب، تبنى وترفع. وكان الرجال فى كل الأحوال يوافقون ويهتفون «عظمة على عظمة ياست»، ولم يجد رئيس الجمهورية حرجا فى إعطائها جواز سفر دبلوماسيا لكى ترفع شأن الوطن فى باريس دون أن يقول لنا المسلسل - بالضرورة - إنها حصلت على موافقة الزوج!.

المرأة العظيمة هذه فى مسلسل أم كلثوم تغير حالها كثيرا مع مناقشة قانون إجراءات الأحوال الشخصية، فقد حل محل العقلانية الشديدة «للست» درجة عالية من النزق والاستهتار التى تجعلها تخلع نفسها ما شاء لها الخلع عند كل بادرة خلاف، وحلت محل العفة والنبل رغبة عارمة فى إيجاد الثغرات التى تسمح لها بالسير على هواها غير المأمون دائما إلى أين يسير، واختفت القوة الهائلة التى تجعلها تقاسم الرجل معاناة الحياة وانكساراتها لكى تحل محلها قوة أخرى غاشمة «تخنث» الرجال وتهيمن عليهم وتجعلهم لعبة بين أصابعها.

وفوق ذلك كله - ويااللدهشة - فإن المرأة الوطنية التى تضع الوطن فى كحل عينيها، بل هى فى كثير من الأحيان هى الوطن ذاته بما فيه من شرف وعرض، صارت تعبر عن مجموعة من النسوة المتغربات الذين «وراءهن إسناد مالى وتنظيمى دولى لا مثيل له» ويقعن ضمن تحالف واسع يضم «وزارة الثقافة والجناح النسائى للحكم» (الذى هو على الأغلب يقف ضد الجناح الرجالى ويريد حرمانه من حقوقه الشرعية!) ... وكل من يمد يده للخارج ليحصل على المال من مصدر صهيونى أمريكى ليس أغلبه إلا يهوديا صهيونيا.

وهكذا وقعت المرأة فى غواية الخيانة العظمى، وانطبق عليها ما انطبق على كل الأمور العامة الأخرى من اتهامات بالعمالة لقوى بعضها معلوم وبعضها الآخر مجهول الهوية ماسونى الاتجاه عادت أصوله المعروفة إلى الجماعات النسائية الأجنبية، أما أصوله الكونية غير المعروفة فبانت من مؤتمر القاهرة للسكان الذى بات هذه المرة أصل المؤامرة الكبرى التى تطارد حياتنا فى كل اتجاه، فتسقط الطائرات وتثير السحابات، وتسبب العولمة وتقيم اقتصاد السوق، وتقضى على خصوصيتنا القومية التى تضع «الستات» فى مكانها الصحيح.

وبسرعة تم استدعاء الفقهاء - والفقيهات أيضا - لكى يردوا الغائلة التى اجتاحت الوطن، ولدى هؤلاء كانت هناك طبيعة بيولوجية خاصة للمرأة تجعلها ضعيفة وعاطفية ومتقلبة، إذا امتلكت استكبرت وتكبرت، وإذا ضعفت كان لها فى الكيد حبائل كثيرة. ومع الفتاوى المتعددة نسى الجميع كل ما قيل عن أم كلثوم المعنى والمغنى، وضاع من الذاكرة أن المرأة تقلدت مناصب رئاسة الوزارة فى بلدان إسلامية وغير إسلامية، فى دول كبرى وأخرى صغرى، وفى بلاد متقدمة وأخرى نامية، وعلى الأرجح أنه تم الاستبعاد تماما من الذاكرة فيالق «النسوة» اللاتى حاربن

فى حرب الخليج وكان بعضهن يقود طائرات «بى ـ ٥٢» التى بمقدورها حمل القنابل الذرية.

القضية هنا ليست الموافقة أو الاعتراض على قانون إجراءات الأحوال الشخصية، فقد قال مجلس الشعب كلمته استنادا إلى الشريعة الإسلامية، ولا يسعنا إلا القبول بها باعتباره المؤسسة التشريعية فى المجتمع، ونحمد الله على أنه لم يحرم النساء من قيادة السيارات أو العمل والتعليم أو التصويت والترشيح فى الانتخابات العامة استنادا إلى ذات الشريعة فى بلاد إسلامية أخرى. ونحمد الله كذلك أن مناقشة القانون جلبت إلى ساحة النقاش كثرة من النواب حتى من انتمى منهم إلى حزب الأغلبية بعد صمت طال أكثر مما ينبغى، خاصة أنهم ربما لأول مرة فيما أعلم تكالبوا على كتب الفقه والدستور يأخذون منها ما يتفق مع ضمائرهم فى صيانة أحوال المجتمع والأمة، ولو أن هذه السابقة «الشجاعة» فى شأن المرأة تمت فى كل الشئون العامة الأخرى لرد المجلس ردا مفحما على كل منتقديه وألقمهم حجرا ورد كيدهم إلى نحورهم كذلك!.

ولكن القضية الهامة التى تبقى هى طريقة مناقشتنا لقضايانا العامة والتى تتسم بقدر هائل من المبالغة والإنكار والتقدير المتبادل للآراء المختلفة وتخوين أو تكفير، فحتى فى الأمور الشرعية فإن الحكمة تقول إن رأينا يحتمل الخطأ ورأى غيرنا يحتمل الصواب، ولا يمكن هكذا بسهولة وبخفة يد فكرية أحيانا إسقاط المرأة المصرية من عليائها الذى وصلت إليه مع أم كلثوم لكى يتضاءل شأنها إلى هذا الحد مع مناقشة قانون إجراءات الأحوال الشخصية فتنزل إلى الدرك الأسفل متهمة ومدانة فى قوتها وضعفها. ومرة أخرى وربما للمرة الألف فإن استدعاء القوى الإمبريالية والصهيونية والماسونية لنفى الرأى الآخر يحمل فى طياته إفسادا وشرا مستطيرا للحياة السياسية، خاصة عندما تأتى ممن ائتمنهم الرأى العام على حماية الحريات، ويطالبون كل يوم بالحوار الوطنى وببناء الجبهة الداخلية حتى تستطيع مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، فلم يحدث فى تاريخ العالم أن اتسعت الحريات العامة، وتم بناء جبهة داخلية صلبة وقوية بينما تحترف طائفة حق التخوين والتكفير لكل من خالفها كليا أو جزئيا فى الرأى. ولله الأمر من قبل ومن بعد!.

٣ـ «غلبت أصالح فى روحى»... !!

استمتعت كما استمتع كل المصريين بمسلسل «أم كلثوم»، وأظن أن هذا الاستمتاع جاء من مصادر عدة، ليس فقط لأنه استحضر سيدة الغناء العربى مرة أخرى لكى تعيش بين الناس سبعة وثلاثين يوما أذيعت فيها الحلقات، وإنما أيضا احتفالا بالإتقان الذى عز كثيرا على تمثيليات أخرى سادت فيها عناصر «الكلفتة»، و «العجلة والتطويل الممل».

ولكنى أظن أن هناك عنصـرا لا يقل أهمـيـة عن كل ذلك هو أن المصـريين، وكذلك العرب أيضًا، باتوا تواقين بشدة إلى الحب مرة أخرى، بعد أن اختفى من حياتنا أو على الأقل لم يعد هناك من يحتفى بهذه العاطفة الإنسانية النبيلة؛ لأن هناك من يعتقد أنه عار يحسن التغطية عليه لنشر ثقافة كاملة من الكراهية للآخرين وللعالم فى أشكال فنية متعددة.

وقد غنت أم كلثوم للحب طوال حياتها، وحتى عندما غنت للوطن، فقد كان فى كثير من الأحيان محبوبا آخر له مواصفات مصرية خالصة، وفى الحالتين فإن الحب كانت له خصائص قومية خاصة تميزت بكثير من اللوعة والشوق العارم، والخوف على، ومن المحبوب، مع علاقة ديناميكية تقوم على الإقبال والإدبار، والقدوم والنكوص، والقدرة والعجز، وفى كل الأحوال كان سعيا مستمرا للظفر والوصال. ولكن بلوغ الأمل أمر آخر عصىّ وصعب، وفى أحيان مستحيل! هذه النوعية من الحب تتمتع بخصوصية شديدة، وفيها الكثير من المونولوج الداخلى للإنسان الذى يبدو الحب قصة أخرى فيها قدر أعلى من الصراحة والإقدام والإشهار والتفاؤل والتطلع إلى المستقبل. ولكن عبقرية سيدة الغناء فى أنها عبرت عما كان سائدا فى ثقافة كانت ومازالت إلى حد كبير محافظة فيما يخص الفرد وإنسانيته، بل إنها بمعنى آخر كانت تعبر عن المحيط المباشر لها والذى امتلأ ـ حسبما جاء فى المسلسل ـ بكثير من قصص الحب المحبطة والسرية التى جسدها فى أكثر صورها نقاء الممثل أحمد راتب فى دور القصبجى، الذى يبدو أنه أحبها حبا عارما طبقا للمواصفات

المصرية، حتى إنه فى لحظات الذروة كان أقصى ما وصل إليه فى رائعته «رق الحبيب» الذى ربما كان أكثر ما يصبو إليه، أما بعد الذروة فقد قنع كثيرا بالقرب خلف المحبوبة يدندن على العود أعذب النغمات.

ولكن الحب لم يكن فى الأغانى التى أبدعتها سيدة الغناء فقط، وإنما كان كثيفا وغنيا للغاية فى العلاقات الإنسانية الأخرى التى احتفت بالموهبة ورعتها ودفعتها وأتاحت لها الفرصة تلو الأخرى لكى تغير من «الغناء العثمانلى» وتأخذه فى خطوات أكثر رقيا وعصرية. ويكفى أن ننظر إلى مجمل العلاقات التى ربطت بين أم كلثوم وأحمد رامى فى دار الكتب، وطلعت حرب فى البنك الأهلى، والشيخ مصطفى عبد الرازق فى الأزهر، ومصطفى أمين وفكرى أباظة فى الصحافة، لكى نرى مجتمعا بأكمله يتوق إلى الموهبة ويدافع عنها ويحميها. ولكن الموهبة لم تكن فقط هبة من الله بصوت مبدع، وبل عقلا موهوبا عرف كيف يتأقلم ويتكيف مع متغيرات كبرى امتدت ما بين قرية «طماى» والقاهرة وحى الزمالك فيها تحديدا، والأهم من ذلك أن يخلق منظومة عمل متكاملة تحترم الوقت والتدريب، وتجعل من العمل والإنتاج فيصلا فى العلاقات مع الآخرين، فلم تقبل أم كلثوم قط احتكاراً لموهبتها، أو احتكاراً لأعمالها ممن تناقصت موهبتهم وقدرتهم على مدى السنوات الطويلة التى أبدعت فيها، وفى كل ذلك كان الحزم، وأحيانا القسوة، ضروريين، فالموهوب ليس لديه ترف التفريط فى موهبته لأسباب اجتماعية أو تاريخية.

ولكن الحب الأعظم ربما كان بين أم كلثوم وجمهورها، ولم تكن المسألة واقعة فقط بين «المغنية» و «السميعة»، كما كانت تحرص هى على تسمية محبيها، ولكنها كانت رباطا خفيا بين حالة من التعبير النقى عن المصرية، وحاجة ملحة إلى التشرب منها. واذكر شخصيا أن إلحاح أم كلثوم على يتزايد كثيرا فى أثناء السفر إلى الخارج، وكانت فرحتى عارمة عندما اكتشفت فى المكتبة الموسيقية لجامعة شمال إلينوى فى الولايات المتحدة مجموعة من أسطواناتها، وأيامها تساءلت بينى وبين نفسى عما إذا كان زملائى من الأمريكيين يمكنهم فهم أغنية «هجرتك» أو «هو صحيح الهوا غلاب» وبعدها استبعدت فكرة عرضها عليهم، فقد كانت حقا حالة مصرية خالصة. وأظن أن مثل هذه الحالة جرت للمقاتلين المصريين فى «الفالوجا» فى أثناء القتال الضارى فى فلسطين، التى كانت ومازالت قضية العرب الأولى، فقد كان تواصلهم مع مصر من خلال صوت أم كلثوم، عندما طلبوا - حسبما جاء فى

المسلسل وحسب رواية الأستاذ حنفى المحلاوى فى كتابه عن أم كلثوم وعبدالناصر والتى استند فيها إلى حديث مع الأستاذ مصطفى أمين - أغنية «غلبت أصالح فى روحى» التى كتبها الشاعر أحمد رامى ولحنها رياض السنباطى، لكى تكون فاتحة غنائها فى حفلتها الشهرية. ومن المدهش أن أبطال الفالوجا - ومن بينهم الرئيس جمال عبدالناصر - لم يطلبوا أغنية وطنية حماسية فى هذه المناسبة التاريخية، ولكن الدهشة تزول إذا عرفنا أن الزمن أيامها كان لا يجعل فارقا كبيرا بين حب الوطن والمحبوبة، فقد كان زمنا للحب والجمال والثقافة الرفيعة، يحاول بها المصريون التمرد والثورة على المستعمر والتخلف والكراهية فى آن واحد.

وسواء كانت القصة صحيحة أو غير صحيحة، فإن العلاقة بين السميعة وأم كلثوم، لم تتغير على مر السنين، وسواء كانت سيدة الغناء «صاحبة العصمة» فى زمن الملكية، أو «صاحبة الحظوة» فى زمن الجمهورية، بقى ذلك الحبل السرى موجودا ومشحونا للغاية بعواطف كثيرة، بل إن الانتظار والاحتفاء بالمسلسل شهد بأن العلاقة لم تنقطع قط؛ ربما لأن الحب بات شحيحا، وربما لأن الكراهية باتت شائعة، وربما لأن منظومة العمل والإتقان والكفاءة والموهبة لم تعد كثيرا على رأس الأولويات القومية، حتى إن بعضا من هذا مس المسلسل نفسه، فوجدنا القائمين عليه يضغطون السنوات الخمس الأخيرة من حياة أم كلثوم فى حلقة واحدة، سقط فيها سهوا أو خطأ رد فعل أم كلثوم على حرب أكتوبر، وهى التى حرص المسلسل منذ بدايته إلى نهايته أن يسجل ويرصد، من خلال الانعكاس عليها، عصورا وأزمنة متغيرة. فهل حدث ذلك عن عمد نتيجة موقف أيديولوجى من الرئيس السادات ومنجزاته فى الحرب، أم حدث نتيجة ما شاع عن خلاف بين أم كلثوم والسيدة جيهان السادات حرم الرئيس السادات؟ وقد انتهزت لقاء تم أخيرا مع السيدة الجليلة، وسألتها عن الواقعة فأنكرتها كلية وقالت إن علاقة صداقة وثيقة قامت بينها وبين أم كلثوم منذ قيام الثورة وإنها استمرت فى زيارتها فى المستشفى طوال الفترة الأخيرة من حياتها حتى توفيت، وأرجعت الشائعة وذيوعها إلى محاولات البعض من مراكز القوى فصم هذه العلاقة والتأثير على شعبية الرئيس السادات الذى كان يحبها حبا جما، كما كانت الحال مع أعضاء مجلس قيادة الثورة. رحم الله أم كلثوم فقد أمتعتنا فى حياتها ومماتها.

٤ـ متى يأتى أوان الورد ...؟!!

موضوع هذا المقال ليس المشاركة فى حملة التعليقات الصحفية على المسلسلات التليفزيونية بعد انتهاء الشهر الفضيل، أو إبداء الرأى فى مسلسل «أوان الورد» فإن لكل فن أهله، ولكل حرفة صناعها، ولكل مجال نقاده المتخصصون. وحسب المواطنين فى مجال التليفزيون أن الله قد أحياهم فى العصر الذى تم فيه اختراع «الريموت كونترول»، وبضغطة زر يمكن للإنسان أن يلغى تماما ما لا يعجبه من الوجود وينتقل إلى ما يعجبه وبكل لغات العالم إذا لم يهوى شيئا باللغة العربية المحببة. ولكن موضوع المقال كما طلبت مجلة «الأهرام العربى» من كتابها هو «التغيير»، وهو ما يعنى الانتقال من حال ردىء إلى حال أفضل، ومن مكانة أدنى إلى مكان أعلى، وفى حالات الأمم والشعوب، التحول من التبعية إلى الاستقلال، ومن التهميش إلى المشاركة، ومن التخلف إلى التقدم ومن الفقر إلى الغنى، ومن الاستبداد إلى الديموقراطية.

وفى كل التجارب العالمية للأمم والشعوب التى سبقتنا على طريق التغيير، سواء كان ذلك فى البلاد المتقدمة التى سادتنا منذ وقت طويل، أو البلاد النامية التى تقدمت علينا منذ زمن قصير، فإن ذلك حدث عندما توافقت النخبة السياسية والفكرية والاقتصادية على أن دوام الحال من المحال، وأن الأمور إذا سارت وفق مسيرتها الذاتية، فسوف تعنى التدهور والتراجع والانكسار القومى. وعندما تصل النخبة إلى هذا اليقين، مثلها مثل المريض الذى يعترف بمرضه، تكون قد قطعت أول خطوة على طريق العلاج أو التغيير، ولا ينفع كثيرا فى هذه الحالة أن يكون توصيف الحال مقترنا بالعودة إلى «الزمن الجميل». فغضلا عن أنه لا يوجد يقين حول جمال الزمن الذى فات، وإلا ما وصل الحال إلى ما آل إليه، فإن عقارب الساعة لا تعود أبدا إلى الوراء وإنما تتقدم دوما إلى الأمام، والمياه لا تمر بالنهر مرتين لأنها تتجدد دوما فى طريقها من المنبع إلى المصب.

ولا يحدث التغيير فى بلادنا لأنه لا يوجد توافق بين النخبة على توصيف الحال، وإنما توجد توصيفات متعددة حسب الهوى والغرض والمصلحة، ولكن يجمعها جميعا رباط احد وهو بعدها عن العلم فى القياس والحساب حتى تعرف القدم حقيقة موطئها وموقع خطوها. خذ مثلا قضية «البطالة» فى المجتمع المصرى، حيث لا يختلف أحد على أهميتها، ولا يمكن تغيير الحال بشأنها مالم نعرف على وجه التحديد عدد الذين لا يعملون والمهن والحرف التى ينتمون إليها، ودرجة التعليم الذى حصلوا عليه. هنا فقط فاجأنا كاتب قدير «ومسئول هو الأستاذ عباس الطرابيلى فى صحيفة الوفد الغراء يوم الخميس ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٠ بعنوان عريض يعلن فيه وجود «٦ ملايين عاطل فى مصر!!». ورغم أنه لا يوجد خلاف على وجود مشكلة البطالة، فإن طريقة حسابها تبدو متجاوزة للعلم إلى حد كبير، فقد تم التوصل إلى متوسط عام للتقديرات الحكومية قدره ١٠ ٪ كمعدل للبطالة، ثم بعد ذلك جرت نسبته إلى عدد السكان وقدره ٦٥ مليونا، ورغم أن ذلك كان يعنى أن عدد العاطلين هو ستة ملايين ونصف مليون، فإن الأستاذ الطرابيلى كان رءوفا بقرائه وخفض العدد نصف مليون عاطل مرة واحدة. وبالطبع فإنه لا توجد دولة فى العالم تحسب البطالة بها بهذه الطريقة، فنسبة البطالة التى تقدرها الدولة برقم يتراوح حول ٨٪ فإن حسابها من حيث الأعداد المطلقة يتم قياسه إلى عدد من هم فى سن العمل وليس لعدد السكان الكلى، وفى بعض االأحين قد يقرر البعض الاستمرار فى الدراسات العليا أو يستند إلى إرث يكفيه، وبهذا المعيار فإن عدد العاطلين سوف ينخفض كثيرا إلى ما يقرب من مليون ونصف مليون. ولا ينطبق ذلك فقط على موضوع «البطالة» وإنما يمتد إلى موضوع التعليم، فعدد الأميين لا ينسب إلى عدد السكان، وإنما إلى من هم فى سن التعليم، وهكذا يتم توصيف المشكلات والقضايا، ويمكن للنخبة أن تبحث عن علم كيفية «التغيير» بشأنها.

ولكن ربما كانت هناك قضية أكبر بالنسبة للنخبة لا تقل أهمية عن عملية التوصيف والقياس، وهى الاعتراف بوجود المشكلة أو القضية أو المسألة، وربما كانت

الضجة التى ثارت بين المسلمين والمسيحيين بخصوص مسلسل «أوان الورد» مرجعها إنكار ما يرد على العلاقة بين الطرفين من شئون وأمور معقدة لا تخل بالضرورة بوحدة عنصرى الأمة، وإنما لها انعكاساتها النفسية والفكرية والاجتماعية التى لا يستطيع فن صادق تجاهلها. وبالنسبة للأغلبية العددية، فإن هناك نزعة أحيانا لإنكار وجود الأقلية الدينية مادام لهم ما للأغلبية وعليهم ما عليها، وعندما يأتى المسلسل ويقول إن القاعدة ليست مطبقة بهذا الوضوح فى علاقات الزواج بين المسلمين والمسلمات والمسيحيين والمسيحيات، فإن ذلك يفتح أبوابا غير محمودة ينبغى لها أن تبقى مغلقة كما أغلقت أبواب الاجتهاد فى أزمان غابرة. أما بالنسبة للأقلية العددية، فإن الإنكار للقضية مطلوب مادام بقاء الحال على ما هو عليه يخلق جماعة الشاكين والمتحدثين باسمها، ويعطى دورا لإنكار الحب الذى لا ينبغى له أن يحدد العلاقات بين البشر.

وبالطبع فإنه ليس المقصود من مثال مسلسل «أوان الورد» الدخول فى جدل دينى حول ما هو مثار حوله من انتقادات، ولكن الدرس الذى نتعلمه من النقاش والقضايا المرفوعة أمام المحاكم، أن النخبة تفضل وضع القضايا والمشكلات تحت السجاد، واخفاءها عن العيون المحملقة. وعندما لا تزيد شجاعة مجتمع فى التعامل مع قضاياه على شجاعة النعام الذى يدفن رأسه فى الرمال، لعل الأخطار تختفى، فإن فكرة «التغيير» تصبح غير مناسبة لمقتضى الحال؛ لأنها فى جوهرها تتطلب كثيرا من القدرة على اقتحام مشكلات مستعصية، واستبدال وسائل للحركة تواضعنا عليها بوسائل جديدة أكثر تعقيدا وتركيبا، ونظرة على الزمن الآتى الذى يحتوى على المجهول بدلا من الزمن الذى مضى الذى يحتوى على اليقين. هل هذه الطريقة ملتوية للمشاركة فى النقاش حول مسلسل «أوان الورد» كما فعل الجميع؟، الإجابة بالقطع لا، فقد استمتعت به إلى الدرجة التى جعلتنى لا أستخدم «الريموت كونترول» الذى بات بمثابة وسيلة للتصويت المعاصر، أما الأهم فهو قضية «التغيير» التى لا يوجد جهاز فى العالم حتى الآن يمكنه الانتقال بها من محطة إلى محطة مالم يغير الناس ما بأنفسهم، وساعتها سوف يأتى «أوان الورد» حقاً!!!.

٥- ريدج «يتزوج» أوشين... !!

فالحياة الثقافية القاهرية ظاهرة تستحق الاهتمام، تتعلق بما إذا كان على التليفزيون المصرى أن يذيع فى سهرته اليومية الحلقات التليفزيونية الأمريكية «الجرىء والجميلة»، أو يذيع المسلسل اليابانى «أوشين». والمسلسل الأول له شهرة عالمية، حيث يذاع فى أكثر من ست وثمانين دولة بما فيها كل الدول العربية، التى بلغ حماس إحداها له قيام إحدى قنواتها بعرض حلقتين يوميا، أما المسلسل اليابانى فشهرته محدودة عالميا وعربيا ولا يوجد- حتى الآن- من يتحمس لعرضه خارج أو داخل الوطن العربى.

وبغض النظر عن الشهرة والذيوع، فإن المسلسلين يقدمان مجموعتين من القيم والرسائل الإعلامية والفنية. والأول الأمريكى هو صيغة أخرى من الحلقات الامريكية الذائعة من أمثال «دالاس» و «فالكون كريست» و «نوتس لاندنج» وغيرها، حيث تدور القصة فى الطبقة العليا للمجتمع، حيث يوجد الكثير من النساء الحسان، والكثير من المال، والكثير من المؤامرات العاطفية والمالية. وفى العادة فى هذه المسلسلات توجد شخصية طيبة ومثالية تحوطها أمواج من الحسد والحقد والرغبة من النساء والرجال حسب نوع الشخصية ذكرا كانت أو أنثى. هذه المرة، فإن الطبقة العليا المختارة تتجسد فى عالم بيوت الأزياء الكبرى فى مدينة لوس أنجلوس بدلا عن عالم ملوك النفط فى «دالاس» وعالم إمبراطوريات النبيذ فى «فالكون كريست». وهو عالم- بالطبيعة هذه المرة- مملوء حتى الحافة بأجمل النساء الشقراوات ذوات القوام الفارع والوجوه الصبوحة بتقاطيعها الموجودة فى إعلانات العطر ومعجون الأسنان. أما الشخصية المحورية- أو الجرىء- فهى السيد «ريدج» الوسيم الهيئة والبهى الطلعة والغنى غنى قارون والذى تتجاذبه النساء كما حدث للمشهورين من أمثال فالنتينو وكازانوفا. وحول هذه الشخصية يتحرك الجميع فى بهرجة عظمى من عربات فارهة وبيوت شاهقة الأناقة وداخلها يخون الرجال النساء والنساء الرجال ويحصد الجميع المال حصدا فى نفس الوقت.

فى المقابل فإن المسلسل اليابانى يمثل النقيض ـ أو المقابل الموضوعى لو شئت الحذلقة الفنية والنفى التاريخى إذا كانت الحذلقة سياسية فى كل شىء ـ فهو يدور حول قصة حياة سيدة يابانية ـ أوشين ـ من طفولتها حتى شيخوختها، حيث نشأت فى أسرة مدقعة الفقر كثيرة العيال وتعمل فى حقول الأرز فى بقعة نائية فى بداية القرن. ولما كانت الأسرة تعانى الجوع والفاقة، فإنها تضطر إلى منح أوشين لأسرة مستورة الحال فى إحدى المدن البعيدة حتى توفر غذاءها. وفى المنزل الجديد تعانى أوشين كل أنواع الاضطهاد والضرب، وفى النهاية الاتهام بالسرقة حتى تهرب عبر جبال الثلج والريح. بعد ذلك تمضى القصة فى سياقها المحتوم، حيث تلاطم البطلة الحياة وتلاطمها، ماضية بمثالية مدهشة من كارثة إلى أخرى . المهم هنا أن المسلسل يتميز بكآبة ملحوظة وعتمة ظاهرة ورثاثة تناسب مقتضى الحال.

وقد بدأت الزوبعة الفكرية، أو إذا شئنا الزوبعة الصحفية، مع عرض الحلقات الأمريكية. فبعد فترة من الفرجة على النساء الأمريكيات ومالديهن من جمال وحلاوة وطلاوة، بدأت الصحف المصرية انتقاد المسلسل واتهامه بالاباحية ومعاداة تقاليدنا وتراثنا العربى والإسلامى. وبدأت رسائل القراء ترد للصحف والمسئولين مطالبة بوقف عرض «الجرىء والجميلة» حتى لا يشاهدها البنات والشباب المحرومون، وتثير لديهم خيالات غير محمودة. أما الأكثر حكمة من النقاد وكتاب الأعمدة فقد بينوا بطء الحلقات ورتابتها وأنها من النوعية الموجهة إلى سيدات البيوت الأمريكيات فى فترة الصباح، فى إشارة غير واضحة لتخلفهم العقلى!، ووسط تلك الحملة عرض التليفزيون عددا من حلقات أوشين، ويبدو أن استطلاعاته لآراء المشاهدين لم تجد حماسا شديدا لوجهة النظر اليابانية، فتم وقف الحلقات القادمة من طوكيو.

ولكن يبدو أن استطلاعات التليفزيون المصرى لم تكن دقيقة، فقد انتفض عدد من كتاب الأعمدة ثائرين على الجهاز الاعلامى الخطير متهمين إياه بمحاباة المفهوم الامريكى الزائف للحياة على حساب المفهوم اليابانى الصاعد فى الحياة السياسية والاقتصادية الدولية. وتصاعدت الاتهامات بعد ذلك من كل حدب وصوب، فالتليفزيون أصبح متهما بمحاباة الانحلال بدلا من الوقوف إلى جانب الحشمة والعفة الباديتين فى الكيمونو اليابانى، والانحياز إلى الاستهلاك بدلا من

الانتاج، والتحيز للدعة على حساب «الكفاح» و «النضال». وكان النقد حادا إلى الدرجة التى اضطر عندها التليفزيون المصرى إلى التراجع وإعادة عرض «أوشين» يوميا فى فترة السهرة وقلص بث «الجرىء والجميلة» إلى مرة واحدة فى الاسبوع.

ولكن ذلك لم يعن نهاية الموضوع، فمرة أخرى لم تسفر استطلاعات الرأى عن رضاء الجمهور المصرى، واندفع كتاب أعمدة ورسامو كاريكاتير للانتصار للحياة الجميلة ورفض حياة النكد والغم التى - كما قال البعض - لدينا ما يكفى منها. ولم ينس البعض منهم الزج بموضوع الإرهاب لكى يضفى على النقاش الجدية والمهابة وربما استدعاء سلطة الدولة لكى ترفع الغمة الأوشينية عن الناس والتى تضعهم فى حالة نفسية تدفعهم إلى أعمال غير مسئولة.. ولكن ذلك لم يفت فى عضد انصار المزاج الأوشينى فردوا بضراوة أن المسلسلات من طراز «الجرىء والجميلة» بما فيها من تجاوزات أخلاقية هى التى تثير الغضب فى صدر الشباب وتدفعه إلى الإرهاب.

هذا الانقسام فى الرأى العام المصرى حير الخبراء من المراقبين والمحللين. ورأى الخبثاء منهم أن الاهتمام بالموضوع فى حد ذاته إنما يمثل انعكاسا للإحباط المتولد من عدم حدوث التغيير الذى كان متوقعا فى الحياة السياسية المصرية حتى فترة قريبة. ورأى آخرون أيضا أن المسألة هى أن الرأى العام المصرى يرى «تدويخ» وزارة الاعلام المصرية وهى التى لم تهتم برأيه إلا فى هذا الموضوع. ولكن بعيدا عن رأى الخبثاء - وقانا الله شرهم - فربما تكون القضية أعمق من ذلك بكثير، وأنها تعبر عن انقسام حقيقى وعميق وربما تاريخى فى الثقافة المصرية والعربية، فالأصل فى هذه الثقافة أنها تجمع بين الأضداد، ليس بالمعنى الديالكتيكى المتصارع فى الفلسفة الغربية، وإنما بالمعنى المتعايش السائد فى الفلسفة الشرقية. ففى القصص السائدة نجد الفقر والغنى، الجمال والقبح، الفضيلة والرذيلة، يتعايشان فى تناغم مثير. وإذا تم انتقال من حالة منهما إلى الحالة المضادة أو النقيض، فإن ذلك لا يتم من خلال الصراع الدرامى وإنما من خلال صدفة أو حدث عابر.

ففى قصة سندريللا نجد البطلة تنتقل من حالة الفاقة والاضطهاد إلى الزواج بالأمير لأنها تعثرت وتركت حذاءها فى القصر لكى يستخدمه الأمير فى الاستدلال

عليها بعد ذلك. وعلاء الدين كان فى الأصل فقيرا للغاية، ولكن حصوله على المصباح السحرى اتاح له فرصة نادرة للحصول على مالم يكن يحلم به، وعلى بابا لم يكن إلا رجلا متواضع الحال حتى إنه لم يكن يملك إلا جارية واحدة بالغة الدهاء وهى المدعوة مرجانة، ولكن الصدفة والمقادير أتاحت له معرفة الشفرة اللازمة لفتح مغارة اللصوص المملئة بالأموال والمجوهرات، فقرر سرقتها ومن سرق يسرق ولو بعد حين. ولم تكن «افتح يا سمسم» هى البوابة الوحيدة التى يمكن الانتقال بها من أهل العسر إلى أهل اليسر، وإنما حدث الانتقال فى قصة معروف الإسكافى عن طريق «السلطانية» التى تصورها ملك فى عرض البحر أنها يمكن أن تصير تاجا للجزيرة، فأسبغ على معروف من الخير الكثير، وفعل مجموعة من الجان والعفاريت نفس الشىء مع السندباد الذى كان صيادا بائسا فصار أميرا للبحار.

وباختصار شديد، فإن الثقافة المصرية والعربية بشكل عام بين «أوشين» و«ريدج» واحدة، وفى الحياة العملية جرى تصور أنه يمكن للأمم والشعوب الانتقال من حال إلى حال إذا ما حدث حادث يؤدى إلى تدفق الذهب الأسود تحت الأقدام فينتقل الناس بين عشية وضحاها من الكفاف إلى الوفرة. وفى السودان واليمن تتعلق أنفاس الناس بتلك اللحظة التى سوف يتغير عندها الكون والنصيب والحظ إذا ما نجحت شركات النفط الأجنبية فى إنتاج كميات وفيرة من السائل السحرى. وفى الدول العربية غير المنتجة للبترول، أو التى تنتج كميات ضئيلة منه، فإنها تنتظر تلك اللحظة التاريخية التى تتفجر فيها الطبيعة عن أسرار الغنى والنفوذ.

وهكذا يصبح الاستياء والإعجاب المصرى بمسلسلى أوشين والجرىء والجميلة مفهوما، فكلاهما يعبر عن حالة نقية من الفقر أو الغنى يعرفها أو يرغبها المشاهد، ولكنه لا يعرف كيف يتم الانتقال بين الحالتين، فالحالة النقية يجد فيها الإنسان بعضا من نفسه، ولكنها حالة غير كاملة وناقصة ضدها الآخر الذى يفترض أن تحتويه القصة كما تعود المصرى والعربى فى ثقافته الشعبية، وهى ثقافة تشترك معنا فيها شعوب أخرى يقع فى مقدمتها الشعب الهندى. ولعل ذلك يفسر الإعجاب العربى بالافلام الهندية التى تتميز بنفس الانتقالات المفاجئة من الفقر إلى الغنى ومن الضعف إلى القوة، مادامت المسألة كلها لا تزيد على اثبات فى لحظة الذروة أن الفقير ما هو إلا ابن أمير أو ملك، ولكنه ضاع فى طفولته لأسباب لا داعى لتفسيرها.

ولذا فقد يحل مشكلة التليفزيون المصرى مع المشاهدين أن يطلب من شركات الانتاج العالمية دمج المسلسلين فى مسلسل واحد تتزوج فيه أوشين ريدج وبذا يتوافر لها الأرز والطعام الكثير والفراش الوثير فى غمضة عين، وسوف يجد هذا المسلسل سوقا عربية واسعة. وإذا احتج بعض المتحذلقين بأن ذلك يمثل حلا تقليديا لعقدة مستعصية، وأنه لابد من التغيير فى نهايات الأفلام والمسلسلات، فإن الإجابة حاضرة، فمن يريد التغيير؟ ومن يطالب به على أية حال؟!!.

٦ـ أوسكار... !!

شاهدت مع ملايين آخرين فى الكرة الأرضية حفلة جوائز الأوسكار التى تقدمها الأكاديمية الأمريكية للعلوم والفنون السينمائية، وأظن، أن كثيرين بهرهم العرض المثير الذى لايخلو عادة من فكاهة وترقب لمن يفوز ومن يخسر، ومراقبة ملامح وخلجات النجوم المفضلين. وبالنسبة للنساء، وعلى الأرجح الرجال أيضا، فإن ملاحظة النجمات وملابسهن فيما تكشف وفيما تغطى لابد أنها حظيت بشهقات الإعجاب أو الاستنكار أو كليهما معا. أيا كان الأمر، فإن جوائز الأوسكار ليست ككل جوائز السينما فى العالم، فقد حظيت بالمكانة الأولى من الاهتمام العالمى حتى ولو لم تلق دوما الاحترام الكافى من النقاد المحترفين الذين رأوا فيها ترويجا لفن هوليوود الهابط والمروج للهيمنة الأمريكية على العالم حتى ولو لقى الإقبال الشديد فى باريس بنفس القدر الذى يلقاه به فى بكين أو نيودلهى.

مشاهدتى للحفل على أى الأحوال لم تختلف كثيرا عن بقية شعوب العالم، فقد استمتعت بقفشات بيلى كريستال، وسعدت بطريقة تقديم جاك نيكلسون لصديقه وارين بيتى، وراقبت الأفلام الفائزة، فربما يتاح وقت فى قادم الأيام لمشاهدتها، واستعذت بالله كثيرا عندما شاهدت بعض النجمات اللاتى لم تكن ملابسهن بالحشمة الكافية، كما تعجبت أكثر كيف يحدث فى دولة غنية مثل الولايات المتحدة ألا تجد نساؤها ما يكفى من النقود لشراء قماش يستر البدن، ولم أفهم لماذا اختصت نساء أمريكا الظهر بالتحديد لإبقائه عاريا تماما !. ولكن الحفل، بعيدا عن الشكل، كان فيه

ما هو أكثر من الإبهار، والاستعراض للنجوم والنجمات، والاحتفاء والاحتفال بالفن السابع، وتقاليد هوليوود فى إبراز المتفوق والموهوب.

لفت نظرى كثيرا أن تفوز الممثلة هيلارى سوانك بجائزة أحسن ممثلة، فلم أسمع بها من قبل، وبدت لى أن معايير الجمال لا تنطبق كثيرا عليها، ومما عرضته فى شكرها للأكاديمية أن فيلمها لم يكن من ذلك النوع الذى حظى بنجاح ساحق، بل إن من عملوا فيه لم يتلقوا أجورهم عنه، مما يفهم معه أنه من النوع التجريبى الذى يتحمس له مجموعة من الموهوبين وبعد ذلك يدخلون به السوق الفنية. هنا فإن الأكاديمية لم تجد أية غضاضة فى منحها الجائزة، ولم يكن هناك عيب فى أن تأتى ممثلة، أو ممثل فى حالات أخرى، لكى تقفز من الصفوف الخلفية لكى تصل إلى مقدمة الصف وتحصل على أشهر جائزة عالمية، ولم يقل أحد إنه ينبغى لها الانتظار حتى تحصل على النضج الكافى، أو كيف تتقدم إلى الجائزة أصلا وتنافس فنانات لهن أقدام راسخة فى الفن مثل ميريل استريب أو أنيتا بيننج، فمهما كانت قيمة هذه أو تلك، فإن سوق المنافسة لاتعتبر كثيرا بالماضى، أو بالسن، أو بسابقة الأعمال، أو بالأفضال على الفن السينمائى، فكل ذلك لايهم، وإنما الذى يهم حقا هو أنه مادامت تفوقت عليهما سوانك فإنها تفوز بالجائزة.

تأمل عزيزى القارئ لو أن الواقعة حدثت فى بلدان أخرى مثل بلادنا، وكانت الجوائز موزعة للفن أو الأدب أو الكتاب، هنا فإن المقامات محفوظة، واصحاب المناصب والواصلين لابد أن يكون لهم نصيب، وليس مسموحا لأحد أن يأتى من الصفوف الخلفية أو من صغار السن، وإذا كان ذلك ضروريا، فإنه يمكن تخصيص جائزة خاصة للشباب لكى تدل على أن الفائز بها ينتمى إلى شريحة الأطفال. والقضية فى العادة لاتشمل فقط المانحين للجائزة، فعلى الأرجح أنهم لو خرجوا على التقاليد المرعية، فإن أهل الفن أو الأدب أو الفكر حسب الحالة سوف ينتفضون غضبا لأن المانحين لم يراعوا السن والمقام. النتيجة فى النهاية هى فقدان الثقة فى الجوائز، وتظهر لنا نخبة يكرم بعضها البعض، ويجلس الشباب والموهوبون على ناصية الطريق يلعنون الزمن أو يدخلون الصف لعل وعسى يوما يكونون من طائفة المحظوظين.

الفائز بالأوسكار عن أفضل إخراج كان سام مينديس عن فيلم الجمال الأمريكى الذى حاز على جائزة أحسن فيلم. والسيد مينديس ليس أمريكيا وإنما بريطانى، كما أنه لم يكن قط مخرجا سينمائيا، وإنما كان مخرجا مسرحيا، وفوق ذلك فإن سنه ٣٤ عاما. ومع ذلك، فقد قفز كل الموانع وفاز ولم يقل أحد إنه ينتمى إلى جنسية أخرى، أو إلى نوعية أخرى من الفن، أو حتى احتج بصغر سنه وقلة حيلته، فقد قيم فيلمه وإخراجه حسب جدارتهما الفنية. وقد يقول قائل إن رجلنا قبل وبعد كل شيء ينتمى إلى الثقافة الأنجلوساكسونية، وإن المسرح ليس بعيدا جدا عن السينما، كما أن بريطانيا وأمريكا عضوان فى حلف الأطلنطى، ومن ثم فليس مستغربا كثيرا أن يفوز بالجائزتين معا.

ولكن الحقيقة تقول أكثر من ذلك، فالأوسكار لم تعط فقط لمخرجين بريطانيين، بل حصل عليها مخرجون من دول أخرى، كما أن دولا كثيرة تنتمى إلى ثقافات مشتركة لم يحدث أن استقدمت واحدة منها مخرجا ينتمى لدولة أخرى لا لكى يخرج فيلما لديها، بل ويفوز بالجائزة كذلك. أهل الفن فى الدول العربية مثلا من أكثر من يتحدثون عن العروبة كثيرا، ولهم كل الحق فى ذلك، فبدون السوق العربية الثقافية واللغوية لما حصلوا على أجورهم أبدا، ولكن هل من المتصور استقدام مخرج سورى أو جزائرى أو تونسى لإخراج فيلم مصرى، ثم بعد ذلك يحصل على الجائزة فى مهرجانات السينما المصرية، وهل العكس ممكن فى دول عربية أخرى، فالثقافة والحضارة واحدة والكل أعضاء فى جامعة الدول العربية واتفاقية الدفاع العربى المشترك!.

للأسف فإن ذلك لم يحدث، أو حدث فى القليل النادر، ولعل ذلك يشكل الفارق بين هوليوود أمريكا وهوليوود العرب، أو بين أمريكا فى العموم وبقية العالم، فأمريكا لاتذهب إلى العالم فقط ولكنها تجذبه إليها، وسبق على هذه الصفحة أن قرأنا كيف أن الهنود والصينيين يسيطرون على صناعة الإلكترونيات الأمريكية، وبقدر ما أرسلت من الهامبرجر استقبلت التاكو المكسيكى والكارى الهندى والسوشى اليابانى والشيش كباب الشرق أوسطى، ومخرجين وممثلين وفنانين فى مجالات شتى. أما فى بقية العالم فإن الأخذ والعطاء لايزال محدودا للغاية حتى عندما ينتمى الجميع لثقافة ولغة واحدة، وفيما عدا الفيلم الأمريكى فإن أفلام الدول الأخرى عادة ما

تعرض فى أسواق خاصة بالأفلام الأجنبية أو فى المهرجانات التى تخص النقاد والمتخصصين. جوائز الأوسكار إذن كان فيها ما هو أكثر من الأفلام التى فازت، والمظاهر التى قد تبهر ضعاف القلوب، وبالنسبة لنا فى العالم العربى تطرح دروسا بالغة الأهمية، فهل من مستفيد؟!.

٧- الجمال الأمريكى... والعربى أيضا... !!

كانت الطائرة المنطلقة من القاهرة إلى نيويورك قد استوت على عرشها فوق السحب بين الفضاء والفضاء حينما تقدمت إلىّ المضيفة الأمريكية الوقور حاملة قائمة طويلة من الأفلام لكى أختار منها ما أشاء للمشاهدة خلال الرحلة الطويلة. وفى لحظتها لم أكن قد تخلصت بعد من حالة الخوف والوجل التى تعترى من يركب هذه الآلة العجيبة مهما تعدد السفر والترحال، ولكن تقديم القائمة كان يعنى أن الأمور على مايرام، وأن المركبة تطير فى مسارها السليم، وعلى المرء أن يجد وسيلة لقضاء الساعات الطويلة حتى تأتى لحظة الهبوط إلى الأرض الصلبة. وهكذا وجدت بين يدى كل ما أنتجته السينما الأمريكية خلال الشهور الأخيرة ناطقة بالإنجليزية التى أعرفها، ولكنها أيضا مترجمة إلى اللغات الإيطالية والفرنسية والأسبانية التى لا أعرفها. وللحظات فكرت فى الاحتجاج على عدم وجود ترجمة عربية، فالطائرة انطلقت من القاهرة عاصمة العروبة وقلبها النابض، كما أن لغة الضاد هى واحدة من اللغات المعتمدة لدى الأمم المتحدة والتى لابد أن تترجم لها كل وثائق المنظمة الدولية، كما أننى راكب تتساوى حقوقه مع كل الركاب فى الحصول على الترجمة باللغة التى تروق لى. ورغم وجاهة وسلامة هذه الحجج، فقد قررت الاحتفاظ بها لنفسى، فلم يكن مستحبا إثارة أزمة دولية والطائرة معلقة فى الهواء، كما أن المضيفة وحتى قائد الطائرة ليس بيدهما فعل شىء على هذا الارتفاع الشاهق الذى يبلغ خمسة وثلاثين ألف قدم، ومن المستحب عدم عكننة أمزجتهم بإثارة قضية المعايير المزدوجة والحقوق المتساوية للشعوب، وعلى أية حال، ربما كان الدكتور عصمت

عبد المجيد الأمين العام لجامعة الدول العربية هو الأولى بإثارة الموضوع واستخلاص الحقوق العربية المشروعة.

ومن بين القائمة الطويلة وجدت فيلم الجمال الأمريكى الذى فاز بسلسلة من جوائز الأوسكار مؤخرا، وذاع صيته بعدها فقرأت عنه ما يشيد ويمدح، فأشرت إليه، وبعد لحظات عادت لى المضيفة الوقور بشريط صغير فى حجم أشرطة كاسيت الأغانى. وللوهلة الأولى شعرت بحيرة بالغة، فقد تصورت أن التأشير القائمة ممارسة أمريكية محمودة للديموقراطية بحيث يعرض الفيلم الذى يحوز على اكبر عدد من أصوات الركاب على الشاشة الكبيرة التى انتصبت فى مواجهة الركاب والتى كنت أظنها حتى وقت قريب معجزة تكنولوجية باهرة. ولكن الحيرة انتهت بعد أن شرحت لى المضيفة الوقور الموضوع مشفوعا بابتسامة ساحرة أثرت فى استيعابى للتفاصيل التكنولوجية الدقيقة التى بدت بسيطة للغاية ولكنها معقدة للغاية عند التنفيذ. وهكذا تعلمت أن الدنيا تغيرت كثيرا فى مجال عرض الأفلام على الطائرات، ولم تعد المسألة فرضا على الراكب، فهو يختار ما يروق له، وما يختاره بات صغيرا جدا يوضع فى جراب صغير، وبعدها تضغط على زر فتخرج شاشة مناسبة كما يفعل الحواة من مسند المقعد، وبضغطة أخرى على زر آخر تشاهد الفيلم.

وهكذا شاهدت فيلم (الجمال الأمريكى) الذى لم يكن جمالا على الإطلاق، وإنما تشريحا دقيقا وقاسيا للطبقة الوسطى الأمريكية فى أكثر حالاتها مثالية، وسط غابة من المفارقات الكوميدية الضاحكة، ولا يملك من يشاهد الأحداث إلا إدراك أنه أمام كوميديا سوداء لا تنتهى نهاية سعيدة، وإنما تنتهى بوفاة البطل الذى كانت عيناه عنوان الحقيقة فى مواجهة كمية هائلة من الزيف والنفاق الاجتماعى. والقصة باتت معروفة الآن من كثرة ما تعرض لها النقاد والمحللون، فنحن أمام الحلم الأمريكى مجسدا فى أسرة مكونة من أب وأم وابنة تعيش فى حى راق تسوده نفس العلاقات الاجتماعية التى يتصورها الأمريكيون عن أنفسهم. وتبدأ التطورات عندما يقرر الأب الخروج على النص القائم بكامله على الإدعاء بالنجاح والتوازن والاحترام، فيترك عمله عندما بدأ أن الإحكام الإدارى قد تجاوز الحد إلى السيطرة الكاملة على الفرد، وعندما ظهرت فتاة صغيرة منعشة وطازجة وباهرة الطلعة صديقة للابنة فيصبح ولهانا بها. ولكن نقطة البداية وانطلاقها فى سيناريو محبوك ليس هو الموضوع وإلا

لأصبح الفيلم فيلما عاديا، وإنما تنبع قيمتها من أنها تصير كاشفة عن حالة مجتمع بأسره، فالسعادة التى تظهر عليها الأسرة كاذبة فى جوهرها، فالكل يعيش محنته الذاتية، والحب الذى يغلف علاقاتها يخفى خيانات متعددة، وعلاقات الجوار الليبرالية عندما تتعرض للاختبار تكشف عن أفكار فاشية هى تعبيرات فى النهاية عن شذوذ وضعف كامنين، وإزاء هذا الازدواج بين الظاهر والباطن لا يجد البطل فى النهاية أمامه سوى الموت للخلاص من حالة تعيسة.

وإذا كان الفيلم من جانب كاشفا للعلاقات الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى، إلا أنه من جانب آخر يعكس درجة عالية من الصدق مع النفس، ومواجهة قاسية مع الواقع، وهى صفة ملازمة للمجتمعات المتقدمة عموما، فهى ليست معنية إطلاقا بالفكرة الشائعة فى بلادنا عن الآثار غير المحمودة لنشر الغسيل القذر، فالأفضل دائما إزالة القذارة بدلا من تغطيتها وإخفائها. وعلى الأرجح أن فيلما من هذا النوع عادة ما يطلق العقال لعلماء النفس والاجتماع للبحث عن علاج للحالة المرضية. وربما لا يملك المشاهد إلا أن يتساءل لماذا لم نشاهد فيلما عربيا عن الجمال العربى يقول لنا حالة النفاق الاجتماعى فى الأسرة فى بلدان عربية عدة؟ فالتصور الشائع أن كل الأحوال على مايرام، وأن الوئام والصدق والتناغم نتيجة أصول ثقافية يبدو مفارقا للحال الذى نعرفه جميعا، ولكن تواطأ الجميع على النظر فى الاتجاه الآخر، ومع التواطؤ أزمنت المشكلات وتقيحت وكانت لها آثارها الاجتماعية والسياسية الفادحة.

ومن الغريب أن الفن والأدب العربى كان يعرف ذلك من قبل، ولعلنا نتذكر جميعا ثلاثية نجيب محفوظ التى أظهرت حالة نقية من النفاق الاجتماعى ممثلة فى شخصية سى السيد عبدالجواد الذى كان يعيش حالة ازدواج أخلاقى بين داخل وخارج بيته، فهو صارم قاس لا يتحمل خروج زوجته مرة واحدة دون إذنه حتى ولو لزيارة الأولياء، بينما يمضى مساءه بين الغوانى والراقصات. وعندما خرجت الثلاثية على الشاشة، صارت الشخصية وسلوكياتها مدعاة لرفض هذه الازدواجية بل وإعطاء عملية تحرير المرأة دفعة إضافية. الآن لم يعد لدى مجتمعاتنا كثير من الشجاعة للتعامل مع مثل هذه النوعية من الموضوعات مرة أخرى، وربما كان ذلك جزءا من أزمتنا، ومن أزمة السينما العربية بوجه عام، فالطبقة الوسطى، التى هى عادة عماد المجتمعات وتطورها بحكم تعليمها وقدراتها، باتت غائبة عن الساحة،

وبشكل ما ابتعد عنها المؤلفون والمخرجون، وكانت النتيجة انصراف الجمهور الأساسى للسينما عنها، ومعهم انتهت السينما العربية. كيف حدث هذا، هذه قصة أخرى تستحق التفكير؟!.

٨. الناصر صلاح الدين... !!

فى أوج الأزمة الأخيرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين والتى بدأت إثر اقتحام إرييل شارون للأماكن المقدسة الإسلامية فى القدس والتى تبعتها الانتفاضة الفلسطينية ثم العربية والعمليات الوحشية الإسرائيلية فى مواجهة المدنيين والأطفال، قام التليفزيون المصرى بعرض فيلم الناصر صلاح الدين الذى أخرجه يوسف شاهين فى الستينيات، ربما بسبب الأحداث الدامية فى الأراضى المحتلة، وربما بسبب ذكرى حرب أكتوبر المجيدة، وربما بسبب أن القدس أو أورشاليم صارت على رأس قائمة الأعمال العربية منذ أخفقت قمة كامب دافيد فى شهر يوليو الماضى بسبب رفض الرئيس عرفات القبول بالسيادة الإسرائيلية على زهرة المدائن، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة. الأمر الهام أنها ربما كانت المرة العاشرة التى يشاهد فيها المتفرجون هذا الفيلم، وعلى الأرجح أنها لن تكون الأخيرة، فالأعمال الفنية العظيمة لا يملك الإنسان تجاهها إلا المشاهدة تلو المشاهدة، وفى كل مرة يكتشف فيها أبعادا وقيما جديدة.

وبالنسبة لى، فإننى لم أكن قط متيقنا من مطابقة وقائع الرواية السينمائية للحقائق التاريخية، وعلى الأرجح أن بعضنا منها من وحى الخيال، على الأقل بالنسبة لقصة الحب التى نشبت بين عيسى العوام (صلاح ذو الفقار)، أحد قادة صلاح الدين (أحمد مظهر)، ولويز (نادية لطفى)، وهى واحدة من الفرسان الصليبيين المقربين من ريتشارد قلب الأسد (حمدى غيث). ولكن القصة رغم عدم رجحانها تاريخيا عرضت خلال الستينيات حينما كان المد العربى الثورى هو المسيطر على الساحة

السياسية العربية، ومع ذلك لم يستنكرها أحد آنذاك، أو الآن، باعتبارها تمثل حالة حارة للتطبيع مع الأعداء فى زمن الحرب، ويبقى من القصة أنها كانت من جانب تشير إلى دور المسيحيين العرب فى مقاومة العدوان الخارجى، وإلى نوع من السماحة العربية والإسلامية التى ظهرت من مباركة الناصر صلاح الدين لهذا الحب.

ولكن بعيدا عن الأحداث اللاتاريخية فى الفيلم، فإنه من المرجح أن مخرجا بوزن يوسف شاهين لابد أنه راجع الأحداث التاريخية مع المؤرخين خاصة بالنسبة للوقائع الأساسية، والتى بدأت بمشهد فاجع ودموى عندما اعتدى الصليبيون على قافلة للحجاج المسلمين فى مذبحة كانت تكفى بلغة أيامنا لتحقيق المظاهرات الكبرى فى الأراضى العربية من المحيط إلى الخليج، ولربما شغلت المحطات الفضائية العربية أسابيع عدة تلعن فيها الحكام العرب والمعايير المزدوجة الغربية. ولكن الناصر صلاح الدين كانت له طريقة أخرى غير التى نعرفها فى أيامنا فى التعامل مع الحدث الجلل، فقد بدأ بتوحيد الملوك والأمراء وإعداد عناصر القوة والتسلح بالعلم العسكرى الذى منحه معركة مظفرة فى حطين استعاد بعدها القدس مرة أخرى إلى حوزة المسلمين. وعندما كان عليه أن يواجه بعد ذلك الجحافل الصليبية بقيادة ريتشارد قلب الأسد، كان عليه أن يواجه أثقال ودروع الفروسية الأوروبية بخفة الفرسان العرب بعد تحررهم من الدروع فانتصر عليهم مرة أخرى، وباختصار كان الناصر يعرف كيف يدير توازن القوى العسكرى بحصافة وحكمة.

فى تلك الأيام كانت الفجوة التكنولوجية بين الغرب والعرب ليست بحجمها هذه الأيام، بل إن العرب كانوا هم الأكثر تحضرا وتقدما فى مجالات كثيرة. ولكن الجيوش الصليبية جاءت ومعها اختراع جديد لم يعرفه العرب آنذاك، ممثلا فى الأبراج المغلفة باللباد الذى يستعصى على الأسهم النارية، ويتيح القدرة على اقتحام القلاع والحصون وسقطت عسقلان بسببه فى يد الأعداء. هنا نجد صلاح الدين يرجع إلى العلماء ووجد فى الدمشقى ضالته لكى يخترع سائلا تغمس فيه السهام قبل إشعالها فتحرق اللباد والأبراج، وتنجح فى صد العدوان على القدس وتجعله ينتصر فى المعركة الأخيرة فى الفيلم وفى حياته. لم يقابل الناصر التفوق التكنولوجى الصليبى بالفهلوة أو بالهتاف أو بالحماس والعاطفة، وإنما بالعلم والاختراع والتفوق.

ولكن قدرات صلاح الدين لم تتوقف على القدرة على إدارة توازن القوى، واستنفار ما استطاع من قوة، والاعتماد على العلم والعلماء مع الفرسان والمحاربين، وإنما كانت فى قدرته على إدارة الحوار والتواصل مع العدو حتى فى أبشع لحظات العدوان. فهو لم يتحرج فى الذهاب إلى ملوك وأمراء الصليبيين للعمل من أجل تجنب الحرب، ولم يمانع فى استمرار الهدنة رغم قيام الصليبيين بقتل سبعين من الأسرى المسلمين، لأنه رأى أن ذلك تم من قبل القوى المتعصبة والمتشددة من الأعداء، فقد كان لديه من البصيرة التى ترى أنه حتى لو ارتدى الجميع رداء الصليب، فإنه تحت الأردية توجد درجات مختلفة، وألوان متعددة، من التشدد والتعصب، ولذلك لم يجد غضاضة فى أن يرسل أخاه الملك العادل لكى يدعو ريتشارد قلب الأسد للحج فى بيت المقدس، بل إنه لم يتردد فى أن يذهب بنفسه لعلاجه بعد أن رماه واحد من فرسان المعبد بسهم مسموم، وهو حادث تاريخى ظل مضربا للأمثال للشهامة والفروسية فى التاريخ العربى والأوروبى على وجه سواء. وكان صلاح الدين فى كل الأحوال حريصا على أن يبنى الجسور مع من جاءه من الرسل، ومن وقع فى أسره من الجنود الصليبيين، فقد كان يدرك أن المعركة لا تجرى فقط بين السيوف والنصال ولكنها تجرى أيضا بين العقول والقلوب.

كان الناصر صلاح الدين يقدم باختصار مشروعا لرد العدوان وتحرير الأرض، له جناحان: جناح للمقاومة لا يلين فى الحقوق الأساسية، ويعد العدة ويحسب الحسابات الدقيقة، وكان لديه ما يكفى من الحزم والعزم لفعل ذلك بشجاعة وجسارة. وكان لديه جناح آخر للحوار ومشروع للسلام يعرضه بإلحاح وإصرار، وفى سبيله كان على استعداد لكظم غيظه، وابتلاع آلامه. وربما كان الأهم أن ملك المسلمين كان لديه مشروع حضارى وأخلاقى أكثر من ذلك كله، فقد كان يقينه أن المنتصر حقا هو الذى ينتصر على شهوات الذات ونزعاتها الأنانية، وبقدر ما يتفوق على الخصم بالنبل والإنسانية، كتب له النصر المبين، وكان ذلك واضحا للغاية فى ذلك الحوار الأخاذ بين صلاح الدين وأخيه الملك العادل، عندما جاءه الأخير بعرض ملوك صليبيين كانوا على استعداد لخيانة قلب الأسد وترك القدس مقابل أن يترك لهم الكرك وعسقلان وعكا وإمارات أخرى، وكان العرض مغريا، ويشير إلى تفكك الجبهة الصليبية، كما أن الحرب خدعة، كما قال الملك العادل، ولكن صلاح الدين رفض لأنه لا يقبل نصرا يقوم على الخيانة.

هذه الأحداث ربما ليست مطابقة تماما للوقائع التاريخية بل لبعض منها، ومن المؤكد أن المشابهة بعيدة فى أجزاء كثيرة عما يجرى فى هذه الأيام، ولكنها على أى الأحوال جديرة بالتأمل!!.

٩ـ الفنانة والشعب... !!

الكتاب يشعرون أحيانا بالحسد إزاء الآخرين من زملاء المهنة حينما يقرأون لهم مقالا جيدا فيقع فى نفوسهم، لماذا لم أتوصل لهذه الفكرة؟ وإذا كنت قد توصلت لها لماذا لم أعبر عنها بهذه الطريقة التى تبدو أكثر جمالا وتكاملا وأشد وقعا وتأثيرا على النفوس؟ولعلنى عبرت عن ذلك أكثر من مرة للزميل الأستاذ صلاح عيسى إعجابا بمقالاته التى مهما كان الخلاف معها ـ وهو شديد دوما ـ لأنها محكمة إحكاما تاما فى بنائها المعمارى، حتى يصعب نزع كلمة أو سطر منها دون إخلال بمنطقها، ولأنها فوق ذلك خفيفة الدم ساخرة وممتعة فى جدية تامة!. ومن تلك المرات التى شعرت فيها بحسد بالغ كانت عندما قرأت مقالا للدكتور إدوارد سعيد عن تحية كاريوكا، والكاتب كما نعرفه جاد كل الجدة فى كتاباته فى التحليل الأدبى والسياسى، وفى كليهما حجة فى العلم والفقه والمنطق، ولكنه عندما كتب عن الراقصة الشهيرة فإنه لم يكن أقل جدية أو إمتاعا، فلم تكن القضية الرقص الشرقى ذاته، وإنما التعبير عن عصر الأربعينيات بأكمله، وعلاقة الطالب ذى الأصول الفلسطينية فى كلية فيكتوريا بالقاهرة وفنونها، وباختصار كان المقال تحليلا اجتماعيا وأدبيا وفنيا من الطراز الأول، وحدث أن كان مدخلها ظاهرة كاسحة ارتجت لها أكف كثيرة بالتصفيق احتفالا بالنشوة والمتعة.

وعندما فعل إدوارد سعيد ذلك، فإنه كان يدخل لأدبنا السياسى والاجتماعى منهجا غير مألوف أو شائع لتحليل تطورات تاريخية واجتماعية، فقد درج العرف على فصل الفنون عن التحليل الاجتماعى، حيث كان ذلك واقعا فى باب منفصل للنقد الفنى جدير بالمجلات والأبواب الفنية، وكان ذلك حتى سائدا فيما يتعلق بالأدب

الذى تعودنا فصله أيضا فى أبواب وكتب الأدب حتى - فيما أعلم - ألف أستاذنا الكبير السيد يسين كتابه عن التحليل الاجتماعى للأدب فى الستينيات. أما أن يكون مدخلنا للتحليل الاجتماعى ليس فن المسرح أو السينما وإنما فنانة شهيرة برعت فى كليهما فقد كان - فيما أعلم أيضاً - جديدا كل الجدة، وممتعا كل المتعة، وكاشفا تماما لظواهر اجتماعية تعجز كثير من أدوات ومناهج التحليل الاجتماعية المألوفة عن الولوج إليها.

ولكن إذا كان ذلك جديدا علينا، فهو ليس كذلك فى التقاليد العالمية الغربية خاصة، فتحليل الظواهر الاجتماعية يقودنا فى أحوال كثيرة إلى المرأة وموقعها وعلاقاتها بالرجل والمجتمع، وفى كثير من الأحيان كانت امرأة بعينها، وعلى الأغلب فنانة شهيرة ملكت قلوبا وعقولا كثيرة فى مجتمعها هى المدخل لفهم قواسم مشتركة فى مجتمع ما فى لحظات تاريخية بعينها، فعلى كثرة الفنانين والفنانات فإن واحدا منهم فقط كان يجسد العصر كله بطموحاته وأحلامه وذنوبه وخطاياه. وأذكر أن عشرات الكتب ألفت حول مارلين مونرو فى أمريكا، تحاول تفسير ليس تاريخها الشخصى وإنما تاريخ الولايات المتحدة من خلالها فى فترة تلت الحرب العالمية الثانية التى لم تنتصر فيها على الألمان واليابانيين فقط، وإنما انتصرت على ذاتها البيوريتانية المحافظة لكى تواكب انفجارا ضخما فى آلتها الإنتاجية تطلبت رموزا متفجرة بالحياة والرغبة، ومتمردة وثائرة على تقاليد كثيرة كان لها رموزها وأدواتها فى التعبير. وبالمثل جرت الكتابة والتأليف حول جين فوندا التى جاءت إلى عالم الفن فى فترات الشك وانعدام اليقين الكبرى فى التاريخ الأمريكى بعد مقتل كيندى وخلال حرب فيتنام وحركة الحقوق المدنية وتمرد الشباب والوصول إلى القمر، لكى تعبر بطريقتها عن عالم آخر من العلاقات فيها الكثير من كثافة الأحاسيس وتمردها وخروجها عن المألوف بحثا عن عوالم جديدة مجهولة وغير مطروقة ولا يعرف أحد لها آفاقا أو حدودا. واستمر الحال كذلك فى عقود تالية، فكانت أمريكا أحيانا هى ميريل استريب فى عصر ريجان المحافظ جدا مرة أخرى بعد ثلاثة عقود من التمرد والشهوة الجامحة، ومن بعدها جاءت جوليا روبرتس وشارون ستون فى التسعينيات لكى تشيرا، كل على طريقتها، إلى ماذا تفعل أمريكا بنفسها فى عصر صارت فيه مالكة العالم. وعلى ذات الطريق جرى التأليف فى فرنسا، فلم تكن بريجيت باردو أو

كاترين دينيف مجرد ممثلتين شاهقتى الجمال، وإنما تعبيرا مختلفا عن عصور لها حالاتها النفسية وطموحاتها وجموحاتها وأحلامها السرية، وموقع ونموذج المرأة فيها.

وعندما لقيت تحية كاريوكا وجه ربها كتب عنها كثيرون، ولحسن حظها، وربما حظنا أيضًا، أنها كانت قد جاءت إلى العالم بعد ظهور عالم الأخيلة السينمائية والتسجيلات التليفزيونية، والتى أعادت خلق تاريخها كله، فلو أنها جاءت فى العصر العباسى مثلا لكانت المعرفة بها قد اقتصرت على قصيدة شعر، أو تمثلتها واحدة من حكايات ألف ليلة وليلة فى شكل جنية عجيبة ألهت بها شهرزاد نصال القسوة فى شهريار، ولكن حضورها كان مع الأربعينيات ومعه عبرت إلى النصف الثانى من القرن العشرين عبر شاشة فضية صارت ملونة بعد ذلك، ومسرح كان جماهيريا يبحث فيهما الجمهور عن نموذج للمرأة.

وبشكل ما، فإن من كتبوا عن تحية كاريوكا ركزوا على الجانب السياسى من حياتها ودورها فى العمل العام قبل الثورة وبعدها، والبعض الآخر أعطوا اهتماما لما كانت تقوم به من فعل الخير، ولكنهم لم يعطوا اهتماما يذكر لحالة الإعجاب والانبهار التى أحاطها به الشعب المصرى، وكانوا فى ذلك أشبه بمن يكتب عن أم كلثوم وأغانيها الوطنية ودورها فى عودة الحماس والهمة بعد النكسة والهزيمة، وما قامت به من أعمال خيرية دون أن يتطرق من قريب أو بعيد لصوتها وفنها، وما كانت تبثه فى الوجدان والأحاسيس المصرية حول لواعج النفس الإنسانية من حب وعواطف وشوق وعشق.

وبشكل ما، فإن تحية كاريوكا بالنسبة لجيلها كانت أكثر من راقصة وممثلة وسياسية وفاعلة خير، ففى زمن كان مثيلاتها فى المهنة كثيرات، فإن ملامحها كانت مصرية أصيلة، فلم يكن فيها دماء شامية، أو مسحات غربية أو شرقية أخرى، وإنما كان فيها كل ما يتصوره ويحلم به المصرى ويتمناه حول جمال المصرية من تقاطيع وملامح بما فيها من سخونة وغموض، وعيون غائرة المعانى تقول الكثير دون كلمة أو حرف أو صوت، قد تكون قطع منها مبعثرة فى الحارة والشارع

والمدينة والقرية، ولكنها عندما تجتمع فى شخصية واحدة واقعة بين الخيال والواقع فى عالم السينما فإنها تحفر لنفسها مكانا بالتمنى فى أحلام اليقظة والمنام. ولكن الشكل وحده لا يحل مشكلة المصرى مع نموذجه الأنثوى، فالمضمون المدجج بالشخصية القوية، المسيطرة أحيانا فى قسوة، ولكنها القادرة على الوقوف وقفة «الرجل» ساعة الملمات والمصائب - وهى كثيرة - هى ما يريده فى الخيال حتى ولو كان لا يتزوجه كثيرا فى الواقع. ولذلك كان الإعجاب كثيرا بتحية كاريوكا فى أدوارها الكثيرة، اللعوب منها والجاد، اللهم إلا عندما قامت بدور الملكة شجرة الدر فى فيلم «وا إسلاماه»، فلم يكن الخلط لائقا بين «المعلمة» والملكات، وعندما سلمت راياتها لمصرية أخرى هى سعاد حسنى فى فيلم «خللى بالك من زوزو» كان النموذج ينتقل من عصر لعصر، رحم الله تحية كاريوكا، وغفر لها، ولنا!!

١٠. رسالة إلى الوالى... !!

الحكم على فيلم الفنان عادل إمام الأخير رسالة إلى الوالى متروك للنقاد المتخصصين الذين لست واحدا منهم، ولكن الفكرة أو الأفكار التى قام عليها العمل الفنى تظل ملكا للجميع سواء كانوا عالمين بالفن أو بأسرار الصنعة أو المنشغلين بالهم العام أو حتى الكثرة التى تريد لحظات من المتعه. وظنى أن فكرة العمل الأساسية هى فكرة العودة إلى المستقبل، حينما أتى الفارس حرفوش بن برقوق الراكبدار يحمل رسالة طلب النجدة من أهل رشيد المحاصرة بالإنجليز فى حملة فريزر عام ١٨٠٧ إلى الوالى محمد على لكن يجد نفسه فى القاهرة عام ١٩٩٨، وهى نفس الفكرة التى قدمتها السينما الأمريكية وغيرها فى أكثر من عمل كان فى كثير من الأحيان مضمون النجاح نظرا للمفارقات المضحكة ما بين عصر وعصر وزمن وزمن. وفى حالتنا كان على الفارس التعامل مع مفارقة التكنولوجيا التى جعلت السيارة عفريتا

والكهرباء أداة طيعة فى يد الإنسان تبدل الليل والنهار، ووسيلة للتعذيب والقهر فى آن واحد، ولكن الأهم كانت المفارقة السياسية التى بدلت الوالى الذى يوجد تمثال فى القلعة بـ «الريس» الذى يعيش فى كوبرى القبة، والمفارقة الاجتماعية ما بين حياة أهل رشيد فى مطلع القرن التاسع عشر، وحياة أهل القاهرة فى نهاية القرن العشرين. وأمام المفارقات يقف الفارس مندهشا بالمساحة الهائلة للتغيير، وحزينا بما وقع له على يد الحكومة ورجال العصابة، ولكنه فى كل الأحوال لم ينس التهديد الذى تتعرض له مصر، والذى قد يكون الغزاة الذين لايزالون على الأبواب، وقد يكون ما رآه من التناقضات الثقافية الهائلة، أو غياب العدل فى الحكم أو فى توزيع الثروة، أو كل هذه التهديدات مجتمعة.

ولكن حرفوش لا يستطيع البقاء فى عصرنا ليس فقط لأنه ينبغى له العودة إلى رشيد للدفاع عنها حتى ولو لم تصل رسالته إلى أحد ولم يحمل معه عددا أو عتادا إليها كما كانت مهمته المكلف بها، وإنما أيضا لأنه عجز تماما عن فهم ما يجرى من حوله، ومن ثم التكيف معه، مهما حاولت وسيطته إلى الزمن الإخصائية الاجتماعية (الفنانة يسرا) أن تفعل من خلال لغة الحب التى تعرفها كل الأزمنة. لقد كانت المسافة الزمنية أقوى من كل شىء، ومن ثم لم يكن هناك بد من عودة نبيلة للفارس إلى دنياه الأولى مرة أخرى، حتى لو ثبت بعد ذلك أن أحفاده يعيشون بيننا ويلبسون لباسنا ويتكلمون مثلنا، ولكنهم فى كل الأحوال احتفظوا بعادة الجد الأكبر السيئة بضرب النساء على مؤخراتهن!. هذه العودة النبيلة إلى الماضى لم تمنع قط أن يبقى بيت حرفوش بيننا يؤمه السائحون وطلاب المعرفة، وحتى هؤلاء الذين لديهم بعض من حنين وحب، ولكن لم يكن ممكنا قط أن يعيد الفارس زماننا كله إلى زمنه فيختفى البرج ومبنى وزارة الخارجية وباختصار مصر الحديثة كلها.

هنا تظهر عقدة الفكرة كلها، وربما معها عقدة الكثير من الأفكار التى تعيش بيننا هذه الأيام، والتى تريد فى غمضة عين تلاشى حياتنا بأسرها لكى تعود أربعة عشر قرنا إلى القرن الأول الهجرى لدى البعض، حينما كانت الحياة الرشيدة فى أنقى صورها، أو ثلاثة أو أربعة عقود إلى الخمسينيات والستينيات حينما كان الشعب

الفرحان يعيش تحت الراية المنصورة دائما بفضل الزعيم الملهم وصحبه الأحرار. المشكلة هنا أن أمثال حرفوش فى أيامنا لا يريدون العودة النبيلة إلى الماضى، بل هم مصممون، وقد جاءوا إلى المستقبل، أن يعيدوا تشكيله على نسق ماضيهم بالإرهاب المادى أو المعنوى، وإذا سمع أحد منهم تعبير متغيرات العصر فإنه يسحب مسدسه على الفور دفاعا عن الثوابت التى لا تزيد فى معظم الأحيان على ما نعاه الشاعر نزار قبانى لأصدقائه اللغة القديمة، والكتب القديمة، وكلامنا المثقوب كالأحذية القديمة!. فالثورة التكنولوجية الحالية ما هى إلا عفاريت يمكن صرفها بتعاويذ الخصوصية، والنظام الاقتصادى العالمى أشباح تختفى بالقوة الساحرة للقطاع العام، والتأكيد على القدرات التنافسية فيه من الشيطان مس لا ينهيه إلا إقامة التحالف مع العراق وإيران حيث يأتى ساعتها عصر التمكين لنا فى الأرض وما وراءها.

لقد عاد حرفوش بن برقوق الراكبدار إلى أيامه الطيبة الأولى وترك لنا منزله لنضعه فى قائمة المتاحف وفى كتب التاريخ، ولكن أمثال حرفوش هذه الأيام يرفضون المغادرة ويبقون لكى يضربوا بسيوفهم رقاب المستقبل فى بر مصر!!.

١١. العودة من الموت... !!

لم يحدث قط أن ذهب أحد إلى الموت وعاد إلينا ليقول ماذا وجد أو ما الذى حدث على وجه التحديد عند عملية الانتقال التاريخية بين الحياة والدار الآخرة، صحيح أن العديد من الكتب حاولت أن تنقل لنا الصورة من خلال تفسير الكتب السماوية، إلا أن الخبرة الإنسانية ظلت بعيدة عن المجال فأبقته لغزا محيرا ممتلئا بالغموض والرهبة والخوف العميق، ولكن بعضا من الكتاب نقلوا لنا تجارب جزئية فى الموضوع عندما مروا بتجربة حملتهم إلى حافة الفناء نتيجة المرض، ثم عادوا مرة أخرى لكى يحكوا مغازلتهم للظاهرة والمراحل التى مروا بها، وكان لواحدة من الكاتبات الأمريكيات فى نهاية السبعينيات الفضل فى جميع هذه التجارب ،

واستخلصت أن الإنسان يمر بأربع مراحل عندما يبدو له أن حياته قاربت على النهاية، الأولى: هى الغضب والثورة على اختياره هو دون سائر البشر فى هذه اللحظة للتعرض لهذا المصير، والثانية: الرفض والمقاومة، فلابد أن هناك حلا لهذه المعضلة يوجد فى مكان ما، والثالثة: المساومة، فمادامت أن النهاية قادمة لاريب فيها، فلماذا لا تحدث بعد فترة طويلة أو قصيرة يحقق فيها هدفا أو هدفين من الأهداف التى يراها حيوية لمهمته فى الدنيا، والرابعة: هى القبول والتسليم والتى عندها يصل الإنسان إلى مصيره المحتوم.

وفى واحدة من روائع السينما العالمية، انعكست هذه النظرية فى فيلم «كل هذا الجاز» الذى تعرض لقصة واحد من أشهر مصممى الرقصات الأمريكيين، والذين مروا خلال قمة مجدهم بجراحات فى القلب المجهد، حيث تعرض لأزمات متتابعة راقصه فيها الموت الذى ظهر ليس فى صورة عزرائيل المرعبة والمخيفة، لكن فى صورة فتاة بالغة الجمال والرقة والعذوبة، دخلت معه فى حوارات صادقة طوال مراحل الغضب والرفض والمساومة والقبول حتى استقر به الحال بين يديها سعيدا راضيا مرضيا، وربما كانت هذه هى الحالة الوحيدة التى عرفت فيها الموت على عكس الصورة الذائعة عنه من وحشة وظلام، حتى قرأت كتاب الأديبة اللبنانية ليلى عسيران الأخير، والذى أصدره مركز الأهرام للترجمة العلمية والنشر أخيرا تحت عنوان (حوار بلا كلمات فى الغيبوبة).

هنا تجد إجابة مختلفة تماما للتساؤل حول لحظة الاقتراب من النهاية التى عايشتها المؤلفة فى تجربتها الشخصية على مدى شهرين ونصف الشهر من «الكوما» أو الغيبوبة بعد إجرائها عملية جراحية فى القلب، والتى انتقلت فيها إلى داخل ذلك البرزخ مابين الحياة والموت، فتكون الإجابة هى التجدد وليس الميلاد من جديد، وإن جمعتهما معا حقيقة الألم، ففى نهاية الكتاب الذى يقع فى موضع مابين الرواية والسيرة الشخصية والتأملات النفسية والعامة، كان السؤال الذى بحثت عنه المؤلفة هو عما إذا كانت تغيرت بعد التجربة، ولذا كانت متحفظة مع هؤلاء الذين ادعوا أن الأمر لم يغير منهم شيئا، ومقبلة على هؤلاء الذين كانوا على استعداد للاعتراف بالتغيير والتجدد ولكن التغيير أو التجدد عملية بالغة الصعوبة. وإذا كان الخيال يمكنه

تصوير ما الذى يتعرض له طائر العنقاء عند الخروج مرة أخرى من الرماد، فإننا نحتاج إلى أضعافه لكى نتابع عملية الفرز الصعبة لشخصيات الإنسان الواحد المتعددة. فليلى عسيران منذ البداية لا تحدثنا عن نفس واحدة كامنة تحت جلدها، وإنما عن نفوس متعددة لها صراعاتها الخاصة مع الزمان والمكان، فهناك ماريا التى تتعامل مع العالم الخارجى بكل ما فيه من لوعة على المأساة اللبنانية إبان الحرب الأهلية، وهنا غادة التى تمثل الدائرة الداخلية للنفس البشرية، حيث الخوف الدائم من الاغتصاب البدنى والحسى المباشر، وهناك جميع الشخوص الأخرى داخل الرواية أو داخل المحتوى المادى للإنسان، وكلها مستمدة من حجرة العناية المركزة التى عاشت فيها المؤلفة شهرين ونصف الشهر، حيث الممرضات والأطباء، وفى كل منهم من كان جزءا منها، ورد فى التاريخ الزمنى، أو ربما أحيانا ما كانت تتمنى أن تكون عليه، وتريد استدعاءه أمام ثوابت ربما ازدادت غنى وعنفوانا وروعة، لكن أصولها واضحة، فرمزى الابن الذى يأتى اسمه صريحا فى الكتاب ودون رموز أو حواش تعبر العلاقة ما بين السيرة الذاتية والرواية، وهو أعمق العلاقات أثرا وأكثرها ديمومة وأصالة. هنا فإن علاقة الأم والابن لاتأتى كما فى كثير من الأدب العالمى من خلال تضحيات الأم، وإنما من خلال «الحبل السرى» الذى يربط الاثنين ليس بالمعنى المادى، وإنما بالمعنى الروحى الذى يفعل كل عمليات التجدد المضنية. وبعد الابن وبمسافات واسعة تأتى الأمكنة خاصة بيروت والقاهرة، أو البحر والنيل، وكلاهما له حميمية تعبيرية فى كلمات الغارقة فى الغيبوبة، بل إنه فى لحظات بالغة الشفافية واللغة الراقية المرهفة، لن يتمكن القارئ من استبعاد الدموع، ولكن الكاتبة تبقى على مسافتها فى علاقاتها مع صفية حتى إنها ترفض مجيئها لكى تكون إلى جانبها فى لحظة المحنة، وكأنها تريد شجاعتها نقية فى التعامل مع المحنة دون عون أو مدد روحى، وبقدرما بدا ذلك مفهوما، فإنه كان يخصم من أصالة العلاقات، بل يجعلها مقحمة على التجربة الدرامية كلها.

وإذا كنت لست متخصصا فى الأدب، فإننى على ثقة بأن النقاد سوف يجدون الرواية مجالا جديدا فى الأدب العربى، أما القراء، فإننى أعدهم بمتعة عقلية ونفسية غامرة.

١٢. ملك العالم... !!

فى مشهد أخاذ ومبهر للغاية، وقف ليوناردو دى كابريو بطل فيلم تيتانيك فى أعلى نقطة فى مقدمة السفينة التى حمل العمل الفنى اسمها لكى يفرد ذراعيه كجناحى الطير محتضنا الهواء والسماء والبحر وهاتفا من أعماق قلبه: أنا ملك العالم. ومن يشاهد الفيلم الحائز على إحدى عشرة جائزة من جوائز الأوسكار، ومعهم ما يقرب من مليار دولار من الإيرادات على مستوى الدنيا كلها، ربما يظن أن الهتاف جاء من شاب وفنان فى مقتبل العمر ومقبل على الحياة التى تنتظره فى العالم الجديد حيث توجد أمريكا بكل ما تثيره من أحلام، وربما كان الظن أكثر أن ما جاء فى المشهد من إقبال على الحياة يمثل المقابل الدرامى لما سوف يتبع بعد ذلك من أحداث مأساوية وحزينة لغرق السفينة وموت البطل نفسه ومعه طموحاته وروحه المنطلقة الوثابة التى كادت فى لحظة تمسك بكل الوجود وما فيه من جمال وروعة.

ولكن مشاهدة الفيلم ربما تقودنا إلى ما هو أعمق من كل ذلك، فبعيدا عن القصة الرومانسية والتراجيدية معا، وما فيها من مقابلات ومتناقضات بين الغنى والفقر، والكرم والجشع، والخسة والنبل، والحياة والموت، فإن السفينة تيتانيك كانت تعبيرا عن عصر بأكمله، وصل إلى درجة هائلة من الثقة بالنفس، حتى تصور البشر فيه أنهم أمسكوا بزمام الزمن وباتوا بالفعل يملكون العالم. فالسفينة كانت التعبير الأمثل والأكمل لعصر البخار والثورة الصناعية الأولى التى أخذت تتابع منجزاتها طوال القرن التاسع عشر، وتجمعت كلها فى تصميم تلك الناقلة البحرية التى راحت تحطم كل الأرقام القياسية وقتها فى الحمولة والسرعة، والكفاءة فى الحركة بسبب التطور الذى حدث فى مجال الاتصالات اللاسلكية والبرق، بل وحتى فى مجال الجماليات والفنون الجديدة، حتى إن فنانا مغمورا وقتها مثل بيكاسو وجد مكانا على حوائطها معبرا عن ثورة جديدة فى الفن والتصوير. ومع ذلك غرقت السفينة، وكان العام هو ١٩١٢، ربما لأنها كانت أسرع بكثير من قدرتها على التوجيه بعيدا عن جبل الثلج

الذى اصطدمت به، أو لأن قدراتها على الرؤية وسط الضباب كانت جد محدودة على مواجهة الخطر العظيم القادم. ولذا ربما لم تكن هناك صدفة كبيرة فى أنه بعد عامين تحديدا فى عام ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية الأولى، ومعها احترقت فى النار أحلام عصر بأكمله كان غرق «تيتانيك» فيه هو النبوءة التى تحذر من الكارثة التى تنجم عن عدم التوازن بين قدرة البشر على التقدم التكنولوجى من جانب وانعدام القدرة على الرؤية والتوجيه من جانب آخر.

اللحظة التى عاشت وعبرت عنها «تيتانيك» لحقتها لحظات أخرى فى العشرينيات من هذا القرن، حينما بدأت بوادر الثورة الصناعية الثانية فى الظهور، فباتت الكهرباء صناعة مقتدرة، وسارت السيارات فى الشوارع، وحتى عرفت الإنسانية كيفية التغلب على الجاذبية الأرضية والطيران فى الهواء، ومع ذلك انفجر التقدم فى مجالات الانتقال والاتصال، وعلى طريقها سارت التجارة الدولية والتنظيم الدولى ممثلا فى عصبة الأمم لعلها تفلح فى توجيه العالم برؤية تبعده عن الصدام مع جبال الثلج والغرق فى أتون نيران الحروب. أيامها أيضا تصور الكثيرون أنهم ملوك العالم بفعل التقدم التكنولوجى والفكرى، ولكن، ومرة أخرى ورغم عدم توافر النبوءة التى وفرتها «تيتانيك» من قبل مالبثت البشرية أن وقعت فى أسر الركود الاقتصادى فى الثلاثينيات، ومن بعده نشبت الحرب العالمية الثانية لكى تشهد مرة أخرى على التوازن المفقود والذى يؤدى اختلاله إلى كوارث فادحة.

فهل نشهد الآن لحظة مماثلة لتلك اللحظات الخاطفة التى تلخص عصرا بأكمله وتجعل الإنسان يشعر بأنه، فى ذات الوقت الذى يشعر فيه بامتلاك العالم، فإنه فى الحقيقة يكون قد اقترب كثيرا من نقطة الانفجار والكارثة؟. هذه المرة فإن البشرية بسبيلها إلى الانتقال من الثورة الصناعية الثانية إلى الثورة الصناعية الثالثة، وفيها كل ما هو وهاج من ثورة المعلومات، والقدرة على بناء محطات مستديمة ومسكونة فى الفضاء الخارجى سوف تكون فى زمان ليس ببعيد محطات انطلاق إلى كواكب وأكوان أخرى، والمقدرة على التحكم فى الخلايا البيولوجية واستنساخها. ولكن المسألة التى طرحتها «تيتانيك» على ملك العالم آنذاك لاتزال مطروحة، ومطروحة بشدة، وحاول الفيلم بكل ما فى قدرة مخرجه، ربما حتى دون وعى، أن يحذرنا منها، وربما على الأخص هؤلاء الذين يعتقدون أنهم على طريق امتلاك العالم وما فيه...!!.

١٣. عبدالحليم حافظ... !!

كرهت عبدالحليم حافظ مرتين فى حياتى، الأولى عندما مات، والثانية منذ أيام عندما حلت الذكرى العشرون لوفاته. فى المرة الأولى كرهته لأنه تركنا ورحل فى لحظة كانت دنيا مصر كلها تتغير بسرعة إيذانا بأفول عصر وظهور عصر جديد لم يكن أحد يعرف مكوناته ومحدداته بعد، ومن ثم كان ذهاب عبدالحليم يعنى بالنسبة للجيل الذى تربى فى الخمسينيات والستينيات أن حقبة كاملة مليئة بالأحلام والطموحات والآلام والإحباطات كانت تذهب إلى غير رجعة وتضعنا جميعا أمام عالم ملىء بالغموض والمجهول. فبالنسبة لجيلنا، فإن ما جرى العرف على تسميته الفترة الناصرية كان يمكن اختزالها إلى ثلاثة أشخاص: جمال عبدالناصر، وعبدالحليم حافظ، ومحمد حسنين هيكل، الأول كان يصنع الثورة، والثانى كان يغنى لها ويلهب المشاعر من حولها، والثالث، أطال الله عمره وأعطاه الصحة والعافية، كان يعطيها فكريا الرؤية والطريق. ومن بين الثلاثة كان عبدالحليم أكثرهم شمولا، فلم يكن عالمه السياسة على ضيقها واتساعها، وانما كان عالمه الحياة كلها بما فيها من حب وجمال وخصوصية، وعنده اقتربت المسافات بين الوطن والحبيبة، والمستقبل مع الماضى، فى حساسية ونعومة وقوة غير عادية.

وبينما كرهته فى المرة الأولى لأنه تركنا دون استعداد وتأهب لما سيأتى بعده، فانه فى المرة الثانية بدا وكأنه يأتى من الزمن القديم لكى يصادر على الحاضر والمستقبل. فذكراه السنوية فى كل عام كانت فرصة لاسترجاع بعض من الماضى العام والخاص يشيع فى النفس فرحة وابتسامة وشجنا، ولكن ذكراه العشرين بعثت دراويش له يجعلون من عقدين من صنع الحياة والفن فى مصر بلا معنى ولا قدر، وكأن الوطن صار عقيما بلا حس أو روح أو عزيمة تعطى الوجود نغما ونشوة. بمعنى آخر، أن الذين نصبوا أنفسهم حراسا على عبدالحليم، كما فعل آخرون مع عبدالناصر، أرادوا إقناعنا بأن مصر كانت فنيا على الأقل عطية نبى بعده لا يوجد، إلا الفراغ والفتنة. ولكن مصر ليست عطية أحد حتى ولو كان عبدالناصر أو حتى كان

عبدالحليم، وإنما عطية شعبها القادر دوما على إنتاج الحياة والفن فى أصالة متدفقة، كما النيل من الجنوب إلى الشمال، من الماضى إلى المستقبل. ومصر لم تكن ساكنة ولا قاعدة طوال العقدين الماضيين، ولكنها كانت تعيد تشكيل تاريخها كله ليس من أجل إرضاء الماضى والحنين إليه، ولكن من أجل الزمن القادم بكل آفاقه وتطلعاته، وما فيه من طموح وجموح. رحم الله عبدالحليم، وغفر لمن أساءوا إلى ذكراه عندما جعلوه نهاية التاريخ، رغم أنه على الأرجح كان مجرد بداية!!.

١٤- واحد منا ذهب... !!

لم يسبق لى قط التعرف إلى المخرج عاطف الطيب وجها لوجه، فلم يجمعنا اجتماع، ولا سنحت مقابلة، وربما لم أعرف ملامحه جيدا إلا بعد وفاته عندما نشرت صورته فى الصحف والمجلات تنعيه وترثيه. وربما لم تكن هناك حاجة قط لمثل هذا اللقاء، فقد كان من هؤلاء الرجال النادرين الذين يخلقون علاقات ثمينة وغنية مع الملايين من خلال أعمالهم الفنية، فما بال رجلنا وموهبته وضعته فى مقدمة المبدعين فى أوسع الفنون انتشارا واقترابا من الناس، فن السينما. ولم يكن ذلك وحده ماخلق العلاقة مع المخرج اللامع، وإنما قدرته المبدعة على التعبير عن جيل بأكمله، حتى إن مشاهدة أعماله من قبل أفراد هذا الجيل تجعلهم أبطالا على الشاشة كما فى الحياة، فيتم تواصل من نوع فريد.

الجيل ولد بعد الحرب العالمية الثانية فى ظل نظام سياسى واجتماعى شاخ وتآكل وأصبح عاجزا عن التعامل مع حقائق عصر جديد ولدته ظروف الحرب بأبعادها التكنولوجية والعسكرية، وما ولدته من إعادة توزيع القوة فى العالم على نحو يختلف جذريا عن خبرة الجيل الذى يقود النظام والتى تولدت مع مطلع القرن، وتراجيدية الحرب العالمية الأولى، وكانت ذروة انجازاته فى ثورة ١٩١٩ اخذت فى التبخر واحدة بعد الأخرى. فلا الاستقلال الوطنى تحقق، ولا الديموقراطية والنظام الدستورى تجذر، ولا أحلام التحديث والمعاصرة جاءت الى واقع التطبيق والممارسة.

وما بين الجيل المولود والجيل القائد الشائخ كان هناك جيل آخر شكل تجربته خلال العشرينيات والثلاثينيات، وامتلأ بعنفوان الأفكار الجديدة للفاشية والماركسية ومعهما نمت الأصولية الدينية تتشابه معهما فى الأصول وان اختلفت الرموز والتسميات. وما بين الثلاثة تولدت توليفة مصرية خاصة ثارت على النظام البائد مؤسسة ما عرف بنظام ثورة يوليو ١٩٥٢.

ساعتها كان عاطف الطيب وجيله فى سنوات الطفولة الأولى، وكان البعض منه إما جنينا وإما رضيعا عندما حدثت نكبة ١٩٤٨، وربما سمعوا من آبائهم تعليقات مختلفة عن حركة الجيش المباركة، ومن المؤكد أنهم لم يكن بقدرتهم استيعاب أزمة مارس ١٩٥٤، فحتى ذلك الوقت كان ما يحدث للوطن جزءا من عالم الكبار الذين يزيحونهم دائما بعيدا عن الأحاديث الجادة. ولكن وعيهم كان بلا جدال يتشكل فى المدارس الإبتدائية. ومع الصبا جاء تأميم قناة السويس وحرب ١٩٥٦، ومن ثم صنعوا مظاهراتهم الخاصة فى الشوارع والحوارى والأزقة تأييدا لجمال عبد الناصر ورفاقه، مستلهمين من الإذاعة شعارات الأغانى الحماسية، وطاقات هائلة لتحدى العالم وعصيانه، وفى النهاية إيمان عميق بصلابة وسداد القائد والزعيم وصحبته الأحرار. وكانت اللحظة بكل عنفوانها وسخونتها زمنا للخلاص من شكوك الكبار وهواجسهم وتخوفاتهم، ولحظة للانحياز المطلق للثورة لا تحفظ فيها ولا رجعة.

وما بعد الصبا كان الطريق كله مفروشا بالورود، أو هكذا بدا، وان لم يكن بالتأكيد ما صار. فالوطن يبنى مدرسة كل يوم، ويصنع الحديد والصلب على طريق تصنيع كل شىء من الإبرة حتى الصاروخ، ويقيم الوحدة مع سوريا مقدمة لوحدة العرب أجمعين، والرجعية تتراجع فى اليمن، وهناك خطة خمسية تحسب حساب كل شىء بدقة بالغة، وهناك ميثاق وطنى يحدد معالم الطريق فى وضوح أخاذ، يلفه أشعار صلاح جاهين وأغنيات عبد الحليم حافظ عن الشعب الفرحان تحت الراية المنصورة، وتشحذ المشاعر حوله مقالات الأستاذ محمد حسنين هيكل الواثقة المطمئنة صباح كل يوم جمعه. وفى تلك السنوات الفاصلة ما بين الصبا والشباب لم يشغل الجيل باله كثيرا بكثير من الحقائق المنذرة، فلا انكسار الوحدة مع سوريا، ولا طول بقاء الجيش المصرى فى اليمن، ولا استشراء السجون والمعتقلات، ولا توقف الخطط الخمسية عند خطة واحدة، ولا حتى رسالات توفيق الحكيم فى بنك القلق او نجيب محفوظ فى

ميرامار، خلقت لدى الجيل هواجس أو شكوكا. فالمنتظمون فى صفوف منظمة الشباب أيامها وقر فى أذهانهم أن كل ذلك تراجعات مؤقتة فى مسيرة ظافرة، وبقع صغيرة فى ثوب الثورة الناصع. كان اليقين فى المستقبل لا تحده حدود.

وفجأه وجد الشاب عاطف الطيب نفسه وجها لوجه مع هزيمة يونيو ١٩٦٧، وكان عليه مع رفاق جيله الخوض فى عملية مراجعة قاسية، ولكنها كانت مراجعة مشروطة بالوعى الذى تشكل وقت الطفولة والصبا. فالهزيمة لم تكن نتيجة خطأ بنائى فى النظام كله، وإنما كانت لوجود أخطاء فى تطبيق مثل النظام العليا التى ظل متمسكا بها. ولذا فان مظاهرات الطلبة فى ١٩٦٨ و١٩٧٢ وما بينهما كان الغرض الأساسى منها هو التنبيه لتصحيح المسيرة، وليس الخروج عليها. وعلى أى الأحوال فإن الوقت لم يكن ليسعف أحدا بالتفكير والمراجعة طويلا، ولا حتى باستشفاف المعانى الكامنة فى أغنيات الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم، فقد كان دخول معركة اخرى مع العدو الإسرائيلى هو السبيل ليس فقط لتحرير الوطن وإنما للخلاص الذاتى والشعور بأن المسيرة عادت إلى مسارها الطبيعى. وكان فتح القوات المسلحة على آخرها لقبول المؤهلات العليا أبناء الثورة جنودا وضباط احتياط، فرصة للامساك بالسلاح وإثبات أن الولاء للوطن ليس شعارات ترفع وانما أرواح تبذل ودماء تسيل فى حرب الاستنزاف وحرب اكتوبر ١٩٧٣.

ولكن معاناة الفترة ما بين الحربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) كانت أهون بكثير مما كان على الجيل كله أن يعانيه بعدها. فقد مر زمن الطفولة السعيدة، وأحلام الصبا، وثورة الشباب، وأصبح على عاطف الطيب أن يخرج إلى عالم جديد لا بد أن يعمل فيه ويبحث عن لقمة العيش، ويكون الأسرة، ويستقل بالمسكن. وكم كان هذا العالم موحشا، فالجيل الذى ظل يقود منذ ١٩٥٢ ظل قائدا وأعطته إنجازات حرب أكتوبر شرعية جديدة استخدمها فى تغيير معالم الطريق بسرعة، فكان الانفتاح الاقتصادى والسياسى، والصلح مع إسرائيل وأمريكا، وإن أدار كليهما بنفس الطريقة التى قاد بها الطريق الاشتراكى والصراع مع العدو الصهيونى والغرب من قبل. وفى غمرة التعقيدات والتناقضات التى ولدها كل ذلك، جاء فن عاطف الطيب معبرا عن إحباطات وآمال جيل بأكمله، فى تعاملاته مع دنيا غير تلك التى رسمها فى خياله، أو تمنى قدومها.

وكان عاطف الطيب هو المعبر عن جيله وليس أى من أقرانه المخرجين، وكثير منهم من الممتازين مثل خيرى بشارة وداود عبد السيد ومحمد خان، لأنه كان أكثرهم واقعية ووضوحا، وتعبيرا عن الشريحة الاجتماعية الأساسية فى المسار السياسى المصرى وهى البورجوازية الصغيرة التى جسدتها طبقة الأفندية فى ثورة ١٩١٩، والضباط الأحرار فى ثورة ١٩٥٢، والآن، ومع عاطف الطيب طبقة المتعلمين والمهنيين التى أفرزها التعليم المجانى لثورة يوليو على امتداد الوطن كله التى آمنت بالثورة واستغفلت خديعتها، ونقمت على استمرار رجالاتها. وكما كان السؤال لدى جيل الأربعينيات الذى قاد الثورة بعد ذلك من كسب فى النهاية حصاد ثورة ١٩١٩؟ فان السؤال لدى عاطف الطيب كان من كسب فى النهاية حصاد ثورة يوليو ١٩٥٢ وأنجازات أكتوبر ١٩٧٣؟ وفى كل الأحوال فإن الإجابة لم تكن سارة بالمرة.

فى البرىء يتجسد مخرج جيلنا فى صورة المثقف المتعلم الجديد الذى يستنكر تكاسل الفلاح عن اللحاق بالخدمة العسكرية، ويجد فى الكلمات السحرية «محاربة أعداء الوطن» ما يكفى للفخر بالتجنيد، ويجرى الفلاح معصوب العينين لكى يشترك فى مجازر تنتهى لكى تشمل من علمّه الوطنية، فيفتح صارخا رشاشه على الجميع. هنا كانت المراجعة لميراث ثورة يوليو قد تمت، فلم يكن لدى الطيب شك فى أنها تحارب أعداء الوطن، ولا حتى فى وداعتها وطبيعتها الحانية حينما صور مشاهد عيد الميلاد لقائد السجن الحربى، ولكنه فى نفس الوقت استشف الوحش الكامن داخلها، الذى بدا خائنا للثورة ومبادئها، قاتلا لأولادها. هذا الإحساس بالخيانة العامة يظل ملحا على كافة أعمال مخرجنا حتى ولو أخذ تجسيدا فرديا كما فى الغيرة القاتلة، ويتخلق فى حوارات بين أبناء جيله فوق هضبة الهرم، حينما يتجمع محاربو أكتوبر فى سواق الأتوبيس يتذكرون فى نوع من المونولوج الوطنى رفاق الحرب وتضحياتهم، ويتساءلون عمن كسب الحرب فى النهاية وهم فى مواجهة وضع مأساوى. هنا فان الطيب حاول الاحتماء بأبناء جيله الذى رآه مختزنا للإخلاص والقيم الأصيلة فى زمن الانفتاح.

ولكن احتماء عاطف الطيب بجيله كان مترددا، فلا شك أنه رأى الكثيرين منهم يذهبون إلى بلاد النفط بحثا عن خلاصهم الفردى، وربما ضاع من وعيهم تماما ما

استقر فى وعيه من مبادئ، ولذا فإن الخلاص بقى لديه مضمونا فقط لدى من بقى منهم على أرض الوطن إذا ما تخلوا عن سلبيتهم فى مواجهة ظروف شاذة وغير مقبولة. وربما استقر فى وعيه أن المصائب تراكمت لأن رعاية الثورة بقيت بعيدة عنها، لا تخططها ولا تصوبها، مكتفية بالانقياد والسلبية المفرطة. وهكذا فإن «سواق الأتوبيس» الذى لم يتدخل إزاء النشال فى بداية الفيلم لم يتركه فى نهايته، ولا البرئ الساذج كان بريئا أو ساذجا فى النهاية، ولا المحامى الانتهازى بقى على انتهازيته ولكنه وقف ضد الحكومة. وكأنما فى النهاية وجد عاطف الطيب أن المسئولية واقعة على أبطاله شخصيا فى الخروج من المأزق التراجيدى الذى وصل إليه المجتمع الذى أحبه وعشقه ولكنه لم يطق خيانته. ولذلك أصبح على أبطاله أن يمارسوا الخلاص وبقوة وضربة معلم أو يشكلوا كتيبة الإعدام، أو يمارسوا الحب على هضبة الهرم. وفى الهروب لم يجد منتصر الذى لم ينتصر قط بعد مشاركته فى حرب اكتوبر سوى أن يقود عملية انتقام مستمرة ممن خانوه وخانوا أبناء بلدته حتى سقط فى النهاية. المهم ان يفعلوا شيئا ما، وأن يعبروا عن غضبهم واحتجاجهم، فلعل المعوج يستقيم، وتعود الدنيا سيرتها الطيبة الأولى.

ولكن الدنيا لا تعود أبدا لسيرتها الطيبة الأولى ليس فقط لأننا نكتشف دوما أنها لم تكن طيبة كما تخيلنا، وإنما أيضا لأن التغيير والتجديد فى العالم أقوى بكثير مما يمكن حكمه بتجارب سابقة. ولم يكن باستطاعة منتصر فى الهروب إلا أن يستدعى سيرة والده صائد الصقور، ويترقب سيرها حرة فى الفضاء، وهو يرى نفسه عاجزا عن ترويضها والسيطرة عليها وسط أحداث متسارعة تتحرك كالقدر المحتوم والقضاء النافذ. كان منتصر محكوما بتجربة لا يستطيع السيطرة عليها، وبوعى تجلى فيه لا يستطيع الخلاص منه. وفى كل الأحوال فإنه عاجز تماما عن التحرر لأن الحرية لديه كانت دائما الخلاص من الأعداء أو الخونة، أما حرية الذات وانطلاقتها غير المحدودة فقد كانت دائما مصدرا للخوف من سقوط القيم تحت وطأة الخيانة القاتلة.

وهنا يبدو مأزق وعقدة عاطف الطيب وجيلنا كله، باديا للعيان بشكل مدهش، فهو يحمل على عاتقه وعى عقود سابقة لم يعد على ثقة بعد كشف المستور فى نزاهتها لمواجهة حاضره ومستقبله، ولديه فكرة عن الحرية مقيدة إلى حد هائل بقيم

كابحة ومسيطرة. وهى عقدة مستحكمة لدى كل الأجيال المتعاقبة التى عرفتها مصر منذ بداية دولتها الحديثة فى مطلع القرن التاسع عشر، ومن ثم فإنها على مدى قرنين لم تنجح قط فى تحقيق الاختراق الذى حققته أمم أخرى من التخلف إلى التقدم. وفى العقد الخامس من العمر لم يتحمل قلب عاطف الطيب النبيل عقدة ومأزق جيله، فبدا أحيانا كما لو كان يسلم الراية لجيل آخر جديد حمل تجربة أخرى للسبعينيات فيها غضب ومرارة، ولكنه لم يكن واثقا كل الثقة من حكمة الجيل الجديد فترك دنيانا كلها. رحم الله عاطف الطيب.

١٥ـ أحلام الرجال (كلوديا شيفر)... !!

يبدو أن السيدة كلوديا شيفر عارضة الأزياء العالمية الشهيرة جدا، والجميلة جدا، والغنية جدا أيضا، لم يعد فى وقتها متسع للقيام بأعمالها الخاصة والعامة والخيرية كذلك، ومن ثم فإنها صرحت بأنها لن تمانع أبدا فى استنساخ نسخة إضافية منها تقوم بحمل الأعباء عن كاهلها البديع والرقيق فى آن واحد. هنا فإن جميلة الجميلات تكون قد أضافت مهمة عملية وواقعية لتلك الثورة التكنولوجية التى بدأت مع النعجة دوللى التى أصبحت أكثر شهرة من بيل كلينتون وسيلفستر استالونى وبنيامين نتنياهو، والتى لا نعلم حتى الآن نصيبها من الجمال لأن ذلك أمر لا يخصنا وإنما يخص عالم النعاج وحدهم والذين يعرفون مقاييسه وفقا لثقافتهم وقيمهم الخاصة. فالمسألة إذن فى نظر العارضة المشهورة ليست إعادة إنتاج الجمال مرة أخرى، وإنما القيام بالأعمال وافتتاح الحفلات وتوزيع الابتسامات والوقوف أمام المصورين، وليس كما قيل لنا من قبل علماء الهندسة الوراثية للقضاء على الأمراض المتوطنة فى الجينات.

ولكن أحدا ليس متأكدا من كون الأسباب العملية التى ذكرتها شيفر يمكنها أن تكون بدورها ذات الأسباب التى سوف تحرك خيال وطموحات كثرة من البشر الذين قد تدفعهم أحلام اليقظة الى تصور إمكانية استنساخ ملايين الطبعات منها، بحيث

يكون لكل رجال العالم نصيب وحظ كذلك الذى حصل عليه دافيد كوبرفيلد الساحر وزوج السيدة المصونة فى آن واحد. ولعله سيكون عالما مثيرا جدا اذا ما تحولت كل نساء الأرض إلى تلك الصورة الجميلة التى تبثها شيفر ومثيلاتها، فربما ساعتها يتغير العالم ويصبح أكثر عاطفية ورومانسية، خاصة لو أن العلم تقدم أكثر وجعل النساء المستنسخات يتخلصن من بعض صفات النساء غير المحببة وفى مقدمتها النكد غير المفهوم فى معظم الأحوال. ولكن الصدمة التى ربما على الرجال تحملها إن نساء الأرض لا يسلمن بهذا التفوق الجمالى لعارضة الأزياء وزميلاتها، وعلى الأرجح ان كلا منهن سوف ترى أنها وحدها لها الحق فى الاستنساخ غير المشروط. وهكذا فان أحلام الرجال ربما سوف يصدمها الواقع حين يكتشفون فى نهاية القرن القادم ان العالم صار مليئا بالقبح الممتزج بالتعالى والادعاء والذى على الذكور فى النهاية تصديقه. وساعتها فربما يلوم الرجال أنفسهم لأنهم هم الذين بدأوا هذه العملية، ولأنهم صدقوا أن العالم الجديد سيكون حلوا كله!!.

١٦- حرب الكواكب... !!

الحديث عن المستقبل دوما يدفع الى أحاسيس متباينة فيها التوجس والشوق والقلق والخوف والانتظار، وربما لم يكن الأمر يستحق كل ذلك لو عرفنا أننا أيضا عشنا فترة تعد مستقبلا لماض قبله، وربما لم تكن التجربة بعد أن عشناها وعرفناها بالأمر الذى يستحق تلك المشاعر فى البداية. تجربة من هذا النوع حدثت عندما شاهدت فيلم (حرب الكواكب) لأول مرة منذ عقدين وكان قد كسر الدنيا وقتها ليس فقط بتكنولوجيا جديدة فى الفن السينمائى، وإنما لأنه أعطى صورة عن حروب المستقبل على كوكب الأرض حتى ولو كانت الأحداث تجرى فى مجرة سحيقة لا نعرف عنها شيئا. أيامها كانت مبادرة الدفاع الخاصة يجرى الحديث عنها فى الولايات المتحدة بكل ما احتوته عن استخدام أشعة الليزر وتحزيم الكرة الأرضية بشبكة من الأقمار الصناعية التى ترقب الصواريخ المعادية وتدبر عملية تدميرها فى الفضاء الخارجى. وحدث التفاعل بين الفيلم والمبادرة إلى الدرجة التى جعلت الأخيرة

تستعين باسم الأول كنوع من التدليل والدلالة على أن الصراع الذى كان يجرى وقتها بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة كان نوعا من الصراع بين إمبراطورية الشر وقوى الخير والطيبة حتى ولو تم استبدال البطل فى القصة لوك سكاى ووكر، الشاب المعجزة بالسيد رونالد ريجان الفنان غير المعجزة.

بعد أكثر من عشرين عاما، أعيد عرض الفيلم مرة أخرى، ولكن مشاهدته لم تعد تثير شيئا من الانبهار والترقب الذى كان عند مشاهدته أول مرة، أولا لأن إمبراطورية الشر انهارت وحدها دون نار أو لهب أو أشعة او ما أشبه، وثانيا لأننا شاهدنا كل ذلك بالفعل وعلى أجهزة التليفزيون أثناء حرب الخليج الثانية، بل إن هناك ما هو أكثر مما أذهل عقولنا فى السابق، وتصورناه ساعتها نوعا من الخيال العلمى. لم يعد هناك خيال فى الحقيقة، وإنما أصبح الحقيقة ذاتها، ولذا فإننى لم أندهش عندما وجدت قاعة السينما خاوية فى مصر لأن ما كان تطلعا للمستقبل فى الماضى لم يعد أكثر من ماض أيضا عرفناه وخبرناه. ولكن الدهشة جاءت من الإقبال على الفيلم فى الولايات المتحدة ذاتها، ربما لأنهم يريدون الانبهار بما حققوه وأنجزوه، وربما لأن هناك كثرة تريد استرجاع مشاعرها السابقة وتريد أن تعرف كم التغيير الذى ألم بها، أو أن المسألة هى أن رومانسية الصراع بين الخير والشر وانتصار الأول هى قصة كل العصور!!.

١٧ـ نحن والبث التليفزيونى المباشر... !!

لم يكد يعلن الاتفاق الفرنسى مع كل من مصر وتونس للبث التليفزيونى المباشر، حتى بدأت الأقلام فى تناول تلك الظاهرة التى طال ترقبها، والتى أصبحت حقيقة واقعة وعلى وشك أن تصبح جزءا من كل منزل يمتلك جهازا للتليفزيون فى الدنيا بأسرها. ويجب أن نعترف أن تناول الكتّاب والمحللين للحدث قد تميز بالترقب والقلق والوجل، وظهرت على السطح ـ مرة أخرى ـ وبقوة هذه المرة مقولة «الغزو الفكرى» الذى يأتى مسلحًا بالصوت والصورة الملونة الزاعقة والمبهرة، وإمكانية أن

تحقق القوى الاستعمارية بالكلمة والمسلسل والبرامج ما عجزت عن تحقيقه بالقوة المسلحة. والحق أن الذعر لم يكن نصيب المثقفين وحدهم، فمن قبلهم اتفق وزراء الإعلام فى منطقتنا ـ وفى مقدمتهم مصر ـ على ضرورة تحقيق «السيادة الإعلامية» فوق الأوطان، وجاء تبريرهم لما وقعوه من اتفاقيات كنوع من قبول أهون الشرور، فالدولة فى النهاية نجحت فى أن تكون المرشّح (بضم الميم وكسر الشين وتشديدها) الذى تمر من خلاله رسائل الغرب وأفكاره، ومن ثم فإن قيمنا ـ الأصيلة ـ سوف تبقى راسية وراسخة.

والحقيقة أن من طرحوا القضية على هذا المستوى لم يقدموا لنا ما يكفى للتخوف وفى القلق فى البداية، أو ما انتهى إليه الأمر يعنى بالحماية المطلوبة، ولعل أول ما نحتاجه لفحص أى موضوع أن تكون لدينا المعلومات والحقائق والأرقام، فلم يقدم لنا أحد دراسة عن البرامج التليفزيونية فى الغرب من حيث الكم والمضمون لكى نعرف ما فيها من طيب أو خبيث. فلاشك أن جميع من اعترضوا ثم ارتجفوا خوفا، قد ذهبوا إلى بلاد الشمال وعرفوا الدور المتزايد الذى يلعبه التليفزيون فيها، وكما هو الحال عندنا ـ مع الفارق الكبير بالطبع ـ فإن ساعات الإرسال تهتم أولا بالمعلومات بكل أنواعها سواء كانت أخبارا سياسية عما يجرى فى ميدان السلام السماوى فى الصين، أو اقتصادية خاصة بأسعار أسواق المال، أو قانونية ترتبط بشرح القوانين والدساتير، أو تاريخية تناقش دوافع الثورة الفرنسية ومسارها وفق الآراء المتعددة والمتنوعة التى لا يفسد فيها للود قضية. المهم أن تدفق المعلومات من كل حدب وصوب عن الطبيعة والأوزون والتطور والتكنولوجيا لنفس الإنسانية وغيرها وبعد ذلك فى الترويح بأشكاله المتنوعة من دراما منوعات وأخيرا ما يمكن تسميته أدوات تنشئة التى تعنى من خلال أشكال عدة بنقل القيم الغربية أساسا فى السياسة والدين والأخلاق، عن كل ذلك لم يقدم أحد معلومات البداية لكى نعلم ما نحن مقبلون عليه لكى نرفض أو نقبل، نستقبل أو نقيم أسوار الحماية بعد ذلك ـ ولعل هذا هو بيت القصيد ـ فرغم إصرار الجميع على ضرورة حماية تراثنا وقيمنا الروحية من الغزو الفكرى والقيم المستوردة فإن أحدا لم يوضح لنا ما هى على وجه التحديد تلك القيم التى نريد صيانتها وتلك التى نرتعد ونتخوف منها. ويبدو أنه قد تكونت لدينا عبر العصور صورة كاريكاتورية عن الغرب بشكل عام وبقدر ما نشكو تكون صور نمطية عن

العرب والمسلمين فى الإعلام الغربى، فقد تكونت لدينا أيضًا صور نمطية عن القاطنين فى العالم الصناعى المتقدم. فرغم تسليمنا بتقدمهم المادى - وهى مسألة لم يعد ممكنا إنكارها لأننا نستخدم العربات والسفن والملابس والطائرات التى انتجوها، ونتغذى بالغذاء الذى يحصدونه، ونعالج بالأدوية التى صنعوها - فإننا ننكر عليهم وجود قيم عليا نظنها حكرا علينا. ففى ظننا أن قيمهم منحلة، وأنهم غارقون فى الجنس والمخدرات ومرض الإيدز وإهمال الأسرة وقتل الشيوخ والرغبة الدائمة والمستمرة فى الانتحار، وهذا تصور يحتاج إلى مراجعة ودراسة وتمحيص. والذين سافروا وشاهدوا تليفزيونات الغرب، سوف يكتشفون أن القيمة العليا لما يذيعونه هى أن الفضيلة هى المعرفة، فمن حق المواطن أن يعلم أولا، ثم بعد ذلك يأتى مبدأ - أو فضيلة - حرية الاختلاف ورفض الحقيقة المطلقة فى كل ما يتعلق بدنيا البشر، وثالثا فإن القوانين التى يسنها المواطنون لها السيادة العليا على الأفراد حتى تتفق أغلبيتهم على تغييرها من أجل مصلحة الجماعة، وأخيرا حرية الفرد فى كل ما لايضر غيره، وفى سبيل الانتاج والخير فليتنافس المتنافسون.

وربما كنا نحتاج أكثر إلى أن نتعرف إلى أنفسنا، ليس فقط تلك القيم التى نرغب فى الحفاظ عليها ونراها تختلف مع قيم الغرب، وإنما أيضًا أن نستشف ونستشرف من تجربتنا السابقة فى الاتصال الدولى عامة وفى مجال التليفزيون خاصة. فالتواصل العالمى الحالى لم نتعزل عنه وسافر منا مئات الألوف - بل الملايين فى الحقيقة - للتعلم والسياحة والتجارة، وهؤلاء عادوا وعلى الأغلب بقواعد إيمانهم بقيمهم الدينية، والأهم استعاد كثيرون منهم قيما علاها الصدأ عندنا مثل حب العمل والحفاظ على المواعيد والكفاءة. ومن غير السفر جاءت إلينا عبر الأثير - وباللغة العربية - إذاعات العالم أجمع. فربما لا توجد دولة فى الدنيا بأسرها لا تبث برامج موجهة بلغة الضاد، بعضها دول عظمى مثل الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، وبعضها دول صغرى مثل ألبانيا، وتعلم العربى بحسه أن يفرق ويفرز المعلومات القادمة إليه، وما هو دعاية فجة، وما هو عرض موضوعى، ولم يعد هناك مثقف عربى واحد لا يبدأ يومه دون الاستماع إلى الإذاعة البريطانية، ويذهب إلى النوم قبل أن يعرف آخر الأنباء من راديو مونت كارلو. ومن كل الاتجاهات حدث الاختراق «للسيادة الإعلامية» لأن أصحاب الرأى فى بلادنا رفضوا احتكار الحقيقة التى استحوذت عليها أجهزة الدولة الموجهة.

ولم يكن التليفزيون بعيدا عن كل ذلك، فربما لا يعلم الكثيرون أن ما يزيد على ثلث وقت قنوات التليفزيونات العربية يبث برامج وتمثيليات ورسائل إعلامية صنعت فى الغرب، فصور حرب لبنان جاءتنا كلها من شبكات البث الرئيسية فى نيويورك ولندن وباريس. والانتفاضة الفلسطينية نتابعها من خلال كاميراتهم. وأحداث الصين والبراكين والزلازل وصعود الحكومات وسقوطها نسمعها ونراها من خلال رسائلهم.. وحتى واحد من أشهر البرامج الرئيسية - العلم والإيمان للدكتور مصطفى محمود - يعتمد على مادة فيلمية صنعت فى الغرب. ولم ينزل أحد منا إلى أعماق البحار، ولم يذهب بعض آخر إلى الفضاء لكى يكشف لنا غرائب الطبيعة وقوانينها الرئيسية.

كل ذلك يحدث كل يوم، والنتيجة هى أن معرفتنا بالكون أوسع وبمخلوقات الله أرحب. ورغم ذلك يبقى الخوف والارتجاف من الأفكار المنحلة، ويقصد بها البرامج والأفلام «الجنسية» التى يتصور - خطأ - أنها المهيمنة على البث التليفزيونى فى الغرب. ولعل ذلك مربط الفرس، فلعل دراسة عميقة من مكاتبنا الإعلامية المنتشرة بطول الكرة الأرضية وعرضها توضح لنا الحقيقة، فما وصل إلينا ونذيعه ونراه بالفعل لا يختلف كثيرا - من هذه الزاوية - عما تفتق عنه ذهن مؤلفينا ومخرجينا، ولعل المطلعين يعرفون أن ما نشتريه بالعملة الصعبة من أعمال الدراما هى التى يرفضها نقاد الغرب أنفسهم ويتهمونها بالسطحية والهشاشة الفكرية والفنية. أما تلك الأعمال القيمة فلا نعرضها إلا فيما ماندر، والأغلب أنها لن تكون متاحة إلا من خلال البث المباشر وحتى تلك الاعمال التى نرفضها لا تمثل إلا نسبة ضئيلة مما هو معروض ومنظور.

وربما يكون الخوف كله ليس مما سوف يأتى عبر الأقمار الصناعية فى أجواء الفضاء وإنما من أنفسنا، فالذين تناولوا الموضوع وطرحوا مقولة «الغزو الفكرى» الهابط من السماء علينا يعرفون أن توافر المعلومات يمنع احتكار الحقيقة، ومن ثم تزيد فرص الديموقراطية، ويعرفون أن المعرفة فضيلة، ولكنهم يخافون على المواطن العربى المسلم، ففى ظنهم أن كعب امرأة، أو كتفا عارية فى مسلسل، كفيل بهز روح الإيمان فيه ودفعه نحو الانحلال والتحلل. ومن ثم فإنهم يفضلونه دائما متقوقعا، معقما، متخندقا، وهكذا - كما يقدر منطقهم - يبقى مؤمنا، ورغم كل الحديث عن «التراث»، و «الأصالة»، و «ازدهار الإيمان» فإن الإنسان فى منطقتنا وحدها ينبغى

أن يبقى مدرعا متحصنا وراء الأسوار. هى إذن حالة مستحكمة من فقدان الثقة بالنفس وبالمواطن وبقدرته على أن يحدد القيم التى يرغب فى استقبالها وتلك التى يرفضها، فيقوم من مقعده ويغلق التليفزيون. المطلوب هو شكل من أشكال الوصاية فإذا لم تقم بها الدولة طالب بها المثقفون الذين لا يكفون عن المطالبة بالديموقراطية وحرية تداول المعلومات.

ولكن المشكلة ربما تكون أعمق من ذلك كله، فالطبقة المثقفة فى بلادنا لاتثق فى المواطن فقط، وتخاف عليه من الجراثيم والميكروبات الأجنبية، ولكنها فى الواقع لاتثق فى نفسها ولا فى القيم التى تدعى الدفاع عنها. فبدلا من أن تكون رسالتها هى التنوير والتقييم لكل ما هو مطروح فى الداخل والخارج عن طريق البحث العلمى، ومقارعة الحجة بالحجة، فإنها تتخلى طواعية عن مهمتها التاريخية بالدعوة إلى مقاومة البث التليفزيونى المباشر القادم إلينا من الخارج، وهى مسألة مهما تصاعدت العمليات أصبحت مستحيلة، فكما أنه لم يكن ممكنا منع المواطنين من استخدام الكهرباء أو الطائرة و التليفون أو الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية، فإن الأقمار الصناعية سوف ترسل لنا البرامج والأخبار والدراما، وفى المرحلة المقبلة سوف يتم ذلك عن طريق دول وشركات عملاقة يمكن التعامل والحوار وعقد الاتفاقيات معها، ولكن بعد ذلك فإن السماء سوف تكون مفتوحة للجميع، وسوف يكون بقدرة مجموعة من الأفراد فى جزيرة وسط المحيط الباسفيكى أن ترسل ماتشاء من الإشارات الإعلامية إلى العالم بأسره.

وللحق فإن الذعر الحالى لدى الجماعة الثقافية المصرية - سواء الذين يخافون من القيم الرأسمالية الاستهلاكية أو الذين يرتعدون من القيم الغربية التى يظنونها منحلة - ليس وقفا عليهم وحدهم. فقد عرف الكثيرون فى الغرب نفس الظاهرة، وهناك جيوب داخل أمريكا نفسها رفضت كل شىء من الكهرباء حتى التليفزيون حتى تحافظ على قيمها، فحافظت فى الحقيقة على تخلفها. وفى فرنسا هناك رعب حقيقى من هيمنة القيم الأمريكية كما يفهمونها أيضاً، ولكن الحل فى هذه الحالة الأخيرة ليس بالتقوقع ولكن بالاقتحام وتطوير الأدوات الإعلامية والاتصالية المحلية وتحريرها حتى تصل إلى كل مواطن ثم إلى العالم بأسره، لم يكن الحل هو التقوقع ثم التخلف، ولكن المواجهة وقبول التحدى، والتجربة التاريخية تثبت أن التقدم

التكنولوجى كان فى صالح انتشار القيم الدينية والإنسانية أكثر مما كان خصما لها. فاختراع المطبعة جعل النصوص والتفاسير فى متناول كل من يقرأ، والإذاعة جعلتها متاحة لكل من يستمع، والتليفزيون يعرضها لكل من يشاهد، ولم يكن ممكنا لقيم حقوق الإنسان أن تنتشر وتذاع وتدك صروحا وعروشا للاستعباد والاستبداد دون انتشار المعرفة والمعلومات، وكان مستحيلا أن يتوجه العالم لمقاومة المجاعات والكوارث الطبيعية دون أن يتحرك ضمير العالم بعد أن شاهدها عن قرب وفى غرفة نوم، وربما طالت حروب فيتنام وأفغانستان لعشرات السنين لولا أنها أصبحت جزءا من كل بيت أمريكى وسوفيتى، النتيجة هى أن هناك قيما عالمية تتكون، ويشارك العالم كله فى صنعها، كل وفق تراثه وقيمه.

ولماذا نبعد بعيدا، فرغم كل مواريث العداء للإسلام، فإن الحقيقة المؤكدة أن التواصل والاتصال العالمى - بما فيه الإذاعة والتلفيزيون والفيديو - أسهم فى نشر الإسلام فى قلب الغرب ذاته، ولم يكن ذلك بالاكتفاء بالعداء، والتقوقع، وإنما نتيجة وجود فئة آمنت بقدرتها على المواجهة وقبول التحدى من خلال الحوار واستخدام المنطق والقبول بالقيم الإنسانية والتواصل بين الحضارات.

المسألة إذن أن المعرفة ليست طريقا واحدا يأتى إلينا يؤرقنا ويقض مضاجعنا، وإنما يمكن أن تكون طريقا لنا لنشر ما نعتقد أنه يصلح حال الدنيا والإنسان فلماذا ترتعد الفرائص إذا كان بمقدورنا أن نستخدم قمرنا الصناعى العربى التائه فى الفضاء فى بث ما نراه ونرتضيه؟، أم أننا بعد أن عجزنا عن الاتفاق حول القيم الخاصة بنا، سوف نصبح غير قادرين على بثها للغير، أو أننا قد استملحنا الوصاية واحتكار المعلومات فترة طويلة فلم يعد بمقدورنا فتح الأبواب والنوافذ!!

أن أمامنا عالما يتغير ويندمج بسرعة كبيرة، وباختصار شديد، إما أن نشترك فى هذه العملية وإما أن نتقاعس ونقيم الحدود والسدود، وهى مسألة ممكنة لفترة قصيرة وبعدها سوف يأتى الطوفان، وساعتها سوف نكون أكثر عجزا وأقل مناعة وحصانة وليس أمامنا سوى قبول التحدى والتقدم، فلن ينجح أحد فى منعنا دون شعوب الدنيا بأسرها من تلقى المعرفة، والتعامل مع حضارة العصر القادم.

١٨ـ الفضائيات العربية.. تأملات واجبة... !!

يوما بعد يوم باتت المحطات التليفزيونية العربية فاعلا رئيسيا فى الحياة السياسية والفكرية العربية، ولا تكاد تنشب قضية عربية واحدة إلا ونجد البرامج المختلفة تتناولها وتقفز بها إلى كل حدب وصوب فى برامج مختلفة الأشكال، حتى إنها خطفت فى كثير من الأحيان أضواء النجومية من فاعلين رئيسيين جرى الحال على أنهم المؤثرون والمحددون لمستقبل الأمة مثل قادة الأحزاب القومية والقطرية، والوزراء وما شابههم من أصحاب السلطة والنفوذ، وحتى رجال المال والاقتصاد، ووصل الأمر إلى أهل الفن والأدب الذين كان لهم فى القصة رواية وفى الشعر قصيدة. نجوم العرب الجدد فى بداية القرن الحادى والعشرين هم أبطال المحطات الفضائية، وما يقدمونه من برامج حوارية، وتغطيات صحفية، وزوايا إخبارية، وكلها لا تجد مثيلا لها فى العالم المتقدم، أو المتخلف على السواء. ففى العالم المتقدم فإن مثل هذه المحطات دورها هو الكشف والتحليل وتقديم وجهات النظر المختلفة، وفى العالم المتخلف فإنها تقدم ساعات محدودة للدفاع عن آخر من يمسك بزمام السلطة، ولكنها فى الحالتين لا تطمح إلى أن تدير العملية السياسية بأكملها، وتتخذ القرار السياسى والاقتصادى بعيدا عن المواطنين والمؤسسات والسلطات العامة. وباختصار تبنت هذه المحطات ما اعتقدت أنه الرأى العام، وبات من حقها بعد ذلك التحدث باسم الجماهير، وما دام من حقها التحدث باسم الجماهير والشعوب، فقد بات من حقها أيضا أن تتخذ القرارات وتدير الأزمات، وتعبئ الشارع، وتقود الجيوش العربية لتحرير المقدسات، وكل ذلك على الهواء.

البداية كانت فى السبعينيات عندما وجد العرب فى تكنولوجيا الأقمار الصناعية حلما جديدا لتحقيق الوحدة العربية، ومن خلاله يمكن ربط أقطار الأمة ذات الرسالة الخالدة واللغة الواحدة من خلال البث المباشر وباللغة العربية لساحة ممتدة من المحيط إلى الخليج. ولكن وبعد عقد من هذه الأحلام، وحتى عندما تم إطلاق أول

قمر صناعى عربى (عربسات) بات واضحا أن لكل دولة مقصدا وقناة وقيما تريد نشرها ولا تقبل فيها مقاسمة أو مناصفة، ومن ثم بات القمر محطة إطلاق إضافية لطائفة متنوعة من الدعايات عن سياسات الدول والأقطار، وعلى أى الأحوال، فإن القمر كان مثله مثل المطبعة والبرق والمذياع والتليفزيون حتى الكمبيوتر والإنترنت وغيرها من وسائل الاتصال التى عرفتها الأمة خلال القرنين الماضيين، كانت كلها مخترعات غربية نشأت فى بيئات أخرى وجرى زرعها فى التربة العربية لكى تنتج نتاجا خاصا ذا مذاق غريب.

ولكن عربسات والأحلام حولها كانت محطة قصيرة العمر، ومع التسعينيات لم تعد طاقته قادرة على استيعاب قدرة العرب على الكلام، ومع انطلاق أجيال جديدة منه انطلقت أقمار قطرية أخرى لم تكن مهمتها الاستشعار عن بعد، أو البحث فى أمور الطقس أو الأراضى الخصبة، كما هو الحال فى بلدان أخرى، بل كانت مهمتها الأساسية البث على مدار أربع وعشرين ساعة ما يكفى شهية شرهة للأخبار والأنباء والسياسات التى لم تجد وسيلة للمشاركة فيها فى بلادها فوجدت فى الفضائيات ما يسد النقص ويحل العقدة.

وفى الحقيقة أن البداية العملية للمحطات الفضائية العربية جاءت من الخارج ومن بريطانيا من دون كل الأقطار عندما بدأت محطة الـ MBC بثـهـا من لندن، ثم تبعتها شبكات ORBIT والـ ART، وكلها اعتمدت على قواعد للانطلاق من لندن وروما، وحتى عندما نقلت بعض برامجها للإنتاج من القاهرة أو بيروت فإنها أبقت على قواعدها الأساسية فى بلاد الغرب حيث الحرية والديموقراطية التى كان على هذه المحطات بعد ذلك انتقادها بضراوة التأكيد الخصوصية العربية فى ضرورة غيابها نظرا لوجود ما هو أهم من القضايا المصيرية على الساحة العربية. ولكن هذا الانطلاق من القواعد الغربية ما لبث أن انتقل إلى العالم العربى ذاته، وكان هذا الانتقال حرفيا عندما قامت دولة قطر باستيراد طاقم كامل كانت محطة الـ BBC البريطانية قد استخدمته فى محطة ناطقة باللغة العربية بمساعدة مالية من المملكة العربية السعودية، وجاء هذا الطاقم بكامله لكى ينشئ قناة الجزيرة. وكانت هذه القناة ثورة بكل المقاييس على الأصول التى جاءت منها والتى تعرف الحياد والموضوعية والمعرفة الحقة للفارق بين الصحافة والسياسة فى الوظيفة والفن والأسلوب والوسائل

والمشروعية، وعلى البيئة التى زرعت فيها والتى لم تكن تعرف إلا أدوات بدائية ومملة للإعلام والصحافة التليفزيونية.

وللحق فإن محطة الجزيرة أحدثت فورة كبيرة فى الإعلام العربى كله، مدت آثارها لكل أنواع الإعلام الحكومى والتقليدى الذى كان قد ترك مكانه منذ وقت طويل للإذاعة البريطانية ومحطات صوت أمريكا ومونت كارلو الإذاعية، ومنذ التسعينيات لمحطات CNN و الـ BBC والمحطات التليفزيونية الأوروبية المختلفة لكى يبحث فيها المواطن العربى عن الحقيقة. وبشكل ما وجدت كل المحطات الحكومية وغير الحكومية نفسها خارج المنافسة ما لم تجار المحطة الجديدة فى برامجها، وتحاكيها فى أساليبها وبرامجها التى كانت فى الأصل صورا مشوهة للبرامج الغربية الرئيسية. ولما كانت درجات الحرية المتاحة فى كل دولة لها حدودها ونواهيها، وكانت الكفاءات الفنية لها قدراتها وطاقاتها المعلومة، فقد تراكمت درجات مختلفة من التشويه الذى أسفر فى النهاية عن حالة زاعقة ومرهقة من المزايدة السياسية والفكرية.

صحيح أن الفضائيات العربية وسعت إلى حد كبير من مساحة الحرية المتاحة للمواطن العربى، وبات فى مقدور المكممة أفواههم، والمكسورة أقلامهم، أن يتفاعلوا بالتليفون أو بالفاكس أو بالإنترنت مع ساحة واسعة وممتدة من الوطن العربى. ولكن من جانب آخر تولدت عن ذلك مجموعة من المشكلات والقضايا التى لم تلق اهتماما جديا حتى الآن. فمن ناحية بدا أن الحديث على المحطات الفضائية هو البديل عن خلق المؤسسات التى من خلالها يتم البحث فى السياسات والتدبر فيها، ومن خلالها يتم تمثيل الشعوب بوسائل اختيار مشروعة، وباختصار كانت الديموقراطية الفضائية بديلا عن الديموقراطية الحقة التى طورتها البشرية عبر عقود طويلة ومن خلال تضحيات وثورات عدة. ويبدو أن الحكام العرب وجدوا فى الموضوع ملهاة جديدة للشعوب يستفيدون منها فى تأجيل ما لم يعد ممكنا تأجيله فى العالم المعاصر، فتسابقوا على خلق الأنواع من المحطات الفضائية التى تسير على غرار الجزيرة، وهكذا أعطت التكنولوجيا المعاصرة قبلة الحياة لنظم سياسية لم يعد يعرف العالم مثيلا لها.

ولم يحدث ذلك من فراغ، فقد استدعت الفضائيات العربية، وفى المقدمة منها قناة الجزيرة، تقاليد إذاعة صوت العرب القديمة فى الستينيات تحت قيادة أحمد سعيد، وطورتها بأساليب القرن الحادى والعشرين، وبالصوت والصورة الملونة هذه المرة، وراحت تلهب الوطن العربى كله ليس بالتفرقة بين البلدان الرجعية والأخرى التقدمية، أو بين البلدان الثورية وتلك المحافظة، أو بين الملكيات والجمهوريات كما كان هو الحال فى الماضى، وإنما بين كل بلد عربى والبلد الآخر، وبين كل مواطن عربى والمواطن الآخر. وبعد أن وضعت معايير وهمية للحلال والحرام، والصواب والخطأ، والأنبياء والخونة، وأخرى لما تسميه المصالح العربية العليا، وما يريده ولا يريده الرأى العام العربى والجماهير العربية، راحت تلهب ظهر الجميع بين شعور إحباط مفرط وثورة عارمة. وعلى الطريق لم يكن هناك طريق للتنوير والتقدم، ولا طريق أو نموذج للديموقراطية وتبادل للسلطة، فمثل ذلك كان حريًا به أن يفقدنا الخصوصية القومية فى الشمولية وانتهاك حقوق الإنسان، ومن يعرف قد ينقل لنا نموذجا غربيا أو عالميا لا تقدر معدة الشعوب والحكام على هضمه.

ولكن، مهما كان الأسلوب فقد كان المضمون واحدا فى ستينيات القرن الماضى وبدايات القرن الحالى، فلم يكن المقصود الأخذ بيد العالم العربى إلى عصر جديد، ولم يكن المطلوب بحثا فى أسباب التخلف التقنى والصناعى والسياسى والاجتماعى، ولكن كان المقصود والمطلوب حالة تعبوية لمواطن هائج ومائج ومحبط ولا يعرف على وجه التحديد ما الذى يثور عليه، ويمسك به من إمكانات وقدرات للحركة والفعل. وبلا استثناء وفرت المحطات الفضائية للمواطن العربى منصات يتحدث منها ولا يستمع، يجيب فيها ولكنه لا يطرح الأسئلة. ولأول مرة فى تاريخ البرامج الإخبارية فى العالم ظهرت كلمة المداخلة أو التعليق الذى يمتد لفترة طويلة خارج الموضوع أو داخله، ولكن المهم أن يكون فيه ما يكفى من اللعنات، والمعلومات التى لا يعلم أحد من أين جاء بها المواطن على وجه التحديد، ولماذا يعتقد فيها بمثل الاعتقاد فى الكتب المقدسة، والتحليلات التآمرية التى تلقى المسئولية على كل دول العالم ومواطنيه، أما المتحدث فليس له دور أو فعل أو مسئولية. وربما كانت هذه المداخلة أو التعليق مفيدا، ومجالا لتحويل البرامج إلى ندوات تحاكى المجالس والدواوين العربية التقليدية، ولكن المشكلة هى أن هذه المداخلات والتعليقات كثير

منها مدبّر، وصار له نجومه وفنانوه الذين لهم قدرات خارقة على الصراخ والمزايدة، وكلما احتدم الخلاف والزعيق والصراخ بين أطراف عدة، كانت السعادة البالغة على وجه مقدم البرنامج، وتبادل مع معاونيه التهنئة فقد كانت الحلقة حامية، والدراما فى أوج قمتها.

ولم يكن ذلك جديدا بالمرة، ففى عصور الانحطاط العباسى، وتدهور الحضارة العربية، صار الهجاء فى الشعر هو قمة البيان، وما حدث أنه صارت لدينا أعداء أكثر من الفرزدق، وأعداء أكثر من جرير، وتعاملوا مع بعضهم البعض بوسائل القرن الحادى والعشرين. المدهش فوق ذلك كله أن المحطات الفضائية، وهى تعود بنا إلى أساليب فترات الانحطاط العربى، لم تتخل قط عن قواعد انطلاقها، فبينما تقوم برامجها بتسطيح العقل العربى، فإنها فى ذات الوقت قامت بالاعتماد فى الجانب الأعظم من وقتها على المادة العلمية التى تأتى بها من الغرب الذى تلعنه صباح مساء، ولم يحدث إطلاقا فى التاريخ العربى الحديث أن بات الإعلام العربى معتمدا على الأفلام الأمريكية، والبرامج الأمريكية، كما هو الآن. ولو أنه حدث تحليل لوقت هذه المحطات الفضائية لوجدنا أن الأخبار الأمريكية، وحتى ما يجرى فى حالات الطقس الأمريكية، هى التى تسيطر على الوقت العربى مهما كان الزعيق عاليا حول معاداة الولايات المتحدة التى تقف بوارجها على الشوطئ القريبة من محطات البث والإذاعة. ولم يكن مهما فى هذه الحالة أن يموت الفيلم العربى ويحتضر، أو أن يتراجع المسرح العربى ويذهب تقدمه، فيكفى بعد ذلك عدد من اللعنات لتمسح كل الخطايا !!.



الفصل الثانى

فى الرياضة..



١ـ لماذا لا نفوز بكأس العالم؟!

نعم لماذا لا نفوز بكأس العالم؟ ولماذا ـ أيضاً ـ لا نخرج من دائرة ظلمات العالم المتخلف إلى نور وساحة الدنيا المتقدمة؟ وإلى متى سوف نظل محسوبين ضمن «الجنوب» والدول «النامية» و«العالم الثالث»؟ وباختصار شديد متى يحدث التقدم فى بلادنا، فنصير مع هؤلاء الذين يصنعون تاريخنا ومستقبلنا، فنعيد تشكيل الكون معهم كما يفعلون ويصنعون؟ هل صحيح أنه «مكتوب» فوق جبيننا بفعل الثقافة أو القدر أو الاستعمار أو المؤامرة الدولية ـ كما يزعم هذا وذاك داخلنا وخارجنا ـ أن نبقى متأثرين بغيرنا بلا قدرة على الفعل والتأثير، أم أن هناك طريقاً آخر يمكننا أن نسلكه، فلا تتملكنا الابتسامة، أو الضحك، أو حتى القهقهة حين تطرح ـ مجرد أن تطرح ـ مثل هذه الأسئلة علينا، أم أننا استسلمنا لما استقررنا عليه فى النهاية ضمن الحلقة الجهنمية للفقر والتبعية، ولم يعد لنا سوى القبول بالأمر الواقع، وعندما نتمنى فإن أقصى ما تستطيع طموحاتنا وأحلامنا وآمالنا أن تصل إليه هو «التمثيل المشرف» فى روما. هكذا.

ولعل ذلك هو بيت القصيد، فالشعوب التى فقدت، أو تركت طواعية، حق الحلم، وإرادة التقدم هى التى تستنكف، وترفض فى الحقيقة طرح هذه الأسئلة البديهية

على نفسها، وهى التى فى النهاية تفقد القدرة على العمل والحركة، وتتطلع أبصارها إلى ما يأتيها به الآخرون - سواء لبسوا عقالا أو قبعة، من الاشقاء أو من صندوق النقد الدولى - من معونات وصدقة، وتصبح أقصى الطموحات «المشرفة» أن تحدث إعادة الجدولة لديوننا، وأن تبقى الأمور، كما هى عليه ولاتتدهور إلى أسوأ مما اعتدنا على سوءه. ومن المدهش أنه منذ أكثر من قرن ونصف قرن كان لدينا القدرة - والشجاعة فى الحقيقة - على أن نطرح هذه الأسئلة ونجيب عنها بمشروع حقيقى للنهضة. لم يكن الحال أفضل مما هو الآن، كان هناك استعمار عالمى فتىّ مسلح بالتكنولوجيا والتجارة والصناعة والأفكار، وكنا مازلنا فى سبات عصورنا الوسطى.. حين حدثت المواجهة لم نتوان عن طرح الأسئلة الكبرى، لماذا تقدموا وتخلفنا؟ لماذا انتصروا وانهزمنا؟ لماذا هم فى الغرب السادة ونحن المسودون؟ لم يضع أحد رأسه فى الرمال حتى لا يرى الحقيقة، لم يعتبر أحد التخلف قدرا، لتكوين مشروع للمقاومة والتنوير والتعليم والتصنيع وحتى الوحدة من المحيط إلى الخليج!! ربما نختلف حول محمد على وإسماعيل وسعد زغلول ومصطفى النحاس وجمال عبد الناصر، وربما لا نتفق حول حجم وتأثير الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين وطلعت حرب وطه حسين والعقاد وغيرهم، ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل أن هؤلاء جميعا لم يتوانوا عن طرح الاسئلة الكبرى ومحاولة الإجابة عنها، نجحوا أو فشلوا أو كلاهما معا!!.

لم يكن لديهم هذا الاستسلام المخيف لمكاننا فى العالم، بينما الدنيا فيها الأبيض والأصفر والأسمر يجد مكانه فى دائرة التقدم. منذ ما لا يزيد على ثلاثة عقود كانت المكانة العلمية والصناعية المصرية أفضل أو تتوازى مع كوريا والصين والهند والبرازيل وتركيا وتايلاند وماليزيا وكافة الدول التى «تتخرج» الآن من صفوف العالم الثالث إلى صفوف العام المتقدم، وربما لا تمثل هذه الدول فى كأس العالم، حتى تبحث عن «التمثيل المشرف» فيه، ولكن حقيقة تخرجها تجعلها على أبواب الحصول على كثير من الكؤوس، وربما لا تكون كرة القدم واحدة منها وهذا هو لب القضية فالتقدم قضية شاملة، ومرحلة من مراحل الانتقال من حالة أدنى إلى حالة أعلى وأرقى، وقودها الحقيقى أداة مجتمعية - وليس حكومية فقط - تصر على رفض الواقع، وتطرح الأسئلة الكبرى وتجيب عليها بمشروع للتقدم تدفع ثمنه بلا تردد أو مماحكة.

وهى حالة تشمل كل أوجه الحياة فى التعليم والصحة والسياسة والاقتصاد والأخلاق العامة والخاصة، هى حالة نهوض عظيم لا تعرف التجزئة أو التفتت أو الجرعات، وفيها الكثير من الطموح والأحلام والآمال. فى مصر، عرفنا حالات خاصة للانطلاق، فنعرف ما حدث فى معركة ١٩٥٦، والسد العالى، وعبور القناة وغيرها من المعارك فى كل مرة فإن حالة من الحماس والفوران القومى تنتابنا بقوة، وينتظم الجميع فى الصف بقدرة مدهشة على الحركة والعمل، وما إن يتحقق الهدف حتى نظن أننا حققنا المراد من رب العباد، ويعود كل شىء إلى سيرته الأولى، وبطريقة ما نتفرد فى إيداع هذه المعارك والمسيرات متاحف التاريخ، وتتحول إلى أغان وذكريات واحتفالات سنوية نأخذ لها إجازة للارتخاء والاسترخاء. ولدينا هيئات من يزورها يتخيل أنه فى العالم المتقدم، هناك هيئة قناة السويس، والهيئة العربية للتصنيع الحربى، ومؤسسة الأهرام ومجمع الألومنيوم وغيرها، ولكنها أشبه بالجزر المعزولة عن بعضها البعض، وبينها وبقية الوطن بهيئاته ومؤسساته الغارقة فى بحر البيروقراطية والخمول. والأهم من ذلك كله أن لدينا عبقريات متفردة فى كثير من المجالات، وخرج منا مجدى يعقوب ونجيب محفوظ وغيرهما كثيرون، وهؤلاء نجلهم ونقيم لهم الاحتفالات ونضىء لهم الشموع، وكأننا نستبدل بعبقريتهم الفردية خيبتنا وقلة حيلتنا الجماعية.

وهكذا، فإن التقدم لدينا معارك منفصلة، هيئات معزولة وحركة جماعية وعبقريات فردية، وليس نسقا وحركة جماعية للخروج من هوة التخلف إلى الآفاق الرحبة لكل ما هو حديث وعلمى ونبيل فى عالمنا، فرؤيتنا للحركة التاريخية أشبه بتسجيل نقاط تدل من وقت لآخر على أن مصر أم الدنيا لها مكانٌ ومكانة فى دنيانا، ومسيرة الفريق القومى، عاطفيا وسيكولوجيا تشرح ذلك. دون عناء كبير تكونت لدينا عقدة الوصول إلى كأس العالم الذى يضعنا فى نفس المستوى مع دول كانت تحسدنا فصرنا نحسدها. وفى نوبة من نوبات الحشد القومى انتظم الجميع فى الصف حكومة ومعارضة، السلطة والجماهير، وحتى المجلس الأعلى للرياضة واتحاد الكرة!.. ووسط ذلك كله اكتشفنا عبقرية مصرية فى شخص مدرب استطاع أن يضع خطة علمية والأهم أن ينفذها، وهى مسائل كلها نادرة فى حياتنا الحالية، ولكنها حدثت، ووصلنا إلى كأس العالم وبعد ذلك يعود كل شىء وفق النمط المصرى التقليدى، فقد أحرزنا

نقطة وانتهى الأمر، ووصلنا إلى روما ولم تعد هناك مشكلة، آمالنا انتهت وتواضعت، وبقيت عند التمثيل المشرف!

ويبدو النمط المصرى أكثر وضوحا فى عزلة الحدث نفسه. فهو لا يعبر بأى معنى عن تقدم الرياضة فى مصر، وهى تعبير عن تقدم الصحة العامة، والمجتمع ككل، وإنما هو حادث يقف وحده، وتفردت فيه عبقرية فردية، وضمن ظرف استثنائى، سوف ينضم بعد قليل إلى متاحفنا التاريخية العامرة بالتحف والأحداث، وهكذا فإن الحدث يصبح بديلا عن التقدم الشامل، فهو يرضى غرورنا للحظة، ويجعلنا نتخيل أننا على سطح الدنيا، وأن لدينا رياضة، فى الوقت الذى تشير فيه كل المؤشرات إلى تدهور مستويات الصحة العامة، أظهره العجز الفاضح لدى المتقدمين للكليات العسكرية. ويبدو أن هذا النمط أصبح مغريا لدى كثير من المسئولين، حتى إنهم لا يرون التقدم ممكنا بالمعنى الشامل، وإنما من خلال مؤسسات جديدة، تنشأ خارج المؤسسات القائمة، وتحشد لها كل الإمكانات حتى تنجح وتتقدم. النموذج التقليدى كان هيئة قناة السويس والنموذج الحديث هو السعى لإنشاء واد للعلماء، رغم وجود المركز القومى للبحوث وأكاديمية البحث العلمى المتخمين بالعلماء والباحثين، والفكرة مأخوذة من وادى السليكون الشهير بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث تجتمع نخبة من تكنولوجيا الثورة الصناعية الثالثة ولكن وادى السليكون لم يتكون بقرار من وزير الدولة للتنمية الإدارية الأمريكية - حيث لا وجود لهذا المنصب - وإنما من خلال تقدم صناعى عام، وعلى الشركات الكبرى أن تقيم مراكز ومعامل البحث والتطوير فى هذا الوادى البعيد، فلم يتخذ أحد قرارا بذلك، وإنما جاء نتيجة تطور مجتمعى عام تطورت معه أماكن وأساليب البحث العلمى وسواء نجحنا أو فشلنا فى إقامة وادى السليكون المصرى، فإن النتيجة واحدة: جزيرة أخرى معزولة مقطوعة الصلة بباقى المجتمع، وربما تثير الحسد من باقى الجزر الأخرى الآخذة فى التآكل والغارقة فى البيروقراطية والتى يعانى علماؤها شح اليد وفقد الميزانية.

مرة أخرى، فإن سر المحاولة هو أن نقفز إلى التقدم ليس من خلال خطوات مجتمعية شاملة، ومشروع نهضوى عام تنفخ فيه الروح فى المؤسسات القائمة بالفعل حتى تؤدى كل منها دورها التى أقيمت من أجله، وإنما من خلال مشروع واحد، نتصور أنه يمكن أن يقوم بدور القاطرة التى تشد المجتمع كله وراءها. ولكن الحقيقة

غير ذلك، فكل التجارب التى سبقتنا لم تتقدم على طريقة القطار الذى يشد بعضه بعضا، وإنما على طريقة الانشطار النووى التى تتزامن فيها تفاعلات هائلة فى فترة زمنية قصيرة تنتقل فيه المادة من حالة إلى أخرى. وهى تفاعلات وقودها طاقة كبرى يمكن أن نسميها أداة التقدم وهى إرادة لا تتكون إلا إذا توافر قدر كبير من رفض الأمر الواقع، والقاع الذى وصلت إليه الأمة، والتخلف الذى اجتاح البلاد فلم يكن ممكنا لكوريا أن تخطو خطوات التخرج من العالم الثالث مالم تصل إلى قناعة بعد الحرب الكورية فى منتصف الخمسينيات أن الأمور لا يمكن أن تستمر على ما هى عليه، ونقول كوريا ولم نذكر اليابان وألمانيا بعد الحرب. والأمثلة كثيرة فى الصين والهند وسنغافورة وتايوان والبرازيل وغيرها، حيث واجهوا حروب الأفيون واستنزاف القوى الاستعمارية والحصار الخارجى، وكان رد فعلهم النهوض والتقدم.

ويواكب إدراك الواقع طموح شديد وآمال كبرى وإيمان بالقدرة على تحقيقها. وهى مسألة تختلف كلية عن طريقتنا، فهى تعنى أولا المعرفة والمعلومات عن الحالة التى وصلنا إليها مهما كانت مرارتها، فلا يقال إن صادراتنا تضاعفت خلال الثمانينيات بينما تعود زيادتها إلى هبوط سعر الجنيه المصرى أكثر منه زيادة حقيقية فيها. هى ثانيا تعنى معرفة بما نريد تحقيقه وإيمانا بالتقدم، فليس صحيحا أن ماضينا يمكن أن يكون أفضل من مستقبلنا، وأن الولوج إلى عالم المستقبل ضرورة لا غنى عنها لاستمرار ثمن علينا أن ندفعه فلا مكان هنا للتكاسل، أو التصور أن كل جهد نبذله عليه أن يوفر الراحة والسعادة للجميع، لم يحدث ذلك من قبل ولن يحدث ذلك الآن، وعلى كل إنسان فى الوطن أن يتحمل مسئولياته، فليس معقولا أن يتخلى الآباء عن مسئولياتهم كآباء ويطالبوا وزير التعليم بأن يعدل مواعيد امتحانات الثانوية العامة حتى لا تتعارض مع مشاهدة أبنائهم لمباريات كأس العالم القادمة فى يونيو، هكذا!!

والأهم رابعا أن نستبعد الأسباب غير الجوهرية التى نتصور أنها تقف فى سبيل تقدمنا. فغير صحيح أن مشكلة مصر هى رأس المال، فخلال العقد والنصف الماضى دخل مصر مايزيد على مائة ألف مليون دولار (قروض ومعونات وتحويلات عاملين ومصادر أخرى) وهى أكبر كمية من الدخل حصلت عليها مصر منذ بناء الأهرامات، ولم تتوافر للكثير من دول العالم الثالث الأخرى، وليس صحيحا أن سبب تخلفنا يعود إلى الزيادة السكانية، فرغم أنها تمثل إحدى مشكلات مصر الملحة، فإن معدلات

الزيادة فى مصر من أقلها فى الشرق الأوسط، وتكاد تمثل المعدل المتوسط فى العالم الثالث. وإذا نسبنا عددنا إلى مساحتنا، ربما فلحنا فى فهم اللغز الذى يجعل بريطانيا التى لديها عدد سكان أكبر ومساحة أقل، تنتج مايزيد على عشرة أضعاف الناتج القومى الإجمالى المصرى. هل نتحدث عن اليابان التى لديها أكثر من ضعف عدد سكاننا ويعيشون على ثلث مساحتنا وبلا موارد طبيعية على الإطلاق، ومع ذلك فإن ناتجها القومى الاجمالى يبلغ خمسين مرة تقريبا حجم ناتجنا القومى بعد تدمير شامل وكامل خلال الحرب استخدمت فيه لأول وآخر مرة القنابل الذرية.

المشكلة الجوهرية فى طريق تقدمنا ليس المال وليس السكان، فهما قد يشكلان عقبة فى بعض الأوقات ولكن لم يحدث أن توقف تقدم دولة بسبب زيادة البشر أو نقص الموارد. مايفرق بين مجتمع أو آخر هو العمل وإرادة التقدم والرغبة فى اقتحام المستحيل والاستعداد لتحمل المسئولية، كل فى موقعه، فليس متصورا فى أى بلد من بلدان الدنيا أن تحدث كارثة لمحصول القطن كما حدث لدينا ثم يبقى كل مسئول فى موقعه. وفى الغرب يقولون - تهكما علينا بالطبع - إنه لا يمكن أن تحصل على غفوة بعد الظهر وتتحدث عن إنتاج الوقود الصناعى فى نفس الوقت، المعنى هنا أنه لا يمكن الحصول على التقدم فى الوقت الذى يبحث فيه كل فرد عن الراحة والنوم، فأسلوب الحياة لابد أن يتغير فى الحكومات والمؤسسات والأفراد لخلق مناخ جديد من التقشف والزهد. هذا مناخ يعنى تكاليف وثمنا مدفوعا، ولكن وراءه عائدا سوف نجنيه فى حاضرنا ويحصل عليه أولادنا من بعدنا.

وإذا كان هناك ثمن مدفوع، فلا بديل عن المشاركة فى اتخاذ القرارات الخاصة بتحمل الأعباء. فلا أظن أن المصريين حالة استثنائية بين شعوب الأرض لا تطمع فى غد أفضل من حاضرها. والثابت أنهم على استعداد للتضحية إذا كان أمامهم مشروع للتقدم والنهضة، وشاركوا فى صناعته وفى اتخاذ قراراته، وساعتها فإنهم يتحركون فى حشد منتظم وجبار فى اتجاه تحقيق الهدف الوطنى، وساعتها سوف تكون هناك كؤوس عديدة، ولن يسخر أحد إذا ما تساءلنا عن الفوز بكأس العالم. وربما فى حينها لن يهتم أحد بطرح السؤال، لأنه سيكون بأيدينا كأس التقدم!!

٢ـ كأس العالم وأشياء أخرى!

لا أدرى من أين جاءت كل هذه الأعلام المصرية والفرحة العارمة التى خرجت إلى الشوارع بعد تعادل فريقنا القومى مع هولندا فى واقعة مشهودة. ولكن ما أدرى حقا أنها كلها عبرت عن أحلام وأشواق مكبوتة، وطاقات هائلة مخزونة تبحث عمن يأخذ بيدها إلى طريق يكون فيه الوطن أكثر صحة وعافية. وقد يبدو فى ذلك مبالغة لدى كثيرين، فالأمر بالنسبة لهم فى النهاية «لعب كرة»، وأن الأمة كعادتها ـ انساقت وراء شحن إعلامى، لتنسى بعد ذلك أزماتها الملحة، ومشاكلها المزمنة، والأخطار المحدقة بها فى الداخل والخارج.

ولكن الحقيقة أعقد من ذلك بكثير، ربما تفصح عن نفسها إذا اطلعنا على الصحف والمجلات التى صدرت صباح يوم المباراة. وربما عبر عن كل ما كتب رسم كاريكاتورى ركع فيه مصرى يطلب من الله «لارد القضاء ولكن اللطف فيه». الكتابات كلها بعد ذلك تنويعات على هذا الموجز الذى لخص حالتنا النفسية والعاطفية. فشيخ النقاد الرياضيين استدعى «دعاء الوالدين» وطلب مدرب الفريق أن يرص فريقه كله أمام المرمى لعل وعسى نمنع الزحف الزاحف علينا، وكاتب شهير رأى فى أسماء لاعبينا المصرية ما يجعلهم بالطبيعة أقل شأنا من نجوم أوروبا اللامعة. وأن فريقنا القومى يوم فى السماء السابعة ويوم آخر فى أسفل أرض، وأن المسألة كلها تتوقف على الحظ والمزاج المصرى المتقلب، وكاتب آخر ـ لا يقل شهرة ـ بعد أن أعلن أن مصر ليست إفريقية رغم أنها تقع فى إفريقيا، وليست عربية رغم أنها تتكلم العربية، وأنها خليط من الأتراك والفرنجة وغيرهما من الجنسيات، فإن مصير المباراة سوف يرتهن بأن يصيبنا حظ الكاميرون. بالطبع، فإن أكثر من مقالة، وإعلان، كان عنوانها «يارب»!!

الخلاصة إذن أن كتاب الشعب ومفكريه وصلوا إلى نتيجة مؤداها أن «المنطق» هو الهزيمة، وأن ماعداها هو نوع من بركة السماء أو الحظ أو المزاج. وجاءت الخلاصة كمحصلة لجهد جهيد من الكتاب والمعلقين طوال الشهور الماضية تؤكد أن

الوصول إلى روما هو غاية المراد من رب العباد، وأن «التمثيل المشرف» هو غايتنا، حتى إن كثرة منهم استكثرت على مدرب الفريق أن يطالب لاعبيه بأكثر من ذلك، والمطلوب من الرجل أن «يشحن» لاعبيه بأن أقصى ما يراد منهم «الهزيمة برجولة»!! وهو مطلب لا يعرفه مدرب فى العالم: شرقه وغربه، شماله وجنوبه!

ولكن هذا ما قيل. وكأن الهزيمة مكتوبة على جبيننا كالقدر المحتوم والقضاء النافذ، لم يقل أحد لنا أنه من الممكن التفوق بالتخطيط العلمى لمواهبنا وقدراتنا ومن خلال التدريب والعرق والدموع والإيمان الحقيقى بالله الذى لايضيع أجر من أحسن عملا، وإننا مثل غيرنا من الأمم لا توجد نقيصة كامنة بيننا تجعل التخلف والانكسار طريقا لابديل عنه. ولعل ذلك بيت القصيد ليس فقط فيما يتعلق بكرة القدم وإنما فى كل مجالات حياتنا. فقد تولد لدينا إحساس هائل بالدونية والتخلف إزاء العالم الخارجى إلى الدرجة التى تجعلنا نفقد الإيمان بأى قدرات لدينا. وما دمنا لسنا عربا ولا أفارقة ـ وربما حتى مصريين ـ فإننا نصبح بلا هوية ذات نخوة وكرامة. وخلاصنا الفردى يأتى من عقد عمل فى دول النفط، وإنقاذنا الجماعى يتم عبر الهبات والمعونات ورضا صندوق النقد الدولى.

نفس هذا المنطق المهزوم هو ما سيطر على المنتقدين لمسلسل ليالى الحلمية وتعاطف الشعب المصرى معه. فقد هالهم أن يكون حماسهم لعمل فى ظنهم ـ وهو غير صحيح ـ يصفق لهزيمة يونيو ويشيح الوجه عن انتصار أكتوبر، فما تحمست له الجماهير حقا كان استعادة أزمان رجولة وإيمان، تلقينا الضربة وصمدنا، وعقدنا العزم وتدربنا، ورفعنا هامتنا. لم نعتبر الهزيمة قدرا ونهاية.

ولذلك وقف الناس مع الجوهرى وفريقه، لأنهم وبحاسة الشعوب السادسة رأوا جهدا وعملا وعلما وزهدا وتقشفا. فلم يعد ذائعا بيننا كثيرا أن يقرر حفنة من المصريين أن يقتطعوا من عمرهم عامين فى التدريب والحرمان من الأكل والأهل من أجل إعلاء اسم مصر فى ميدان من الميادين، وحتى عندما حصل واحد منهم على عقد فى الخليج لم يلبث بعد أشهر قليلة أن ترك كل شيء ليرفع علم الوطن. ولم تكن المسألة إعجابا فقط، ولكنها كانت عملية تعليمية للجماهير نفسها. فقد تخلصت

من تأثير النجم الأوحد، ومن الخوف من هزيمة فى الطريق الطويل والشاق، وأن الوطنية تجمع تحت أعلامها كل المصريين.

فالذين دعوا وصلوا وخرجوا إلى الشارع بعد النتيجة لم يعرف فيهم المسيحى أو المسلم. وربما لم ينتبه أحد إلى أن ما تحقق وأنجز شارك فيه سمير عدلى المصرى المسيحى ـ والمدير الإدارى للفريق، بقدر ما ساهم محمود الجوهرى المصرى المسلم ـ والمدير الفنى للفريق. وأن الأمر كان محصلة عرق وجهد تساوى فيه المقاتل المصرى المسلم أحمد رمزى مع المحارب المصرى المسيحى هانى رمزى. لم يفطن إلى ذلك أحد والجميع يهتف: الله أكبر، ويدعو: يارب!! كان ذلك شيئًا مختلفا عن هؤلاء الذين يظنون الإيمان تم اختصاره فى استهجان كعوب النساء وحرق الكنائس!!

كان الخروج إذن تعبيرا عن «مصرية»، خالصة، تطل برأسها فى جيشان يتطلع إلى هزيمة الهزيمة داخلنا ورفض هؤلاء الذين يصرون على حصارنا بالتقليل من شأننا، ومحاصرة الجزر القليلة عندنا التى ترنو إلى الانتصار والتقدم وإعلاء هامتنا بين الأمم، لافرق هنا بين فريق كرة مستديرة يلعب فى إيطاليا ومؤسساتنا.

فبرغم كل مظاهر التأييد للفريق القومى والمثل التى يمثلها، فإن فى داخلها أيضاً رفضا لكل ما يناقض ذلك، رفضا ولفظا للذين يكسرون مجاديفنا، ويمزقون أشرعتنا بأننا غير قادرين على ممارسة الديموقراطية!

الرسالة التى يرسلها المصريون حازمة وقاطعة لمن يهمه الأمر، وهى أن مصر تستحق أكثر مما هى عليه، وسواء فاز الفريق أو انهزم، فإن لديهم الوعى أن الكرة مستديرة، وأن الرجال حقا لا يأخذون الضربة ويردون الصاع صاعين، فلم يعد مقبولا أن يحرز فينا هدف، أو يضرب الطيران، أو تحدث الثغرة، ثم بعد ذلك ننهار المطلوب أن نقاتل فى دنيا مليئة بالمقاتلين الأشداء المسلحين بالعلم والجهد والإيمان والإنسان المصرى ليس أقل من هؤلاء. المهم أن نعطيه الثقة، ونصارحه بالحقائق، ونشركه فى الفشل والنجاح عبر مؤسسات تقوم على العلم وتجعل مصلحة مصر وهويتها فوق الجميع!.

٣. الطريق إلى كأس العالم!

فى البداية، وحتى لا ينزعج أحد من النقاد الرياضيين. فإن مايلى هو حديث فى السياسة، وليس الرياضة، وعن الاستراتيجية القومية، وليس عن كرة القدم، ولا علاقة له اطلاقا بمشكلة طاهر أبو زيد الشهيرة، أو بالتكتيك الكروى الدفاعى الذى طالب الخبراء به ثم هاجموا الجوهرى عليه. وكذلك وحتى لا ينزعج أحد آخر، فإن مايرد هنا ليس محاولة لركوب الموجة، وتزييف وعى الجماهير وصرفها عن مشاكلها الملحة والمزمنة.

وإنما الحال، كما كان فى مقالات سابقة، هو أن نستغل فرصة انتباه شعبنا إلى حدث اعتبره هاما لكى نستخلص الدروس والعبر، وربما نتلمس الطريق إلى غايات نبيلة. وإذا كان مدرب الفريق القومى يعدنا بالمنافسة على كأس العالم فى ١٩٩٤، فلماذا لا نستغل الفرصة ونعلن عام ٢٠٠٠ نهاية للمصائب والمحن. فلا يأتى القرن القادم إلا وموازيننا الاقتصادية المختلفة معدولة، وتنتهى الأمية فى مصر، ولا يبقى لأحد دين علينا، فلا نذهب فى ركاب الأرض نبحث عن المعونات والهبات.

ولكن فى مصر، فإن المسألة لدى كثيرين مختلفة، وما تم اقتراحه لايعد إلا من قبيل الأحلام والأمانى الطيبة. وفى الحكومة فإن أقصى ما وصلت إليه الطموحات أن تصل صادراتنا فى نهاية القرن إلى عشرة بلايين دولار، هذا إذا كان التوفيق والحظ وضربات الجزاء الترجيحية بجانبنا، واستمع الشعب إلى الوصايا والتوصيات. وهو كم يسأوى ثلث الصادرات الحالية لسنغافورة، وهى لمن لا يعرف جزيرة صغيرة فى جنوب شرق آسيا تحتاج إلى عدسة مكبرة حتى يمكن اكتشافها على الخريطة، وعدد سكانها ٢,٥ مليون نسمة، وهو قدر - على أية حال - لايسد رمقا أو يغنى من جوع. وحتى تتضح الصورة، فإن خدمة الدين المصرى سوف تصل فى عامنا الحالى - ولا نتحدث عن أعوام سابقة أو حتى عن أصل الدين - ٧١٤١ مليون دولار، وفى العام القادم ٦٨٤٦ مليونا أخرى، والعام الذى يليه ٨٠٣٠ مليونا ثالثة من استثمار وبطالة وإصلاح التعليم والصحة، إلى آخر قوائم مشاكلنا ونوائبنا المعروفة.

والحق يقال أن الحال داخل النخبة ـ المؤيدة للحكومة والمعارضة لها ـ لا يختلف كثيرا. فرغم أن الجميع يتحدث بحماس عن الإصلاح السياسى والاقتصادى والأخلاقى، فإنهم فى نفس الوقت متفقون على التدرج بالجرعات حتى لا يهتز الاستقرار السياسى، والسلام الاجتماعى، والأمن النفسى وربما كان هذا بيت القصيد.

ولكن أحدا لا يحاول أن ينظر إلى المسألة نظرة أخرى، وهى أن مصر صحيحة وعافية. وإن لديها من المواهب والقدرات والموارد مايكفيها وزيادة لكى تعبر المستحيل خلال عشر سنوات، وأن الشعب المصرى ليس ساذجا أو أبله حتى يشده طبل الحكومة وزمرها. ولماذا فى هذه المرة بالذات ينساق المصريون وراء الإعلام وهو الذى يرفض دعاية تنظيم الأسرة، أو زيادة الإنتاج، أو تجنب ترعة البلهارسيا. ولماذا لا يكون الأمر أننا وصلنا إلى درجة من التقدم وضعت تليفزيونا فى كل أسرة، واهتم الشعب بالكرة كما فعلت مئات الملايين من شعوب العالم. ولماذا يكون ذلك حلالا لهم وحراما علينا، خاصة وأننا هذه المرة كانت لنا أعلام وبيارق ونشيد وطنى وفريق، ولماذا لا يكون الأمر كله شعورا بالعزة القومية والحمية والفخر؟

ولا يعنى ذلك أن الشعب نسى ارتفاع الأسعار والديون وما آل إليه حالنا، فكيف ينساها وهو الملسوع بها كل يوم ولحظة؟ ولكن المسألة بالنسبة له واضحة، وهى أن سبب ما نحن فيه ليس مرضا كامنا فينا، وإنما سياسات خاطئة تراكمت خلال السنوات بفعل عوامل داخلية وخارجية، ولا تحتاج إلى جرعات لتصحيحها، وإنما عمليات جراحية لاستئصالها، واستبدالها بأخرى جريئة ومقتحمة، لا تعبر فقط إلى الإدارة الأولى من سباق التقدم فى عالمنا، وإنما تصل إلى أدواره النهائية. وحتى الآن فإن هذا الشعب يلقننا الدرس بعد الآخر فى استعداده للتضحية فى سبيل الهدف الأسمى وهو تقدم مصر ورفعتها.

وربما كان الدرس الأعظم هو تعبير الشعب عن هويته، فبين المثقفين والسياسيين فى مصر صراع عنيف حول هوية مصر الحضارية. وطوال مباريات فريقنا القومى برز هذا على الساحة السياسية، فجريدة الشعب الإسلامية مثلا لم تجد فى كل التجربة إلا إيمان اللاعبين وصلاتهم قبل المباريات ودعوات الجماهير ونداءها بأن الله أكبر، والعلمانيون على افتراق سبلهم ركزوا على الإعداد العلمى والخطط السليمة والعلم الذى أحسن إعدادنا، أما القوميون فوجدوا فى علم مصر العربى دلالة على ازدهار

العروبة، وهكذا فإن الواقع كان كالمرآة لايرى فيها كل منا إلا وجهه. الشعب المصرى كان له رأى آخر، فهو يزهو بأن «الفراعنة» هو اسم الفريق، وهو يرفع العلم (بفتح العين واللام) ويهتف «الله أكبر» ويدعو فى آن واحد، وهو فى كل ذلك يعلم أن لدينا شيئا مختلفا عما كان الأمر فى المرات السابقة التى قامت على الفهلوة وحساب الخواطر وتدليل النجوم، وبديلا عنها كان العلم والتخطيط والسياسة الحكيمة، كل ذلك فى نسيج واحد بديع لا يعرف سفسطة وحذلقة، فالبعض ينسى أحيانا أننا أول أمة عرفت التوحيد، وأننا نشرنا العروبة والإسلام ، وجاء إلى ديارنا المسيح ابن مريم، وفى كل ذلك بذات متفردة مصرية خالصة.

ورغم ذلك، فإن البعض منا يرى فيما حدث نوعا من البلادة الفطرية، فلا يعقل لدى هؤلاء ألايندمج الشعب فى المشاركة السياسية، ويقبل بالمشاركة الكروية إلا إذا كانت هناك مشكلة جوهرية لدى هذه الأمة وتكاد حينما تقرأ لهم تستشف أنهم فى أعماق الصدور يتمنون الوجود فى وطن آخر، وإلا فبماذا نفسر ذلك الوله الزائد بألمانيا وعبقريتها ووحدتها وتقدمها وحتى فريقها القومى!! وهناك حزب آخر لليابان رغم أن نصيبها فى الكرة معدوم، هذا بالطبع بالإضافة إلى الفرق التقليدية التى لا تزال تشيد بالصناعة الانجليزية والثقافة الفرنسية والتجدد الأمريكى. صحيح أننا افتقدنا الفريق السوفيتى - الذى خرج مؤخرا من الأدوار الأولى!! - إلا أن البعض منا - على أية حال - لايزال يراهن على حيوية الأمة الروسية!!

بالطبع، فإنه لدى كل هذه الدول ما يستحق الإعجاب، وإلا لما كانت تكاد تحتكر الأدوار النهائية وناصية التقدم، ولكن المشكلة أن تقدمهم لا يعنى بالضرورة أن الهوان لصيق بنا، أو أن هذا التقدم كان يمكن أن يحدث لولا أن هناك إيمانا عميقا بقدرة الشعوب الجسور على تحقيق ما يبدو مستحيلا. والحق يقال إننا لسنا متفردين تاريخيا بهذه الهواجس، فبعد غزو نابليون لألمانيا كان شعور الإحباط هذا دائماً بين مثقفى الألمان، ومن يقرأ فى حال السوفييت الآن يجد أسبابا كثيرة لانعدام اليقين ولكن فى كل الأحوال، فإن النخبة كانت لا تلبث أن تخرج من شكلها وإحباطها حتى تلهب عزائم وتدفع بأفكار التقدم والنهضة .

ولعل ذلك أول خطوة على الطريق فكلنا نحتاج إيمانا حقيقيا بمصر وشعبها. وهو ليس إيمانا على طريقة الأشعار والأغانى، أو على سبيل الحديث عن الشعب الذى راح

يلقن طلائعه الثورية أسرار آماله الكبرى، بينما يضرب ظهره بالسياط، وإنما عن طريق استكشاف قدراته وإمكاناته الكامنة على التقدم والنهوض.

بعد ذلك تأتى التفاصيل. خريطة الطريق وتعرجاته وما يحف به من غرود وعواصف. ولعلنا وسط أمم العالم لسنا استثناء، فهناك خمسة شروط لابديل عنها للتقدم، لا يختلف فيها الشمال والجنوب والشرق والغرب. فكل من تقدم فى الدنيا كان عليه أن يحقق تراكما رأسماليا عاليا خلال فترة زمنية قصيرة، وهى مسألة لا يمكن أن تحدث إلا فى ظل تقشف شديد وزهد بالغ. والحق يقال إن الشعب المصرى استجاب خلال السنوات الأخيرة، ونصيب الفرد فيه من الغذاء والكساء والطاقة والدخل يتناقص يوما بعد يوم، وهو على استعداد للمزيد، ولكن شريطة أن تبدأ الحكومة بالفعل فى شد الأحزمة حتى آخرها لأنها المستهلك الأعظم فى مصر. والمصيبة أنها لاتكف أبدا عن التضخم والتمدد السرطانى، ولا يمر يوم دون أن نسمع عن هيئات جديدة تنشأ بلا ضابط أو رابط و«الموضة» الجديدة هى إنشاء مجلس أعلى لكل شىء، فهناك مجلس أعلى للسكان، وآخر للداخلية، وثالث للطفولة، ورابع فى الطريق للتصدير، كل ذلك، وهناك هيئة كبرى دستورية اسمها المجالس القومية المتخصصة، ولابد أن أحدا كان يهتم بالسكان والأطفال والأمن والصادرات وغيرها قبل أن تهل علينا المجالس العليا التى لابد أن يرأسها رئيس الجمهورية شخصيا! لقد تضخم الجهاز الحكومى إلى درجة جعلت شراهته الاستهلاكية لا يعلوها سوى عدم كفاءته فى العمل. وفى عام ١٩٥٢ كان لدينا ٢٥٠ ألف موظف عام فى مصر مثلوا ساعتها ٢,٢ ٪ من عدد السكان (وهى نسبة عالية بكل المعايير الليبرالية). وفى نهاية عهد عبد الناصر بلغ عدد الموظفين ١,٢ مليون بنسبة ٣,٨ ٪ من عدد السكان وفى عام ١٩٨٦ (تاريخ آخر إحصاء رسمى) فإن الذين يقبضون من الحكومة بلغ عددهم ٤,٨ مليون أو ١٠ ٪ من عدد السكان أو ما يمثل ثلث القوى العاملة البالغة ١٣ مليونا، هذا جد كثير، ولا يمكن أن نضحك على أنفسنا بادعاء أنهم ليسوا فى حالة بطالة.

الشرط الثالث، أن الانطلاق الاقتصادى لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت هناك سوق متسعة، وهو ما يعطى التكامل العربى أهميته القصوى، ومن أجل ذلك كان قيام مجلس التعاون العربى، ولكننا بعد عام ونصف من اجتماعات القمة، ولقاءات اللجان الوزارية وندوات الخبرات المتخصصة، لم نعد نسمع شيئا، وفجأة ظهر تكامل آخر مع

السوادن وليبيا وسوريا، بل نادينا بتكامل إفريقى فوق التكامل العربى، ولكن المسألة هى: ما علاقة كل ذلك ببعضه؟ وهل هى جادة أولا وأخيرا؟ ولماذا فى ظل كل ذلك تتناقص صادراتنا ولا تزيد؟!

الشرط الرابع يقوم على خلق التكنولوجيا، فرغم أن مشاكلنا الاقتصادية عديدة ومعقدة، إلا أنه فى مقدمتها أننا نعيش على نقل التكنولوجيا، يستوى فى ذلك القطاعان العام والخاص، وكلاهما يسيطر عليه فلسفة التجميع بهدف الإحلال محل الواردات وهو هدف يرمى إلى الاستغناء عن منتج واحد وفى سبيله يتم استيراد كل المنتجات الوسيطة فى إنتاجه، والنتيجة ضغط هائل على ميزان المدفوعات، والميزان التجارى، وقيمة العملة وما لم نتوجه رأسا إلى صلب المشكلة ونعبئ ساحات البحث العلمى حتى يكون المنتج «صنع فى مصر» حقا، فليس أمامنا إلا تفاقم المشاكل ولا أتصور أن الحل يكون بانشاء واد جديد للعلماء وإنما بنفخ الروح فى جامعاتنا ومراكز البحث العلمى، وأكاديمية البحث العلمى، والكلية الفنية العسكرية، وهيئات التصنيع المدنية والعسكرية حتى نحل هذه المشكلة من جذورها.

الشرط الخامس هو الأكثر أهمية من كل الشروط السابقة، بل هو المفتاح الوحيد لتوافرها. فإذا كان المشروع أن نعبر إلى القرن القادم وقد تجاوزنا مشاكلنا الأساسية، وأن ندفع حكومة وشعبا كل التضحيات اللازمة، فإنه لامناص من مشاركة هؤلاء المطالبين بالتعب والكفاح فى أمور تعبهم وكفاحهم، والديموقراطية الحقيقية وحدها هى التى يمكن أن تحقق هذه النتيجة، ولم يكن ممكنا أن يبدأ برنامج جذرى للإصلاح الاقتصادى فى أوروبا الشرقية مالم يكن ركن الديموقراطية وحقوق الإنسان متوافرا، ولذلك تم تبادل السلطة، وسقطت أحزاب ظنت أنها سوف تظل أبدا فى الحكم.. ومع وجود الثقة قبلت الشعوب بمالم يكن ممكنا التفكير فيه من قبل فيه.

هذه هى الشروط الخمسة للنمو والتقدم، وهى شروط تجمع بين كل من يريدون أن يرفعوا الهامة، وينصبوا القامة فى عالم اليوم. وتوافرها ليس سهلا أو ميسرا ولكن الأصعب والأفدح والأكثر خسارة أن تستمر الأمور على ما هى عليه وفق السياسات الحالية، فإن التخلص من مصاعبنا ربما سوف ينتظر حتى القرن الثانى والعشرين، ولا ينبغى أن ننتظر ضربة حظ تقوم فيها دول العالم المتقدم بالغاء الديون وحتى إذا انتظرناها فإنها لن تكون إلا لهؤلاء الذين يستحقونها ويكدون فى سبيلها.

لقد انتهت مباريات كأس العالم والشعب سوف ينتظر الكأس القادمة وسوف يساند ـ كما ساند ـ فريقنا القومى ويرفع أعلامه، ولكنه ينتظر شيئا آخر أن نبدأ انطلاقة كبرى نحو المستقبل يمتلك فيها زمام أموره ويكون بالفعل سيد قراره من خلال انتخابات حرة لمجلس نيابى لاتنازع حرمته المحاكم، ويظلله دستور يضمن توازنا حقا، للسلطات كل ذلك ليس بكثير عليه، وإذا تصور البعض ذلك، فإن غضب الشعب كغضب الله عظيم!!

٤ ـ فى الرياضة والفن.... والسياسة !

فى بداية عام ١٩٩٠ نشرت مقالا بصحيفة الأهرام بعنوان (لماذا لا نفوز بكأس العالم ؟!) . ايامها كان موضوع صعود مصر إلى نهائيات كأس العالم موضوعا يلقى اهتماما قوميا، ربما لم يتكرر منذ فترة طويلة. وبعدها حاولت أكثر من مرة أن أطرق بعض الموضوعات الرياضية والفنية، ولكن فى كل مرة فإن ما كتبته كان يلقى الاستغراب، سواء من جانب الجماعة العلمية المنشغلة بالتحليل السياسى التى انتمى إليها بحكم التخصص والمعرفة، أو من الذين تخصصوا واحترفوا العمل فى هذه المجالات. وكان موضع استغراب الجماعة الأولى نابعا من شعور لديهم بأن ميدان السياسة من الموضوعات الجادة، والتى لا ينبغى لها الاختلاط بالموضوعات الأخرى الخفيفة والمتعلقة بالترفيه والتسلية. اما الجماعة الثانية فقد رأوا فى ذلك نوعا من الاقتحام غير المتخصص لمجالات لها تعقيداتها الخاصة والتى لم يتوافر لكاتب هذه السطور أى معرفة تذكر بشأنها.

وبالنسبة لى، فإن الموضوع لم يكن انحرافا على الإطلاق عن مجال التخصص، ولا إقحاما للهواية فى ساحة للمحترفين. فالأمر فى حقيقته أن الفن والرياضة والسياسة هى ظواهر اجتماعية تعبر عن المجتمع، وتشرح حالته بين التقدم والتخلف، أحيانا بجلاء لا يستطيع التحليل السياسى الوصول إليه. فالحقيقة أن

الرياضة هى الحالة الاجتماعية المثالية للسياسة، فهى مجال للتنافس بين قوى متماثلة أو شبه متماثلة فى القدرة من أجل الامتياز والفوز وفق قواعد متفق عليها ومحددة سلفا. وهذه حالة حاول الوصول إليها كل فلاسفة السياسة وعلمائها منذ عصور موغلة فى القدم. فالمجتمع الديموقراطى الحق يفترض أن كل القوى السياسية فى المجتمع تتنافس أو تتصارع من أجل الخير العام، وفق قواعد تعطيها فرصا متكافئة للوصول إلى الحكم (أو الفوز بخدمة الدولة)، وفق قواعد ينظمها الدستور والقانون.

ولكن واقع السياسة شىء آخر بعيد عن هذه الصورة المثالية، فالقوى الاجتماعية والسياسية ليست دائما متكافئة فى مباراة التنافس على السلطة، كما أن القواعد المحددة سلفا ليست دائما بعيدة عن الشوائب التى تجعلها دائما عرضة للالتواء حسب مقتضيات الحال، كما أن هناك قوى كثيرة ترفض احيانا قواعد اللعبة كلها من الأصل، كما فعلت تيارات الفاشية والشيوعية فى السابق وتفعل قوى الإرهاب الإسلامية الآن. فى الرياضة لا يمكن حدوث ذلك على الإطلاق، فالقواعد لا تتغير بتغير المتسابقين، وكلهم متساوون تماما من حيث الملبس والوقت المتاح لكل متسابق والمسافة التى عليه أن يقطعها إلى آخرها. ولا نتصور أن يفرض متسابق ذوقه الخاص على اللعبة، فلا يمكن لمتسابق عربى مثلا أن يصر على لعب كرة القدم أو القفز بالزانة مرتديا العقال والجلباب العربى، أو ان يصر إسلامى متعصب على اللعب بالرداء الباكستانى، أو تفرض متسابقة إسلامية على قواعد لعبة سباق المسافات القصيرة أو الطويلة ان تتم بارتداء الحجاب أو النقاب. صحيح انه قد تحدث تشوهات أحيانا فى إدارة المسابقات كأن يكون الحكم متحيزا، أو ينفعل الجمهور اكثر مما ينبغى، فيقذف المتسابقين و المتسابقات بالطوب، إلا أن ذلك ليس هو الأصل فى عملية التنافس، كما أن هناك قواعد دولية للتدخل فى مثل هذه الحالات.

الفن كذلك حالة من حالات السياسة المثالية ولكن من زاوية أخرى. فالأصل فى السياسة أنها عملية إبداع لإدارة القيم العامة والخير العام بما فيه تقدم المجتمع واستقراره، ومنع أفراده من أن يمسك بعضهم برقاب البعض الآخر. وحتى يحدث ذلك، فان هناك افتراضا بأن كل الأفراد متساوون ولهم صوت واحد فى عملية الوصول إلى هذه الغاية، بحيث يصل إلى السلطة الأكثر إبداعا، والأفضل فكرا من

زاوية خدمة أهداف المجتمع والدولة. ولكن الواقع أن جميع الأفراد غير متساوين لا اقتصاديا، ولا اجتماعيا، وليس لهم نفس المواهب أو المهارات، ولذا فانه لا توجد ضرورة ابدا لأن يصل الأكثر إبداعا وابتكارا إلى السلطة. وعلى العكس فانه فى كثير من الأحيان، فإن السلطة تعطى نفسها للأقل موهبة لأنه ببساطة وجد الدبابة التى يصل بها إلى قصر الرئاسة، أو كانت له قدرة محدودة فى تحقيق الخير العام ولكن لديه قدرات فائقة فى الضحك على ذقون الناخبين. الفن ليس فيه أى من ذلك، فكل جيوش الدنيا لا تصنع فنانا، وكل أصوات الشعب لا تقر مبدعا، والفنان والمبدع فى لوحة أو مسرحية أو فيلم سينمائى لا تحده طبقة اجتماعية أو اقتصادية. الموهبة وحدها والقدرة على استشفاف الواقع الإنسانى والتعبير عنه وتجاوزه واستباقه إلى آفاق مستقبلية هى التى تحدد حجم وأصالة الفنان وتجعله يلعب دورا فى ترقية الحياة العامة لمجتمعه.

الرياضة إذن والفن هما أشكال أخرى من السياسة أكثر مثالية، وفى بعض الأحيان أكثر تأثيرا فى مجالات متعددة. فالرياضة ولا شك تساهم فى ترقية الصحة العامة وتساعد على تنمية الشعور القومى، والفن أيضا يعبر عن الهوية والذاتية الوطنية ويساهم فى ترقية الإحساس العام. وفى كثير من الأحيان فإنهما يعكسان بشكل مباشر أزمات الأمة ومشاكلها فى وضوح ونقاء. فيكفى على سبيل المثال أن يتابع المرء نادى الزمالك الرياضى ليجد حالة نقية من التعبير عن واقع الحالة السياسية فى مصر، منها نفهم علاقة الحكومة بالمعارضة، وكيفية استخدام النظام القضائى فى إفساد اللعبة السياسية أو الرياضية، وحتى كيف يمكن دفع خبير أجنبى الى الهرب خلال فترة قصيرة. وفى الأحوال العادية، وفى قطاعات كثيرة من قطاعات الدولة، فإن خبراء كثرا يأتون ويهربون، لأن المناخ غير ملائم، أو لأننا لا نعرف بالضبط ماذا نريد منهم، أو لأننا غير مقتنعين أصلا بالفكرة ولدينا تخوف لا ينتهى من أى أجنبى. ولكن لا أحد يسمع عن عمليات الهروب الكبير هذه، أما عندما يترك السيد فيرنر نادى الزمالك، أو السيد روتر الفريق القومى لكرة القدم، فإن المسألة تنتشر بشدة بحكم ما لنادى الزمالك من شعبية، وبحكم أن كرة القدم هى اللعبة الشعبية الأولى. القضية الأساسية هنا - من وجهة نظر سياسية - هى علاقتنا بالأجنبى وبالخبرة الأجنبية وبشكل أعم استيراد التكنولوجيا والمعرفة، وللأسف فإن

أحدا لا يناقش هذه القضايا على مستوى رياضة كرة القدم فربما يكون ذلك أكثر أمانا من مناقشته على مستوى السياسة العامة.

مثال آخر من الخارج، فى دولة الجزائر الشقيقة نخبة ممتازة من العدائين والعداءات الذين يشرفون أى بلد فى المسابقات العالمية. وفى أعظم المسابقات العالمية الرياضية لألعاب القوى التى جرت مؤخرا فى جوتنبرج بالسويد، فازت حسيبة بولمرقة بالميدالية الذهبية لمسابقة المسافات المتوسطة (١٥٠٠ متر). ولكن هذا الفوز، وذلك الوجود فى مسابقة عالمية لم يكن ليلقى الإعجاب من التيار الإسلامى الأصولى فى الجزائر. فليس سرا أن البطلة العربية كان عليها التدريب والتسابق وسط إجراءات أمنية غير مسبوقة بعدما ترامى إلى معرفة السلطات السويدية وجود خطر حقيقى على حياتها من قبل الجماعات الإسلامية الإرهابية التى تجد صعوبة شديدة فى قبول عمل المرأة، أو لمشاركتها فى الحياة العامة كاشفة الوجه، ومن ثم وجدت فى ارتدائها للملابس الرياضية خطيئة الخطايا تستوجب القتل. ولذا فمهما كان اندهاش السلطات السويدية إزاء الخطر الماثل على بطلة تفخر بها اى أمة، فإن فجيعة حسيبة لاشك أنها كانت هائلة. فمما لاشك فيه أنها كانت تعلم قدرها وسط منافسيها، أما مشكلتها الكبرى فكانت مع أهلها أو مع قطاع منهم. وباختصار ربما كان دعاؤها دوما، وتضرعها إلى الله، ان يحميها من أهلها، أما أعداؤها، أو المتسابقون معها، فقد كانت كفيلة بهم بكل تأكيد!.

ولكن المفارقة الأشد مع واقع الوطن والأمة فقد جسدتها تجربة البطلة العربية فى وضوح مدهش. فهى من ناحية تحمل ملامح عربية لا جدال فيها، فسمرتها وعيونها السوداء الكحيلة، وقسمات وجهها، وتركيبتها الجسمانية تشهد بانتمائها إلى تلك الصحراء العربية الواسعة التى تولد طاقات هائلة للإحساس بالمسافة وقدرة الإنسان على اجتيازها. ومن المرجح أن تجربتها الفكرية والروحية لن تختلف كثيرا عن ذلك النوع الجاد من النساء العرب اللاتى لا يتوانين عن قبول التحدى فى حزم وعزم مغلف بإيمان عميق. وربما لن يكون مستغربا ان تبدأ صباحها وتدريبها بالدعاء والبسملة، وفى أيام السباقات الكبرى بقراءة آيات معدودات من القرآن الكريم. ومع هذا المحتوى العربى والإسلامى الخاص، فإن حسيبة تدرك جيدا إنها إزاء لعبة دولية من الطراز الأول، لها قواعدها المقررة عالميا تم تطويرها منذ بداية الألعاب

الأوليمبية، وعبر خبرات عالمية متنوعة، حتى وصلت إلى شكلها الحالى. فلم يكن ممكنا على سبيل المثال أن تدخل السباق وهى ترتدى الحجاب، أو بالتأكيد النقاب أو الشادور، فى مسابقة تتطلب السرعة الكبرى تخفيف كل الحواجز أمام العضلات لكى تحرز قصب السباق. وحتى لو أرادت ذلك، فإن المسابقة ذاتها تكون قد افتقدت اهم شروطها وهى المساواة الكاملة فى كافة الشروط بين كل المتسابقات. وباختصار شديد، فإن حسيبة بولمرقة كان عليها التسليم بالنظام الرياضى العالمى ، أما ما لم تكن على استعداد للقبول به ألا تكون فى مقدمته رافعة علم الجزائر وهلاله عاليا فائزا ومنتصرا.

ومن المؤكد أن ذلك لم يكن ممكنا مالم تكتسب حسيبة قواعد عالمية أخرى لابد أن تتوافر للراغبين فى الفوز والحصول على الميداليات الذهبية مثل التدريب الشاق، والتخطيط العلمى، والأهم من ذلك كله الإيمان الكامل بالقدرة على المنافسة مع أجناس وأقوام أخرى. فلو أنها استسلمت لوجود مؤامرة كونية تسعى إلى هزيمتها هى بالذات دون خلق الله جميعا، أو أن هناك قصورا كامنا فيها باعتبارها امرأة يمنعها من المنافسة وشرف رفع راية الوطن الأمة، لما قدر لها النجاح. وربما دون وعى كامل، فان حسيبة أدركت أن التناقض بين العالمية والخصوصية ليس مفتعلا فقط، بل إنه أحد التعبيرات الفاضحة عن الهروب من المنافسة ذاتها، والنكوص عن بذل الجهد والعرق والدموع والدم إذا كان ذلك ضروريا فى السباق الدولى الذى شهدته السويد.

ولكن ما جنحت إليه حسيبة كان مفارقا بشدة لواقع الأمة وبالتأكيد واقع الجزائر. فمن المؤكد أن ظاهرة مثلها ليس لها مكان فى دولة تحكمها جبهة الإنقاذ الإسلامى، أو الجماعة الإسلامية المسلحة، أو أى من الجماعات الإسلامية والجهادية التى تملأ الساحة الجزائرية والعربية والإسلامية عامة. فكل هؤلاء لديهم نزوع كبير للانقطاع عن النظام العالمى رياضيا كان أو اقتصاديا أو - بالتأكيد - سياسيا. ومهما كان الفشل واضحا فى التجارب الإسلامية الإيرانية والسودانية والأفغانية، فإن لديها قدرة خارقة على الاستعداد لقبول فشل جديد. وكل هؤلاء أيضا لا يرون فى المرأة شيئا إلا الخطيئة، وعندما تمارس الرياضة والعدو وإحراز الأرقام القياسية فإن الفضيحة بالنسبة لهن تصبح كاملة. وهم فى سبيل ذلك على استعداد حتى لتجاهل تراث شهد

ذات مرة أن امرأة قد أصابت وأخطأ عمر، فلم يبق لديهم إلا الهلع والوجل من النساء الذين لا يرون فيهن عقولا تفكر وتدبر، وإنما أعضاء لا تثير إلا الشهوة والذنب. وحينما يتلاقى النظام العالمى مع المرأة فإنها تخلق حالة نقية للرفض والنزوع للقتل.

حالة حسيبة بولمرقة إذن ليست حالة رياضية فقط، وإنما هى حالة سياسية من الطراز الأول، لأنها ترتبط بالمنافسة مع الأمم الأخرى، ويتم فيها الإفصاح عن أفضل مافى الروح القومية من مميزات، والأهم من ذلك كله إنها توضح الخيارات الكبرى التى تخوضها الأوطان فى عالم اليوم، وتشرح حالة الانقسام السياسى الذى تعيشه امتنا، بين حسيبة وأقرانها الذين لا يخشون المنافسة، وبين هؤلاء الذين يهربون منه الى التقوقع والإنعزال. وحالتها ليست بأى حال فريدة فى عالم الرياضة، إنها موجودة فى كل المجالات الإقتصادية والسياسية. فما على القارئ إلا مراجعة المواقف السياسية المختلفة تجاه قضايا مثل اتفاقية الجات ، أو المشروعات المطروحة للسوق الشرق أوسطية، أو مؤتمر السكان فى القاهرة، أو مؤتمر المرأة فى بكين، حتى نجد نفس الانقسام السياسى ولو اتخذ ألوانا وأشكالا مختلفة!.

وإذا كان المحتوى السياسى للرياضة واضحا كل الوضوح، فان الأمر لا يقل وضوحا فى الفن. فمن الذى يستطيع تجاهل تعبير ثنائى صلاح جاهين وعبدالحليم حافظ عن ثورة يوليو الناصرية، أو جدلية العلاقات السياسية والاجتماعية التى دارت فى المجتمع المصرى من خلال رائعة أسامة أنور عكاشة: ليالى الحلمية، أو حتى التطور فى الموسيقى الشبابية التى تعكس تطورات اعمق فى الأجيال المصرية عند نهاية القرن العشرين؟ وفى عالم السينما ألا نجد فى رؤية الراحل العظيم عاطف الطيب كل مشاعر القلق السياسى والاقتصادى للطبقة الوسطى المصرية، وفى رؤى زملائه خيرى بشارة ومحمد خان وداود عبدالسيد وشريف عرفة تعبيرات مختلفة عن قضايا المجتمع المصرى فى قلبه وهوامشه؟ المحلل السياسى قد يحتاج لمقالات مطولة لكى يشرح ويوضح وينقد الفساد، ولكن الفنان لا يحتاج إلى أكثر من لقطة سينمائية، أو رسما كاريكاتوريا لكى يلخص كل شىء فى نفاذ وعمق.

الخلاصة إذن أن المعابر مفتوحة بين الفن والرياضة والسياسة بأكثر مما يقدر البعض، فالكل تعبيرات عن ظواهر اجتماعية معقدة ومركبة بأكثر مما يعتقد

الكثيرون، واذا كنا تطفلنا أحيانا على الرياضة أو الفن فمعذرة، فالأمور كلها فى النهاية تعود الى الإجابة على السؤال الخالد: كيف نجعل من الوطن واحة للازدهار والتقدم... ؟!!.

٥- فى الكرة.... والسياسة أيضًا !

فى أغلب الأحوال، فإن المشابهات بين مجالات مختلفة للنشاط الإنسانى، تكون قاصرة للغاية بحكم اختلاف المحددات والقواعد والقوانين التى تحكم كلا منها، ولكن النكسات الأخيرة للكرة المصرية جعلتنى كمشاهد أجد فيها الكثير من العادات التى تكثر فى حياتنا العامة، والتى ربما لو تخلصنا منها هنا وهناك لكان ذلك أدعى لتحقيق المقاصد. فالأصل فى كرة القدم كما فى السياسة هو تحقيق «الأهداف» بأقصى سرعة ممكنة أو على الأقل بأسرع مما يحققها «المتنافسون» الآخرون سواء كانوا فرقا أو دولا، ولكن المسألة التى وجدتها مزمنة لدينا أن فرقنا الرياضية أو الاقتصادية أو الاجتماعية تعانى داء التحضير الطويل الذى يظهر فى المباراة بتبادل الكرة طويلا فى نصف ملعبنا، ورغم أن ذلك يعطى شعورا مرضيا بأن الكرة معنا، وليست مع الخصم، فإن التحرك فى المكان يمنعنا فى نفس الوقت من تسجيل الهدف الذى هو الأصل فى الموضوع، بل إن فترة التحضير الطويلة يمكنها أن تؤدى إلى استحكام دفاعات الطرف الآخر، ومن ثم تجعل الإنجاز صعبا إن لم يكن صعب المنال. بعض من هذا نجده فى الحياة العامة، فكثير هى المشكلات والمعضلات التى نسرف فى التحضير لحلها حتى إذا ما جاءت لحظة «الانطلاق» نجدها تعقدت بأكثر مما كان الأمر فى البداية، وعلى سبيل المثال فإن التحضير للانطلاقة الاقتصادية الراهنة استغرق وقتا طويلاً، وعندما عقدنا العزم فى النهاية على الحركة إلى الأمام كان عدد السكان قد زاد بالملايين، ودخلت دول أوروبا الشرقية فى سوق جذب الاستثمارات العالمية، وخرجت أولى دول أمريكا الجنوبية من كبوة مديونية الثمانينيات وصارت سوقا للاستثمار هى الأخرى، بينما تضاعفت قدرات الدول الأسيوية على المنافسة فى الأسواق العالمية.

وإحدى خصائص الكرة المصرية الميل الكبير لإخراج الكرة إلى خارج الملعب أحيانا بغرض التشتيت وأحيانا أكثر دون غرض على الاطلاق، وفى الحياة العامة فإن هناك قدرة أكبر على صرف الاهتمام العام عن أهم القضايا المصيرية وهى التنمية، وفى وقت من الأوقات كانت قضية أفغانستان تفوق قضايا مصرية كثيرة، وفى أوقات أخرى لم يجد البعض منا مشكلة إلا الصراع بين «الإيمانية» (هكذا) و«العلمانية». وجاءت آخر الصيحات فى الخروج عن الموضوع بمقاومة «دعاة العولمة والهيمنة الغربية فى الداخل والخارج»، وكأن العولمة اختراع لا وجود له ولا نعرفه وتتعرف عليه اليابان والصين وبلاد الهند والسند، وكأن ملاحظته ومراقبة تأثيراته علينا، تعنى بالضرورة استسلاما للهيمنة الغربية. ولو قام أحد بتحليل مضمون الخطاب العام فى وسائل الإعلام والثقافة لتخيل أننا قد انتهينا من تحقيق، أو تسجيل، كل أهداف البناء الوطنى وتعظيم المكانة المصرية، ومن ثم فلم يعد هناك بد من بعض «الجمل» الاستعراضية لإرضاء النظارة فيما تبقى من وقت ضائع فى نهاية القرن العشرين!.

وفى الملاعب المصرية تتداخل الاختصاصات بشكل مثير، فالجمهور يريد القيام بدور اللاعبين والمدرب والحكم فى آن واحد، وفى بعض الأحيان يخلق المدرب واللاعبين جمهورهم الخاص ولا بأس أحيانا من قيام أى منهما بتمزيق ثياب الحكم، لأنه تغاضى عن ضربة جزاء، على اعتبار أن علمهم بأحكام القانون أوفى. وفى الحياة السياسية تتداخل الأدوار وتختلط، فالقضاء تزايد دوره السياسى ربما عن قصد بعدما بات هو مصدر قيام الأحزاب السياسية، وفى بعض الأحيان تنازعت الاختصاصات بينه وبين السلطة التشريعية فى تحديد من هو صاحب القرار حقا فى تحديد بطلان الانتخابات العامة، وبعض الصحف اكتسبت لنفسها الحق فى التدخل وإصدار الاحكام فى قضايا لاتزال معروضة أمام القضاء، وحتى لو تم الحكم فيها بالفعل، أو صدر فيها قرار تشريعى، عن طريق خلطة مخيفة بين الوطنية والارهاب، والعدالة والعنف، بل وصل الأمر فى بعض الأحيان إلى إصدار أحكام سياسية بالطرد من الحياة العامة، نتيجة الخلاف فى الرأى الذى هو قدس أقداس الحرية.

والحكم فى المباريات المصرية، موضع شك دائم سواء كان أجنبيا أو مصريا، فهو إما قبض من الفريق المنافس، وأما أنه متحيز بالضرورة نتيجة الموطن أو المونة أو

التاريخ الشخصى، أما فى السياسة فإن الطرف الأجنبى هو دائما جزء من مؤامرة من نوع خاص، والنظام الدولى تم تفصيله لقهرنا فقط ودون بقية شعوب الأرض، وفى أنداخل، فإن الحكومة موضع ترقب، والقاعدة القانونية يراد تفصيلها على كل حال. وهكذا فإننا لو أردنا الصلاح للأمة وفريقها القومى، وقدرة أكبر على تسجيل الأهداف القومية، فعلينا التخلص من هذه العيوب حتى تتدعم الانطلاقة الحالية، ونصل إلى المرمى من أقصر الطرق وفى أسرع وقت، وبالطبع فإننى لم أتحدث عن أشياء أخرى مهمة تتعلق بتشكيل الفريق، فهذا ما سوف أتركه لذكاء القارئ الذى لا أشك فيه!.

٦- ملاحظات انتخابية... وكروية!

يوم الخميس السادس عشر من نوفمبر كان لقاء القمة بين الأهلى والزمالك، وكما هى العادة بلغت الإثارة قمتها حتى ذهب تسعون ألف متفرج للمشاهدة فى استاد القاهرة، أما ملايين غيرهم فكان عليهم الجلوس أمام التليفزيون لمراقبة المباراة التى كان يصفها لهم الكابتن ميمى الشربينى بطريقته المميزة فى الإسهاب خلال الشوط الأول الذى جاء ممتعا وحافلا بفنون الكرة، فما كان منه إلا إطلاق العنان للكلمات التى تجعل هذا الإمتاع نتيجة لعظمة الناديين العريقين، وباعتبارهما من أندية البطولات «يا جماعة!»، ولأن كل لاعب فيه موهبة خاصة ونادرة تخفت أمامها موهبة بيليه ومارادونا وباجيو وأسماء أخرى لا يدركها إلا المتخصصون. كان الشربينى منتشيا للغاية حتى إنه وجد موسيقى خاصة فى اسم الحكم الإيطالى ثم وسعها حتى وصلت إلى اللغة الإيطالية كلها حارما بذلك اللغة الصينية من هذا الفضل. ولكن ما إن جاء الشوط الثانى بفاصل طويل من العك الكروى حتى وجد مذيعنا أنه لا يوجد الكثير الذى يمكن قوله، فهبط الحماس والألفاظ الضخمة حول العظمة الكامنة فى الناديين والموهبة الراقدة فى اللاعبين، ولم يجد الرجل فى النهاية مايقول به سوى «أهو ده بأه عيب اللاعب المصرى، فلا لياقة بدنية هناك، ولا إرادة للكفاح حتى النهاية فقد فرحت نوادى البطولات بالتعادل.

قبل ذلك بيومين كانت انتخابات الإعادة فى الجولة الثالثة للانتخابات المصرية تجرى فى ثمانى محافظات، وبعد أخبار التاسعة فى التليفزيون المصرى جاء برنامج جديد يتمتع بالحيوية والسرعة هو «تقارير إخبارية» يعتمد على تقارير المراسلين المنتشرين فى أركان المعمورة، بحيث يشعر المشاهد بنبض الحدث مباشرة. وكان طبيعيا أن تشكل الانتخابات عصب البرنامج، فجاءت التقارير من كل المحافظات، وكما حدث فى الشوط الأول من مباراة الأهلى والزمالك عكست التقارير حالة مثالية للانتخابات التشريعية لم تعرف مصر من قبل ما هو أفضل وأروع منها، وهى مماثلة تماما لما يجرى فى أكثر دول العالم عراقة فى الديموقراطية. وبعد ذلك جاء الشوط الثانى عندما قالت المذيعة إنه جاءها بيان من وزارة الداخلية يشير إلى وقوع اضطرابات ومصادمات فى بعض اللجان الانتخابية سقط نتيجتها قتلى وجرحى، وهو من الأمور غير المعتادة فى البلدان الديموقراطية. وفى مساء اليوم التالى جاء بيان وزارة الداخلية عن الانتخابات، فكان أكثر واقعية عندما قال إن نسبة الذين شاركوا فى الانتخابات تراوحت بين ١٥٪ و٤٠٪، فى صراحة تختلف كثيرا عما قيل لنا أن من الإقبال على المشاركة كان هائلا وغير مسبوق.

وهكذا، سواء كان الأمر فى المباريات الكروية أو الانتخابات التشريعية تخدعنا كثيرا الأشواط الأولى بمتعة نبالغ فى مداها، فإذا ما حلت الأشواط الثانية كان الأمر مختلفا ونزلت علينا كالدش البارد، وهى قضية لا يتحمل مسئولياتها لا الكابتن ميمى الشربينى ولا أصحاب التقارير الإخبارية، وإنما يتحمل مسئولياتها مجتمع بأكمله عادة ما تضيع منه أسباب القياس وأدوات التقييم، وتنقلب بسرعة من التهويل إلى التهوين، ومن رفع قدر الذات إلى أعلى السموات، إلى خفضها إلى أسفل السافلين، بينما هى فى الحقيقة تقع فى مكان ما بينهما، وتقتضى الحصافة والحكمة أن نبحث هذا المكان ونتدارس فى الكيفية التى نأخذه بها خطوة أخرى إلى الأمام. وقد كان فى الشوط الأول من مباراة الأهلى والزمالك ما يمتع بالفعل، ولكن كان لدينا أيضا المعرفة باللاعب المصرى وفقر لياقته البدنية ما يجعلنا نتوقع أن ذلك لن يكون سيرة المباراة بأكملها، فتستنبط الأحكام من البداية إلى النهاية.

وكان الشوط الأول من الانتخابات المصرية - التى جاءت على ثلاثة أشواط لأول مرة فى التاريخ - ممتعا أيضاً، فقد كانت أول انتخابات تشريعية تأتى تحت الإشراف

الكامل للقضاء، ولكننا كنا نعرف أيضاً أن ذلك نتيجة حكم المحكمة الدستورية العليا الذى جاء مفاجئا تماما للحكومة والمعارضة، وللقائمين على الانتخابات معا، وهو ما يعنى أن الترتيبات الإدارية الخاصة بالكشوف الانتخابية التى لم تكن على مايرام أصلا سوف تصير مشكلة كبرى بعد تجميع اللجان الانتخابية فى لجان جديدة أقل عددا وأكبر حجما. كما كنا نعرف أن أحزابنا ليست مدربة على انتخابات نظيفة، وما أن حدثت الجولة الأولى حتى بادرت أحزاب لم تحصل إلا على أقل القليل وأعلنت عن هزيمة ساحقة للحزب الوطنى الديموقراطى الذى حصل على أضعاف ما حصلت عليه، وكأن الهزيمة هى شهادة بالانتصار الذى لم يحدث، وصدق الحزب الوطنى هذا الإعلان فجرى وراء المستقلين لكى يعيدهم إلى بيت الطاعة الذى خرجوا منه غير مأسوف عليهم فى السابق.

وهكذا دخل الجميع الشوط الثانى دون قراءة حقيقية وواقعية لما جرى فى الشوط الأول والذى جاءت متعته من أنه عبر بالفعل عن التوازن السياسى فى المجتمع، وبدأ فاصل من العك الانتخابى الذى جاءت ساحته أمام القضاء الذى كان بطل الأبطال فى المباراة كلها، وكان ذلك راجعا فى بعض منه إلى أن نظامنا السياسى كان محملا بأمور معلقة كثيرة، فرغم عقود طويلة من تطبيق الدستور المصرى الحالى لم نعد نعرف على وجه التحديد من هو العامل ومن هو الفلاح، ولم نتأكد دائماً من الطريقة التى نعرف بها الموطن الانتخابى لمرشح أو ناخب، ولا توجد لدينا وسائل منظمة لكى نعرف ونحكم على من حصل ولم يحصل على جنسية مزدوجة. وكان حريا بالقضاء الذى اعتلى الساحة متوجا من الجميع أن يحسم كثيرا من القضايا، وإذا وجد مجلس الشعب القادم أن القوانين التى يحكم على أساسها القضاء لم تعكس فى تطبيقاتها إرادته التشريعية، فإنه يغيرها بما هو أكثر وضوحا وتقريرا لما يريده المشرع. ولكن ذلك لم يحدث، فقد توالت أحكام القضاء الإدارى، وتوالت الاستشكالات التى تؤجل القرار إلى سيد القرار الذى لم يكن سيدا ساعة إصدار الحكم.

ومع الشوط الثالث كانت اللياقة الانتخابية قد وصلت إلى منتهاها، وتصاعدت المواجهات، وخاضت بعض التيارات السياسية المعركة الانتخابية على طريقة الميليشيات اللبنانية، وعندما واجهها الأمن جأرت بأنه يتحدى التقاليد الديموقراطية، وكأن الأمن كانت لديه أدوات سحرية تمكنه من تعرف النيات السياسية للأفراد الذين

جاءوا فرادى إلى محطات الاقتراع بحيث يمنع هذا ويسمح لذاك. ولكن الحال لم يكن كذلك، فقد خلط كثيرون بين المعارك الانتخابية ومعارك الانتفاضة الفلسطينية، ولم يرتفع أحد عن مستوى شحذ العصبيات القبلية والقروية والصعيدية حتى من بين من يبشرون بالوحدة العربية والإسلامية ودول العالم الثالث إن أمكننا. الصورة بعد ذلك تبدو متكاملة للاعبين والحكام والجمهور، وهى تشهد أن مصر عرفت جرعة جديدة إضافية للديموقراطية، ومنها تكون بداية جديدة إذا صدق العزم وحسنت النية.!

٧- حالة تنافسية....!

أحيانا كثيرة تدور نقاشات كثيرة بين المثقفين أشبه بحوارات الصم من فرط درجة التجريد فيها حتى تبدو للمواطن العادى نوعا من النقش على الماء الذى لايدرى الفائدة منه على وجه التحديد. فإذا أخذنا مثلا بقضية العولمة والتنافسية المصاحبة لها، وما دار عنها وحولها من نقاشات وشجارات أحيانا، لو وجدنا أنها ظلت معلقة بالهواء لأنها بدت دوما وكأننا نتعامل مع عوالم أخرى لسنا منها ولا تخصنا فى شىء. ولكن هذه الظاهرة كانت فى يدنا تماما خلال الأسبوعين الماضيين عندما شهدت مصر كأس العالم للناشئين فى كرة القدم، حينما زحف مئات الألوف من المصريين لمشاهدتها مباشرة ومعهم الملايين على شاشات التليفزيون. فقد كانت العولمة ظاهرة فى مشاركة ستة عشر فريقا من قارات الدنيا الست نجحت فى الوصول إلى نهائيات البطولة عبر عملية تصفية طويلة وقاسية، وكان المنظم لها تنظيما عالميا هو الفيفا الذى وضع القواعد والحكام وترتيبات المباريات، وكانت هناك قواعد منظمة واحدة للجميع بغض النظر عن العرق والدين واللون والخصوصية الثقافية، وكان هناك ١٤٠ محطة تليفزيون عالمية تتابع البطولة فى مواقعها وتنقلها إلى أركان الدنيا الأربعة. والأهم من ذلك كله أن هذه القواعد جميعها كانت مقبولة من الجميع، فلم يطالب أحد بارتداء الزى القومى داخل الملعب، ولم نشهد عقالا عربيا على رؤوس

اللاعبين العرب، كما لم نجد زيا إفريقيا فضفاضا ملونا على أجساد اللاعبين الأفارقة، وإنما وجدنا الجميع يرتدون الزى الموحد لكرة القدم.

الفارق الوحيد بين الجميع كان قدراتهم التنافسية ومدى ما حباهم الله من مواهب وقدرة على السرعة والتحمل على مدى عمر المباراة، أو ما تعرفه لغة الإقتصاد بالمزايا النسبية التى قد تعطى فى مجال كرة القدم السبق للبرازيل وغانا، وتعطى التخلف للولايات المتحدة الأمريكية، ولا تحصل نيوزيلندا على أى منهما حين دخل مرماها أكبر عدد من الأهداف ولم يسجل فريقها هدفا واحدا. وبين هذا وذاك كانت توجد دول كثيرة من بينها مصر، التى نجحت فى الأدوار الأولية ثم فشلت بفارق هدف واحد فى دور الثمانية، أى أنها فى عالم الرياضة، كما فى عالم الاقتصاد، وربما السياسة أيضا، قطعت أشواطا على طريق التقدم والتميز، ولكنها لم تصل بعد إلى المكانة المتميزة للمربع الذهبى فى عالم كرة القدم، والمعروف بالدول الصناعية المتقدمة فى دنيا الاقتصاد العالمى. وهكذا ودون قصد منا فإن نتيجة الفريق المصرى كانت عاكسة لكثير من أحوالنا، فقد أصبحت مصر دولة متوسطة فى مجال كرة القدم للناشئين، كما تحتسب كدولة متوسطة الدخل اقتصاديا، وكدولة تعيش مرحلة التحول الديموقراطى سياسيا.

وفى الحقيقة، فإن القدرات التنافسية المصرية لم تكن فى مجال كرة القدم وحدها لأننا كنا الدولة التى تجرى على أرضها وقائع البطولة ومبارياتها، ومن ثم فإننا كنا ننافس من سبقنا فى تنظيمها ومن سيلحق بنا، كما أننا كنا ننافس منذ الآن على تنظيم بطولة العالم للكبار عام ٢٠٠٦ كما ذكر المسئولون، أى أننا فى الواقع كنا نعد لمستقبل فى القرن الحادى والعشرين. وبشهادة الجميع فقد كان لدينا ملاعب جيدة، وجمهور متسامح رفع أعلام بلده دون تعصب وعرف متى يقف مع فريق بلده، ومتى يقف مع الدول العربية والدول الإفريقية، ومتى يشجع اللعبة الحلوة للبرازيل فى كل الأوقات. ولكننا أيضا لم نعرف السرعة التى يجب أن يسير عليها الحفل الافتتاحى، كما أن التناسق بين الراقصين لم يكن محكما، وفى كثير من الأوقات لم نفلح فى بدء المباريات بالدقيقة والثانية اللازمة للتعامل مع أوقات النقل بالأقمار الصناعية. وباختصار فقد كانت المحصلة تعبيرا عن قدرات صناعية قادرة على صنع منتج جيد، ولكنه ليس مغلفا تغليفا جيدا، كما أنه لم يصل إلى المستهلك فى تمام اللحظة التى يريده فيها، كما هو الحال فى كثير من الصناعات الوطنية.

وما بين هذا وذاك تقع الفجوة التى علينا عبورها لتعظيم القدرات التنافسية الوطنية سواء كان ذلك فى كرة القدم أو فى غيرها، وعلينا أولا أن نحكم ما لدينا من إمكانات ومواهب ونصل بطاقاتها إلى حدودها القصوى المماثلة فى كل دول العالم، وعلينا ثانيا ان نزيد المكون المصرى فى صناعات الرياضة كما فى صناعة السلع. فالرياضة ليست اللاعبين والملاعب والجمهور فقط، وإنما أيضا ساعات التوقيت ولوحات الملاعب، وأجهزة اللياقة البدنية وكاميرات النقل التليفزيونى، وغيرها من الأجهزة والتجهيزات الصناعية التى دون الدخول فيها فإن صناعتنا لا تصير أكثر من تجميع لمفردات كأس العالم كما نقوم بتجميع مفردات السيارة المرسيدس. صحيح ان التجميع هو واحد من مراحل التصنيع ولكنه ليس أكثرها أصالة وتقدما، وعند تجاوزه فإنه لا يهم ساعتها الفوز بكأس العالم للناشئين أو حتى للكبار لأننا ساعتها سنكون قد كسبنا كأس العالم فى التقدم !!.

٨. سيدنى والأوليمباد وأشياء أخرى !

انتهت دورة سيدنى للألعاب الأوليمبية بحلوها ومرها، حلوها الذى جاء من المدينة التى استضافتها وأهلها الذين امتلأت بهم الملاعب فى حماسة وفخر، لم يفشلوا فيه مرة واحدة فى تجسيد هويتهم الأسترالية فى ساحة تمثل أكثر حالات العولمة نقاء وشفافية وتنافسية، ومن الألعاب ذاتها التى قدم فيها الإنسان أعلى درجات التحدى لطبيعة الجسد البشرى من حيث القوة والسرعة والارتفاع فى تنافس شريف تساوت فيها الرءوس فى ظل قوانين واحدة، وحصل من فاز على تسجيل لقدر هويته فى السباق العالمى برفع العلم وعزف النشيد وتسجيل السبق والتفوق باسم الدولة فى كتب التاريخ. ومرها جاء من النتائج التى سجلتها الدول العربية خاصة مصر، فبعد عقود من الاستقلال والثورة والفورة والمحافظة والتقدمية تراجع القدر العربى فى النظام العالمى الرياضى الجديد، ولم يفرز العرب أبطالا يليقون بما يقرب من ٣٠٠ مليون نسمة من ناطقى الضاد، يملكون النفط والغاز وحضارة عميقة الجذور لم تجد

من يدافع عن اسمها بعد أن اكتفى أهلها بالحديث عنها ورفع الشعارات حولها، ولكنهم فى كل الأحوال عجزوا عن العمل من أجلها.

الذين ارتفعت أعلامهم وبيارقهم وعزفت أناشيدهم الوطنية وتعززت هويتهم القومية وتدعمت ذاكرتهم التاريخية وقدموا فى ذات الوقت للتقدم الرياضى فى العالم، كان واحدا من ثلاثة أنواع من الدول. الأول وحاز أغلبية الميداليات فى العموم والذهبية خاصة كان الدول الصناعية المتقدمة ذات النظام الديموقراطى الليبرالى، وهنا فإن التقدم الرياضى يقع ضمن التقدم العام للمجتمع، حيث يكون الرياضى المتفوق معبرا عن تقدم الصحة العامة فى الدولة، ومعبرا عن القدرة الفائقة للتنظيم الاجتماعى لإنتاج الأبطال سواء كان هؤلاء الذين يحصلون على جوائز نوبل فى العلوم أو هؤلاء الذين يقفون على منصات الدورات الأوليمبية. هنا فإن الدولة عادة تقف فى الصفوف الخلفية وتتقدم الصفوف المدارس والجامعات والجمعيات الأهلية التى تقوم بعمليات الإعداد والتمويل والدعاية والتسويق، بحيث تصبح المشاركة فى الدورات والمسابقات العالمية عامة نوعا من التعبير الاجتماعى وليس تعبيرا عن الحشد السياسى، ونوعا من الإعلان عن حصاد التقدم وليس الادعاء به.

النوع الثانى من الدول هو تلك التى اعتمدت صناعة الأبطال، وكان ذلك شائعا فى الدول الاشتراكية حين حاولت الفوز فى المسابقات الرياضية من خلال التركيز على الرياضة عموما أو رياضات بعينها لكى توهم العالم، وربما نفسها، بأنها حققت نظاما اجتماعيا وسياسيا متفوقا. وفى هذه الحالة كانت الدولة متدخلة فى الرياضة إلى أقصى درجة، وكانت مهمة صناعة البطل سياسية بأكثر منها اجتماعية، وبعد انهيار النظم الاشتراكية فى كثير من الدول بعد انتهاء الحرب الباردة، فإن بقايا صناعة الأبطال لا تزال موجودة فيها حتى بعد أن تقلصت إمكاناتها وسطوتها. ولعل ذلك يفسر التقلص النسبى لحالات الفوز بالميداليات فى الدول الاشتراكية السابقة، وبقائه على حاله فيما تبقى فى هذه النوعية من الدول مثل كوبا.

النوع الثالث من الدول الفائزة، يقع أغلبه فى دول العالم الثالث وإفريقيا على وجه الخصوص، حيث تعتمد على الطفرات الناجمة من ظروف بيئية وجغرافية خلقت لديها حالات من التفوق فى رياضات بعينها، وعندها تتدخل الدولة لرعاية البطل الوحيد فى أغلب الأحوال وتدق له الطبول وتعزف له الأغانى، لأنه حقق

للأمة على المجال الدولى ما لم تحققه صناعتها أو زراعتها أو تكنولوجياتها، أو تقدمها على وجه العموم.

شهادة دورة سيدنى أن النوعين الثانى والثالث بطريقهما إلى التقلص، فمع انهيار النظم الاشتراكية وتحولها إلى النظام الرأسمالى الليبرالى، ورغبة بعضها فى اللحاق بالتكتل الأوروبى أو الأمريكى من خلال روابط إقليمية متنوعة سوف تجعل هذه الدول تنضم تدريجيا إلى النوع الأول، وربما بعد دورة أخرى أو دورتين فإن بقايا الماضى سوف تنتهى وتبرز أنواع جديدة من البطولة والتفوق تعبر عن قدرة التنظيم الاجتماعى للدولة بأكثر من تعبيرها عن سطوة النظام السياسى، ومع هذا التغير تنتهى ظاهرة الصناعة القسرية للأبطال. ومع تقدم التكنولوجيا الرياضية ووسائل وطرق التدريب فإن الطفرات الطبيعية لأبطال بعض دول العالم الثالث سوف تقل قيمتها تدريجيا، وربما فسر ذلك إلى حد كبير تقلص عدد الميداليات العربية والتى كانت ذهبياتها تاتى من أبطال السرعة فى دول المغرب العربى.

ولكن ذلك لا يفسر وحده التراجع العربى فى دورة سيدنى، فمع غياب التنظيم الاجتماعى المعبر عن التقدم العام للمجتمعات العربية فإن الدول العربية اعتمدت فى معظمها على صناعة البطل، وكان ذلك لأسباب تعود فى بعضها إلى تدخل الدولة تحت الشعارات القومية والاشتراكية فى كل أشكال التنظيم الاجتماعى بما فيها النوادى الرياضية والمدارس والجامعات، أو لأسباب نفطية خلقت وهما أنه يمكن شراء البطولة بشراء أفضل المدربين وافضل أدوات التدريب والتجهيز، وفى الحالتين بقى المجتمع كله بعيدا عن موضوع التفوق والفوز الذى تحدده الدولة. والآن فإن الدولة العربية الاشتراكية إما أن حالها تغير إلى درجة تركت فيها قديمها ولكنها لم تتوصل لأى جديد بعد، وإما أنها بقيت على حالها، ومع بقاء الحال على ما هو عليه تعددت المشاكل وتفاقمت حتى لم يبق للرياضة، فضلا عن التفوق فيها، مكان. أما بالنسبة للبلاد النفطية فقد تراجعت أسعار النفط فى معظم التسعينيات وحتى عندما ارتفعت الأسعار مرة أخرى مؤخرا كانت الأرض كلها عطشى للدخل الجديد ولم يبق منه كثير للرياضة عموما، خاصة بعد اكتفاء الجميع برياضة وحيدة تكفى وتزيد اهتمامات المجتمع المتفرج دائما فى الرياضة والسياسة وهى: كرة القدم.

انطبق هذا الحال على مجمل الدول العربية وجسدته على وجه الخصوص مصر التى افترق بها الزمن مع آخر ميدالية ذهبية لأكثر من نصف قرن، ومع آخر ميدالية من أى نوع لعقد ونصف عقد، فلم تنجح فى خلق التنظيم الاجتماعى المتقدم الذى ينتج مع السلع المتفوقة أبطالا متميزين، ولم تنجح فى صناعة البطل عندما تدخلت الدولة بثقلها، وعندما تدخلت لذر الرماد فى العيون بحثا عن التمثيل المشرف، وفوق ذلك شحت الطبيعة فلم تنتج طفرات يعتد بها. وزاد على ذلك فى مصر وغيرها من الدول العربية ثقافة المشاهدة، فالمجتمع يقوم بمراقبة الأحزاب واللاعبين، وهو على استعداد دائم لتشجيع اللعبة الحلوة، ولكنه ليس على استعداد للمشاركة فيها، وإذا ندرت فإنه ينصرف عن المشاهدة ويذهب إلى حال سبيله، وفى كل الأحوال فإنه سيطلب من أبنائه عدم اللعب على الإطلاق، فلديهم امتحانات للثانوية العامة لا ترحم أحدا، وعندما خرجت أسرة وحيدة عن المقرر وصنعت بطلة لإفريقيا والبحر المتوسط لم تتحمل كثيرا من النقد لأنها لم تفز فى سيدنى فقررت الاعتزال وارتداء الحجاب والزواج وتكوين أسرة جديدة تشاهد العالم مع الآخرين !.

٩. النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة... وسيدنى !

بدأت دورة الألعاب الأوليمبية ٢٠٠٠ هذه المرة فى مدينة سيدنى بافتتاح ضخم يسر الناظرين، ومن بعدها جرت أكبر ساحة للتنافس الدولى فى مسارها المعلوم، ومن ورائها تقف المدينة نظيفة وصحية وعفية تنقل للعالم مكانة الأستراليين وقدراتهم التنظيمية وتحصد فى نفس الوقت ٧٥٠ مليون دولار ثمنا لتذاكر الدورة ومثلها تقريبا من التغطية التليفزيونية وحدها، وإذا أضيف لكل ذلك إنفاق الملايين من السائحين فإن مكسب الدورة بالدولارات يكون صافيا حتى قبل إشعال شعلتها. ومن حق أهل استراليا الشعور بالفرح البالغ والفخر المبين، فقد فازت مدينتهم بدورة القرن العشرين بعد منافسة طاحنة مع مدن أخرى، وفى الحقيقة مع دول وثقافات أخرى طرحت نفسها وإمكاناتها على مقصلة الاختبار والاختيار فكان النصيب فوزا بشرف لا يأخذه إلا من يستحقونه.

وفى ذات الوقت فإن من واجب أهل القاهرة الحزن والأسف، فقد خرجت مدينتهم من أدوار التصفية الأولى عندما طرحت نفسها لاستضافة دورة الألعاب الأوليمبية لعام ٢٠٠٨، ولم يكن سبب الخروج، فيما نعلم حتى الآن، أنها تنتمى إلى بلد من بلدان العالم النامى، أو أنها تمثل قلب العروبة النابض الذى لا يحبه كثيرون فى عالم يؤمن بصراع الحضارات، أو أنها قليلة الحيلة فى الإمكانات الرياضية وقدرات الاستضافة لألوف الرياضيين وملايين السائحين، أو أنها ليست ذات باع طويل فى الألعاب الرياضية حتى إنها لم تحصل على ميدالية ذهبية واحدة لأكثر من أربعة عقود، وإنما كان السبب الذى عرفناه هو غياب النظافة وكثرة الكلاب الضالة، فكل ما تقدم كان مغفورا ومقبولا ويوازنه وأكثر موقع القاهرة وتاريخها وحضارتها ودورها، بالإضافة إلى الوعود التى قدمها المسئولون المصريون فى استكمال ما نقص، أما ما لم يكن مغفورا أو مقبولا أن ينتقل العالم بأسره إلى مدينة غير نظيفة تنقل تلوثها إلى أمعاء الرياضيين الحساسة فى وقت منافسة لا تعرف الهذر وارتباك الأمعاء، أو تنتقل الدنيا بأسرها إلى مدينة ممتلئة بالكلاب الضالة تعقر ضيوفها وتصيبهم بما لا يحمد عقباه.

ولا جدال أن هناك علاقة وثيقة بين غياب النظافة، أو القذارة صراحة، والكلاب الضالة، فهذه الأخيرة تنتعش على الأولى وتجد فيها مرتعا للغذاء والتكاثر، كما أن الأولى تجد فى الثانية مصدرا إضافيا لتراكم الفضلات والروائح فى حياة الكلاب ومماتها. وليس معنى ذلك إلقاء كل المسئولية على الكلاب التى هى فى العادة حيوانات أليفة، ويقول لنا الأدب غير الشعبى إن طبعها هو الوفاء، وفى البلاد الراقية لها مكانة يحسدها عليها كثير من الآدميين، حيث يوجد لها مكانها الخاص وطعامها المفضل وروائحها العطرية المتميزة. ولكن ما أشارت إليه اللجنة الأوليمبية فى حكمها على القاهرة لم يكن كراهية فى الكلاب، وإنما فى تلك النوعية الضالة التى تسير فى شوارع المحروسه ولها سمات كثيرة غير حميدة بالمرة ولا تصلح لمزاملة أرقى المستويات العالمية الرياضية فى مدينة واحدة.

المدهش أن هذا الحكم على مدينتنا جاء فى وقت تجرى فيه أكبر عملية لتجميلها فى تاريخها، ومن يشهد إعادة بناء كل أنفاقها بالسيراميك الفاخر فى سابقة غير معروفة فى العالم كله، ومن يشهد عملية التغيير المستمر لأرصفة شوارعها الرئيسية

كل عام مرتين، ومن يشهد عمليات بناء الأبراج المنيفة والفنادق الفاخرة على ضفاف النيل وبعيدا عن ضفافه، ومن يشهد عملية إعادة خلق القاهرة الفاطمية مرة أخرى، ومن يشهد عملية البناء الضخمة للطرق الدائرية والعرضية والمحورية، فلابد أن يعتقد أننا على الطريق لمدينة ساحرة للغاية تخلب لب اللجنة الأوليمبية أو أية لجنة أخرى فى العالم تشكلها الأمم المتحدة أو حتى محكمة العدل الدولية. ولكن ذلك كله لم يكن مقنعا بحال، فقد نسى أهل المدينة أبسط الأمور وهو تنظيف المدينة وتخليصها من الكلاب الضالة.

وفى الحقيقة أن إلقاء اللوم على قيادة القاهرة الآن، فيه قدر كبير من المبالغة وعدم الإنصاف، فلو عدنا إلى ما كتبه الفرنسيون غداة وصولهم غزاة إلى المدينة منذ أكثر من قرنين، لوجدنا أن أكثر ما أصابهم بصدمة كان قذارة القاهرة وامتلاؤها أيضا بالكلاب الضالة، وكان غياب النظافة سببا، مع الحرارة، فى انتشار الرمد حتى إن نصف أهلها كانوا من العميان. ولو عدنا قبل ذلك عددا أكثر من القرون عندما كتب عدد من المغاربة كتابهم الأشهر النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة حيث جاء فيها وبصراحة لا تقل قسوة عن صراحة اللجنة الأوليمبية: وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة، كثيرة التراب والأزبال والمبانى عليها من قصب وطين، مرتفعة، قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها. ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها فى ذلك. ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى وتدركنى وحشة عظيمة... وإذا كان الحال كذلك لواحد من المغاربة الأشقاء فى الغم والكرب، فماذا كنا نتوقع من غير الأشقاء من أنصار الحضارات الأخرى التى لا تشترك معنا فى حضارة أو دين أو لغة أو ملة، وعلى العكس من ذلك تتربص بنا وبدورنا الإقليمى والعالمى؟!.

القضية إذن قديمة للغاية، وتاريخية كذلك، ولو أن أحدا أتيح له النظر من الدور الرابع والثلاثين من مبنى وزارة الخارجية الأنيق على النيل وألقى نظرة على القاهرة لما اختلف وصفه لعاصمتنا عن وصف الأشقاء المغاربة، وبالتأكيد فإنه لن يجد داعيا للحديث عن النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة، التى يبدو إنها كانت تشير إلى أشياء أخرى غير التى نبحث عنها بعد أن قال لنا المحققون أنها كانت جزءا من كتاب النشوات الخمرية فى حلى المملكة الوسطى من الممالك المصرية، وقسما من كتاب لذة اللمس فى حلى كورة عين شمس . على أى الأحوال فإن الحالة الأخلاقية لمدينة

القاهرة فى العصور الغابرة ليست موضوعنا، وربما نعود لحكاية النجوم الزاهرة فى حديث آخر، ولكن ما يهمنا الآن هو أنه آن الأوان لكى نتخلص من ميراث أكثر من ألف عام من القذارة والكلاب الضالة، فلم يعد يليق بالعاصمة المصرية، وحاضرة العرب ومقصد المسلمين ومبتغى السائحين من كافة أنحاء المعمورة، أن تحصل على هذه الفضيحة الدولية. وهناك اقتراح شائع حاليا بأن تحذو القاهرة حذو الإسكندرية فى الاستعانة بالشركات الأجنبية، وعلى الأرجح التمويل الأجنبى، لتحقيق هذه الأمنية، ولكن ذلك قد يثير قضية اختراق الأمن القومى مرة أخرى، ولذا فإننى أقترح تأجيل تجديد أرصفة الشوارع الرئيسية لعام واحد وننفق الأموال المخصصة لذلك فى تنظيف المدينة والتخلص من الكلاب الضالة !.

١٠ـ آسيا وكأس العالم....!!

حينما بدأت مباريات كأس العالم لكرة القدم فى فرنسا اهتم بها الإعلام المصرى والعربى اهتماما ملحوظا، حيث أفردت لها الصحف صفحات واسعة، وأصدرت المجلات بمناسبتها أعدادا خاصة، أما التليفزيون والإذاعة فلم تفلت منهما ساعة دون نقل للمباريات أو حديث عن اللاعبين والنتائج. وقد أزعج هذا بعضا من كتابنا المرموقين الذين رأوا فى ذلك نوعا من المغالاة والتزيد لامجال له فى بلاد تشكو الفقر والعوز واغتصاب الأراضى والإهانات القومية والوطنية، وكان مبطنا فى كتاباتهم أنه ربما كان هذا الانشغال الزائد نوعا من المؤامرة الدولية أو المحلية أو كليهما معا لإبعاد الرأى العام عن قضاياه الحيوية والمصيرية.

وفى الحقيقة أن هذا المنطق مس وترا حساسا فى نفسى حتى إننى أصبحت أعانى تأنيب الضمير والشعور بالذنب فى كل مرة جلست فيها لمشاهدة المباريات المثيرة، فكيف يعيش إنسان حى الضمير هذه المتعة وسط النوائب والكوارث التى تمر بها أمتنا؟. وظل الحال على ذلك حتى سافرت مع بعثة «الأهرام» إلى آسيا وقمنا بزيارة

خمس دول تفأوتت فى القوة والحجم والتأثير، والأهم من ذلك تعانى المشكلات المصيرية، فباكستان كانت قد فجرت قبل أسابيع قنبلتها النووية وتخشى ضربة هندية وقائية لمنشآتها الذرية، ويطالب شعبها باستعادة كشمير المغتصبة، وفى داخلها ينتشر السلاح وتيارات متعددة للعنف الذى يمارس بشكل يومى، وساحة للحدود مع أفغانستان فيها كل أنواع التهديد من تهريب السلاح إلى المخدرات. والهند بدورها كانت مشاكلها حادة، فتفجيراتها النووية فرضت عليها عقوبات مزعجة، والتمرد فى كشمير يهدد بالانفصال عن الوطن، وهناك أراض اغتصبتها الصين منذ حرب ١٩٦٢ بين البلدين وأراض أخرى اغتصبتها قبلها بعد تقسيم الهند عام ١٩٤٧، كما أن الخرائط الصينية تشير إلى وقوع ولايتين هنديتين «سيكم وأونار براديش» ضمن الأراضى الصينية، مما يهدد بالخطر الداهم، ولا يخفى على أحد أن عدد الفقراء فى الهند يفوق عدد كل الناطقين باللغة العربية فى العالم. وسنغافورة يشغلها صغر حجمها وغناها وخوفها من الدول الكبرى حولها، وتوجسها من ماليزيا التى ربما تعود مرة أخرى إلى الرغبة فى استعادة سنغافورة مرة أخرى باعتبارها أراضى منهوبة فصلها الاستعمار عن الوطن الأم، وإندونيسيا كانت غارقة حتى الآذان فى أعمق أزمة اقتصادية وسياسية عرفتها منذ استقلالها، وتعانى اضطرابات عمالية، وتخوفا دائما من انفصال تيمور الشرقية، وهى مسألة لا تملك جاكرتا التفريط فيها بعد أن نهبت كثير من أراضيها لصالح الفلبين وماليزيا وسنغافورة. أما الصين فرغم قوتها ومنعتها فإنها رغم كل الأخبار الاقتصادية المفرحة ينتشر فيها فقر مدقع للأغلبية الساحقة من شعبها، وتخوفاتها من الدول العظمى معلومة رغم اتفاقها مع كلينتون على إقامة شراكة استراتيجية بين البلدين، كما أنها لا تستطيع أن تنسى أراضيها المغتصبة هى الأخرى من الهند وفيتنام ودول أخرى وضعت يدها على جزر أخرى ادعتها لنفسها، وفى حالة واحدة على الأقل قامت دولة كاملة الأركان هى تايوان التى لابد لها أن تعود إلى الوطن الأم.

كانت بعثة «الأهرام» قد تركت أرض الوطن بعد بدء مباريات الدور الأول وعادت إليه فى اليوم السابق للمباراة النهائية، أى أن القدر الأعظم من المسابقة قضته خلال

زيارتها للدول الخمس، ولم نجد فى أى منها اهتماما بكأس العالم يقل بأى حال عن الاهتمام به من قبل مصر أو الدول العربية، رغم أن أيا منها لم يكن له فريق يلعب فى فرنسا، ولا كان لأى منها تاريخ كروى معروف. فمن إسلام أباد إلى نيودلهى إلى سنغافورة إلى جاكرتا إلى بكين، كان مئات الملايين يتابعون عن كثب من فاز ومن خسر، ومن أجاد ومن لم يحالفه التوفيق، ومن أصاب ومن أخطأ الهدف. كان ذلك فى الصحف ومحطات الإذاعة والتليفزيون، وفى المقاهى والمطاعم وفى البيوت بالطبع، وحتى فى الأسواق كانت هناك صناعة متكاملة لكأس العالم مطبوعة على الملابس والحقائب. وعندما انتهينا من زيارة سور الصين العظيم ودلفنا إلى مطعم «كنتاكى» المجاور له، وجدنا فى علب الطعام صورا أنيقة صغيرة للاعبين ومعها بطاقة تقول إن استكمال مجموعة صور فريق بأكمله تتيح الحصول على وجبة كاملة مجانية !.

كيف إذن حدث ذلك ولم يتحرك ضمير أحد ولا شعر بالذنب فى هذه الدول على اتساعها وترامى أطرافها وكثافتها السكانية الكبيرة من مشاهدة مباريات كأس العالم، رغم ما تعيشه من مشكلات ويلم بها من نوائب، على الأقل وفق ما تراه وما تقره صحافتها وإعلامها ونخبها السياسية فى الحكم أو فى المعارضة؟ كان ذلك هو السؤال الذى طرحته على كثيرين فى دولة بعد أخرى، وجاءت واحدة من الإجابات من صحفى هندى ومقدم لبرنامج تليفزيونى سياسى ناجح فى واحدة من الشبكات الخاصة الجديدة فى الهند، وكانت أن كأس العالم هو أهم حدث عالمى معاصر تسوق فيه الدول لمكانتها وقدرتها واسمها وعملها، وقال إنه لابد على الهند، إذا كانت تريد مكانة عالمية حقا، ألا يبقى اهتمامها محصورا فى القدرة النووية، بل إن عليها أن تعد فريقا جيدا لكرة القدم ينافس على المستوى العالمى، وبالتالى فإن اسم الهند سوف يتردد فى العالم كله على مدى شهر كامل.

كان فى هذه الإجابة بعض من الصحة، فدولة مثل كرواتيا لم يسمع بها الكثيرون من قبل، حتى صعد فريقها إلى المربع الذهبى بعد الفوز على ألمانيا العظمى كرويا واقتصاديا ومن ثم أصبح فوق كل لسان. ولكن الإجابة رغم ذلك لم تكن مرضية

بشكل كامل، فهى لاتفسر مشاهدة ١٠٧ مليارات مشاهد للمباريات فى التليفزيون فقط، والغالبية العظمى لا تنتمى إلى دول لها فرق تنافس فى البطولة. ولذا فإن المرجح هو وجود أسباب أخرى تخص الإنسانية جمعاء بغض النظر عن الدين أو العرق أو اللغة أو حتى حجم المشكلات والنوائب والكوارث التى تعرفها كل دولة وملة وقومية. ولعل واحدة منها هى العولمة ليس فقط لتفاعلات اقتصادية وإنما لأن فيها ما يمس الوجدان الإنسانى أينما كان، وهنا فإن كأس العالم يختلف كثيرا عن الاهتمام العالمى بوفاة الأميرة ديانا والأم تريزا فى العام الماضى بعد رغم الشقة بين الأحداث الثلاثة.

هنا فإن كرة القدم تقدم نوعا من الدراما التى ربما تعجز عنها أية قصة أخرى فى السينما أو التليفزيون، فهناك الشخصيات ممثلة فى اللاعبين والمدربين واستعداداتهم الأولى وتاريخهم الشخصى، وهناك حدث المباراة ذاته الذى يتصاعد فى تفاعل مثير ممتلئ إلى الحافة بعدم اليقين والشك، وهناك النتيجة نفسها التى تتجلى فى فرحة الفوز للبعض وخيبة الأمل والهزيمة للبعض الآخر، ولا يخلو الأمر من بعض لدور القضاء والقدر والحظ الممثل فى ضربات الترجيح. وبالطبع فكما فى كل أنواع الدراما هناك أبطال وشهداء ونجوم، تتبعهم عدسات الكاميرا أينما ذهبوا أو جاءوا، أقبلوا أو أدبروا، وكانت وجوههم مبتسمة أو عابسة. وحول ذلك يوجد الجمهور الذى بات جزءا من الدراما ذاتها يصيح ويهتف، وأحيانا يقوم بدور الشيطان عندما لا يتقبل االنتائج.

وليس الأمر كله مخاطبة للوجدان، فكأس العالم مثله مثل كل الأعمال الدرامية العالمية فيه الكثير من التجارة والشطارة، وصفقات المكسب والخسارة، ومنافسة هذا العام لم تكن فقط بين البرازيل وفرنسا، ولكنها أيضا كانت بين شركتى نايك وأديداس للأحذية والملابس الرياضية التى قامت كل واحدة منها بمساندة ستة فرق رياضية، وربما فى حالتهما فقط ليس هناك فائز ومهزوم، ففى التجارة قد يكسب الجميع، وموعدنا وإياكم عام ٢٠٠٢، وكل عام وأنتم طيبون!!

١١. مونديال...!

الذين يكرهون العولمة ويعتبرونها من رجس الشيطان ونوعا من النجاسة التى لا يصح الاقتراب منها سوف يجدون فى شهر المونديال ما يؤذى العين وما يجعل فى القلب غصة، فالدنيا بأسرها المتقدم والمتخلف، والغنى والفقير، والشمال والجنوب، لم يعد لها إلا الاهتمام بكأس العالم لكرة القدم الذى تجرى أحداثه فى فرنسا، ولكن مشاهديه والمتعلقين به يوجدون فى الكون المعمور كله. فالمسابقة التى تجرى كل أربع سنوات فيها ممثلون لكل القارات والأديان والأجناس، يتنافسون وفق قواعد محددة ومتعارف عليها مسبقا، وفى زى موحد قد تتعدد ألوانه حسب الأعلام القومية، ولكن ذلك لا يعنى أكثر من ماركة مميزة لنفس المهارة أو نفس الصناعة، والكل مشغول بتسجيل أو تحقيق الهدف فى أن يكون الأكثر رواجا وقدرة، فتزيد أسعار لاعبيه، أو يكون الأعلى قدرا فيحصل على الكأس. الكل سوف يقف بحماس وانتباه حينما يعزف نشيده القومى، ولكن الحماس والانتباه شىء والمهارة شىء آخر، فتلك مجالها الموهبة العلم والتدريب القاسى والتكتيك والاستراتيجية وقدرة المدربين ساعة المواجهة على إستقراء ساحة المعركة أو السوق أو الملعب لكى يصيب الهدف أو يبيع السلعة.

ولكن كل ذلك لا يعنى اختفاء الخصوصية ، فعلى عكس ما يعتقد الكارهون للعولمة، فإنها الحالة الوحيدة التى يتم فيها تسويق الذاتية الثقافية والاقتصادية على المستوى العالمى، فهناك الثقافة والقدرة الغربية تجدها فى كل فرق الشمال، فالوصول إلى شبكة المرمى يتم بأقصر الطرق وعبر عدد محدود من التمريرات، فما عليك إلا أن تنظر إلى هدف إيطاليا الأول فى مرمى شيلى عندما حصل باجيو على الكرة فى منتصف الملعب، وفى تمريرة واحدة بين كل المدافعين وصلت إلى فييردى الذى فى تمريرة أخرى وأخيرة وضعها داخل المرمى، ففى المجتمعات الصناعية المتقدمة لا مجال للفلسفة، والخط المستقيم هو أقصر الطرق بين نقطتين، وسلعة يتم إنتاجها، أو الهدف يتم تسجيله دون استنفاد كبير للطاقة !. وإذا كانت إيطاليا

المتقدمة قد فعلت ذلك وهى على ساحل البحر الأبيض، حيث السخونة والرقص واللعب بالكعوب والحواجب، فإن الثقافة الشمالية تتجذر كلما اتجهنا شمالا، وما عليك إلا مراقبة الدنمارك والنرويج وبعدهما إنجلترا لتدرك هذه الحقيقة فى إصفى معانيها.

خصوصية أمريكا الجنوبية فيها الكثير من المزهريات اللاتينية التى نجمت عن اختلاط دم من أصل إفريقى وآخرون من دم أسبانى الذى أثر فيه عرب كثيرون، ولذا فاللعب خلطة من القوة والجموح الإفريقى والفلامنجو الأسبانى والزخرفيات العربية فى آن واحد، وما عليك إلا أن تشاهد البرازيل التى أحكمت الخلطة وجعلتها صافية نقية لا تخرج فيها الكرة من الملعب إلا فيما ندر، ويتحرك اللاعبون فى وحدات زخرفية، ولكنها أبدا لا يوجد فيها ذلك السكون المكتوم فى اللعب العربى والذى نجده واضحا فى كثرة التحضير والرجوع إلى الخلف الذى نجده فى الفرق: المغربية والتونسية والسعودية، وإنما نجده متحررا منطلقا وراقصا، حيث لا يوجد ما يقال عن الحياء والعورة وقلة القيمة. تفاصيل أخرى قد تجدها فى اللعب الأرجنتينى والشيلى، وفى صور بدائية ومتأخرة فى لعب باراجواى، ولكن الحقيقة تبقى واحدة والسمات مكشوفة وفاضحة. هذا لن تجده أبدا فى اللعب العربى الذى له زخرفياته الأصيلة، ولكنها فى ذات الوقت مشتتة، فالعرب يدربهم الأوروبيون والبرازيليون، فالأمة لم تحسم موقفها الثقافى بعد بين ثقافة الجنوب وثقافة الشمال، ولكنها فى كل الأحوال مقطوعة الأنفاس ناقصة اللياقة، أو هكذا فعلت المغرب التى قدمت شوطا برازيليا فى مباراتها مع النرويج، ثم بعد ذلك فى الشوط الثانى ثقلت الأرجل وتقطعت الأنفاس. وإذا كانت آسيا لا تزال تلعب لعبا بوذيا هادئا، فإن إفريقيا لا نجد فيها إلا الصخب والحركة والجموح، وكأنها تلعب على أنغام طبول الغابات والأحراش، حتى إنها فى بعض الأحيان لا تفرق بين المرميين فى الملعب فيمكن التسجيل فى أى منهما، أما جنوب إفريقيا فقد أحكمت الصنعة وسجلت فى مرماها مرتين !!.

١٢ـ الرد فى الملعب!

للاعب كرة القدم الموهوب محمود الخطيب قول شهير خلاصته أنه كلما اشتد عليه الهجوم فى الصحافة كان يؤمن بأن الرد لا يكون بالتصريحات وإنما فى الملعب وداخل المستطيل الأخضر، حيث يجيد فيما يعرف الإجادة فيه وهو أن يكون، أطول نفسا وأعظم مهارة وأحذر تهديفا، وساعتها لا يملك الذين يهاجمونه إلا الصمت، وكما يصدق ذلك على الساحة الرياضية، فإنه يصدق أيضًا على الساحة الفكرية، فالذين يحولون المناظرة العلمية إلى ساحة للمهاترة الشخصية فإنهم فى الحقيقة يسلمون بعجزهم عن المنافسة فى ساحة الأفكار وبناء الوطن ولا يصح الرد عليهم إلا من خلال إنتاج علمى وفكرى أكثر جودة، وأعمق برهانا، وأقوى حجة، وفوق ذلك كله لديه القدرة على طرح القضايا والتحليلات والنتائج التى تعين على بناء الوطن وحمايته من النوائب.

فالحقيقة التى لامراء فيها أن بلادنا تشهد انقساما فكريا حادا بصدد حالة الأمة، فهناك فريق لايزال يجد نموذجه المثالى فى الدولة الشمولية التعبوية الشعوية، التى وفق ظنه تملك كل شيء، وتعرف كل شيء، والتى هى وحدها فقط قادرة على تحديد أهداف الوطن، وبعد ذلك هى الأقدار على عمل الخطط اللازمة لبلوغ هذه الأهداف، وحمايتها بالسرية الكاملة للمعلومات، وضبط المواطنين من المهد إلى اللحد حتى لاينحرف أحد ولا ينجرف بعيدا عن النظرية العامة، أو الأيديولوجيا الرسمية، فى السر أو فى العلن، أو حتى فى الأحلام أو فى الكوابيس، فتلافيف مخ المواطن وأحشاؤه وخبايا وجدانه تظل مملوكة للدولة المعجزة أو الزعيم القائد أو الملهم أو كليهما، ومادام ذلك سوف يظل سرا فى إطار الأمن القومى الشامل، فلابد أن يعطى المواطن تأييده المطلق الذى لا تشوبه شائبة. وحسبنا الدليل القاطع على ذلك خروجه فى المظاهرات التى قد تكون فى الذكرى السنوية لعيد ميلاد أم الزعيم الذى لا

يجاريه أحد كيم إيل سونج الذى لايزال حتى الآن رئيسا لدولة كوريا «الديموقراطية» رغم وفاته، أو حتى احتفالا بالانتصارات الكبرى فى أم المعارك، ومادام يرفع الكتاب الأحمر أو الأخضر أو ولاية الفقيه ويهزه فى زهو وفخر فلابد أن التنمية قائمة والأمن مستتب.

ولكن لحسن الحظ فإن هناك فريقا آخر لا يتفق مع كل ذلك، ويجد نموذجه المثالى فى دولة تقوم على المشاركة بين المواطنين الذين يملكون أصولها، ويشاركون فى تحديد أهدافها، ويقومون بالمبادرة والعمل الشاق من أجل تحقيق هذه الأهداف. وفى سبيل ذلك فإنهم يؤمنون بالمجتمع المفتوح للمعلومات والمعرفة، ولايجدون حرجا، ولا يرتجفون خوفا، من التعبير عما فى الصدور والأفئدة؛ لأن ذلك هو الأصل فى النموذج كله، فمالم يجد المواطنون الفرصة لطرح أفكارهم ومواقفهم من خلال التصويت أو النشر فى وسائل المعرفة المقروءة والمسموعة والمرئية أو استطلاعات الرأى العام، فإن التعبير عن حال الأمة وآمالها وأهدافها وأولوياتها يصبح ناقصا، ويصبح التهديد الحقيقى للأمن القومى ماثلا؛ لأن الأمة التى تعجز عن الإنصات لمواطنيها تصير أمة هشة تذروها هَبّة نسيم ساعة المنازلة والصراع. ومن الطبيعى أن يكون هناك صراع بين الفريقين، وهو صراع يوجد فى بلدان كثيرة تمر بمراحل التحول التى تمر بها بلادنا، وفى العادة فإن الفريق الأول الذى ينتمى إلى عصر مضى وراح وهزم فى أركان الدنيا الأربعة، كما ظهرت جلائل هزائمه فى التجارب العربية منه، لايجد من حجة يقدمها فى هذه المعركة الفكرية ومن ثم لا يجد إلا سلاح «الخصوصية» و «الأمن القومى» ليشهرهما فى وجة المعرفة والبحث العلمى، ومشاركة المواطنين فى الحقيقة وليست تلك التى يتبناها ويدعى فيها أنه المعبر عن أحلام الأمة وجماهيرها، أما إذا لم يفلح ذلك كله، فإنه يجرى بعيدا عن الملعب ليقذف بالطوب، ويحاول إلغاء المباراة قبل موعدها، لعله يمكنه إعادة المباراة، ويحول المعركة الفكرية إلى مهاترة شخصية، ولكن كما أن التاريخ لا يعيد نفسه أبدا، فإن المباريات الكبرى أيضاً لا تعاد مرة أخرى!!.

١٣ـ قصة الفتى عبد الستار صبرى، أو لماذا خسرنا كأس القارات؟؟

تعددت أسباب الخروج غير المتوقع للفريق الوطنى المصرى من مسابقة كأس القارات. وطبقا للترتيب، فقد تحمل الحكم جزءا كبيرا من الوزر، وبعده جاء اللاعبون، ثم محمود الجوهرى مدرب المنتخب، وأخيرا تحمل المسئولية اتحاد الكرة. ومن بين هؤلاء جميعا تحمل اللاعب عبدالستار صبرى كثيرا من اللوم لأنه كان أول المطرودين من ثلاثة لاعبين انهار بعدهم الفريق المصرى بعد أن كان عليه مواجهة تفوق بشرى كاسح، ولابد أن كثيرين تساءلوا: ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن اللاعب لم يتم طرده؟ وهل كان يمكن أن تكون النتيجة ذات شأن آخر؛ وأظن أن الإجابة كانت ستكون بالإيجاب، فقبل أن ينقلب الجميع على الفريق القومى كانت الثقة فيه هائلة، أليس هو الفريق الذى أحرز كأس الأمم الإفريقية لأول مرة منذ ثلاثة عقود خارج مصر؟ وأليس هو الفريق الذى كانت له القدرة على هزيمة دول كبرى فى عالم الكرة مثل بلجيكا وبلغاريا ولم يبق له إلا خطوة واحدة ويدخل فى مناطحة القوى العظمى مثل البرازيل وألمانيا، كما أنه كان الفريق الذى ينتمى لاعبوه الآن إلى أندية كبيرة فى أوروبا، وكان قادرا قبل ثمان وأربعين ساعة فقط من الفاجعة الكبرى على التعادل مع المكسيك وهى متقدمة بهدفين وفريقنا يلعب بعشرة لاعبين فقط على أرضها ووسط جمهورها؟!

كل ذلك انهار فجأة لأن اللاعب عبد الستار صبرى فقد أعصابه بعد عنف تعرض له من الفريق السعودى، فما كان منه إلا أن لكز بمرفقه صدر لاعب الفريق الآخر فسقط على الأرض، وبدأ بعد ذلك مسلسل الأحداث كما نعرفه جميعا، ومن هنا جاء اللوم قاسيا عليه لأنه، وهو المحترف فى أحد أندية العالم المتقدم. ما كان عليه أن يقوم بفعلته هذه وهو يعلم أن ذلك سيعرضه للطرد، ومن ثم يفقد الفريق المباراة وربما حتى كأس القارات. القضية هنا أن أحدا لم يسأل لماذا فعلها لاعبنا؟ ولماذا لم يدر بخلده كل هذا النتائج التى ربما لو تفكر فيها مليا لما فعل فعلته بالتأكيد؟ ولكن المؤكد أن اللاعب لم يفكر فى كل ذلك وخلال أجزاء من الثانية اتخذ قراره المعروف ونفذه على الفور. ومن المؤكد أيضاً أن اللاعب لم يكن لديه أى قسط من سوء النية لكى يدفع بفريقه القومى إلى التهلكة، وجماهيره إلى الغضب، وربما أيضا زوال الفرصة

لارتفاع ثمنه فى بورصة اللاعبين. ولكن اللاعب تصرف بما تصرف به رغم ما نعلمه الآن من تعليمات المدرب المشددة وما كان معروفا من قبل من طبيعة الحكم الذى أطلقت الصحف عليه صفة «الجزار» نظرا لتشدده فى تطبيق القانون.

القول هنا إن احتراف عبدالستار صبرى كان ينبغى أن ينجيه وينجينا من الهزيمة مردود عليه، فالرجل المحترف فى الأندية الأوروبية يخضع فى احترافه لبيئة ثقافية مختلفة تماما عن بيئتنا الثقافية التى عاد إليها بمجرد انضمامه مرة أخرى إلى الفريق القومى، ولم يكن هو وحده الذى يفعل ذلك، وما علينا إلا مراقبة سلوك المصريين فى أوروبا ومجمل البلدان المتقدمة والذى نجده نموذجا للانضباط وطاعة القانون ، ولكن ما إن يعود إلى مصر مرة أخرى نجد السلوك مغايرا تماما فى الشارع والمسكن ومكان العمل، ومن كان حليما تماما فى لندن أو جنيف مع رجل الشرطة أو المرور أو مع سائقى السيارات الأخرى على الطريق، نجده فاقد الصبر تماما وعلى استعداد للعراك والشجار واختلاق الأعذار بمجرد عودته إلى القاهرة، ومن نجده محافظا تماما على النظافة فى روما أو واشنطن حتى ليسير مئات الأمتار حتى يجد صندوقا للقمامة، فإنه على الأغلب لن يفكر فى البحث عنه عندما يلقى بقمامته على الطريق.

الاحتراف إذن لم يكن ليحل مشكلة بيئة عبد الستار صبرى الثقافية الخاصة والتى يفصلها فى كثير من الأحيان تحت دعوى «الخصوصية» أميال كثيرة عن الثقافات الأخرى. وفى العادة فإن الطبقة الثقافية فى مجملها تؤكد ذلك بإصرار عجيب أحيانا فى تعميم مطلق لا يفصل ما بين الجوانب المختلفة السلبية والإيجابية فى الثقافات الأخرى، ومن هنا جاءت حالة الفصام الرهيبة فى السلوك بين الخارج والداخل. ولذا فقد كان طبيعيا أن يتصرف اللاعب وفق ما اعتاده فى الملاعب المصرية على أساس قاعدة العين بالعين والسن بالسن، وهى القاعدة التى عاشت عليها المجتمعات البشرية قبل اختراع القانون والقضاة والحكام، فقد تصرف غريزيا وفق ما استقر فى داخله من قيم ثقافية تعلى من شأن الرد الفورى، والأهم إعلان الموقف، فلم يكن لرجلنا أن يقبل بنجاح اللاعبين السعوديين فى ضربه من وراء الحكم، ولا ينجح هو فى فعل ذات الشىء الذى فشل فيه وشاهده الحكم نظرا لسوء الحظ فقط ولا غير.

كان إعلان الموقف هو مايهم لاعبنا الماهر، ولم يكن يهمه كثيرا النتائج التى تترتب على الموقف من خسارة المباراة ومن يعلم كأس القارات كلها، وعلى الأرجح فإن ذلك لم يسهل عليها التخلص من أى مسئولية تقع علينا وبالذات على طبقتنا الفكرية والثقافية والسياسية، والتى لم يكن لديها ما تفعله إزاء الحكم، فتخلصت من مسئوليتها كلها وألقتها على اتحاد الكرة والمدرب، ومع استقالتهم ارتاح الجميع، حتى ولو كان من الصعب تحديد الفارق الموضوعى بين اللواء الدهشورى حرب والأستاذ سمير زاهر، بين اتحاد الكرة الجديد والآخر القديم.

بالطبع فإن أحدا لم يفكر فى الهدف وكيف نصل إليه، فقد كان الأكثر أهمية تحديد الموقف وتبرئة الذات من كل مسئولية، ولم يبادر أحد بالاستفادة من تاريخنا الكروى القريب عندما حدثت نكسة اليونان بعد قليل من مشاركتنا فى كأس العالم وبعدها حدث ما حدث الآن تماما حيث تمت الاستقالة والتغيير، وبدأت سلسلة من التغييرات فى المدربين واللاعبين تحدث كل مرة مع كل هزيمة جديدة. وإذا كان المدرب أجنبيا قلنا إنه لا يفهم اللاعبين، وإذا كان مصريا توصلنا إلى أنه متواضع المستوى، وإذا كان يلعب بطريقة دفاعية لمناه لأنه لا يلعب بطريقة هجومية، فإذا فعل كما فعل الجوهرى فى مباراة السعودية لاتهمناه بالتفريط فى المباراة. أما إذا كنا حكماء على غير العادة، فسوف نقول بضرورة التوازن بين الهجوم والدفاع، وهى قدرة لا يملكها إلا لاعبون من نوع خاص تمت تنشئتهم على ذلك منذ الصغر، ولكننا لا نملكهم حتى الآن رغم أن الصديق إبراهيم حجازى بح صوته، ولم يجف قلمه قط من الكتابة فى هذه القضية.

ولكن التخطيط للمستقبل وفى ذهننا عثرات الحاضر والصبر على مكاره الطريق وكظم الغيظ وتحمل الهزائم أحيانا حتى نتعلم الوصول إلى الهدف لا يعد دائما من فضائلنا القومية، فنحن نتعامل مع التاريخ بالقطعة، وأحيانا بالمباراة، ويهمنا إعلان الموقف بدلا من حصافة السياسة، ومادام هناك حكم أو قوة عظمى تتحمل عنا المسئولية فإن الراحة نصيبنا، وإذا كان لابد من كبش للفداء فإن هناك دوما عبد الستار صبرى لكى نلقى عليه اللوم ونحمله المسئولية عما غرسناه فيه من قيم وسلوكيات، وبعد ذلك يمضى كل منا إلى حال سبيله فى انتظار جولة أخرى نتعامل معها بنفس القيم التى لا تتغير!!.

١٤. قصة الفتى ميدو!

وقت كتابة هذا المقال لم يكن الفتى ميدو أو أحمد حسام لاعب نادى أياكس الهولندى، والفريق القومى المصرى، قد لعب بعد مباراة المغرب التى احتبست لها أنفاس المصريين، ومن ثم فإن ما سوف يلى من قول ليس له علاقة من قريب أو بعيد بالمباراة أو بالرياضة عموما، فلكل مجال كتابه، ولكل مقام متخصصون. ولكن ما يهمنا هنا، ويهمنا دائما، الدلالة السياسية لأحداث هامة تمر بنا فى كافة دروب الحياة، وإذا تمعّنا فيها جيدا فربما - ربما - أعطتنا بعضا من هداية إلى الطريق السليم الذى يتقدم فيه الوطن ويحصل على مكانته بين الأمم.

فما حدث للفتى ميدو البالغ من العمر ثمانية عشر عاما أنه منذ فترة قصيرة قام نادى جنت البلجيكى ببيع اللاعب إلى نادى أياكس الهولندى بثمن قدره ما يوازى ٢٥ مليون جنيه مصرى، غير ما حصل عليه اللاعب نفسه. وعندما يحدث ذلك، وبمثل هذا المبلغ، واللهم لا حسد، فإننا أمام موهبة لا شك فيها، ولكننا لم نسمع عنها قبل تصفيات كأس العالم الأخيرة، فما حدث بالفعل كما فى قصص أفلام يوم الأحد فى التليفزيون المصرى أن الفتى كان بيننا ويلعب بالفعل أيضا لنادى الزمالك، الذى لم يهتم كثيرا بغياب اللاعب، وهروبه كما قيل، إلى بلجيكا، فقد كان النادى، كما هو الحال فى مصر كلها، ممتلئا بالفتيان. لم يلحظ أحد فى اتحاد الكرة الهروب، ولم يهتم أحد فى النادى أو فى الحى أو فى المدرسة، أو باختصار فى النظام كله الذى يحيط به. وعلى الأرجح أن هناك من سعد برحيله، اللاعبون الأقل موهبة، والمدربون الذين يعتقدون أنه يظن فى نفسه أكثر مما يجب، والإداريون الذين يرونه سببا لصداع الرأس. ولكن لحسن حظه، أن جزءا واحدا من النظام، وهو والده، آمن بموهبته فسانده فى رحيله، ووقف معه حتى ذاع صيته فى نادى جنت فأعاد الجوهرى اكتشافه ودفعه فورا مع اللاعبين الكبار دون تردد.

هذه القصة وباقى تفاصيلها معروفة لجماهير الكرة، وربما كان الأكثر ذيوعا منها قصة الفتى إبراهيم سعيد الموهوب تماما أيضا، ولكن النظام كان يريد أسره لأنه

تأخر فى الرحيل حتى ذاع صيته فبات من الضرورى أن يبقى، ويخضع للوائح، التى تعنى فى الحقيقة أن يبقى ضمن نظام الأقدمية، فيأخذ دوره فى الصف الطويل الذى يقبل العادى والأقل موهبة. وبغض النظر عن الجوانب الأخلاقية المستهجنة والمرفوضة فى قصة اللاعب، إلا أن جوهرها يبقى واحدا مع قصة الفتى ميدو فى محأولات فك إسار النظام الذى يخنق التفوق والموهبة ويخضعها للقواعد البليدة للأقدمية والبيروقراطية، ومرتباتها وأجورها أيضا. وقصة اللاعبين لا تختلف فى كثير أو قليل عن قصة الدكتور أحمد زويل الذى ترك النظام إلى نظام آخر فحصل على جائزة نوبل، والأكثر أهمية أنه بات ممكنا أن يعطى البشرية وتقدمها من موهبته العلمية ما سوف يبقى أبد الدهر. وكما حدث مع ميدو، فقد أعيد اكتشاف زويل فقط عندما ظهر فى الخارج، وبعد تردد ونكاية فى مولد الشيخ زويل كما قيل، قبل به الوطن واستدعاه لبناء جامعة لا ندرى ماذا حدث لها بعد أن دخل النظام مرة أخرى.

وبالطبع فإننا لا نسأوى بين زويل و ميدو ، فالأول أبقى من الثانى بكثير، ولكن الدلالة تبقى واحدة، وهى دلالة نحتاج لها اليوم أكثر من أى وقت مضى. فما حدث وفى العاصمة البلجيكية بروكسل، وربما على بعد خطوات من حيث كان يلعب الفتى ميدو كرة القدم، قام وزير الخارجية أحمد ماهر السيد بتوقيع اتفاقية المشاركة مع الاتحاد الأوروبى فى حضور وزراء خارجية الدول الأعضاء الخمس عشرة. وقبل ذلك بأيام كانت مصر تحضر فى جنيف جولة أخرى من جولات منظمة التجارة العالمية، بعد أن نجح مجلس الشعب المصرى فى الموافقة من حيث المبدأ على قانون حقوق الملكية الفكرية، وبقى بعد ذلك على المجلس فى دورته التشريعية القادمة أن يوافق على مواده البالغة ١٠٩ مادة. ومعنى ما حدث فى بروكسل وجنيف أننا ماضون على طريق الاندماج فى الاقتصاد العالمى من خلال أكبر نافذتين للتكامل أولاهما الاتحاد الأوروبى الذى يمثل أكبر سوق وأكبر طاقة اقتصادية على مستوى الكون، والثانية منظمة التجارة العالمية المعنية بتنفيذ اتفاقية الجات وبتحرير التجارة العالمية خلال العقدين المقبلين.

وإذا كان الأمر كذلك، فهل النظام جاهز للتعامل مع هذا التحدى؟ وإذا لم يكن جاهزا فكيف يتم تجهيزه، وما هى الخطوات والبرامج اللازمة من أجل ذلك؟

وبالطبع هناك بعض الإجابات الجزئية على هذه الأسئلة، وعلى سبيل المثال فإن هناك حديثا فى مصر عن تحديث الصناعة المصرية، أى إعداد الصناعة للمنافسة من خلال مساعدة الاتحاد الأوروبى الذى سوف نقوم بمنافسة صناعاته بعد ١٢ عاما من بدء تطبيق الاتفاقية. وهناك حديث عن تغيير بعض التشريعات وإصدار الجديد منها الذى يتناسب مع الأوضاع المستجدة، بعضها يتعلق بالملكية الفكرية، وبعضها يتعلق بغسيل الأموال، وبعضها يتعلق بأشياء كثيرة ترتب لحالة من العيش، وليس التعايش، بين مصر والاتحاد الأوروبى والغرب عامة الذى له النصيب الأوفى من الاقتصاد العالمى.

ولكن تحديث الصناعة وإصدار التشريعات ليس هو النظام حتى ولو كانا أجزاء هامة فيه، وهما على الأغلب أركان إجرائية من الممكن فسادها، إذا لم تكن بقية الأجزاء تعمل بكفاءة وتناغم، وتوافق، بحيث تكون قادرة على اكتشاف الفتى ميدو قبل أن يذهب إلى بلجيكا. ومن الخطأ تماما أن نظن أن النظام هو السلطة السياسية على أهميتها، ولكنه يمثل مجموع العلاقات المنظمة فى المجتمع والتى تكفل فى النهاية توظيف موارده لخدمة أهداف بعينها، حيث إنها هذه المرة، وفى هذه المرحلة التاريخية، وبحكم الاتفاقيات التى وقعناها، الاندماج فى الاقتصاد العالمى وبالذات مع دول الاتحاد الأوروبى.

ومن المؤكد أن مصر ليست فقيرة فى الموارد البشرية والمادية على الإطلاق، فلدينا نحو ٦٧ مليونا من البشر - أو نصف عدد سكان اليابان - يعيشون على مليون كيلومتر مربع - أو ثلاثة أمثال مساحة اليابان تقريبا - تقع على ثانى أهم مركز استراتيجى فى العالم بعد سنغافورة وفقا لتقارير التنافسية العالمية. وعندما نملك ذلك، ولا نكون فى مقدمة الصفوف العالمية، ويضطر أحمد زويل وميدو وإبراهيم سعيد وملايين غيرهم لترك الوطن، فإن القضية تصبح أن النظام بما فيه من أحزاب ومجالس وإعلام ووزارات وهيئات ومجتمع مدنى لا يعمل بكفاءة تتيح له تحقيق أهدافه ومقاصده. ومن المدهش أنه لا يوجد خلاف تقريبا بين كافة القوى السياسية فى مصر على أن هناك مشكلة فى النظام، وإلا ما كان هناك حديث عن تحديث الصناعة وتغيير التشريعات، ولكن المدهش أكثر أن ينتهى الاتفاق على هذا الاتفاق.

ومن المؤكد أنه لا يوجد اتفاق على هدف النظام الذى وقع توا فى اتفاقيات دولية، ففضلا عن وجود قوى سياسية تعتبر أن الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا أبدا، ومن ثم وقبل حتى قراءة الاتفاقية فإن هناك من يرى المشاركة مع أوروبا نوعا من الاستعمار الجديد. بل إنه داخل دوائر الدولة نفسها، وفى الحكومة، وفى القطاع الخاص، يوجد من يعتقد أن الاتحاد الأوروبى قوة معادية. وعندما يحدث مثل هذا الخلاف على الهدف، فإن النظام كله لا يعمل بكفاءة، وعلى الأرجح أنه سوف يرسل إشارات متناقضة قد تختلط على كثيرين فيتعاملون معها بخشية وتردد، أو لا يتعاملون معها على الإطلاق، فما حدثت الموافقة عليه فى العلن تتم معارضته فى السر، أو بالهروب كلية من النظام كله كما فعل ميدو وحاول إبراهيم سعيد. ألا يحتاج هذا الأمر توافقا للنخبة حتى يعرف النظام إلى أين يسير، وهل دار بنا الأمر مرة أخرى دورة كاملة لكى نعود إلى الموضوع الذى ظننا أننا تركناه. الإجابة نعم!!.

١٥- لماذا خسرنا المباراة مع المغرب؟

لو أن مباراة مصر والمغرب فى تصفيات كأس العالم لكرة القدم لعام ٢٠٠٢ حول من يستحوذ على الكرة أكثر، لكانت مصر قد فازت بالمباراة، ولو أن اللقاء فى استاد مولاى عبدالله بالدار البيضاء حول من أحرز عددا أكبر من الضربات الركنية لكان فريق الجوهرى قد أحرز السبق وحصل على النقاط الثلاث، ولو أن المنافسة بين الفريقين العربيين كانت حول أى منهما أكثر حرفنة وفهما لجماليات اللعبة لكان الفراعنة قد فازوا على أسود الأطلسى. ومع ذلك فإن مصر خسرت الواقعة يوم الثلاثين من يونيو، وربما خرجت من مسابقة كأس العالم كلية هذه المرة، كما كان الحال فى كل المرات السابقة تقريبا لأن لعبة كرة القدم ليس الهدف منها الاستحواذ على الكرة، ولا إحراز الضربات الركنية، ولا الحرفنة، وإنما الهدف منها إحراز

الأهداف فى مرمى الخصم، أى أن توضع الكرة بين الثلاث خشبات ومن ورائها شبكة ويحرسها حارس من الفريق المنافس.

هذه الحالة ليست فى كرة القدم وحدها، ولكن فى كل ما يخص الحياة المعاصرة للشعوب والأمم، فالدول لا تتسابق من أجل تحقيق الريادة، ولا تتنافس من أجل تعزيز الدور الإقليمى، ولا تتصارع من أجل المجد القومى، وإنما يحدث السباق والمنافسة والصراع على أهداف محددة تصل فى دقتها إلى المساحة الواقعة بين الخشبات الثلاث فى لعبة كرة القدم.

١٦. الجوهرى وكأس العالم... وسيدنى!

يحكى أن الخليفة فى بغداد أرسل عبده إلى السوق ليشترى حوائج القصر، وبعد فترة قصيرة عاد العبد خائفا ومرتجفا ومرتعدا وقال لسيده إنه قابل ملاك الموت وسط البائعين فجرى منه عائدا لكى يطلب حصانا سريعا لكى يغادر المدينة فورا إلى سامراء. وبعد أن استجاب الخليفة لرجائه وجرى الفرس بسرعة الريح إلى المدينة الأخرى، نزل بنفسه إلى الأسواق، وعندما قابل ملاك الموت سأله لماذا أفزع العبد؟ فكانت إجابته أنه لم يقصد قط إخافته، ولكن المسألة هى أنه فوجئ بوجود العبد فى السوق وفى بغداد، بينما هو على موعد معه فى مساء اليوم التالى فى مدينة سامراء. درس هذه القصة واضح للغاية، وهو أنه لا مهرب من قضاء الله، وهو درس شاع لدينا كثيرا فيما يخص الفريق القومى المصرى لكرة القدم، الذى بدا أنه يهرب من قضاء فى مصر فى أثناء مباراته مع المغرب فى القاهرة، إلى قضاء آخر فى ويندهوك فى لقائه مع ناميبيا، إلى لقاء مرة أخرى مع الجزائر فى مصر، وفى كل مرة من هذه المرات كان الكل مرتعدا وخائفا أن موعد الوفاة قد حل، ففى كل مرة قيل إنه اللقاء المصيرى الذى ليس بعده لقاء ولا موعد.

ولكن لقاء الجزائر فى القاهرة أعاد الروح مرة ثانية للفريق المصرى، وبدا أن سيف القضاء ليس قريبا ذلك القرب، وبات الأمر مؤجلا إلى المباريات التالية، وحتى

تنجلى الأمور فسوف تصير مباراة السنغال هى المباراة المصيرية. مثل هذه الحالة من الارتعاد والخوف والشك لا تصلح لفريق يريد أن يمثل بلاده فى كأس العالم حتى لو غادر بغداد إلى سامراء إلى القاهرة إلى ويندهوك أو الرباط أو أى من العواصم راكبا أسرع الخيل أو الطائرات، ففى النهاية سوف يأتى القضاء المحتوم الذى انتظره وخشى منه الجميع منذ اللحظة الأولى.

وللحق فإن الموضوع لا يخص الفريق القومى المصرى الذى يتعرض مثله مثل كل فرق العالم للنصر أو الهزيمة، ولا يخص لعبة كرة القدم التى يلعب فيها الحظ أو التوفيق كما رأينا فى مباراتى المغرب والجزائر أدوارا رائدة، وإنما يخص أمورا كثيرة فى حياتنا بشكل عام. انظر مثلا إلى عملية السلام التى جابت محطات كثيرة منذ بدأت فى منتصف السبعينيات. وكان فيها أيضا صعود نجوم النجاح وخسوف شموسها، ولكننا عند كل نقطة لم نفكر كثيرا فى كيف تنجح حتى نحصل على حقوقنا المشروعة، وإنما كان تفكيرنا منصبا على اللحظة التى تفشل فيها وتموت كلية، وهى لحظة كانت مستقرة فى الوعى واللاوعى كالقدر المحتوم والقضاء النافذ. وانظر أيضا إلى موضوع الإصلاح الاقتصادى والتحول نحو اقتصاد السوق، فالمبررات المذكورة كثيرة لهذه الخطوة فى تطورنا، ومع ذلك فإن الموضوع الذائع ليس متى تنجح وكيف، ولكن متى يصير الفشل صريحا، ويصل لها ملاك الموت فى الموعد المحدد ذات مساء.

وقد كنت أتصور دائما أن هناك استثناءات فى حياتنا بعيدا عن الأمثلة الكثيرة، فبشكل ما كانت هناك دائما جزر معزولة للتقدم ينجح فيها من وضع أسسا علمية لتطورها ونموها وتقدمها، صحيح أن الكل يؤمن بقضاء الله، ولكن هناك وظيفة للبشر على الأرض أن يقوموا بواجباتهم فى العمران. وفى عام ١٩٩٠ تصورت أن الفريق المصرى لكرة القدم هو واحد من هذه الاستثناءات عندما فاز على الجزائر أيضا ووجدت الجميع يوقن بقرب الكارثة التى انتظروها طويلا فكان الشعار هو التمثيل المشرف، فتساءلت فى مقال لماذا لا نفوز بكأس العالم؟ وكان تقديرى أيامها أن تواضع التوقعات، بل اليقين حول الهزيمة، هو جزء من الكارثة، لأنها تصير مثل النبوءة التى تحقق نفسها، ولذا طالبت بأن نضع ثقتنا فى أنفسنا وفى لا عبينا وفى

مدربهم الجوهرى؛ لأنه كان يتبع أسلوبا علميا فى التدريب والتجهيز يؤهله لكى يحقق ما هو أكثر بكثير من التمثيل المشرف.

ولكن ما فعله الجوهرى وأولاده لم يزد كثيرا على التمثيل المشرف، ومر عقد التسعينيات نحن نخرج من الأدوار الأولى فى كل المسابقات ومرة فزنا بكأس إفريقيا لم تتكرر بعدها، وبشكل ما كانت هذه النوعية من التمثيل أشبه بالفرس الذى ركبه العبد فى القصة لكى ينقله من مدينة إلى أخرى يلقى فيها حتفه. ولم يكن ذلك على مستوى كرة القدم فقط، فقد جرى بعض من الإصلاح الاقتصادى خلال ذات العقد وحققت مصر قدرا من النمو المتواضع فى معدلات النمو التى لا هى كانت من القلة بحيث نبحث عن طريق آخر للتنمية أو كانت من الكثرة بحيث تؤدى إلى التنمية المستدامة التى تصون نفسها بنفسها.

وفى المجال السياسى حدث نفس الشىء القائم على التمثيل المشرف، فقد زادت الأحزاب وتعددت الصحف ونما المجتمع المدنى، ولكن الوصول إلى الديموقراطية الكاملة كان شيئا آخر مختلفا تماما.

السبب فى ذلك أننا قانعون بأنصاف الانتصارات، وحتى عندما تحدث فإننا نقنع بالفرح المؤقت الذى تولده وندخل فى حالة هائلة من أحلام اليقظة، وفى العادة فإننا ندخل المباراة التالية ونحن على ذات الحالة فنخسرها فنستعيد حالتنا اليقينية قبل المباراة الأولى. ولعلنا نتذكر أيام حكومة الدكتور الجنزورى عندما كان يفتتح مشروعا كل أسبوع، وقيل أيامها إن دول العالم تقف صفا صفا لكى تتعلم من تجربتنا الفريدة" وتحدثنا عن النمر الذى ولد على النيل، ولكن ما إن مرت سحابة الركود وأزمة السيولة حتى كانت الفرس قد وصلت إلى سامراء انتظارا لقدرها الذى ليس منه مهرب.

القصة تكررت مرة أخرى مع مباراة الجزائر، فقد فزنا وأعطانا القدر شهرين من أحلام اليقظة حتى تأتى المباراة التالية رغم ما ارتكب فيها من أخطاء شائعة فى المجتمع كله. ففى المجتمع يقال إنه لا ينبغى تولى السلطة إلا لمن يستحقها ويؤهل لها، ولكن ذلك لا يحدث بالطبع، فمن يتولى ليس بالضرورة من اكتسب هذه

الصفات، وقد فعل الجرهرى ذلك تماما باختيار لاعبين لا يلعبون بل اختار لاعبا مريضا بالفعل، مخالفا للحكمة التى تقول فى العالم إن الأولوية دائما تكون للاعب والمدير والقائد العسكرى الجاهز. وبدلا من وضع الإنسان المناسب فى المكان المناسب، وجد المدرب أنه لا غضاضة فى وضع أحمد حسن فى غير المكان المناسب له لأنه فى الفريق القومى - كما فى أماكن أخرى فى بلادنا - هناك من يصلح لكل المواقع والمحافظات والوزارات والشركات فى خط الوسط وفى خط الدفاع. وما لم يتعلم الجوهرى من درس الانتصار فسوف ينضم لصف طويل من الذين يبحثون عن حصان.!

١٧ـ الهيمنة وكأس العالم !

منذ فترة قصيرة لا تتعدى شهورا ذكرت فى هذا المكان قصة الخليفة فى بغداد الذى أرسل عبده إلى السوق ليشترى له شيئا فجاء مرتعدا مرتجفا طالبا أن يمنحه حصانا يجرى به إلى سامراء لأنه شاهد ملاك الموت يقترب منه. وما كان من الخليفة إلا أن منحه حصانا أبيض سريعا ليأخذه إلى مبتغاه ونزل بنفسه إلى السوق لكى يسأل قابض الأرواح لماذا أزعج عبده، فما كان من عزرائيل إلا أن قال له معتذرا إنه لم يقصد الإزعاج وإنما كان مندهشا لوجود العبد فى بغداد بينما يفترض أن يأخذ روحه فى مساء اليوم التالى فى سامراء! رويت هذه القصة تعليقا على مباراة مصر والجزائر التى انتصرنا فيها انتصارا كبيرا على الدولة الشقيقة، وكان الأمر فى رأيى أن المباراة لم تكن إلا ذلك الحصان الأبيض الذى حمل العبد فى القصة إلى سامراء بينما كان القدر سوف يأخذ روحه فى مساء اليوم التالى أو فى المباراة التالية بالنسبة لفريقنا القومى.

والحقيقة أن فريقنا القومى كان بيده أكثر من حصان أبيض أخذه بين المدن المختلفة للقاهرة والرباط وأخيرا عنابة حينما نفذ سهم الله وحل القضاء النافذ. ووقت كتابة هذه السطور كانت هناك محاولة للحصول على حصان أبيض جديد من خلال الشكوى المرفوعة للاتحاد الدولى لإعادة مباراة الجزائر مرة أخرى لعلنا نفوز فيها

بفارق ثلاثة أهداف تجعلنا نتسأوى مع السنغال فى فارق الأهداف فنفوز بتذكرة الذهاب إلى كأس العالم.

وبغض النظر عن إمكانية ذلك من عدمه، فإن درس المسيرة الطويلة يقول إن المسألة كلها هروب من مدينة إلى أخرى، ومن لحظة قدرية لا مهرب منها ولا منفذ. ولا يعود ذلك بأى معنى للشك فى فريقنا القومى، فقد بذل اللاعبون قصارى جهودهم، وضحوا بالكثير من أجل إسعاد الجماهير، حين قدموا تضحيات أسرية ومادية جليلة. كما أن ذلك لا يعود أبدا إلى الشك فى قدرات المدرب محمود الجوهرى الذى أعتقد أنه أفضل المدربين العرب والمصريين على الإطلاق، بل إنه كان الأكثر مهارة فى تاريخ كرة القدم فى مرأوغة الأقدار فذهب بنا إلى كأس العالم مرة من مرتين أى بنسبة٥٠٪ وحصل لنا على كأس الأمم الإفريقية مرة من أربع مرات أى بنسبة ٢٥٪ وهى إنجازات لم يسبقه إليها أحد ممن يسمون أساطين اللعبة ولاعبى العصور الذهبية التى لا نعرف متى كانت على وجه التحديد، لأن قصة خروجنا من كأس العالم مسجلة أربع عشرة مرة، أما خروجنا دون كأس أو ميدالية فى مسابقات أخرى فأكثر من أن تعد أو تحصى.

المسئولية بكاملها تقع على عاتق المجتمع كله وطريقته فى ركوب الخيول البيضاء والذهاب إلى سامراء عند كل لحظة تحتدم فيها المنافسة ويستعر فيها النزال.. وفى العموم حالة الهلع والرعب والخوف من كل مواجهة فى السياسة أو فى الاقتصاد أو الثقافة، فكيف يستطيع فريق لكرة القدم أو أى فريق آخر الفوز بينما نخبته السياسية والفكرية والثقافية ترتعد صباح مساء مما يسمى الغزو الثقافى والغزو الفكرى والغزو الحضارى، إلى آخر التنويعات الغازية للحصون القيمية والأخلاقية والنفسية والعاطفية للأمة؟.

ومن المدهش أنه بعد أن تبارى الجميع على اختلاف تنويعاتهم السياسية والأيديولوجية فى ضرورة الخوف على شرف الأمة وعفتها من كل احتكاك أو انفتاح على الخارج فإن هؤلاء تباروا جميعا وبشجاعة يحسدون عليها فى التباكى على غياب النزعة الهجومية لدى لاعبى المنتخب وحالة الارتباك الشديد التى تحدث لهم بمجرد مواجهة شباك المرمى حتى ولو كان خاليا تماما من حارسه. تعالوا جميعا نعد بالمسائل إلى أصولها وعندما تبث أسرة كاملة الخوف والرعب لدى أبنائها من العالم

الخارجى الذى يحمل الشرور والموبقات والجراثيم والميكروبات التى لا يعلم أحد إلا الله متى وكيف تصيبنا بالوهن والانكسار، فماذا نتوقع عندما يكون لدى هؤلاء الأبناء حالة اختيار ومنافسة؟ وهل ننسى أبدا حالة الثانوية العامة لدى كل الأسر المصرية، وتحفيظ الأبناء فى حالة العسر الشديد التى يكونون عليها كل الجمل التكتيكية الواردة فى امتحانات الأعوام السابقة وتكون النتيجة نسيانها ساعة الامتحان، أو تذكرها فى الإجابة عن أسئلة لم ترد، أو بالاستحواذ على الكرة وعدم تسجيل الأهداف تماما كما يكتب الطالب كل شىء ماعدا الإجابة عن السؤال المطروح عليه؟!.

ولكن القضية ليست فقط الخوف والرعب من الغزو الثقافى الأجنبى، فالفزع كل الفزع وارد من كل حالات الانفتاح التجارى على العالم، وكان ضروريا أن يستغرق التوقيع اتفاقية المشاركة مع أوروبا عامين، وسوف يحتاج الأمر فترة مثلها للمصادقة، ومن يعلم متى يستغرق الوقت مع أمريكا أو حتى مع العالم العربى وإفريقيا. فالأمر الذى لا يكف الكبار عن قوله هو أن الصناعة والزراعة المصريتين عاجزتان عن المنافسة، وإذا كان الحال كذلك مع الصناعة والزراعة السعوديتين، حيث يحقق فائض على الجانب السعودى يزيد على مائة مليون دولار فلماذا يستغربون إذا ما خاف اللاعبون من مباريات المغرب؟ وتعالوا جميعا نراجع حالة الكتابات المصرية فيما يتعلق بمنظمة التجارة العالمية واتفاقيات الجات، فهى الشر المستطير، والهيمنة المفزعة والتحكم والاستعمار والإمبريالية والصهيونية، وكل ذلك فى حزمة واحدة نتمنى أن نغمض العين ونفتحها فنجد أنفسنا بعيدين عنها وعن منافساتها.

المطلوب إذن فى الثقافة والتجارة والشطارة ألا نتنافس مع أحد ونقيم أسوار الرقابة والحصص والجمارك على الأبواب والنوافذ، وبعد ذلك سوف يكون بمقدورنا فى غياب كل العالم أن نتغنى بعبقريتنا الفائقة، وتاريخنا التليد وأيامنا التى هى دوما مجيدة، وأخلاقنا التى هى فى كل الأحوال حميدة فما المصادفة إذن عندما نفقد كل المنافسات الدولية بعد ذلك ونعود مرة أخرى لقصة الأهلى والزمالك اللذين يحصلان بقدرات فائقة على كل اللاعبين المتميزين فى البلاد ومن بعدها يتبادلان أماكن القيادة فى الشهرة والدورى العام والكأس، وهى بطولات تتم بدون منافسة تقريبا ومن بعدها تحتفل هذه الأندية بالفوز والنجاح وكأنها بالفعل كانت فى مسابقة تنافسية طاحنة؟!. وما المصادفة أن لاعبينا لا تتوافر لديهم أية قدرات هجومية، وإذا كانت

هذه القدرات موجودة فإنها لا تظهر إلا بعد ذهابهم إلى الخارج، فهل كانت هناك مصادفة أن أحمد حسام ومحمد اليمانى لم تظهر لهما قدرات هجومية عندما كانا يلعبان فى المحروسة، بينما ظهرت هذه القدرات فى الأندية الأجنبية؟ المؤكد أنه لم توجد مصادفة فى كل ذلك، وأن القضية فى جوهرها تخص المجتمع كله وعليه تحمل المسئولية.



الفصل الثالث

فى التاريخ



١ـ العصر البرونزى!

منذ أعوام قليلة تصدرت النعجة «دوللى» غلاف مجلة تايم الأمريكية كشخصية للعام، باعتبارها كانت أول الفتوح فى عالم الاستنساخ، وبعدها ضاعت فتاة الغلاف فى الزحام، فقد تتابعت الاكتشافات والفتوحات العلمية، وصارت موضوعا لمشاجرات المجالس النيابية، فلم تعد القضية علمية بل أخلاقية وسياسية، وتصبح المسألة قضية وقت. ومنذ أسبوعين تصدر ذات المجلة الخبر المنتظر أن استنساخ الإنسان بات أقرب مما نتصور، وعلى خلفية النبأ كانت صورة طفلين متماثلين ليسا بالتأكيد توأما. وبين هذا الخبر وذاك كانت الأخبار تتوالى بأسرع من سرعة الضوء فى اختراعات المواد الجديدة، واكتشافات الجينوم أو الخريطة شبه النهائية للشفرة الوراثية للإنسان، وعشرات من الاختراعات والاكتشافات فى مجال الاتصالات والمواصلات. وحتى وقت قريب كنت أظن أننى أصبحت فى قلب الثورة الصناعية التكنولوجية الثالثة عندما أجدت استخدام الكومبيوتر ودخلت فى تلافيف الإنترنت، ولكن عندما طالعت مجلة لغة العصر التى أصدرتها مؤسسة الأهرام مؤخرا، اكتشفت وجودى فى العصر البرونزى البدائى للثورة.

كل هذه التطورات حدثت خلال فترة قصيرة للغاية لا تزيد فى حكم التاريخ على طرفة عين، وحتى نتخيل ما حدث خلال هذه اللحظة الخاطفة علينا أن نعود قبل

أربعة ملايين ونصف مليون سنة حين حدث شيء ما فى شمبانزى تلك الأيام غير من خصائصه الجينية، ربما لأن أنواعا من البكتيريا دخلت وعبثت وتفاعلت كيميائيا، ولكنها بعد ذلك دفعت المخلوق بعد مليونين وثلاثمائة عام لأول فعل عقلانى، وهو أنه لا توجد عبقرية كبيرة فى أن يسير على أربع، ومن الأفضل له أن يقف منتصبا ويسير على قدمين. وربما يرى البعض أن ذلك كان هو الجنون بعينه، وبداية لنوع ما من الخطيئة، ولكن ما حدث بعد ذلك كان أعجب من العجب، فقبل ١٢٥ ألف عام عرف الإنسان فضيلة الكلام، وربما كانت هذه هى اللحظة التى تجسد فيها وجود آدم وحواء، فقد كان ضروريا، وهما وحدهما فى أرض الله الواسعة، من الحديث والتواصل من أجل عمارة الأرض وشغل أوقات الفراغ الكثيرة. وهى حالة على أى الأحوال تقلصت بعد تلك الفترة الطويلة للغاية وساد الصمت بين الزوجات والأزواج، ربما لأنه لم يعد هناك ما يقال بعد هذا الزمن، وربما لأن التليفزيون بات يقوم بالكلام نيابة عن الجميع، وربما لأن الجينات تغيرت عن تلك الأوقات السعيدة، أو لأن السكوت من علامات الرضا !.

المهم أن الإنسان بعد ذلك احتاج قرابة المائة ألف عام لكى يبدأ حضارات ما قبل التاريخ حين عرف الرسم على جدران الكهوف، واللعب بالصلصال لكى يصنع الأوانى، وقبل سبعة آلاف عام عرف أوانى الفخار، ووجد المؤرخون أن كل خط إضافى ورسم مميز عليها كان يعنى بضع مئات من السنين تقدمت فيها أدوات البشر من استخدام البرونز حتى استخدام الحديد. ولكن التاريخ بدأ بالفعل عندما قفز الإنسان قفزته الثالثة الكبرى بعد أن وقف على قدميه ونطق بالكلام، حينما عرف الكتابة وبعدها صار قادرا لأول مرة على اختزان المعرفة واسترجاعها ونقلها، وبالتالى عرف التراكم فى الخبرة. وخلال خمسة آلاف عام فقط ولا غير عرف العالم التطور من حضارة مصر الفرعونية الزراعية الملتصقة بالأرض حتى حضارة أمريكا الأمريكية الصاعدة فى الفضاء وفى مجال الخيال الافتراضى التى لا يعلم أحد ما هى على وجه التحديد.

هذه المسيرة الطويلة جدا تقول لنا الكثير عما يحدث الآن فى مجال العلم والتكنولوجيا والتطور بشكل عام، وما تحقق خلال الأعوام القليلة الماضية ما بين ظهور النعجة دوللى على غلاف مجلة تايم، وظهور الغلاف الأخير عن قرب

استنساخ الإنسان، فلو قيس ما حدث بحلقات التطور الماضية لكان قد جرى تحت أعيننا مباشرة ما لا يقل عن بضعة آلاف من السنين، أضيفت إلى أعمارنا وفكرنا دون أن ندرى، فعمر الإنسان ليس بعدد السنوات التى يعيشها، ولكنه يقاس بعدد الحلقات التطورية التى عاش خلالها. وفى الماضى كان إنسان العصر البرونزى لا يعرف شيئا غيره قبل أن يذهب إلى مثواه الأخير مهما طال عمره الذى لم يكن يتعدى بكثير سن العشرين، وعندما تم استئناس الدجاج وتربيته فى المنازل وصار للإنسان مورد بروتينى ثابت أضاف بضعة أعوام، أما عندما اكتشف زراعة البطاطس بما فيها من سعرات حرارية، فقد أضاف إلى سرعته وطاقته ما جعله قادرا على الوصول إلى المرحلة التى نعيش فيها.

وعندما قرأت فى واحدة من المقالات أن كل ما نشاهده ونسمع عنه حاليا من تطور علمى وتكنولوجى لا يزيد على كونه نوعا من المراحل البدائية التى تماثل العصر البرونزى قبل التاريخ، أدركت أننى ربما أعيش مليون عام إضافية، فمثل هذه السرعة فى الاكتشافات ربما تنقلنا خلال عقدين فقط بأكثر مما نقلتنا اكتشافات الإنسان منذ اتخذ قراره الخاص بالمشى على قدمين. المشكلة أن ذلك حدث وقد بدأنا نتلمس نتائج هذا العصر، فمشروع الجينوم أوضح لنا أن جينات الإنسان أقل مما كنا نتصور، وأن كثيرا منها ليست له علاقة بوظائف الإنسان الحيوية، بل إنه يوجد فيها ما يعد نتائج لغزوات جينية حدثت فى عصور سحيقة من كائنات أخرى مثل البكتيريا ووجدت لنفسها مكانا فى الفضاءات الشاسعة داخل الجين. فماذا سوف يحدث لو قررنا التخلص من هذه المستوطنات الأجنبية؟ وهل سيبقى الإنسان على ما هو عليه، وهل يقوده العقل بعد ذلك إلى خطوات أخرى أكبر من المشى والكلام والكتابة ؟. وماذا سوف يحدث إذا ما أدركنا تماما الشفرة الكودية للكائن البشرى؟ هل سيمكن بعد ذلك تحويله إلى جزيئات وذرات يمكن نقلها من مكان إلى مكان عبر آلة الفاكس، أو من خلال الإنترنت؟.

البادى حتى الآن من التطورات العلمية أن سكان الكرة الأرضية الآن وخلال العقود القليلة المقبلة ربما يكونون آخر البشر الذين يعرفون العالم كما كان عليه قبل اكثر من مليونى عام بمخلوقاته وعناصره، فهم آخر الأجيال التى سوف تعرف الإنسان كما عرفناه وقبل تفتته لذرات تضيع فى الخيال الافتراضى، والمعادن التى

كنا نظن أنها تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة قبل أن تخلق عناصر جديدة لا تعرف مثل هذه الخواص، والدجاجة الوديعة قبل أن يضيف لها كنتاكى وصفته السرية، والوردة البلدية الفواحة الصريحة المقبلة بشذاها وأشواكها، وزهرة التوليب البنفسجية الغامضة على ساقها الرشيقة التى تخفى من الأسرار أكثر مما تكشف، قبل أن تفشل العيون فى معرفة الفارق ما بين الأصل والمستنسخ. والله على كل شيء قدير.

٢ـ أولاد الحوارى!

القيمة الحقيقية للكتابة فى التاريخ أنها بقدر ما تلقى أضواء على الماضى فإنها تجعلنا نكتشف الحاضر ونفهم ما فيه من تغيرات تضيع وسط ضجيج الأحداث. ولا أعتقد أن أحدا من المؤرخين يفعل ذلك بالقدر الذى يفعله أستاذنا الدكتور يونان لبيب رزق فى مقالاته الهامة فى «الأهرام» (ديوان الحياة المعاصرة) التى تعرفنا عن قرب على التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى عبرت بمصر ليس فقط من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين ولكنها نقلتها أيضا من عصر الركود العثمانى إلى العصر الحديث. وحينما يفعل ذلك فإنه يمدنا فى نفس الوقت بأدوات التحليل والفهم لكى نرى مصر فى لحظات العبور المثيرة بين القرن العشرين والقرن الحادى والعشرين والتى ربما يتلقفها مؤرخ القرن القادم ويصورها لنا بنفس مهارة الأستاذ القدير. وفى إحدى حلقاته الأخيرة فإن أستاذنا تناول ظاهرة التغير فى ظاهرة الحارة المصرية فى الأعوام الأخيرة من القرن الماضى نتيجة التوسع فى دور الدولة الإدارى ومعها اتساع نطاق جماعات الأفندية والتى خلقت أحياء العباسية وشبرا، والتحول إلى النظام الرأسمالى وما نشأ عنه من قوى كان على رأسها الأوروبيون الذين ابتعدوا عن أسوار المدينة التقليدية لكى يخلقوا أحياء الأجانب فى الزمالك وجاردن سيتى وغيرها، والتغير الاجتماعى الذى تجسد فى الهجرة من الريف إلى المدينة ومعها هجرة القوى الاجتماعية التى نمت نتيجة استقرار الملكية الزراعية فى مصر. كانت هذه هى عجلات التطور التى كان على الحارة المصرية العتيقة

وأولادها أن يواجهوها بالتغير تارة والغضب تارة أخرى، فلم يعد فى مقدور أولاد الحوارى أن يبقوا على حاراتهم مغلقة فى وجه تمدد الدولة الحديثة، ولا أن يظلوا على حرفهم التقليدية فى مواجهة منتجات الثورة الصناعية الأولى، ولا أن يبقى شيخ الحارة على حاله ووظيفته بعد أن تغير هذا وذاك. وهكذا فإن البنيان المعمارى والإنتاجى والسياسى للحارة المصرية كان لابد له أن يتغير بدوره نتيجة متغيرات عاصفة وعاتية، ولم يكن التغير فى المبانى فقط وإنما شمل أيضا المعانى على حد قول مؤرخ القرن العشرين.

مؤرخ القرن الحادى والعشرين لن يجد صعوبة وقد تعلم على يد أسلافه العظام فى النظر إلى المحروسة، وهى تعبر الجسر الفاصل بين قرنين مواجهة متغيرات لا تقل عنفوانا عما عرفته منذ قرن سبق، وسوف يلحظ كيف وصلت الدولة المركزية إلى قمة عنفوانها بالسيطرة ليس فقط على السياسة والأمن، وإنما أيضا على الاقتصاد والتعليم والثقافة وتنظيم الأسرة والشباب والرياضة. ومع كل ذلك كانت المدينة تتغير فى المبنى والمعنى، فى المبنى بظهور أحياء جديدة للبيروقراطية المدنية والعسكرية التى جسدتها مدينة نصر، حيث تقع على بواباتها أجهزة التنظيم والإدارة والمحاسبات والتخطيط القومى، وفى المعنى بتدخل الدولة فى حياة المواطنين من المهد إلى اللحد وتحول ذلك إلى ثقافة عامة تعتبر ذلك من طبيعة الأشياء حتى إن التغير فيها - كما حدث مع أولاد الحوارى من قبل - يعد خروجا عن النواميس ومروقا على القوانين وفيه من الشيطان مس.

ولكن الأمور لا تبقى أبدا على حالها، وسوف يشهد مؤرخ القرن القادم عندما يطالع صفحات «الأهرام» ويكتب ديوانها أن السنوات الأخيرة من القرن العشرين شهدت نظاما عالميا جديدا قد قام يربط العالم بالتكنولوجيا والشركات متعددة الجنسية والمؤسسات المالية والاقتصادية العالمية والإقليمية، وأن المصريين الذين التصقوا بمياه النيل لبضعة آلاف من السنين لم يعودوا كذلك، فقد هاجروا إلى أرض الله الواسعة طلبا للرزق وعادوا بالأموال التى يريدون استثمارها فى صحارى مصر الشاسعة، وأن الدولة باتت مرهقة بفعل الأثقال التى وضعتها على عاتقها. ومع كل ذلك، فإن المدينة بدورها تتغير فى المبنى والمعنى، فى المبنى بظهور أحياء الشروق والعبور وغيرها على أطراف القاهرة وعلى طريق الإسكندرية المعروف تاريخيا

بالصحرأوى والذى نشر عليه القطاع الخاص الخضرة والنماء كما فعل بالمصانع التى بلا دخان فى المدن القريبة التابعة مثل العاشر من رمضان والسادس من أكتوبر. وفى المعنى بظهور قوى اجتماعية جديدة تتصل بالنظام العالمى وتنخرط فيه ولا تخاف أو ترتعد منه، وتطرح رؤى جديدة لتطور مصر ونموها. ومن الطبيعى، كما حدث فى كل لحظات التغير من قبل أن يزعج ذلك أولاد الحارة القديمة أو مدينة نصر الحديثة والذين لم يعودوا قادرين على الخروج بالنبابيت وقوفا فى وجه التطور، وإنما أصبحوا من خلال الصحافة والأحزاب قادرين على شن المعارك التى تطالب بالحفاظ على القطاع العام وتدخل الدولة وبقاء كل شىء على ماكان عليه. ما أشبه الليلة بالبارحة، وتحية لأستاذنا أمد الله عمره وأعطاه الصحة والعافية.

٣ ـ الحمير..... والتاريخ!!

جاء الخبر خاطفا عبر وكالات الأنباء أن الحمار كان أكثر من أثار الإعجاب فى معرض باريس الزراعى الدولى، حيث تزاحم عليه الزوار يتأملون فى جماله ودعته، وباعتباره حقيقة اندثرت تماما من الحياة الأوروبية ولم يعد لها وجود اللهم إلا فى كتب التاريخ والأفلام السينمائية القديمة. ولعل ذلك كان مثيرا للعجب، فقد كان الظن أن الديناصورات وحدها هى التى صارت مثلا على الاختفاء من على سطح الكرة الأرضية نتيجة أحجامها الهائلة التى عجزت عن التكيف مع ظروف مناخية تغيرت، حتى صار الحصول على واحدة من حفرياتها أعجوبة تعقد عليها الندوات العلمية بحثا عن التطور الأيكولوجى لكوكبنا، ثم بعد ذلك يصير مآلها إلى متاحف العلوم الطبيعية يأتى لها طلاب المدارس بحثا عن المعرفة أو ربما تزويغ منها. ولم ينس ستيفن سبيلبيرج مخرج الروائع الأمريكى تخليدهم فى فيلميه الشهيرين عن حديقة الديناصورات بعد سنوات طويلة من أول الأفلام التى مجدت ذكرهم تحت اسم العالم المفقود، ولا أدرى متى سوف يلقى الحمير ذات الاعتبار ويصعدون إلى الشاشة

الفضيـة التى صـارت ملونة الآن أبطالا يشهـدون على حلقات التطور على ظهر الكوكب.

وبالتأكيد جاء الخبر مفاجئا لكثيرين منا، فمن جاءوا من الريف لم يفتقدوا الحمار كثيرا لأنه كان ملء السمع والبصر فى القاهرة يقوم بوظائف عدة، يجر العربات ويحمل القمامة ويبعثرها فى ذات الوقت على الطرقات، صحيح أنه بات منكسرا، إلا أنه ظل باقيا وشاهدا على الاستمرارية والصيرورة والثوابت الكامنة فى تاريخنا، بل وحتى على قيمنا التى تعلى قيمة الصبر والجلد على تحمل مالا يمكن تحمله. وفى بعض الأحيان كان موضع فخرنا، فعندما شكا القائمون على شأن البنك الدولى وجوده فى شوارعنا وما يؤثره سلبا على بيئتنا، وما تشهد عليه معاملته من مخالفات جسيمة لحقوق الحيوان، فإن ردنا كان جاهزا أن الحمار هو إحدى الوسائل التى نستخدمها لتوفير الطاقة. ولما كان العالم أيامها يعانى أزمات النفط وأسعاره العالية، فقد عد ذلك حلا عبقريا اخترعته البديهة المصرية والذى يصلح مثالا يحتذى لدول العالم الثالث الذى أعيته الفاتورة الثقيلة لواردات البترول حتى أن شبكة «سى. إن. إن» الذائعة الصيت أعطته بعضا من وقتها.

ولكن المفاجأة الأكبر ربما تكون أكثر من ذلك كله، وربما تكون أكثر جدية وخطورة، فالتصور السائد عن اندثار الحيوانات، والأفكار كذلك، أنها كانت تستغرق حقبا طويلة حتى إننا قسمنا التاريخ الإنسانى إلى العصور القديمة، ثم الوسطى، ثم الحديثة، لكى نلخص حركة الإنسان على مدى التاريخ المدون الممتد عبر ستة آلاف عام، أو غير المدون الذى يمتد إلى أربعين ألف عام. وفى العصر الحديث فإن كلمة الإندثار لم تعد مطروحة فى القاموس البشرى. فقد هرع علماء الطبيعة، والقائمون على شئون التوازن البيئى فى العالم لكى يشنوا حربا لا هوادة فيها على عمليات القنص والصيد للأفيال والدببة والحيتان وغيرها مما علا أو قل شأنه فى المملكة الحيوانية، حتى استعادت عافيتها مرة أخرى، وقيل لنا مرة أخرى إن عمليات التوالد بين الفيلة فى كينيا باتت تهدد القرى القريبة من الغابات مما استدعى التوسع فى منح رخص الصيد لها واستخلاص العاج منها، كما قيل لنا إن الحيتان من كثرتها باتت تهدد سواحل كاليفورنيا.

فما الذى حدث للحمار إذن حتى اندثر تماما من القارة الأوروبية فصار موضع افتقاد الأطفال الذين دهشوا من وجوده فى المعرض الزراعى الدولى فى باريس. كما اندثر تماما من قارة أمريكا الشمالية حتى لم يبق له إلا صورة كاريكاتورية تعتبره رمزا للحزب الديموقراطى الأمريكى حتى ما قبل فضيحة مونيكا لوينسكى ؟!. وهل لذلك أية علاقة بالنظام العالمى الجديد، أو تطورات الثورة الصناعية التكنولوجية المعاصرة، أو حتى بعملية التوحيد الأوروبى وظهور إليورو، أى العملة الأوروبية الموحدة لمن لايعرف، باعتبارها ظواهر لايوجد فيها للحمير مكان، ومن ثم تم إحالتها إلى المتاحف والمعارض لكى تصير أعجوبة من أعاجيب الزمن القديم ؟. ولكن الزمن القديم ليس بعيدا للغاية، فالحمار كان حاضرا فى القارة الأوروبية طوال النصف الأول من القرن العشرين، وحتى لعب دورا هاما فى انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى حينما كان يحمل الذخيرة ويخوض حقول الألغام، وحتى لاتخونه شجاعته المشهود لها كانوا يتأولونه الكوكايين الذى صار يعد واحدا من أمراض القرن نتيجة استعمال البشر له. وحتى فى الحرب العالمية الثانية فقد بقى له دور رغم اختراع المركبات والدبابات، فقد استمر فى استخدامه الأنصار والثوار فى جبال يوجوسلافيا واليونان.

ولكن يبدو أن هذا التاريخ الناصع للحمار لم يشفع له فى البقاء، فسرعته كانت أبطأ كثيرا من سرعات عرفها الإنسان اقتربت فى بعض الأحيان من سرعة الصوت، وتحمله للضغوط والحرارة كان أقل كثيرا من تحمل الصلب والسيراميك والمواد التخليقية الجديدة. ومثلما حدث مع كثير من الأفكار التى كانت سائدة فى فترة الحرب الباردة، ضاع الحمار ولم يعد له مكان إلا فى ذاكرة تاريخ العالم المتقدم. أما فى العالم المتخلف فإن بقاء الحمير ربما أضاف واحدة من العجائب التى يأتى لها السائحون، خاصة لو تنبه أحد فى زمن مبكر وأقام حديقة للحمير تكون أكثر جاذبية من حديقة الديناصورات التى خلدها سبيلبيرج لأنها ستكون صالحة لجولات الأطفال وعشاق التاريخ القديم. والأرجح على أى الأحوال أن ذلك لن يحدث بسرعة لأن سر تخلف الدول النامية ليس تمسكها بالحمير وإنما لأنها ليست واعية ولا مشاركة فى مثل هذه التطورات الدرامية العالمية، بل إن فيها من ينكرها إنكارا تاما باعتبارها بدعة من عمل الشيطان، والاستعمار القديم والجديد وما بعد الجديد، والمؤامرة الكونية على حياتنا وقيمنا والقادمة من أنصار الحداثة وما بعد الحداثة.

وقبل أن يفلت منا العيار، أرجو ألا يسىء أحد فهم هذا المقال، فليس مقصودا إطلاقا توجيه أية إهانة للتاريخ أو للحمير أو للدول النامية أو المتقدمه، وعلى أى الأحوال أرجو أن يقبل هؤلاء جميعا اعتذارى مقدما !!.

٤. قصة القاضى «أنتى» !!

بعد رقاد دام أكثر من أربعة آلاف عام فى منطقة أبو صوير بالجيزة استيقظ القاضى «أنتى» على دقات معاول بعثة الآثار المصرية – التشيكية ليجد نفسه فى بداية الألفية الثالثة بعد الميلاد. كان الرجل قد عاش فى عهد الملك «تتى» أول ملوك الأسرة السادسة التى دام ملكها ما بين ٢٣٤٥ و ٢١٨١ قبل الميلاد، وعمل كاهنا وقاضيا، ويبدو أنه كان ورعا وربما عادل، حيث بقيت مقبرته قابلة للاكتشاف واستعادة الذاكرة المصرية التى يتحدث كثيرون عن مسحها هذه الأيام. ولسوء حظ أنتى ، ربما، أنه بعث مرة أخرى إلى التاريخ وكان أول ما شاهده أو عبث بأنفه وصدره وسبب له السعال أنه وجد البلاد وقد لفتها السحابة السوداء التى كان قد ظن أنها قد انتهت من الديار تماما منذ عمل فراعنة عهد الأسرات القديمة على إصدار القوانين التى تنظم حرق الفاقد من الزراعة، وتؤكد حماية البيئة بحيث لا يقطع إنسان شجرة أو يقطف زهرة.

ولكن المصريين فسدوا فسادا كبيرا وأصبحت آفة قطع الأشجار وقطف الزهور إذا وجدت نوعا من الهوايات الذائعة، ولكن المصيبة الأعظم كانت أن أحكام القضاء باتت لا تلقى الاحترام الذى كانت تلقاه منذ بداية عصر الأسرات الذى كان قد مضى عليه ألف عام حينما تولى القاضى أنتى مهمته فى القضاء بين الناس فى احترام ومهابة استمدت وجودها من مكانة الفرعون تتى وأسلافه العظام ممن حملوا تاج الوجهين البحرى والقبلى، ومن تقاليد البشر الذين نظموها فى قواعد للحكم والتحكيم والفصل فى القضايا قبل أن يؤلف أفلاطون فيلسوف اليونانيين كتابه عن القوانين

بعد ألفين من السنين. صحيح أن المحاكم باتت كثيرة، ومنها الابتدائى، ومنها الاستئناف، ومنها النقض، ومنها محكمة القضاء الإدارى والمحكمة الإدارية، وأخيرا المحكمة الدستورية العليا التى لم يكن لها مثيل أو قريب أو شبيه لا فى عهد الملك تتى ، ولا فى عهد أجداده ملوك مصرالعظام سواء كان مينا الذى وحد البلاد، أو الملك خوفو ومن انحدروا من صلبه من بناة الأهرام الخالدة. ولكن رغم ذلك كله اخترع المصريون المحدثون مجلسا يكون سيد قراره فى أحكام قضائية صدرت حتى قبل تشكيل المجلس وقبل أن يكون سيدا أو عبدا.

كانت الدهشة هى ما اعترت القاضى «أنتى» عندما أبصر النور قادما من فتحة المقبرة ومعه دخل الدكتور جاب الله على جاب الله الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار ومعه الدكتور القدير زاهى حواس ومعهم مجموعة التشيك التى لا تدرى عما إذا كان الأسلاف قد وصلوا إلى ديارهم قبل رحيله من الدنيا الفانية أم لا، فقد كان ذلك آخر ما يتوقعه بعد أن وقف أربعة آلاف عام مرتكزا على عصاه ينتظر يوم البعث العظيم الذى استعد له تماما بالحكم بين الناس بالعدل كما أوصاه الإله والفرعون. ولكن البعث جاء بما لم يتصوره أحد، وحتى نفر قريبه الذى صاحبه فى المقبرة على ذكائه الحاد لم يكن ليصل إلى ما بات واضحا أنه نهاية الطريق، أو على الأقل كما أسر له الفاتحون من المصريين والأغراب.

ولكن الدهشة غابت بسرعة، فلم يكن الرجل من تلك النوعية التى تغالب الحقائق، وربما لا يزال الطريق إلى البعث الذى كان يتوقعه لا يزال طويلا، وهو فى علم الغيب على أية حال، ولعله كان مكتوبا له أن يدخل التاريخ مرتين، مرة عندما عاش مع الملك تتى وأخلص له وللبلاد، ومرة عندما دخل عليه الأحفاد يحملون أسرار الغد الذى أتى بعد أربعين قرنا ويحملون سره إلى الدنيا بأسرها. وإذا كان يوم الحساب الرهيب لا يزال بعيدا، فإن يوم كشف الحساب فى عام ٢٠٠٠ كما يدعون لابد أن يكون صريحا لأن الصراحة والشفافية كما يقولون هى بداية الحكمة.

ما يعرفه وسجله القاضى «أنتى» أن ميلاد الحضارة كان مع تنظيم مياه النيل وتوزيعها بين الناس بالعدل لكى يزرعوا الحنطة التى منها يأتى العيش الذى سماه

الناس خبزا بعد انتشار التعليم واللغة العربية، وكان ذلك يعنى حماية النهر الخالد، وعبادته إذا لزم الأمر، بل والتضحية بجميلة من الجميلات إذا كان ضروريا الوقاية من غضبه الذى يأتى مع الفيضان. وبعد ذلك جاء تنظيم كل شىء من العلاقات بين الناس، وبينهم وبين الحكام، وبين الجميع والكهنة الذين يحملون العلم والمعرفة وقواعد التقاضى واستصدار الأحكام. وكان هذا التنظيم هو القانون الذى لا يقبل محاباة ولا مداراة لا من الفراعنة ولا من العوام، ولا من النبلاء ولا من الرعاع، ولا يقبل إطلاقا ما يسميه الناس هذه الأيام الاستشكالات التى هى نوع من المماحكة والالتفاف حول القانون الذى يعطى الحق كل ذى حق فى زمن موعود.

كان «أنتى» متأكدا أن المسألة لم تبق على بساطتها الأولى، فقد كانت قد تعقدت كثيرا بالفعل فى عصر الملك «تتى» عما كان عليه الحال فى عهد مينا أو خوفو وما تلا حكمه من أسرات، ووقر فى ذهنه أنه ليس صحيحا ما أورده أفلاطون بعد ذلك بأن سبب انهيار الحضارة الفرعونية هو جمود قوانينها فأدخل شرب النبيذ وسماع الموسيقى إلى مدرسة تعليم القضاة حتى يخفف من نزعة الجمود ويولد نزعة التغيير اللازم لنمو الحضارة وتقدم البشر. فقد كانت القوانين تتغير لأن مصر كانت تتغير كثيرا بفعل زيادة البشر وتقدم الزراعة وانتشار العمران وتقدم تكنولوجيا التحنيط وبناء المعابد والأهرامات. ولكن كان هناك أمرا ثابتا لا يمكن تغييره وهو احترام القانون وحكم المحاكم، وإلا اختل ميزان العدل وانتشرت العدأوة بين الناس وباتت القوة أساس الحكم، وهو ما كان يعرفه الكهنة الذين يحملون علم الأجداد والفراعنة الذين كانوا يحملون صولجان السلطة.

ولذا فإن ما وجده كاهن هرم «تتى» من تعقيد فى حياة المصريين لم يكن مزعجا كثيرا، وكم كان جميلا على أذنه ما سمعه عن الخضوع لحكم المحكمة الدستورية العليا بضرورة الإشراف الكامل للقضاء على الانتخابات النيابية التى بدا أنه تقليد جديد يعطى العامة صوتا فى صياغة الحكمة أو القوانين. ولكن ما أزعجه أن المصريين السباقين فى ركب الحضارة لم يعرفوا ذلك إلا بعد أمم كثيرة، وأنهم بعد ذلك لم يمتثلوا لحكم محكمة القضاء الإدارى التى فصلت فى منازعات الانتخابات. ولم يكن ذلك كل ما أزعجه فقد كان هناك فى روايات الأثريين مزعجات كثيرة !!.

٥. قصة الكاهن كاى... !!

فجر يوم الأربعاء الماضى تم الكشف عن مقبرة للكاهن «كاى» تعود إلى الدولة الفرعونية القديمة والتى يرجع زمنها إلى ٤٦٠٠ سنة، ومعها تم الكشف أيضا عن مقبرة رمزية يرجح أنها كانت للإله أوزوريس وتمثال للفرعون رمسيس الثانى وأعيد الكشف عن هرم لواحدة من زوجات الملك منقرع المدعوة خمار – آر – نبتى ويعود وقتها إلى ٤٢٠٠ سنة. ومن المؤكد أن هذه الاكتشافات سوف تصير موضع اهتمام الأثريين والمؤرخين المتخصصين فى علم المصريات، ولكن الذى يهمنا هنا قصة السيد «كاى» التى حملتها الأهرام والأهرام ويكلى اللتان قالتا لنا إنه كان كاهنا أو رئيسا للكهنة وكان يحمل لقب مسئول المقابر الخاصة بأولاد الملك، وهو لقب يظهر لأول مرة فى الآثار الفرعونية، مما يعنى أن الهيكل البيروقراطى للمؤسسة الدينية فى مصر القديمة لم يكتشف كله بعد، وكان يقوم أيضا بمهمة تعليم أبناء الملك الفرعون.

الرجل إذن لم يكن شخصا هينا، ويبدو أنه كان يعلم بحاسته المرهفة أنه سوف ينكشف على العالم كله عبر محطة فوكس الأمريكية، رغم أن الولايات المتحدة لم يكن لها وجود آنذاك، ورغم أنه لو ترك للكاهن حق التفضيل لاختار شبكة «السى. إن. إن» أو «سى. بى. إس» بحكم صيتهما الأكثر ذيوعا. ولكنه لم يعرف بالطبع أيا من ذلك، ولكنه أراد ترك رسائل عن قصد لمن سيأتى من بعده منها رسالة الخلود التى أرسلتها كل الآثار والنقوش الفرعونية الجميلة التى تحدت الزمن لآلاف السنين، ومنها رسالة عن العلاقات الاجتماعية فى ذلك الزمن السحيق، فرجل الدين الوقور لم يخف زوجته عن العيان، أو يحط من قدرها وراء الأبواب كما فعل ذلك بعض ممن انحدروا من صلبه بعد سنوات طويلة، وإنما تعمد أن يظهر معها منقوشا على الجدران محتضننا إياها فى مودة ورحمة.

ولكن أبلغ الرسائل جاءت فيما كتبه كاهننا باللغة الهيروغليفية حين ذكر نصا : أنا كاى. العمال والحرفيون المصريون هم بناة هذه المقبرة، وقد دفعت لهم مقابل

عملهم خبزا وبيرة بدلا من النقود، وقد أقسموا أنهم راضون . والرسالة هنا تقول لنا إن الرجل على مقامه لم يأكل حق هؤلاء العمال وإنما كان حريصا على أن يعطيهم أجرهم وأن يحصل على رضاهم من خلال انقسم حتى يطمئن على حكم الأجيال القادمة. وبالطبع فإنه ليس بوسعنا التأكد من هذا الرضا بما هو معروف عن قدرة المصريين على المجاملة، وربما كانوا يفضلون الحصول على النقود نقدا بدلا من مسألة الخبز والبيرة التى لم تقل لنا النقوش شيئا عما إذا كانت خالية من الكحول أم لا، ولكن ذلك يبقى فى دائرة البحث للمتخصصين الذين على الأرجح أنهم لن يصلوا إلى نتيجة قاطعة كما هو معتاد، ومهما كانت النتائج فإن الرجل قدم شهادته للمستقبل، وكانت شهادة حريصة للغاية حتى إن واحدا من اللصوص دخل المقبرة وفشل فى الخروج منها، ليس بالضرورة لخيبته الشديدة فى فن السرقة الذى تدهور شأنه مع تدهور حال المجتمع المصرى بعد ذلك، وإنما لأن الكاهن صمم المقبرة بحيث لا تسمح لأمثاله بالخروج منها إذا دخلوا حتى تنقل رسائله إلى العالم شبكات التليفزيون العالمية القادمة من بلاد لم تكن حتى قد اكتشفت بعد.

والآن فإن الرسائل صارت ملك العالم كله بعد أن تم بثها لكى تظهر فى غرب الكرة الأرضية فى مساء اليوم السابق، أما فى شرقها فقد شاهده المشاهدون ظهر اليوم ذاته، وبشكل ما فإن الصلة كانت قائمة بين الكاهن والعباقرة الذين بنوا مقبرته منذ أربعة آلاف وستمائة عام، وكهنة الإعلام الذين لا يقلون عبقرية فى نهاية القرن العشرين الذين حملوا ما أنجزه من معرفة وحكمة عبر الأقمار الصناعية. هذه الصيرورة بين أهل العلم عبر الألفيات هى التى تشكل جوهر الاكتشاف المثير وإذاعته على العالم، فالقضية ليست فقط الانبهار بالحضارة الفرعونية القديمة، وهو الأمر الذى يوفر لنا رضا خاصا عن الذات، وإنما الأهم هو موقعها من التراكم المعرفى للبشرية سواء فى العلوم الطبيعية أو الاجتماعية. ولحسن الحظ أن أحدا حتى الآن لم يشكك فى ذلك، ويعود بهذا الاهتمام العالمى إلى المؤامرة الكونية للتفتيش فى تلافيف العقل المصرى وبحث مكوناته عبر العصور والأزمان فى طريقهم إلى السيطرة والهيمنة عليه !.

وحتى هذه اللحظة فإن الاهتمام بالآثار الفرعونية نظنه خاصا بالآخرين فى الغرب، ولولا أن جاءت شبكة فوكس العالمية لتنقله ربما لم يكن لأحد أن يهتم بالموضوع كله، وحتى علم المصريات العتيد فقد تكونت أصوله وأهم إنجازاته فى

الحواضر الغربية، ومنذ عامين نشرت مجلة تايم العالمية على غلافها صورة اكتشافات مقابر زوجات فرعون مصر العظيم رمسيس الثانى، ونقلت عن وصفها وصورها الصحافة المصرية. ورغم ما فى كل ذلك من مفارقة مدهشة للعالم، فإن الآثار الفرعونية ليست بالنسبة لنا حالة سياحية لا نتبهر بها لذاتها، وإنما لانبهار العالم بها، وليست حالة لإثبات الدور فى الحضارة العالمية فى يوم كنا فيه فجر الضمير وفجر المعرفة، فالأهم من ذلك كله هو كيف يكون التاريخ المصرى على اختلاف مراحله وتطوراته جزءا من الحاضر الذى يستيقظ فيه الضمير الذى جعل الكاهن «كاى» حريصا على إبراء ذمته أمام عماله، وتتفجر فيه المعرفة التى لاغنى عنها لأية حضارة ذات قيمة.

معنى ذلك أن قضيتنا مع الاكتشافات الفرعونية ليست فى الاهتمام العالمى بها على أهميتها السياحية والنفسية، وإنما فى توقيع ذلك فى حاضرنا بحيث لا يكون نصيبنا من الحضارة العالمية ما قدمناه منذ آلاف السنين، ولكن ما نقدمه إليوم ونحن على أبواب ألفية جديدة. وإذا كان كاتبنا العظيم نجيب محفوظ قد عاد فى رواياته الأولى لكى يستخدم كفاح طيبة كمشعل ومحفز لمقاومة الاستعمار، فإن الكاهن «كاى» وأمثاله يقدمون من الحكمة والمعرفة ما هو أكثر من السياسة لمواجهة تحديات ربما تكون أعتى وأقسى من الاحتلال الأجنبى، فى وقت تبحث فيه كل شعوب الأرض عن المكانة والمنعة فى ظل بيئة عالمية لاترحم. لقد آن الأوان لكى تأتى شبكة فوكس العالمية وأمثالها ليس فقط لكى تنقل عن المصريين الأموات فقط، وإنما عن الأحياء أيضا !.

٦. قصة زرافة...!!

كانت البداية على غداء عمل فى مبنى الكونجرس الأمريكى حينما راح واحد من أعضاء الكونجرس يشيد بمصر، مشيرا ليس فقط إلى تاريخها الفرعونى القديم، وإنما أيضاً إلى تاريخها الحديث عندما كانت فى عهد محمد على، واحدة من القوى الدولية

التى يحسب حسابها، وبعد أن شرح نهضتها فى ذلك العصر، ومشاركة جيوشها فى حرب إليونان مع الدولة العثمانية، قال إنه استقى معلوماته، التى أدهشته، من كتاب قرأه مؤخرا عنوانه «زرافة» وعندما أعدت الموضوع على الصديق د. عمرو عبدالسميع مدير مكتب الأهرام فى واشنطن إذا به يعرج فورا على أول مكتبة قابلتنا من سلسلة محلات كرون المعروفة فى العاصمة الأمريكية، وعندما سألت عن الكتاب قيل إنه يوجد فى قسمين، كتب علم حدائق الحيوانات، وكتب التاريخ الحديث، فذهبت إلى القسم الأخير، ووجدت الكتاب من تأليف مايكل ألن، الذى لم أسمع به من قبل، وله عنوان فرعى «القصة الحقيقية لزرافة من أعماق إفريقيا إلى قلب باريس »، وعندما بدأت قراءة السطور الأولى لم يكن هناك بد من التهام الكتاب كله، فقد كان جديدا فى موضوعه، وجديدا فى طريقه تناول الموضوع، كما أنه كان الأول لمؤلفه.

وقصة المؤلف لا تقل أهمية عن قصة الكتاب، وربما تضع أصابعنا على تلك الفضولية البحثية، والدأب الشديد فى تتبع الموضوعات وجذورها بين أهل الغرب، فالطالب مايكل ألن عشق باريس خلال دراسته الجامعية، وعشقها أكثر بعد أن زارها لأول مرة فى عام ١٩٧٧، ومن بعدها ظل فى تتبع كل ما يخصها، حتى وقعت عيناه على فقرة فى مجلة «نيويوركر» تفيد أن أول زرافة وصلت إلى باريس كانت فى عام ١٨٢٧، وكانت هدية من والى مصر محمد على إلى شارل العاشر ملك فرنسا الذى تولى العرش فى ذات العام. وبعد بحث الموضوع فى المكتبة وجد أن قصة الزرافة لم تكن قصة عادية، بل إنها كانت موضوعا تابعة للكتاب والبحاثة، وأنها كانت القصة الأولى فى فرنسا من زمن وصولها إلى مارسيليا وحتى مسيرتها مشيا على الأقدام إلى باريس، حيث كانت الحدث الأعظم لأهل المدن والقرى والنجوع الذين وقعت أعينهم لأول مرة على هذا الحيوان العجيب، الذى جمع بين الفهد والجمل بعد استبعاد صنمه فى واحدة من تطورات الطبيعة المثيرة، ودخل اسمه فى اللغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية بنطق يشابه الاسم الذى عرفه بها العرب «زرافة» (جيراف)، أى المحبوبة أو الجذابة.

وعلى مدى عشر سنوات كاملة عكف الطالب على بحث الموضوع، وتضمن البحث السفر لتتبع مسار رحلة الزرافة منذ بدايته فى الهضبة الإثيوبية حيث جرى

اصطيادها فى طفولتها، ثم نقلها إلى سنار فى أعالى النيل الأزرق، ثم الخرطوم حيث شبت عن الطوق، ونقلت إلى القاهرة على مراكب جرت فى النيل، ومنها إلى الإسكندرية، حيث ركبت البحر إلى مارسيليا ومنها إلى باريس فوصلت إليها قبل ستة أشهر من وصول رفاعة رافع الطهطأوى، الشيخ الأزهرى الذى كان عليه رعاية طلاب البعثات المصرية الذين أرسلهم والى مصر للتعلم فى عاصمة النور. وبينما لم يجد مايكل ألن شيئا يسد رمق للمعرفة فى إثيوبيا والسودان، فإنه عثر على أول الغيث فى القاهرة، عندما وجد أن الوالى محمد على الذى لم يتعلم القراءة والكتابة إلا وهو فى منتصف العمر، قد احتفظ بتسجيلات كاملة لكل شاردة وواردة فى حياته اليومية ومن ضمنها قصة الزرافة التى قرر إهداءها إلى ملك فرنسا بناء على نصيحة بيرنارد دروفيتى قنصل فرنسا العام فى مصر عام ١٨٢٤، حتى يهدئ من روعه بعد تدخل مصر فى الحرب ضد اليونانيين لصالح الدولة العثمانية. وصار الغيث سيلا منهمرا فى مارسيليا حيث عاشت الزرافة فى الحجر الصحى لفترة، وهناك وجد سجلات كاملة لحياتها، والمراسلات الخاصة بها من المجمع العلمى فى باريس وحدائق الحيوانات الملكية التى بدا أنها اعتبرت ذلك الحيوان الآسر للنظر والفؤاد واحدة من عجائب الخلق والتطور الذى كانت أوروبا شغوفا به فى تلك الأيام، حتى إن المتحف القومى للتاريخ الطبيعى، والذى كانت حديقة الحيوانات الملكية الفرنسية واحدة من توابعه، كان عليه إرسال إيتان جيوفرى سانت هيليرى، أبرز العلماء فى عصره لكى يكون فى استقبالها ومصاحبا لها فى مسيرتها راعيا وحارسا.

وهكذا فى عام ١٩٩٦ وجد باحثنا المادة العلمية قصة مثيرة للغاية، انتهى من صياغتها فى كتاب صدر فى عام ١٩٩٨، فلم تكن القضية «زرافة» أهديت من وال للملك، أو موقع الزراف فى النظرية الداروينية الخاصة بالتطور، بل كانت قصة عصر بأكمله، عصر محمد على فى مصر ما بعد الحملة النابليونية، وعصر شارل العاشر فى فرنسا ما بعد الثورة الفرنسية ونهاية مغامرات نابليون الأوروبية، وعصر البحر المتوسط كله من شرقه إلى غربه فى زمن الثورة الصناعية الأولى والثورات الشعبية التى هزت عروشا ومقامات، وعصر صراعات الدول القومية والإمبراطوريات التى راحت تتقاتل فيما بينها بالدبلوماسية حينا، وبالخديعة حينا آخر، وبالسلاح أحيانا ثالثة. كان الوقت أيامها، كما هو الحال فى أيامنا، ممتلئا بالتوقعات

والآمال والطموحات، وكانت فيه مصر بازغة كما الزهرة الفواحة من ركام عصور راكدة وآسنة، وراحت تستخدم أدوات عصرها بحثا عن الوجود والمكانة. أما فرنسا التى كانت تلعق جراحها الثورية، فإنها فى ذات الوقت كانت تحصد نتاج ثورات التنوير المتتابعة ساعية لأن تفعل بالعلم والفكر والفن مالم تفعله بقوة السلاح. ووسط ذلك كله كانت هناك زرافة تتحرك فى عامين كاملين لمسافة أربعة آلاف ميل سيرا فى البر وركوبا للبحر، حيث كان عليهم فتح كوة فى سطح السفينة تطل منها أعينها الحائرة وعنقها الأخاذ، وفى صحبتها أربع أبقار يقدمون لها خمسة وعشرين جالونا من اللبن يوميا، ويقوم على خدمتها - بناء على أوامر الوالى الذى لم يكن يرحم من يخالف أوامره - الفتى حسن المصرى، والفتى عطر السودانى، ويلاحقها فى صباحها ومسائها رسائل الدبلوماسيين لعل رحلتها من أعماق إفريقيا إلى قلب باريس لا تكون عبرة فقط للناظرين، وموضوعا للباحثين، بل أيضًا وسيلة للتقارب بين مصر وفرنسا. وبالنسبة لباحث أمريكى فقد كانت قصة «زرافة» فى معانيها الواسعة تفسيرا للولع الفرنسى بمصر الذى نما قبل وصولها بفترة، وما سمى بعد ذلك «إجيبتومانيا»، وفهما أكبر لما كان فى ذلك الوقت قلب العالم ومحور تفاعلاته وتطوراته السياسية والاقتصادية والعلمية، فماذا يقول لنا هذا الكتاب عن مصر وفرنسا والزرافة؟!

٧- دبلوماسية الزراف...!!

عرفت الدبلوماسية فى تاريخها أدوات كثيرة لتخفيف التوتر، وترطيب الأجواء بين الدول، كان آخرها ما بتنا نعرفه جميعا من دبلوماسية «البنج بونج» التى ابتكرها مستشار الأمن القومى ثم وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر لإذابة الثلج البارد فى العلاقات الأمريكية - الصينية، ومن بعدها تم استخدام الرياضة دبلوماسيا بأساليب شتى كان آخرها زيارة فريق المصارعة الأمريكى لإيران فى مباراة للمصارعة كان الأمل فيها أن تحل محل الصراع ما بين الدولة الثورية الإسلامية والدولة الأمريكية

التى انتهت ثورتها منذ وقت طويل. الفكرة وراء الاستخدام الدبلوماسى للمباريات أنها لا تستبدل بالصراع التنافس فقط، ولكنها أيضا تحول الدول إلى أفراد لهم ملامح معروفة ومعلومة، فيتحول معها شياطين الدول إلى بشر، يعرفون مشاعر الفوز والهزيمة، وبعدها يتصافح الجميع، فيذوب الجليد.

ولكن أولى الوسائل الدبلوماسية لم تكن كذلك على الإطلاق، فقد كانت الهدايا والمنح والعطايا من الملوك والأباطرة والأمراء والخلفاء والولاة هى التى تقوم بالمهمة فى إزالة العدأوة والبغضاء، أو تحأول ذلك على أقل تقدير، فإذا فشلت فلم يكن هناك سبيل آخر إلا أن تتكسر النصال على النصال وبعدها الويل للمغلوب. ولم يكن العالم قد عرف بعد ما عرفناه فى العصر الحديث من تقييد لقدرة القادة على قبول الهدايا والمنح خوفا، لا قدر الله، من أن تكون رشوة للحاكم تجعله يفرط فى المصالح الأساسية لبلاده، خاصة أن بعضها كان من الذهب الخالص، وأحيانا من النساء والجوارى اللاتى يتمتعن بمواهب تذهب بعقول الرجال. ولكن ما بين أول وآخر الوسائل الدبلوماسية، كانت هناك وسائل أخرى تتمثل فى عطايا تقوم على إهداء ما يدل على التقدم التكنولوجى، كما فعل واحد من الخلفاء العباسيين عندما أهدى إلى نظيره الأوروبى ساعة رملية كانت سابقة لآخر ما أنتجه السويسريون فى عالم الساعات، وعندما أرسل الرئيس الأمريكى نيكسون لرؤساء الدول قطعا صغيرة من أرض القمر، بعد أن وصل إليها الأمريكيون على ظهر المركبة أبوللو.

أما والى مصر محمد على ، حسبما قاله لنا مايكل ألن فى كتابه (زرافة، القصة الحقيقية لزرافة من أعماق إفريقيا إلى قلب باريس)، فإنه اختار دبلوماسية الزراف، فلم تكن هديته زرافة لملك فرنسا شارل العاشر فقط، وإنما كانت هناك أخرى إلى ملك بريطانيا، وسبقتهما واحدة للخليفة العثمانى فى استنبول. كان النفوذ والسلطة المصرية تمتد أيامها إلى داخل القارة السوداء، وكان بوسع الوالى العثمانى على أرض المحروسة أن يستعرض فى هداياه ما حباه الله من أراض واسعة ومن موارد متنوعة، كان بعضها من مصر التى كانت الحملة الفرنسية عليها قبل سنوات قلائل قد اكتشفت فيها قارات كاملة من التاريخ الإنسانى ربما لم يكن يضاهيها فى ذلك الوقت إلا اكتشاف أمريكا جغرافيا قبل أكثر قليلا من ثلاثة قرون.

كان العالم أيامها يمتد فى التاريخ وفى الجغرافيا، كما كان يمتد بالمعرفة العلمية حتى أعماق الظواهر والتطورات، ولم يكن هناك فى العالم ما يضاهى مصر، وحينما آن للحملة الفرنسية الرحيل عنها فإن المجمع العلمى الذى أتى به نابليون وبات أسيرا فى إليد البريطانية أصر على أن ينقل معه كل ما اكتشفه من نباتات وحيوانات وآثار تاريخية، وكان منها الكثير الكثير على امتداد أرض مصر كلها. أيامها لم يكن المصريون يعرفون كثيرا عن هذا التاريخ، ولم تكن التماثيل والموميأوات أكثر من مساخيط تنتمى إلى شياطين وعفاريت عاشت فى عصور مسحورة قديمة. وعلى الأرجح أن الوالى محمد على ومن سبقوه لم يكونوا يعرفون قيمة ما لديهم من ثروات، ومن ثم تركوا الحبل على الغارب لمن يريد الاغتراف منها، فحدثت أكبر عملية نهب فى التاريخ، كان أكثرها سرقة وأقلها هبات، ولكنها فى كل الحالات وضعت الأسس للمتاحف الأوروبية التى نعرفها إليوم فى باريس ولندن وبرلين، وفى روما وحدها انتصبت ١٨ مسلة فرعونية. ولم تتوقف هذه المذبحة حتى نصح شامبليون ـ الذى قام بفك أسرار اللغة الفرعونية القديمة ـ الوالى بأن هذه الآثار التى لا يهتم بها أحد يمكنها أن تكون ثروة هائلة لمصر تأتى من السياحة الوافدة من أوروبا لكى تشاهد عجائب الدنيا، وهكذا صدر فى عام ١٨٣٥ أول قانون يحمى الآثار، ومن ساعتها صارت قبلة العالم الذى ظل على اهتمامه بموتى المصريين أكثر من أحيائهم!!.

وإذا كان محمد على لم يكن يدرك إدراكا كاملا أهمية الآثار المصرية، فإنه كان يدرك تماما أن الزراف يعد من عجائب الخليقة، وكان يعرف تماما أنها قادرة على خلب لب الملوك والقادة، ولكن ذلك لم يكن صحيحا فى كل الأحوال، فالزرافة التى تم إهداؤها للخليفة العثمانى لم تلق نفس القبول، فوجد المحاسبون فى قصر أمير المؤمنين أن شربها خمسة وعشرين جالونا من اللبن مكلف للغاية، فأخذوا فى إطعامها ما تبقى من طعام القصور فماتت بعد فترة قصيرة من وصولها. أما الزرافة التى ذهبت إلى القصر الملكى فى بريطانيا، فقد كان حظها سيئا وأرهقتها الرحلة، ولم تفلح الجهود الملكية فى إنقاذها من التعب والإرهاق والغربة فى بلاد باردة غريبة. الحالة فى فرنسا كانت مختلفة تماما، فكان الحظ مواتيا فوصلت الزرافة فى صحة جيدة، واعتنى بها للغاية، كما ظهر فى وثائق مؤسسة الحجر الصحى فى مارسيليا،

مدير الميناء، والأطباء، وعملوا على راحتها والعناية بها، حتى ولو تكلف الأمر خمسة وعشرين جالونا من اللبن فى إليوم، وعندما تقرر ذهابها إلى باريس سيرا على الأقدام صنعوا لها معطفا يقيها البرد.

كان الإهمال فى استنبول، والعناية فى باريس، عنوابن على اختلاف حضارات، واحدة منها آفلة لا ترى فى الزرافة أكثر من حيوان غريب يوجد الكثير منه فى أراضى الإمبراطورية الواسعة المترامية الأطراف، وواحدة منها صاعدة كانت ترى فيها ما هو أكثر من الأعاجيب، ولم تكن هناك صدفة أن مسيرة الزرافة من أولها إلى آخرها كانت تحت إشراف المجمع العلمى الفرنسى الذى أرسل واحدا من أهم علمائه «إيتان جيوفرى سانت هيليرى» لكى يكون فى استقبالها فى مارسيليا ويصاحبها فى طريقها إلى عاصمة النور، وعلى الطريق لا يستجيب علميا فقط لتساؤلات النظارة الذين تدافعوا لمشاهدة الحيوان الوديع العجيب، وإنما أيضا يجلس مع ما سمى وقتها فى فرنسا مجالس الفضول من شباب العلماء المحليين فى المدن الفرنسية، فالفضول، والعلم، والاكتشاف، والتحليل، كانت قد باتت فضيلة كاملة فى عصر جديد ومثير للغاية. وفى مصر كان محمد على يعرف الفارق تماما بين الحضارتين!.

٨ - زرافة محمد على الكبير...!!

يربط الفكر المصرى والعربى كثيرا بين عصرى الوالى محمد على والرئيس جمال عبد الناصر، حيث أسهم كلاهما فى تحديث مصر وامتدا بنفوذها فى محيطها الإقليمى خاصة فى المشرق العربى وقادا مواجهة مع الغرب الاستعمارى أدت فى النهاية إلى تكالب القوى الاستعمارية وحرمان مصر مما حققه الأول فى عام ١٨٤٠ والثانى فى عام ١٩٦٧. كتاب مايكل ألن (زرافة، قصة زرافة من أعماق إفريقيا إلى قلب باريس) يقربنا كثيرا من عصر الوالى، ويعطينا بعض المعلومات التى تغنى هذه النظرة فى بعض جوانبها وتعدلها فى جوانب أخرى، فالمواجهة الحقة ما بين القوى الاستعمارية ومصر كانت قبل تولى محمد على بسنوات قليلة عندما غزت الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت مصر التى كانت تحت قيادة المماليك الذين مثل

عصرهم آخر ما عرفته الدولة العرْيقة من حكام يحملون أفكار وقدرات ما قبل العلاقة مع الغرب. كان بونابرت يحمل أفكار الثورة الفرنسية وأفكار التنوير والتطور العلمى، وآخر ما عرفته العسكرية الغربية من تطور تكنولوجى، وكان المماليك يحملون معهم تقاليد قرون طويلة من التخلف والاستبداد. وتجسد المشهد كله فى موقعة الأهرامات، فالقادم من وراء البحار كان معه ٣٤ ألف مقاتل مسلحين بالمدفعية وبنادق البارود ومنظمين ومدربين على أعلى المستويات العسكرية التى طورتها أوروبا عبر العصور. وفى مواجهتهم كان هناك ستة آلاف فقط من فرسان المماليك المسلحين بالحراب والسيوف والغدارات القديمة، ومدرعين بدروع من الذهب والفضة اللامعة عندما تنعكس عليها أشعة الشمس.

كان اللقاء غير متكافئ بكل المقاييس، مهما عظمه نابليون نفسه ليعطى انتصاره أهمية حينما وصف جيش المماليك بأنه كان يضم أعظم فرسان الشرق، وكان ذلك ما عرفه محمد على تماما بعد ذلك وقرر معه اللحاق بهذه الحضارة هائلة القدرة والمنعة. وعندما استمع إلى نصيحة بيرنارد دروفيتى قنصل فرنسا فى الإسكندرية بإرسال زرافة هدية إلى شارل العاشر ملك فرنسا لكى يهدئ من روعه وروع الفرنسيين بسبب مشاركة الجيش المصرى فى الحملة العثمانية على اليونان¨ لم تكن هى النصيحة الوحيدة التى استمع إليها. ففى الوقت الذى عرف فيه الوالى بالقسوة الشديدة على رعاياه من المصريين، والازدراء الشديد للأتراك الذين كثيرا ما وصفهم بالحمقى، فإنه على الجانب الآخر، كما جاء فى وصف كثير من الرحالة الغربيين، عرف بالأدب الشديد والرقة فى معاملة الغربيين.

ويبدو أن محاولة الخديو إسماعيل لكى يجعل مصر قطعة من أوروبا لم تكن هى المحاولة الأولى فى هذا الاتجاه، بل إنها فى جوهرها كانت بعثا آخر لفكر محمد على نفسه الذى عرف جيدا إلى أى حد تدهورت الدولة العثمانية فى مصاف التقدم والرفعة مقارنة بالحضارة الغربية البازغة، وكان محظوظا أن كثيرا ممن جاءوا مع نابليون فى حملته الفاشلة على مصر عادوا إليها مرة أخرى بعد هزيمته فى أوروبا ووجدوا فيه، ووجد فيهم، من التصميم والعزيمة ما يدفعهم إلى تحديث مصر ونقلها من عصور التخلف والظلام إلى عصور التقدم والنور. وكان محظوظا أكثر أنه جاء فى وقت ما بعد الثورة الفرنسية، وما بعد الحروب النابليونية فى أوروبا والتى تركت

فائضا كبيرا من العلماء والمغامرين والباحثين عن بصمة فى التاريخ، وهؤلاء جميعا وجدوا فى مصر والوالى ما يحقق أهدافهم. وبينما كان دروفيتى يعينه فى فهم توازنات القوى فى أوروبا وطرق ووسائل القصور الملكية الأوروبية خاصة بعد عاصفة الثورة الفرنسية، كان فردريك كيللود هو مسئول المعادن فى بلاط الوالى، وكان عليه البحث فى البحر الأحمر، وحتى مرافقة الجيوش المصرية إلى إفريقيا بحثا عن الجواهر الثمينة والذهب، وخلال رحلاته هذه شاهد زرافات كثيرة، كانت واحدة من أصلابها هى التى أهداها الوالى للملك. ومع الاثنين كان هناك أوكتاف جوزيف ثيليم سيفيز المعروف بسليمان باشا الفرنساوى، الذى كان أحد جنود حملة نابليون على النمسا والذى كان عليه تنظيم الجيش المصرى وجعله تنظيما وتدريبا وتسليحا على أعلى المستويات الأوروبية، وكان جنوده هم الذين قاموا بالحملة على أعالى النيل، ومنهم من صاحب الصياد لكى يأسر الزرافة التاريخية، ويحمى مسيرتها وحيانها على الطريق من الحبشة إلى سنار إلى الخرطوم إلى القاهرة إلى الإسكندرية قبل ركوبها البحر إلى مارسيليا.

وفى الوقت الذى كان فيه محمد على يستقبل المكتشفين والمغامرين وأصحاب الأحلام والمشروعات من الأوروبيين، وحتى المبشرين المسيحيين، ويفتش فى عقولهم ويأخذ منها كل ما ينفع ويفيد، كان يرسل البعثات إلى أوروبا، وفى رسالة إلى أصغر أبنائه الذى أرسله إلى باريس للتعلم قال له: سوف تتعلم كلما زادت سنك ونضجت أننى قد أنجزت أعمالا عظيمة من لا شىء، وبالنسبة لك، يا ولدى، فإنك سوف تحصل فى عاصمة النور على الفنون والعلوم حيث توجد كل فروعها. وفى هذه المدينة العظيمة نشأ رجال عظام، وسوف تستمر فى إنجاب رجال عظماء بدورهم، وفى نفس الوقت كان يوسف بوغوص الأرمينى والمترجم الأمين لمحمد على يكتب إلى طلاب البعثات المصرية إلى أوروبا يقول لهم: إن عليكم وأنتم فى أوروبا أن تجمعوا كل المعلومات حول كيف تتم الأعمال، والمخترعات الجديدة والنافعة التى تعتقدون أنه يمكن تبنيها فى مصر، وفى مجالات الصناعة والتجارة والتصنيع والعلوم والفنون.

لم تكن العقدة المصرية والعربية من الغرب قد تكونت بعد، ولم يكن هناك ذلك الفزع من الحضارة المعاصرة قد عرف طريقه إلى مصر المحروسة كما نشاهده هذه

الأيام. كان العهد لايزال قريبا بالأحوال التى جعلت ما يقرب من نصف الشعب المصرى من فاقدى البصر نتيجة أمراض الرمد والأمراض الأخرى التى توالت على مصر خلال قرون عديدة حتى إن عدد المصريين بلغ فى العصور الفرعونية عشرة ملايين من البشر، وبعدها أخذت الأحوال تتدهور حتى وصل عدد سكان المحروسة إلى مليونين ونصف مليون نسمة عندما تولى محمد على الحكم. وكان العهد لايزال قريبا بقرون طويلة من الظلام العثمانى والمملوكى الذى أخذ عصارة حضارة الأمة وتركها شقية وبائسة حتى جاءها من أدرك أن خلاصها من الشقاء والبؤس سوف يكون بمد يدها إلى عالمها تأخذ منه وتنهل بالمعرفة والعلم والصناعة ما يجعلها قادرة على المنافسة، أو التنافسية بلغة أيامنا. لم تكن العقد قد حلت بعد، ولم تكن اتجاهات العزلة والتقوقع والبعد عن الدنيا قد وجدت سبيلها إلى العقول والقلوب، فقد كان ذلك موجودا وقريبا، وآثاره ونتائجه معروفة ومعلومة، وكان محمد على بذكائه ودهائه يعرف كيف يستفيد وكيف ينافس، ومتى يهاجم ومتى يداهن، وخلال ذلك كله وضع مصر على الطريق، ومعها المنطقة كلها.

٩ـ سقوط سلطان البرين والبحرين...!!

عنوان هذا المقال ليس من عندى ولكنه من إبداع الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق الذى يمتعنا فى أهرام الخميس من كل أسبوع بتحفته «ديوان الحياة المعاصرة» التى تتبع فيها جذور حياتنا الحالية من خلال إطلالة على صفحات «الأهرام» العريقة. وفى واحدة من حلقاته الأخيرة تتبع مؤرخنا المقتدر واحداً من المشاهد الأخيرة لانهيار الإمبراطورية العثمانية وما جرى لآخر سلاطينها محمد السادس. وأيامها كان الحدث لا يقل دويا عما عاشه جيلنا من سقوط إمبراطوريات لا تغرب عن أراضيها الشمس كان آخرها الانهيار الذى ألم بالإمبراطورية السوفيتية مؤرخة البداية الحقيقية للألفية الثالثة حتى قبل قدومها بعقد كامل.

سقوط آخر حكام الدولة العثمانية والمعروف بخليفة الله ملك الملوك وسلطان البرين والبحرين كان كاشفا عن حالة آخر حلقات الخلافة الإسلامية كما عرفها التاريخ منذ تحولت إلى ملك عضود مع الأمويين ومن بعدهم العباسيين ومن بعدهم تناثرت شيعا حتى استقرت بين أيادى آل عثمان فى استنبول على مدى ستة قرون كاملة. ولكن الحالة التى ينقلها إلينا أستاذ التاريخ فى أسلوبه السهل الممتنع تختلف كثيرا عما هو شائع فى الأدب الشعبى الصحفى والسياسى هذه الأيام والتى تقول لنا إن العالم الإسلامى كان يعيش فى سعادة بالغة يعمر فيها الإيمان القلوب، ويشيع فيها نور العدل بين الناس، حتى جاء غراب البين من الاستعماريين لكى ينشر الظلم ويفتت الأمة، ويسلبها أعز ما تملك من الثروة والجاه والمجد والسؤدد.

ولكن الحال لم يكن كذلك على وجه الإطلاق، فقد كانت دولة الخلافة قد تحللت من داخلها ضعفا وتخلفا وعجزا عن مسايرة العصر والتقدم حتى ولو أبقت على الرموز والدرأويش والألقاب، تماما كما حدث بعد ذلك بعقود فى الدولة السوفيتية المترامية الأطراف، والتى انهارت كبيت من ورق فى زمن آخر قياصرتها جورباتشوف الذى كان حاله على أى الأحوال أفضل مما حدث لمحمد السادس حينما كان عليه الخروج بليل من الكرملين إلى شقة صغيرة فى ضواحى موسكو بقى فيها ليخرج من وقت لآخر لواحدة من عواصم الغرب التى طالما صوب تجاهها آلاف الصواريخ التى تحمل الرءوس النووية. أما ما حدث لسلطان البرين والبحرين فقد كان لا يقل درامية، فقد هاجر الرجل بمساعدة بريطانية إلى مالطة بعد أن سحب مبلغا كبيرا من المال كان موضوعا باسمه فى البنك العثمانى، تاركا وراءه أربعا من الزوجات وثلاثمائة من الجوارى، وبينما أبقت السلطات الكمالية التركية الزوجات فى أملاك السلطان الخصوصية، فإنها أرسلت نصف جواريه إلى بلادهن التى جلن منها، وبحثت عن أزواج للنصف الآخر، وبهذه الطريقة تحرروا من الرق والعبودية، وربما الانتظار الطويل أيضاً!!

وبالطبع فإننا لانستطيع إعادة عرض ما جاء فى المقال، ونصيحتى للقارئ الكريم أن يعود إليه فى أهرام السادس من أبريل للاطلاع على كثير من التفاصيل، وألا يفوته بعد ذلك حلقة من حلقات ديوان الحياة المعاصرة، ففيها كثير من جذور آفات حياتنا الفكرية الحالية التى يشيع فيها بعضنا أن الفساد أتى لنا مع العلاقة بالغرب وما

طرحه علينا من أفكار الحرية والليبرالية والديموقراطية والعلمانية. ولكن ما نقله لنا أستاذ التاريخ كان أمرا مختلفا تماما، فربما كانت عقدة تاريخنا كله أننا لم ننجح قط فى وضع صياغة للتداول السلمى للسلطة تكفل وصول الأكثر كفاءة ومقدرة إلى الحكم فى أجل معلوم ومحدود بعدها يأتى من كان أكثر قدرة على التعبير عن الزمن القادم وليس ذلك الذى ولى وراح.

فقد سقط سلطان البرين والبحرين ومعه إمبراطوريته لأنه لم يكن مؤهلا للحكم من الأصل، فحسب ما نقله لنا الدكتور يونان لبيب رزق أنه نتيجة غياب طريقة لوراثة العرش، أو تداول السلطة بلغة أيامنا، فقد استخدم السلاطين وسائل وحشية ضد كل من كان محتملا أن ينافس على الحكم، حيث كانت تحدث عملية جماعية بين أمراء البيت العثمانى كلما تربع على العرش سلطان جديد مثل محمد الثالث الذى قام بخنق إخوته الثمانية عشر يوم وفاة والده ودفنهم معه فى مقبرة واحدة! ونحمد الله أن مثل هذه الوحشية خفت وطأتها بعد ذلك، فمنذ القرن السادس عشر اكتفى الخلفاء غير الراشدين بنفى منافسيهم أو تحديد إقامتهم فى مقصورة داخل القصر سميت القفص يحوطهم فيها الخصيان والسيدات والجوارى وغلمان القصور ولا يخرجون منها بلا خبرة أو علم إلا ليعتلوا العرش والحكم وإدارة شئون المسلمين، وكانت خبرة الأقفاص هذه هى التى قادت الإمبراطورية فى النهاية إلى الضمور والانهيار.

قد يبدو كل ذلك بعيدا عن حالنا الآن، فقد انتهى عصر الجوارى رغم كثرة احتجاج البعض منا وأسفهم على أيامه السعيدة، ولكن الشاهد أن معضلة تداول السلطة لاتزال باقية تضعف الأمة وتمتص من حيويتها، وأمامنا أمثلة ملكية أطاح فيها الابن بأبيه والأخ بأخيه، وفى كل الأحوال كانت طوابير «البيعة» جاهزة، أما فى المثال الجمهورى العراقى فقد حصل السيد عدى صدام حسين على أغلبية ساحقة بلغت ٩٩و٩٩٪ من الأصوات فى الانتخابات النيابية الحديثة فى أولى خطواته الواثقة إلى عرش الخلافة العباسية الجديدة فى بغداد، وبذلك حصل على المنصب السادس عشر من مناصبه الشعبية والرسمية، والأهم أن ذلك حدث وسط تهليل أهل بغداد وتصفيق الأمة العربية كلها للصمود العراقى المجيد.

وإذا عدنا إلى سلطان البرين والبحرين، والتى لا تختلف كثيرا عن ألقاب هذه الأيام مثل الزعيم الملهم المعظم المنصور بالله، فإن سقوطه كان إعلانا عن إفلاس نظام بأكمله لم تكن مشكلته تقلص الإمبراطورية وتآكلها من الخارج، كما حدث بعد ذلك بعقود مع الإمبراطورية السوفيتية بعد سقوط حائط برلين، ولكن مشكلة هذه وتلك من الإمبراطوريات هى أنها تآكلت وتعفنت من الداخل نتيجة فساد وجمود نظامها السياسى. وعلى سبيل المثال فإن الإمبراطورية البريطانية التى كانت لا تغرب عنها شمس، انهارت تماما نتيجة حركة التحرر الوطنى العالمية، ومع ذلك بقيت بريطانيا قائمة، بل إنها ربما تكون الآن أسعد حالا وأقوى عزما وأشد منعة وربما كانت حتى أكثر نفوذا بامتداداتها الأطلنطية والأوروبية، والفارق بين هنا وهناك أن النظام الدستورى فى الحالة البريطانية كان كفيلا بامتصاص صدمة التآكل الخارجى، وإعادة بعث بريطانيا من جديد متآلفة مع زمنها وعصرها بالتقدم العلمى والحيوية الاقتصادية، ولم يبق لها من مشكلات سوى عما إذا كان يجب على رئيس وزرائها تونى بلير أن يحصل على إجازة من العمل للعناية بمولوده القادم أم لا؟! أما الحالة العثمانية التى لا تزال باقية آثارها معنا فى القرن الحادى والعشرين، ولايزال هناك من يحن لها ويستدعى تاريخها وأقفاصها ويفرضها على فكرنا وثقافتنا السياسية، فهى تحتاج لإعادة نظر، ولعل مقال مؤرخنا أولى الخطوات على الطريق.

١٠ـ البحث عن الإسكندر الأكبر...!!

لا أدرى ما الذى حدث لعملية البحث عن قبر الإسكندر الأكبر، التى طالعتنا بها الأنباء منذ بضعة أشهر وخلقت نقاشا مثيرا بين علماء الآثار حول مصداقية عالمة يونانية رأت – استنادا إلى شواهد وأسانيد – أن عمليات البحث السابقة فى مدينة الإسكندرية جانبها الصواب، وآن أوان نقلها إلى واحة سيوة حيث النتائج سيكون لها نصيب وحظ. وكما هى العادة فإن النقاش تصدر الصحف وتوالت حوله الأنباء والتحقيقات الصحفية، ثم فجأة – وكما هى العادة أيضا ساد الصمت الرهيب ولم

نعرف ما إذا كان التقدير الجديد صائبا، أو أن البحث لا يزال جاريا. ولكن المؤكد أن المقبرة لم تكتشف بعد، ومن ثم لا تزال سرا من أسرار التاريخ الكبرى، ولغزا من ألغازه التى لا تعرف حلا ولا كشفا. ومن المؤكد أيضا أننا بعد هذه الضجة انتقلنا إلى جدول الأعمال ننتقل فيه من موضوع إلى موضوع، يصعد بنا وباهتماماتنا واحد منها لأيام أو لأسابيع، ثم بعد ذلك ينزوى ليحل محله موضوع آخر يبدو كما لوكان قضية القضايا، وبعدها يصاب بالسكتة القلبية ولا نعرف إلى ماذا توصلنا، وهل تم حل المشكلة موضع البحث، أم أننا لم نصل فيها إلى حل قاطع، ومن ثم قررنا وضعها فى أرشيف مشاكلنا المزمنة، انتظارا للحظة مقبلة نستدعيها مرة أخرى للحوار والنقاش. وهكذا.

ولكن أرشيفنا بات متخما بالقضايا، ورفوفنا أصبحت محملة بالملفات التى تحتوى على امور معلقة كثيرة، وعندما يحدث ذلك فى مجتمع من المجتمعات فإن دلالته الجمود والسكون. وفى بعض الأحيان فإن مثل هذه الحالة تكون الهدوء الذى يسبق العاصفة، حين يكون الموقف للاستجلاء والتحقق من مواقع الأقدام، أو على الأقل فإن ذلك هو موقف الحكومة المصرية التى تبشرنا بأن تواضع معدلات النمو الحالية تعود إلى فترة إعادة ترتيب البيت من الداخل، استعدادا للانطلاقة الكبرى التى سوف تحدث دوما اعتبارا من العام القادم وربما الذى يليه، أو مع وضع الخطة التالية موضع التطبيق. ولكن الحالة أيضا قد تكون عكس ذلك تماما ودلالة على التردد وانعدام الحيلة وادماناً للسير فى المكان نتيجة ضمور الأطراف وعجز الأجنحة عن الطيران والتحليق فى الأفاق التى كنا نظنها حكرا على المجتمعات الغربية الصناعية، فإذا بنا نجد أمما غيرنا فى العالم الثالث سائرة فيها باندفاعات مذهلة.

ولعل تلك كانت الحالة التى وجد عليها الإسكندر الأكبر مصر عندما دخلها عام ٣٣١ قبل الميلاد، فلقد كانت حالتها الفرعونية غير جامدة فقط ولكنها آخذة فى التآكل والعجز عن التطور ومواكبة العصر إلى حد مخيف. ولم يكن الغزو الفارسى قبل ذلك بقرنين تقريبا (عام ٥٢٥ قبل الميلاد تحديدا) على يد قمبيز، إلا شهادة على أفول حضارة قادت البشرية -- وبالتأكيد الشرق الأوسط –على مدى ثلاثة آلاف سنة سابقة، وانتقال شعلة التطور الإنسانى إلى قطبى العالم آنذاك فى بلاد فارس (إيران حاليا) واليونان. ويبدو أن الجمود المصرى لم يكن خافيا على أحد رغم ضعف

وسائل الاتصال فى ذلك الزمن، فكم كان مدهشا نظرة الفيلسوف اليونانى أفلاطون لمصر فى القرن الرابع قبل الميلاد، فقد رآها أولى الحضارات لأنها أول من عرف القوانين، أى السياسة، ولكنها حافظت عليها دون تغيير على مدى ثلاثة آلاف سنة، وهو ما أدى إلى جمود شديد أضعف الدولة والحضارة. ولم يمض وقت طويل على كلام افلاطون حتى أنهارت الدولة المصرية الفرعونية القديمة.

وبالطبع لا نعرف على وجه التحديد ما الذى كان يدور فى أذهان النخبة المصرية فى ذلك الزمن السحيق، ولكن ربما أعطانا كاهن مصرى لمحة عن ذلك عندما قال: «هؤلاء اليونانيون كالأطفال دائما يسألون أسئلة كثيرة، حينما جاء كثير من الإغريق للتجارة والسفر قبل أكثر من قرن من غزو الإسكندر، وفى مقدمتهم هيرودوت طارحا أسئلة كانت قد أصبحت جزءا من الحضارة الإغريقية مثل لماذا يحدث هذا وكيف نشرح تلك. وباختصار شديد كانت هناك مواجهة بين عالمين أحدهما يفرق بين الشكل والمادة، ويبحث عن الأسباب، ويلوج فى المنطق ومقدمات القضايا ونتائجها، وعالم آخر مغرق فى الثبات، يرى الدنيا بأسرها بديهية مستمرة، الثوابت فيها باقية كالطود، لا فرار منها ولا فكاك. وربما أرضى المصريون ساعتها إعجاب الآخرين بحضارتهم القديمة، وزيارة الإسكندر وتقديمه القرابين لكهنة آمون فى معبد سيوة، ومسايرة البطالمة لهم حتى بنوا أعظم المعابد الفرعونية الباقية حتى الآن فى إدفو. ولكن ذلك لا ينبغى له إن يلهينا عن الحقيقة التى تسرد التاريخ فى تلك اللحظة. إن هؤلاء الذين كالأطفال يسألون أسئلة كثيرة، قد انتصروا على هؤلاء الذين كفوا عن طرق الأسئلة الجوهرية على الإطلاق اعتمادا على الثوابت التى لا يوجد يقين على استمرار ثباتها.

بعض من ذلك نواجهه اليوم، العالم خارجنا كالأطفال يطرح أسئلة كثيرة عن السكان والمرأة وحقوق الإنسان والأقليات والسلام والتقدم والتخلف والفقر والإرهاب، ونحن من جانبنا لا نكف عن طرح الثوابت نتحدث عن الروابط الأزلية، والعلاقات التاريخية التى لا تنفصم، والسبيكة الاجتماعية التى لا تؤثر فيها عوامل التعرية، وطريق التطور الخاص الذى ينبع من حضارتنا، إلى آخر المنظومة المعروفة من الأفكار التى تظل غير كافية للاجابة على الأسئلة المطروحة، ومن ثم نحيها فى

النهاية إلى الأرشيف، أو نضعها فى ملف على الرف. المشكلة ليست فى أن يكون لمجتمع من المجتمعات منظومة خاصة للقيم، وثقافة وحضارة متميزة، ولكن المشكلة تكمن فى عجز كل ذلك عن طرح الأسئلة الضرورية والإجابة عليها فى عالم جد متغير. وفى جميع القضايا التى أثرناها خلال الفترة الماضية من الأقليات إلى السكان إلى السوق الشرق أوسطية، ومن موضوع الختان حتى القمر الصناعى الإسرائيلى، فإن جوهر النقاش والشجار دائما كان من مع ومن ضد، ولكن أسئلة مثل لماذا وكيف نادرا مانجد لها رجعا أو صدى. والنتيجة فى النهاية نزعة هروبية للأمام أو للخلف، للأمام بالادعاء أن كل شىء فى العالم يعيش فى حالة سيولة وتحول، ومن ثم فلا يسعنا إلا الانتظار، فربما تعود الأمور كلها سيرتها الأولى التى عرفناها وعرفتنا حتى ولو تغيرت الأسماء والرموز. أما الهروب إلى الخلف فيكون بإشهار الثوابت غير القابلة للتغيير أو التعديل أو التبديل، ولا يهم أن تكون الثوابت دستورية أو قومية أو دينية، فالاتفاق العام المثير هو أن يبقى كل شىء على ماهو عليه، ما مضى، وما ولى، وما راح. ولما كان الهروب للأمام أو للخلف لا يفيد فى إيقاف شىء من ثورة التغيير الكبرى فى العالم، فإنه لا يبقى أمامنا فى النهاية إلا الثورة بالكلمات أو بالطاقات، حنقا وغضبا على دنيا لا تسير وفق ما نريد لها أن تسير.

وفى الحقيقة فإن المصريين لم يكفوا قط عن الثورة والحنق والغضب على المستعمرين الفرس واليونانيين، وعلى عالمهم الذى لا يكف عن طرح الأسئلة كالأطفال، وفى عام ٤٠٥ قبل الميلاد ثاروا ثورة عارمة على الفرس عاونهم فيها اليونانيون، وبعد ذلك ومنذ عام ٢١٦ قبل الميلاد قاموا بثورات متتابعة ضد حكم البطالمة ومظالمهم، وبالتأكيد كيلهم بمكيالين بين عالم الإغريق السامى وعالم غيرهم من سكان مصر والشرق الأدنى. ولكن الثورة والحنق والغضب لم تحل المشكلة، ربما تغير السادة من البطالمة إلى الرومان، ولكن الجوهر بقى كما هو عالما للسادة وآخر للمستعمرين، لأن جوهر القضية كان جمود الحضارة المصرية القديمة وعجزها عن تجديد نفسها. وفى نفس الوقت كان العالم الآخر عبر البحر المتوسط يتميز بحيوية بالغة فى نظم الحكم والإدارة وتنظيم المعرفة حتى تلك التى تراكمت عبر ثلاثة آلاف سنة فى مصر ذاتها. وحتى فى تلك الفنون والعلوم التى عرفها المصريون قبل غيرهم فى الزراعة والصناعة وعلوم البحار والنجوم سبق فيها اليونانيون سبقا كبيرا،

وجاءوا بها إلى مصر ليقيموا مكتبة الإسكندرية وينظموا الرى ويدخلوا نوعيات جديدة من القمح ويبهرون المصريين بنظم متقدمة للإدارة والعمارة.

ومن المؤكد إن المصريين آنذاك نظروا منبهرين لكل ذلك كما يفعل أحفادهم إليوم ازاء الأقمار الصناعية وأدوات الاتصال الكونية والشركات العابرة القومية وأسواق المال العالمية والتكتلات الاقتصادية الكبرى إلى آخر منظومات العالم العلمية والإدارية والاقتصادية فى نهاية القرن العشرين. وليس معروفا على وجه الدقة ماذا فعل المصريون فى ذلك الزمن البعيد، ولكننا نعرف النتيجة التى لم تكن سارة وإنما تعيسة كل التعاسة، وعلى الأغلب فإنهم اكتفوا بالغضب والحنق والثورة والتأكيد المستمر على ثبات الثوابت التى عرفوها لآلاف السنين وبقائها صالحة لكل زمان ومكان حتى ولو كان ظاهرا لكل عين ترى وأذن تسمع أن الدنيا لم تعد كما عرفوها ولا الزمان كما تعودوا عليه. وباختصار شديد فإن حالتهم كانت كما حالتنا إليوم مع فارق هام اننا نستطيع التعلم من تجربتهم، ونستخلص منها الدرس والعظة، كما أن امامنا تجربة عالمية اكثر عمقا ورحابة، والعلم والمعرفة تنتشر فى العالم بسرعة الضوء كل يوم وكل لحظة.

أمامنا فرصة أذن ليست بالقليلة، وفى هذا العام لدينا انتخابات لمجلسى الشعب والشورى، ومن المؤكد أن كل الأحزاب والفرق السياسية سوف تشارك هذه المرة فى انتخابات مجلس الشعب على الأقل. وفى كل العالم فإن ذلك مناسبة لطرح الأسئلة الصعبة التى يطرحها الأطفال مثل لماذا تقدمت أمم وتأخرت أخرى، وكيف يحدث التقدم، وما هى أسبابه ودواعيه؟ وفى حالتنا فربما تساءلنا لماذا سبقتنا أمم اخرى كانت حتى وقت قريب ادنى منا؟ وكيف نلحق بها؟ ولا نستنكف عن طرحها ونسخر منها كما فعل الكاهن المصرى القديم، ويفعل كهان كثيرون فى مصر المعاصرة. وساعتها ربما نصل إلى إجابات واضحة جوهرها ضرورة تحقيق النمو وبمعدلات متسارعة لابد ألا تقل عن ٩٪ سنويا، لأن ذلك وحده هو مفتاح المكانة والدور الإقليمى، والحل لمشكلات الإرهاب وتدهور البيئة، والإجابة على الشرق أوسطية، وعلى القمر الصناعى الإسرائيلى، ومكاييل الغرب المتعددة، وكل ما نراه الآن معضلات بلا حل نغضب لها وننفعل ونثور ونهدد ونتوعد. وباختصار شديد فإن كل القضايا التى ندور حولها ونضعها فى الأرشيف أو على الرف لن تكون إلا تفاصيل،

فدولة تنمو بمثل هذه المعدلات لن يخيفها التقدم الاقتصادى والتكنولوجى الإسرائيلى، وسوف يكون لها من الرهبة فى العالم المعاصر ما يجعلها مسموعة من الخصوم والحلفاء، وسوف تفرض دورها الإقليمى والعالمى بحق واستحقاق، ولو لم تفرضه فسوف يدعوها العالم إليه كما يفعل مع اليابان وكوريا الجنوبية اليوم.

وفى الحقيقة فإن تحقيق انطلاقة اقتصادية كبرى فى مصر ليس من المستحيل، فلحسن الحظ ان اللحاق بالعالم المتقدم لم يعد يتطلب وقتا طويلا كما كان فى السابق. فالمملكة المتحدة مثلا احتاجت ٥٨ عاما لكى تضاعف نصيب الفرد فيها من دخلها القومى ابتداء من عام ١٧٨٠، والولايات المتحدة ٤٧ عاما ابتداء من عام ١٨٣٩، واليابان ٣٣ عاما ابتداء من عام ١٨٨٠، والآن فإن إندونيسيا لم تحتج أكثر من ١٧ عاما، وكوريا الجنوبية سوى ١١ عاما، أما الصين فلم تزد على عشر سنوات. الأسباب وراء ذلك كثيرة ومتنوعة ومعقدة، منها الانتشار السريع للتكنولوجيا والأفكار والتطبيقات العملية الإدارية، والحركة السريعة لرءوس الأموال التى تبحث عن أفضل مناخات الاستثمار. ولكن ربما كان الأهم من ذلك كله إرادة التقدم ذاتها التى تضع هدف النمو والتجديد نصب أعينها ولا تنحرف عينه إلى هدف آخر مهما كان بريقه أو نبله، ومنه تنطلق إلى التفاصيل الأخرى حول الأبنية التعليمية والإنتاجية والتنظيمية اللازمة لتحقيق هذا الهدف. وربما حتى ساعتها لن نحار بطريقة موسمية حول ما إذا كان من الضرورى تغيير الوزارة أو ابقاؤها على حالها؟ وهل نغير الدستور أم نعدله أم نبقيه كما هو؟ وهل نبنى مفاعلات نووية أم لا نبنى؟ وهل نحتاج فورا قمرا صناعيا أم لانحتاج؟ فالفيصل فى كل شىء سوف يعود إلى الإجابة على سؤال جوهرى: إلى أى حد يساهم هذا أو ذاك فى تحقيق المعدل المطلوب للتنمية ؟!.

ولو أن المصريين القدامى لم يكتفوا بالنظر إلى الأهرامات وما مثلته من ثوابت وخلود لا يماثله شىء فى العالم القديم، ولو أنهم أدركوا أن الأمم مطالبة دوما بالتجدد الذاتى، ربما لما نجح الإسكندر فى دخول مصر أصلا. ولو أن المصريين المعاصرين لم يتعلموا من هذا الدرس، فلن يفيدهم كثيرا اكتشاف قبر الإسكندر من عدمه، اللهم إلا من كسب أو خسارة بضع مئات من ألوف السائحين، بينما يذهب ثمانية ملايين منهم

إلى إليونان، وأربعون مليونا لأسبانيا، وسبعة ملايين لهونج كونج. أما إذا تعلموا الدرس ووعوه، فلن يجد أسكندر آخر فى مصر مكانا لغزو أو مقبرة، وساعتها سوف يكون لدينا ما هو أكثر أهمية بكثير نريه للدنيا بلا غضب ولا حنق ولا ثورة !.

١١. أنف كليوباترا لا يغير التاريخ...!!

لوقت طويل ذاع قول باسكال: لو كان أنف كليوباترا أقصر لتغير وجه العالم، فى إشارة إلى أن التاريخ تحكمه تفاصيل صغيرة لو تغير أى منها لتغيرت أشياء كثيرة مما عرفناه. وفى حالة آخر ملوك البطالمة الذين حكموا مصر فإن كليوباترا الجميلة كانت ستكون أقل شأنا فى تلاعبها بقلوب القياصرة لو تغير أى من تفاصيل جمالها. ولكن الحقيقة أن أنف الملكة لم يكن جميلا على الإطلاق، فالصور والتماثيل الذائعة عنها تشير بوضوح إلى أن أنفها كان كبيرا نسبيا ومعقوفا مائلا إلى أسفل. وعندما قام المتحف البريطانى مؤخرا بافتتاح معرض «كليوباترا مصر: بين التاريخ والأسطورة» ظهر أن أنف الملكة لم يكن وحده هو المشكلة بل إنها كانت بدينة بعض الشيء وقصيرة أيضا، مما دفع كثيرين لمراجعة الآراء عن فتنتها الطاغية التى سحرت يوليوس قيصر ومارك أنتونى فى الكتابات التاريخية الذائعة.

هذه المراجعة ربما تخطئ أشياء كثيرة فى صميم الموضوع، فالحقيقة أن معايير جمال المرأة اختلف من عصر إلى عصر، ولم يستقر البشر بعد على معايير للفتنة تصلح لكل العصور. فربما يكون الأنف الكبير فى وقت ما أكثر سحرا من الأنف الصغير، وكذلك الحال بالنسبة للطول أو البدانة، فلوحات الرسامين العظام فى العصور الوسطى تمجد جمال نساء بدينات وثقيلات الأرداف، وحتى منتصف القرن فقد كان الغناء الشعبى المصرى يعطى أهمية بالغة لسمنة المرأة وثقل وزنها. وربما ظلمت كليوباترا بسبب إليزابيث تايلور التى مثلت دورها فى الفيلم العالمى الشهير، حيث كانت جميلة جميلات عصرها بأنفها الدقيق، وعيونها الأخاذة، ووجهها

وجسدها، وكل ما يضيف سببا لجمال العالم. ولكن حتى بالنسبة للممثلة الشهيرة فإن جمالها على أسطوريته لم يعد هو النموذج الباقى، فقد حل محلها نماذج أخرى مثلتها شارون ستون ونيكول كيدمان وناعومى كامبل وسيدنى كرأوفورد وغيرهن من ذوات القامة العالية والنحافة الظاهرة.

ومهما حاول المتحف البريطانى أن يروج الأسطورة عن كليوباترا بالقول إنها كانت ساحرة بطرق عدة للتغطية على الاكتشافات الجديدة، فإنه يخطئ الطريق تماما، وينوه بنظرة ذكورية للعالم تقول إن المرأة إذا لعبت دورا فى التاريخ، أو أى دور فى الحياة العامة، فلابد أن ذلك يعود بشكل ما لسحر المرأة وفتنتها وجمال أنفها أو أى جزء آخر من جسدها. ومن المؤكد أن ولع الأباطرة بها، خاصة قصة الحب الخالدة لها مع مارك أنتونى، لم يكن بسبب وجود امرأة جميلة كان متاحا للآلاف بل الملايين منها لطلاب المتعة فى ذلك العصر الذى تمددت فيه أطراف الإمبراطورية الرومانية لكى تشمل شعوبا وقبائل ينتشر فيها كل ألوان النساء.

فقد جاءت ملكة الملوك، كما عرفت كليوباترا فى زمنها إلى الحكم فى زمن عصيب كانت فيه الحضارة المصرية القديمة قد وصلت إلى قرب نهايتها بعد غزوات الفرس واليونانيين والرومان، وكان حكم البطالمة يلفظ أنفاسه الأخيرة، وحتى دولة الرومان كانت ذاتها تعانى الانقسام بين القادة والجنرالات والشيوخ والتحول من الجمهورية إلى الإمبراطورية. ولكن المملكة على الأرجح كانت مسلحة فى هذا العصر العصيب بأسلحة لا بأس بها، فقد كانت حاملة لحضارة عريقة امتدت أكثر من ثلاثة آلاف عام فى ذلك الوقت، ووراءها كانت توجد الإسكندرية ومكتبتها التى لم توجد مدينة فى مشارق الأرض ومغاربها تضاهيها فى الحكمة والمعرفة، وبلد يمثل قطبا دوليا حتى ولو كان يعانى التراجع والانكسار نتيجة إمكاناته الزراعية والبشرية. ولكل هذه الأسباب لم يكن سهلا على يوليوس قيصر أن يعامل مصر وكليوباترا معاملة باقى الفتوحات الأخرى، ومهما قيل إنه وهو فى السادسة والخمسين من عمره فتنته ابنة الثانية والعشرين، فإن ذلك لا يناسب عصرا كان فيه بلاط القياصرة عامرا بالجوارى من كل الأنواع، والأرجح أنه وجد فى الملكة المصرية من الشخصية والحكمة والتعليم والقدرة على الحكم وإدارة بلد هام ما جعله يوليها على العرش وينجب منها ويتركها أمينة على الثروة المصرية.

ولعل كل هذه الأسباب كانت أيضا وراء غرام مارك أنتونى بها حتى ولو لم نستبعد سببا ذاتيا وخاصا به وبها، فالناس فيما يعشقون مذاهب، والله علام بالقلوب. ولكن اغتيال يوليوس قيصر على يد بروتوس عام ٤٤ قبل الميلاد، خلق حالة من الفوضى فى الإمبراطورية، وبعد تحالف ضباط الإمبراطور الذبيح من أجل القضاء على من اغتالوه، كان من الطبيعى وفق قوانين ذلك الزمن أن تبدأ الحرب بين الضباط أنفسهم، فكان ما كان بين أوكتافيوس ومارك أنتونى اللذين انقسمت الإمبراطورية لفترة بينهما، فكان للأول المقاطعات الغربية، وللثانى المقاطعات الشرقية ومن بينها مصر. وهكذا لعبت الصدفة دورها، فلم يكن ممكنا لمارك أنتونى الذى عرف كليوباترا من قبل فى بلاط سيده القتيل أن يخوض معاركه مع حليفه القديم دون معأونة من مصر ومواردها، فكان زواجه بها عام ٣٧ قبل الميلاد، ولم يكن ممكنا للملكة تجاهل حقيقة وجود الفيالق الرومانية التى فى صحبته فى محأولتها للحفاظ على الاستقلال النسبى لمصر بل ومد نفوذها إلى روما نفسها إذا ما قدر له الانتصار.

ولكن الأقدار كانت قد استقرت على حتميتها وكانت هزيمة مارك أنتونى وكليوباترا فى موقعة أكتيوم البحرية فى الثانى من سبتمبر عام ٣١ قبل الميلاد، وبعد أقل من عام كان الحبيب والحبيبة قد انتحرا لأن العصر نفسه كان قد وصل إلى زوال فإنتهت مصر كدولة كبرى، وانتهت الجمهورية الرومانية، ومعهما انتهت محأولة ملكة كان لديها ما هو أكثر بكثير من أنفها وجسدها. ومع ذلك استمرت الأسطورة يخلدها شكسبير وأحمد شوقى كل على طريقته، حتى وصل الأمر إلى المتحف البريطانى مؤخرا لكى يعيد تركيبها وفق مقاييس جديدة كلها تحأول أن تبقى للمرأة أنوثتها التاريخية وتخلع عنها صفة المشارك فى بناء الإنسانية.

ولعل ذلك هو بيت القصيد، فالنظر فى التاريخ ليس المقصود به النظر فى الزمن الذى كان، بل فى الزمن الذى سوف يأتى، ورغم قفزات كبرى فى النظرة إلى المرأة ودورها فى المجتمع، والذى جعلها تتبوأ أعلى المناصب والقيادات بما فيها حتى قيادة قاذفات القنابل الذرية، فإن هناك دوما من يحأول الرجوع بها إلى الوراء، ولا يتخيلها إلا بعضا من فتنة وبعضا من خطيئة. وحينما حأول كامل الشنأوى أن يجعل المرأة ذنبا يسأل الله ألا يغفره، فقد كان يسير على نفس الطريق الذى يجعل المرأة

جزءا من المعصية وليس جزءا من الحرية والاستقلال والمكانة التى حاولت كليوباترا تحقيقها فأخطأت وأصابت، ولم يكن لأنفها أو طولها أو حجمها دور فى هذا أو ذاك.

١٢. رمسيس الثانى...!!

أخيرا فُرض حتى على تمثال رمسيس الثانى أن يختار بين العودة من حيث جاء فى قرية ميت رهينة أو ينتقل إلى موضع آخر فى داخل الأوبرا هذه المرة، أو هكذا، والله أعلم، جاءت الأنباء أن المتغيرات الكثيرة التى طرأت على ميدان رمسيس من قدوم لمترو الأنفاق وامتدادات كوبرى أكتوبر والتوسع الضخم فى حركة مواصلات محطة مصر، جعلت من بقاء حتى تمثال رمسيس فى مكانه أمرا غير محتمل. وبالنسبة لى وأمثالى، فإن ذلك حدث يؤرخ له، فقد كنا صغارا عندما انتقل تمثال الملك العظيم إلى موقعه الحالى، وأيامها سعدنا جدا بطلعته المهيبة ومن تحته النافورة التى لم تكن تنقطع عن التدفق، وفى الليل كانت تختلط بالألوان الزاهية، حتى صارت مزارا ومكانا للقاء العشاق، أو لغيرهم ممن تزوجوا ولم يعودوا بعد عشاقا !. وأيامها لم نكن نحفل كثيرا بالإنتقادات التى وجهت لوضع التمثال بملامحه الفرعونية وعلى خلفيته محطة السكك الحديدية بتصميمها العربى، حيث بدا ذلك نوعا من حذلقات الكبار وتعقيداتهم الفكرية التى لا تنتهى !.

وبعد ذلك، وبعدما كبرنا، كان علينا، وكان على أعظم ملوك مصر شهادة مالم يشهده أحد غيره، فقد كان ملكا على ميدان باسمه، وخلفه وأمامه كان أكبر الشوارع القاهرية ممتدا باسمه كذلك. ولكن الأحوال لا تبقى على حالها أبدا، فقد امتد شارع صلاح سالم إلى المطار بعيدا عن قلب المدينة، ومن ورائه جاء الأوتوستراد، وحتى ظهر الطريق الدائرى، لكى يجذب الأقدر والأشيك من المصريين بعيدا عن التمثال. وحتى هؤلاء الذين غامروا فى البقاء فى الداخل فإنهم أقاموا كوبريا تطاول قامته قامة رمسيس ولم يبق معه فى السفح إلا الباعة الجائلون ونوعيات غيرهم من البشر

ليست أرفع مكانة، ولكنها كلها تتفق على شيء واحد هو أن التلوث بكل أنواعه صار فضيلة. ولكن من يقدر على احتمال ذلك حتى ولو كان التمثال الذى عاش أكثرمن ثلاثة آلاف وخمسمائة عام، فهو مثله مثل غيره عليه الاستجابة إلى متغيرات العصر والمدنية، ولو قدر له الاختيار فلن يعود إلى القرية التى لا تزال كما تركها منذ آلاف السنين، ولن يذهب إلى الأوبرا التى بناها اليابانيون ويغنى فيها الإيطاليون، وربما اختار مكانا ما على قمة تل يشرف على قناة توشكى حيث تولد مصر الجديدة !!.

١٣. ابتسامة بوذا...!!

كانت المرة الأولى التى اقتربت فيها من المذهب البوذى فى عام ١٩٧٩ خلال فترة الدراسات العليا بالولايات المتحدة عندما هلت الإجازة الصيفية، وبينما راح الكل يودع بعضه بعضا، كان السؤال أين ستكون خلال الأيام القادمة؟ وفى العادة كانت الإجابة العودة إلى الأهل أو وقضاء بعض الوقت مع الأصدقاء على ساحل ما. زميلة واحدة فقط فاجأتنى بإجابة مختلفة هى أنها ذاهبة إلى كاليفورنيا لقضاء الوقت فى التأمل فى معبد بوذى تستعيد فيه صفاءها النفسى وقوتها الذاتية من خلال فترات طويلة من الصمت. ولم أصدق أن لويز طالبة الدكتوراة فى علم النفس والساكتة على الدوام تحتاج فترة إضافية من السكوت، أو أن الامتناع عن الكلام سيكون سبيلها إلى صفاء كان لديها منه الكثير، أو قوة فوق قوتها التى لا تنضب.

وبعد سبع سنوات أخرى كان الاقتراب الثانى فى اليابان عندما زرتها لأول مرة، وكان من نظموا الزيارة قد وضعوا برنامجا يقوم على زيارة آخر ما أنتجته التكنولوجيا اليابانية من إنجازات صناعية، فطلبت تعديله ليكون ثقافيا من أوله إلى آخره، فكانت الزيارة لمدينة كيوتو العاصمة القديمة وفيها معبد الشنتو، وعلى بعد أربعين كيلومترا كانت الزيارة للمعبد البوذى الأعظم فى اليابان وفى قلبه يوجد أكبر تماثيل بوذا فى العالم بارتفاع قدره أربعون مترا، ومن حوله وقف اليابانيون فى احترام يفعلون ما كانت تفعله لويز من قبل وهو التأمل والبحث الصافى عن الصفاء.

المرة الثالثة جاءت بعد عام واحد، وفى الولايات المتحدة مرة أخرى، عندما كنت باحثا زائرا فى مؤسسة بروكينجز واقترب منى مايكل ، وكان من الأمريكيين الأفارقة، وقال لى إنه أتى لأمريكا من غانا ويرغب أن ألقى محاضرة عن مصر لجماعة القرن الحادى والعشرين لأن مصر الإفريقية هى أصل الحضارة فى العالم. وفى الموعد المحدد أخذنى الرجل إلى شقة فى ضواحى المدينة توارد عليها جمع كان كلهم من الأفارقة فى العاصمة الأمريكية، واندمجوا جميعا فى نوع من التراتيل والأشعار، وبعدها جلسوا فى صمت وهدوء عجيبين يستمعون إلى ما أقول، بينما كان تمثال مصغر لبوذا يقعد فى طاقة صغيرة، ومنه، عرفت أنهم من أتباع المذهب البوذى الذى يعتقدون أنه طريقهم إلى الخلاص من خلال العمل الشاق والمثابرة وإعمار الأرض.

فى المرات الثلاث عرفت شيئا عن بوذا وشيئا عن البوذية، وكلها كانت تقول إنها مذهب فلسفى وأخلاقى معنىّ بالنفس البشرية وقدرتها على استخلاص طاقاتها العظمى وإطلاقها لخدمة العالم والبشرية من خلال التأمل والاستنهاض الذاتى للخير فى الإنسان. وبشكل ما أدركت حكمة الله عز وجل فى تلك التعددية الهائلة فى مذاهب الكون لكى يصل بها البشر، على تعدد قبائلهم وأقوامهم وأعراقهم، إلى طريق الخير بسبل مختلفة. وبشكل ما أيضا كانت الابتسامة، أو ما تخيلته على أنه ابتسامة، على شفتى بوذا فى تماثيله المعروفة تنم عن قدر كبير من الحكمة المختزنة على مر عصور طويلة أطلقها من الهند وسافرت فى الصين وعبرت البحر لليابان حتى وصلت إلى بقية المعمورة. وهى ذات الحكمة التى وجدت فى الابتسامة، أو ما يبدو وكأنه ابتسامة، على شفتى أبوالهول فى مصر قبل بوذا بوقت طويل وحملت معها حكمة جهاد الإنسان قبل التاريخ ومحاولة خروجه من حالة البدائية الحيوانية الأولى إلى حالة الحضارة الإنسانية. وهى ذات الحكمة التى وجدت فى الابتسامة، أو ما يبدو وكأنه ابتسامة، على لوحة الموناليزا فى عصر النهضة الأوروبية بعد بوذا بزمن طويل، ولكن الشفاه هذه المرة كانت ناطقة ببداية عصر تتجمع فيه حكمة البشر لكى تحمله عبر شوط طويل من إعمار الأرض إلى إعمار الفضاء.

ابتسامات أبوالهول وبوذا وموناليزا ومعها طائفة لا تحصى من المعابد والكنائس والجوامع والمتاحف والتماثيل والمسلات كانت مستودعات للتجربة والحكمة راكم فيها

البشر معارفهم وثقافاتهم وتنوعهم وطرقهم المختلفة للوصول إلى الحقيقة والصفاء والقوة الذاتية. وفى معظم الأحيان عرف الإنسان أن وصوله إلى درجة جديدة من الحكمة لا يعنى إطلاقا نفاد ما تحتويه هذه المستودعات من حكمة ومعرفة، بل وحقيقة مطلقة لبعض البشر يجدون فيها الخلاص من معصية وخطيئة. وفى العموم ومنذ أكثر من خمسة آلاف عام أبقت أجيال الإنسانية المتوالية على التراث فى بلدانها حتى عرفت البشرية واحدا من أهم منجزات القرن العشرين وهو التراث المشترك للإنسانية الذى ينبغى الحفاظ والإبقاء عليه بالتعاون الدولى.

ولكن الحال لم يكن دوما كذلك، فقد كان هناك من حاول التزوير على جدران المعابد المصرية القديمة، وكان هناك من أحرق مكتبة الإسكندرية التليدة، وكان هناك من حاول تحويل الكنائس إلى جوامع، والجوامع إلى كنائس، بل كان هناك فى قلب قرن المعرفة من حاول حرق المسجد الأقصى. ولكن هؤلاء باتوا معروفين بالبرابرة وهى الطائفة من البشر الذين يقفون موقف الضد من الحكمة ويتخيلون فى معارفهم القاصرة أنهم احتكروا الحقيقة إلى الدرجة التى تدفعهم لتدمير كل ما سبق من بناء إنسانى، استعدادا لحرق كل ما لحق من حكمة بشرية.

جماعة الطالبان كانت آخر أنواع البرابرة التى عرفها العالم، وبعد أن دمروا أفغانستان كلها لم يجدوا ما يدمرونه فى النهاية سوى تدمير تماثيل بوذا وسحق ابتسامته بالمدفعية والصواريخ. لم يثنها أن هذه التماثيل تمثل تراثا مشتركا للإنسانية، ولم يثنها أن الإسلام الذى اعتنقه الأفغان منذ قرون طويله لم يتعرض لها، ولا لمثيلاتها فى مصر وإندونيسيا والهند والصين وكل أرض دخلها الإسلام حاملا كلمته فى خلاص البشر، ولم يثنها ما قاله علماء الإسلام فى كل منارات العالم الإسلامى. كان التعصب والجهل والتطرف قد وصل إلى مداه حتى تخيلوا ابتسامة بوذا عدوا ينبغى الخلاص منه بالأسلحة الثقيلة، فقد كان شاه مسعود بعيدا، وحكمتيار وسياف، وباقى فصائل التطرف مهزومة، ولم يبق فى طريق الانتصار الأعظم إلا تماثيل عاندت الزمن وبقيت على مر العصور.

ولم يكن ما فعله جماعة الطالبان مدهشا بالمرة، ففيروس التعصب والجهل هو آفة العقل، وقيد الروح، ومقتل الحكمة، وهو يتوالد ويتوسع بقوة مذهلة، وبعد قتل الأعداء

السياسيين ينتقل لكى يأخذ روح المرأة التى لا يجد فيها إلا فتنة، ومعها يأخذ أنفاس الشيعة لأنهم كفرة. ولسوء حظ الأفغان، وربما العالم أيضا، أن الجماعة انفردت بأفغانستان لكى تنفذ فيها برنامجا مذهلا لاستئصال كل ما هو تقدمى وحيوى فى الإسلام، وتقدمه للدنيا على أنه الحقيقة الباقية منه. ولكن البرابرة دوما يذهبون وتظل الابتسامات باقية !.

١٤. وليام جيفرسون كلينتون...!!

اليوم السبت العشرون من يناير عام ٢٠٠١ سوف تنتهى فترة الرئاسة الثانية والأخيرة، كما يقضى الدستور، للرئيس الأمريكى ويليام جيفرسون كلينتون الشهير باسم بيل كلينتون. وعلى الأرجح، فإن الرئيس سوف يقضى الليلة الأخيرة فى البيت الأبيض ربما وحده يتصفح الجدران واللوحات والتاريخ، وربما فى صحبة عدد من الأصدقاء المقربين الذين أراد منحهم شرف المشاركة فى هذه اللحظة التاريخية. ومن المرجح أيضًا، أنه سوف يتناول الإفطار الأخير وبعدها يوقع آخر الأوراق التنفيذية كرئيس للجمهورية، وفى الساعة الحادية عشرة يكون الرئيس وزوجته جاهزين تماما لاستقبال الرئيس المنتخب جورج بوش الابن ومعه زوجته. وبعد نصف ساعة تقريبا يتم فيها تناول الشاى وتبادل الكلمات الرقيقة والتمنيات الطيبة وربما بعض المعلومات عن طرق الحياة فى البيت الأبيض، يغادر كلينتون وبوش وأسرتاهما إلى الكونجرس فى عربتين منفصلتين، حيث يدخل الأول أولا قاعة مجلس النواب ويعزف له لآخر مرة فى حياته سلام تحية الرئيس، وبعدها وفى الساعة الثانية عشرة تماما يضع بوش يده على الإنجيل أمام رئيس المحكمة الدستورية العليا ويحلف اليمين ويصبح الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة الأمريكية. وخلال هذه النصف ساعة تكون آخر حقائب كلينتون وزوجته هيلارى وابنته تشيلزى قد غادرت المقر الرئاسى ودخلت بدلا منها حقائب الرئيس الجديد وزوجته وأولاده.

بعد ذلك لا نعرف على وجه التحديد ما الذى سوف يفعله كلينتون، ولكن ما نعرفه أنه خلال أيام من رحيله سوف تختفى سيرته تماما ويضيع الاهتمام به بينما ينتقل التركيز الإعلامى والفكرى إلى الرئيس بوش وطاقمه الذى اختاره وسياساته التى تبناها، وما أصاب فيه وما أخطأ، وكيف سيتصرف على المستوى الدولى، والأهم ماذا سوف يفعل فى أول أزمة دولية سيواجهها، وفى كل الأحوال سوف تظل العيون مسلطة على حالة الاقتصاد والتنافسية الأمريكية فى العالم، فالكل يعرف أنه فى هذه الساحة يتحدد مستقبل أمريكا ومصيرها، وربما سوف تكون هناك قلة سوف تبدأ من الآن تتساءل عن شكل الانتخابات الرئاسية القادمة بعد أربع سنوات!.

وليس معنى ذلك كله أن الأمريكيين سوف ينسون فترة كلينتون كلية، ولا الدروس المستفادة منها، ولا حتى موقعها من الاستمرارية والتغيير فى التاريخ الأمريكى، ولكن هذه مهمة أخرى لا تتم فى عجلة، وإنما تتم على نار هادئة تماما وفى المكان والموعد والمناسبة الملائمة لها. ولعل الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه سوف يقوم بها كلينتون نفسه عندما يبدأ - كما فعل كل الرؤساء من قبله - فى بناء مكتبته الخاصة التى تضم أوراقه الشخصية، ووثائقه، ويومياته أو مذكراته إذا كان من هواة كتابة اليوميات والمذكرات، وبعد ذلك فإن الرئيس السابق وطاقمه سوف يبدأون فورا فى كتابة المذكرات ونشرها خلال فترة عام أو عامين، والذاكرة لاتزال حية، والعواطف بشأن الأحداث لاتزال حارة تحمل حيوية المرحلة وطزاجتها. ومن بعيد تبدأ كل أجهزة المعلومات وحفظ الوثائق والأرشيف فى أقسام التاريخ ومراكز البحوث فى تخزين المرحلة واسترجاعها والبحث فيها من خلال من هم للمهمة وتخصصوا فيها بأدوات البحث والتحليل والتقييم واستخلاص الدروس، وحتى العبارات الفارقة فى تلخيص المرحلة فتصير بعد ذلك جزءا من خطب قادة المستقبل وزعمائه. فلعله من النادر تماما أن نجد خطابا لرئيس أمريكى خلا من استشهادات متعددة بكلمات وعبارات قال بها رؤساء سابقون، أو إجراءات مشابهة بين مواقف راهنة ومواقف سابقة عرفها التاريخ الأمريكى منذ الاستقلال وحتى العصر الحديث وتصرف فيها القادة فى الماضى بطريقة ملهمة لقادة الحاضر. فحينما لا يقسم التاريخ عادة بين عهود ماضية هى فى العادة بائدة، وعهود حالية هى فى العادة أيضًا المجيدة

وحدها، وحينما لا يصنف القادة والرؤساء إلى أبطال وخونة، فإنه لا توجد مشكلة فى الاستشهاد بكلمات ومواقف تبدأ من أول رئيس وهو جورج واشنطن وحتى آخر الرؤساء وهو فى هذه المرة بيل كلينتون.

الحكم على بيل كلينتون إذن سوف ينتظر لبعض الوقت وحتى يقوم أهل الاختصاص بمهمتهم، ولكن ذلك لن يمنع من وقت لآخر من ظهور اسمه كالشهاب فى سماء الإعلام إذا ما ظهرت وثيقة أو تكشفت معلومات شخصية أو عامة عن الرجل الذى قاد الدولة العظمى الوحيدة فى العالم على مدى ثمانى سنوات. وربما سوف يركز البعض على الجديد الذى قد يجد فى قضية مونيكا لوينسكى التى خطفت قرابة النصف عام من حياة الرئيس ربما لأن القصة حريفة وفيها الكثير من الإثارة والمشهيات، وربما لأنها الطريق المختصر للحكم على الرجل وعصره ورئاسته، إلا أن الجانب الأعظم من الاهتمام سوف يتركز على ما فعله كلينتون بشأن بلاده وبشأن العالم طوال فترتى رئاسته.

هنا سوف يجد المؤرخون الكثير مما يبحثون عنه ويتساءلون بشأنه، فقد جاء كلينتون إلى الرئاسة بعد حدوث الزلزال الأعظم والذى انتهت عنده الحرب الباردة بالانهيار المدوى للاتحاد السوفيتى وانتهاء عصر القطبية الثنائية، وبالتالى فإن دوره فى بناء النظام العالمى، ومدى نجاحه وإخفاقه فى فعل ذلك سوف يكون هو الموضوع، صحيح أن الرئيس بوش السابق عليه كان قد أعلن عن نشوء النظام العالمى الجديد، ولكن النظم العالمية لا تأتى بقرار رئاسى، ولكنها عملية معقدة من وضع القواعد وبناء المؤسسات وتحديد حركة التوازنات العالمية الجديدة. وقد كان النظام بالفعل يشاهد تقلصات هائلة نجمت عن انهيار دول وإمبراطوريات، وحتى القارة الأوروبية التى عرفت سكونا مسلحا رهيبا منذ الحرب العالمية الثانية، عرفت قدرا كبيرا من هذه التقلصات المنذرة. وبالقطع لم تكن معركة كلينتون مع العالم فقط بل كانت فى أول الأمر داخل أمريكا ذاتها، فقد كانت الولايات المتحدة مثل غيرها من الأمم ممن تأثروا بالثورة العلمية والتكنولوجية، وباتجاهات «العولمة» التى قلبت الحياة فى العالم المتقدم رأسا على عقب.

ولعله سوف يكون من المبكر تقرير الأثر الذى تركه كلينتون على مستوى العالم وعلى مستوى أمريكا، وإذا كان فى المستوى الأول سوف يذكر له أنه وضع لبنة

مؤسسات سوف يكون لها تأثير كبير فى تنظيم الدنيا مثل منظمة التجارة العالمية والمحكمة الجنائية الدولية الدائمة، فإنه سوف يذكر له أيضًا أنه ترك الكثير من الصراعات العالمية معلقة بأكثر مما حل منها سواء فى الصومال أو البوسنة أو أيرلندا أو بالطبع الشرق الأوسط. أما على المستوى الثانى، فهنا على الأرجح سوف يسجل له أعظم إنجازاته حينما حقق الاقتصاد الأمريكى فى عهده واحداً من أزهى عصور ازدهاره، وقد كان هذا الإنجاز هو ما أنقذه خلال محنة مونيكا لوينسكى، وربما كان هو الذى سوف ينقذه أمام التاريخ الأمريكى أيضاً!.

الفصل الرابع

الـــرواد

١ـ الرواد...!

هل تذكرون أفلام الغرب الأمريكية والتى كان فيها الشجيع عادة ما يقود قوافل المهاجرين والمغامرين عبر الصحارى وجبال الروكى حتى يصل إلى المحيط الهادى وسط أخطار الطبيعة وهجمات الهنود الحمر لكى يحصل فى النهاية على الذهب؟ وفى العادة كانت له حبيبة مليحة كانت دائما تحافظ على ملاحتها مهما كانت الأهوال التى تلاحقها. إذا استبعدنا الأبعاد الدرامية من القصة، فإنها لم تكن متطابقة كل التطابق مع الحقيقة التاريخية. فقد كان على هؤلاء الذين جاؤوا من القارة الأوروبية اقتحام بيئة مغايرة وفى أحوال كثيرة معادية لكل ما ألفوهواعتادوه، ويحفرون بالأظافر دنيا جديدة لم يعرفها العالم من قبل. هؤلاء الرواد كان عليهم تحمل الكثير، وهى القيمة التى حاولت الثقافة الأمريكية أن تحافظ عليها بعد ذلك وعكستها أعمال فنية كثيرة، حيث كانوا رجال الصناعة والمال فى وقت من الأوقات، ثم انزوى هؤلاء وجاء مكانهم جيل وادى السيليكون من مهرة الكومبيوتر ورواد حرب الكواكب!!.

بالنسبة لنا فإن فكرة الريادة هذه ظلت دوما فكرة غريبة علينا قرونا طويلة، ربما لأننا استرحنا طويلا للالتصاق بوادى النيل، وربما لأننا احترفنا الزراعة بالرى التى

لا تعرف الارتحال، وربما كانت هناك أسباب أخرى. ولكن القضية الباقية أن فكرة الخروج من الوادى الضيق ظلت مغامرة غير محمودة العواقب، وحتى عندما بنت الثورة المصرية مديرية التحرير فإنها لم تكررها بمديرية أخرى وأغلقت ملف الوادى الجديد بسرعة كبيرة. ولم تكن المشكلة فقط الوقوع فى أسر الوادى الضيق، وإنما انتقل فى كثير من الأحيان إلى واد ضيق للأفكار يحصرها فى دائرة مغلقة ترتعد من التجديد والابتكار وولوج عوالم وآفاق جديدة ومغامرة. ولو تأملنا حالتنا الفكرية والثقافية لوجدنا المجتمع كله يرتج عند أى مبادرة أو نزوع للخروج على المألوف، فالمطلوب دوما أن نكون جميعا نسخا مكررة، حتى يبدو أن علم الاستنساخ الذى يتحدثون عنه كثيرا فى الصحافة العالمية الآن كان اختراعا مصريا أصيلا فى عالم الأفكار على الأقل !!.

الآن لم يعد ذلك ممكنا له الاستمرار لو أن المجتمع المصرى كان مصمما على تحقيق التنمية المستمرة والشاملة، ولو كان مصمما أيضا على الخروج من الوادى الضيق إلى الصحراء الواسعة والشواطئ المصرية الممتدة فى سيناء وعلى البحرين الأبيض والأحمر. وفى الحقيقة أننا بدأنا هذا الخروج بالفعل من خلال المشروعات السياحية ومن خلال المدن الجديدة، ولكن المشكلة أنها جميعا ظلت فقيرة السكان ومازال الكثرة يفضلون الذهاب لها للعمل أو للاستجمام ثم يعودون بعد ذلك لعناق أحضان الوادى الدافئ. ولا أظن ان هناك سببا لذلك إلا أننا لم نعد مجتمعنا بعد لإنتاج تلك القافلة من الرواد القادرين على المغامرة واقتحام المجهول جغرافيا وفكريا، وفى الوقت الذى كان ذلك المجهول بالنسبة لمجتمعات أخرى قرينا بالإثارة والرغبة فى الاستكشاف، فإنه كان بالنسبة لنا بحر الظلمات الذى ليس له قرار.

وإذا كانت تجربة المستقبل المصرية سوف تشمل خروجا إلى الصحارى والمجتمعات الجديدة، وإذا كنا سوف ننفق ٣٠٠ مليار جنيه لشق واد مواز لوادى النيل فى الصحراء الغربية، فإننا نحتاج بشدة لإنفاق قدر يسير من المال والجهد لإعداد جيل من الرواد يختلفون جذريا عن أقرانهم فى الوادى الضيق، فلابد أن يكون لديهم قدر هائل من الثقة بالذات وحب الحرية والعلم والتسامح والصبر والرغبة فى ارتياد أراض ومجاهل لم يمسسها بشر من قبل فى بيئة مناخية مغايرة لما عرفه الآباء والأجداد. هذا لا يمكن أن يتأتى بنفس وسائل التنشئة السياسية والثقافية

والاجتماعية السائدة القائمة على التعبئة والجماعية والتلقين وخلق قوالب متماثلة من البشر والأفكار. إننى أدرك الصعوبة الهائلة التى سيواجهها المجتمع لارتياد ذلك المجهول الغامض خاصة لو كان القائمون عليه لم يمارسوه فى حياتهم الشخصية ونظروا بارتياب دائم لكل من يتحدث به. ولكننى لا أظن أن هناك خيارا آخر، لأنه مهما كانت عظمة البنية المادية التى سوف نقيمها فإنها تصبح دون بشر رواد يماثلونها فى الطموح والجموح غرقا لموارد هائلة فى الرمال المتحركة!!.

٢- ولكنها تدور..«Eppur si muove»...!

«ولكنها تدور».. كانت هى العبارة التى لم يكف العالم الإيطالى الأشهر جاليليو فينسيزو جاليلى (١٥٦٤ - ١٦٤٢) عن قولها وهو يضرب كفا بكف طوال ثمانى سنوات من الاعتقال المنزلى. وكانت تلك التى تدور هى الكرة الأرضية التى اكتشف الرجل أنها «كروية» أولا، وأنها «تدور» حول الشمس ثانيا، وبهذه الحقيقة قلبت الدنيا على أعقابها بالنسبة للذين كانوا مصممين على أن الأرض مسطحة والشمس تدور من حولها، ولكنه فى ذات الوقت أعاد الدنيا للوقوف على أقدامها ويستقيم التاريخ البشرى حول حقيقة علمية صحيحة فتندفع من طور فى التطور يقوم على الخرافة إلى طور آخر يقوم على العلم. وكان هذا هو التقدم الذى كان على العالم جاليليو أن يدفع ثمنه ثمانى سنوات من عمره، ولحسن حظه أن ذلك لم يتم فى السجن، وإنما فى منزله الذى بقى فيه رهن الاعتقال رغم أن الزمن الذى كان فيه هو زمن العصور الوسطى التى رغم كل ما يشاع عنها كانت رحيمة إلى حد ما بالعلماء.

القصة من أولها تكررت كثيرا بين بنى البشر، ويبدو أنها سوف تستمر إلى نهاية التاريخ، وربما يجب أن نحذر من البداية، كما هو الحال فى الأفلام السينمائية، أن أية مشابهة موجودة مع الواقع ليست مقصودة بالمرة، وإذا تشابهت الوقائع، فإن الأمر كله محض مصادفة. فقد كانت حياة جاليليو مثل كثيرين سبقوه، ولحقوه. كان

عليه قول الحقيقة مهما كانت آراء السلطات، والجماهير، وإعلام تلك الأيام والذى كان أقوال الكهنة والرهبان فى الكنائس والأديرة وفوق كرسى البابوية. فقد حدث له ما حدث لسقراط من قبله الذى كان عليه أن يتجرع السم أو يقول الحقيقة فقالها، وفى التاريخ العربى كانت التجربة من نصيب الحجاج الصوفى الذى زف إلى حتفه وسط الجنود وتهليل الجماهير لأنه تجرأ وقال الحقيقة التى لم يقبلها خليفة أو شيخ.

ولد جاليليو لأب موسيقى فى قرية صغيرة قرب مدينة فلورنسا الشهيرة، وأرسله والده إلى دير للرهبان فعرف عنه شغفه بالرياضيات وعلم الطبيعة ومنها علوم النجوم والأفلاك التى برع فيها، خاصة بعد أن تمكن من تطوير التليسكوب الذى أتاح له استطلاع نجوم وكواكب لم يكن أحد قد اكتشفها من قبل. ولكن معجزته الحقيقية كانت أنه أثبت علميا نظرية كوبرنيكس فى كروية الأرض، وهنا انفتحت عليه أبواب جهنم فلم يكن أحد على استعداد للقبول بها نظرا للظن أنها مناقضة للكتاب المقدس. ويبدو أن الصراع بين البروتستانتية والكاثوليكية جعل الكنيسة فى روما حساسة للغاية أن ينبع من تحت يدها نظريات علمية تجعلها موضع مزيد من النقد والمراجعة فى وقت كان فيه لوثر وكالفن قد نجحا فى هز الأرض من تحت أقدام بابا روما والكنيسة الكاثوليكية كلها.

وبقدر ما كان هذا الصراع واقعا فى خلفية الصورة، فإن ما كان فى مقدمتها بعيدا عن الحسابات الاستراتيجية والمناورات السياسية، العالم (بكسر اللام) فى مواجهة السلطة. العالم بما وصل إليه من أن هناك خطأ فيما اعتقده العامة والخاصة، الجماهير والحكام، الكهنة والرعايا، من أن الأرض مسطحة ساكنة لا تتحرك ولا تدور، بل على العكس فإن الكون كله هو الذى يدور حولها. كل ذلك كان خطأ، والحقيقة التى لا مراء فيها أن الأرض تدور، وتلف حول الشمس، وأنها كيان صغير فى كون عامر بالأفلاك والأجرام والنجوم والكواكب. كان جاليليو يفتح الكون كله أمام السلطات الدينية والمدنية، ولكن هذه السلطات كلها كانت تأبى ذلك، فقد كان الرجل خارجا على المألوف، والمتفق عليه، وربما كان «مشبوها» و «زنديقا» وله فى «الهرطقة» على الناموس العام نصيب.

ويقول التاريخ إن جاليليو تمت مساءلته الأولى عام ١٦١٦ عندما كان عليه الحصول على تصريح للقيام بأبحاثه، حيث تمت مراجعة أعماله بشكل دقيق من

جـانب السلطات الدينيـة، وبعدها تم التصـريح بالفـعل ولكن طلب منه عدم تعليم أو تدريس أو مناقشة نظرية كوبرنيكس، أو هكذا قالت السلطات العامـة. فما حدث بعد ذلك فى عام ١٦٣٣ عندما تمت محاكمة الرجل أنه أنكر تلقيه لهذا التحذير، ولكن بالرجوع إلى ملف القضية وجد هذا التحذير، وهو ما حدا بالمؤرخين الذين نشروا نصـه لأول مرة عام ١٨٧٧ إلى القول إنه تم دسـه على أوراق القضـية حتى يمكن إدانة العالم الكبيـر. وهو ما حدث بالفعل عندما أدين فى ذلك العام أنه اعـتقد فى مذهب كوبرنيكس فى كروية الأرض وعلمه للتلاميذ، وهو الأمر الذى أنكره جاليليو فى البداية محاولا أن يلتف حول القضية بالقول إنه ينكر ويلعن ويحتقر أخطاءه السابقة، ولكن ذلك لم يكن كافيا فقد كانت المحكمة تطلب توبة كاملة. وبعد التعذيب لواحد من أكبر علماء التاريخ البشرى كان لها ما أرادت، ومع ذلك فقد تم الحكم عليه بالسجن الذى خفف بعد ذلك إلى الاعتقال، وهو مـا تم خلال السنوات الباقيـة من حياته.

وطوال فترة التعذيب، ومن بعده الاعتقال، لم يتخل جاليليو عن الحقيقة، وعن القول باسمها عبارته «ولكنها تدور» التى ذاعت بعد ذلك وباتت تستخدم فى الأدب العالمى عندما تصطدم الحقيقة مع السلطة، أو الاكتشافات الجديدة مع ما تعتقد به العامة والمؤسسات الدينية والرسمية. وأذكر بعد ذلك أننى كنت أحضر مؤتمرا فى إيطاليا فى مدينة صغيرة، حيث قام المضيفون الإيطاليون بأخذنا فى جولة كان من ضمن بنودها زيارة المرصد، وإذا بنا نجـده محروسا بالحرس البابوى السويسرى الشـهير بزيه الملون، وعندما سألنا لماذا الحال كذلك، قيل لنا إن ذلك كان طريقة الكنيسة فى الاعتذار عما فعلته للعالم جاليليو.

وهكذا حقق جاليليو انتصاره ولكن بعدما دفع الثمن غاليا، وربما حققت الكنيسة أيضا انتصارها بعدما أدركت مدى الخطأ الذى وقعت فيه، وكان اعتذارها بالطريقة التى تمت بها. ولو أن البشرية عرفت الخطأ فى أوله لربما وفرت على نفسها الكثير، ولربما تم التبكير بالمعرفة بأن الأرض كروية وأنها بالفعل تدور حول الشمس. ومن المدهش أن عام وفاة جاليليو كان هو ذاته عام مولد نيوتن الذى حمل أبحاث الأخير إلى ذرى أخرى عالية، وليحقق انتصارات أكبر لجاليليو لم يكن ربما ليحلم بها. ولكن القضية تبقى على حالها بين العالم من جانب والسلطة من جانب آخر، وربما يسأل

البعض لماذا نثيرها الآن؟ والإجابة هى أنه لا يوجد سبب على الإطلاق، فمن المفيد دوما أن نتذكر ما قاله جاليليو أن الأرض تدور!

٣ـ «أكيو موريتا» وصحبه الكرام...!

أود أن أحذر القارئ الكريم فى البداية أن «أكيو موريتا» المذكور اسمه فى عنوان المقال ليس لاعبا شهيرا لكرة القدم فى أحد الأندية المعروفة فى أوروبا أو أمريكا اللاتينية، كما أنه ليس ملاكما ذائع الصيت فى أى من الأوزان المعروفة، كما أنه لم يكن قط مغنيا مشهورا فى بلاد بعيدة، ولم يعرف عنه أنه حصل على ميدالية أوليمبية من أى نوع، ذهبية أو فضية أو برونزية، ولم يحدث أن حصل على جائزة الأوسكار أو إيمى أو حتى نوبل العالمية، ومع ذلك لم تخل مطبوعة عالمية من ذكر اسمه خلال الفترة الأخيرة، ليس فقط لأنه أحد مؤسسى شركة «سونى» العالمية، أو لأنه واحد من أكبر الأغنياء فى العالم، ولكن لأن سيرة حياته كانت تمثيلا لتعامل أمة مع الهزيمة الساحقة، وتعامل إنسان مع عصر بأكمله جسد أجمل ما جاء فيه من تقدم يفيد البشرية ويدفع بها إلى الأمام.

وحتى نتعرف إلى الرجل أكثر، تعالوا بنا نعد بالذاكرة إلى شهر أغسطس عام ١٩٤٥، حينما استسلمت اليابان بعد إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكى اللتين قتل فيهما ما يقرب من ربع مليون من البشر، ولقد قدر لى فى مناسبتين مشاهدة المتحف الذى أقامته اليابان فى هيروشيما للتذكير بالحادثة البشعة، وفى مدخله توجد صورتان كبيرتان كلتاهما بحجم صالة كبيرة، أولاهما للمدينة قبل ضربها وأخراهما بعدها، وفى هذه الأخيرة كانت فعلا قد سويت تماما بالأرض فلم يبق فيها إلا تراب ودخان، ورغم أن المدينتين خلدتا فى العالم باعتبارهما أول من عانى العصر النووى، إلا أن اليابان كلها تقريبا كانت فى ذلك الوقت مدمرة تدميرا بشعا فى موانئها ومصانعها وطرقها، ولم يبق فيها إلا الحطام والخراب، وفوق ذلك

جاء الأمـريكيون لتـغيير كل شيء في الدولة والمجتـمع من أول مكانة الإمـبراطور وحتى تنظيم الحمامات العامة.

الشاب «أكيو موريتا» البالغ من العمر وقتها أربعا وعشرين سنة، والخارج لتوه من التجنيد في البحرية اليابانية ليجد أم الكوارث العالمية في بلاده، كانت أمامه خيارات متعددة، كان أولها أن ينخرط مع أمثاله في العمل من أجل الانتقام لما حل باليابان ولدماء اليابانيين التي أريقت وتبخرت في الحرب بالقنابل أو بالإشعاعات النووية. وحتى لو كان ضميره قد أرقه لأن اليابان كانت تخوض حربا استعمارية في آسيا، فإنه كان سيجد صعوبة كبيرة في تجاهل حقيقة أن الولايات المتحدة قد خصت اليابان وحدها باستخدام السلاح الذرى الذي نجت منه ألمانيا، وربما لأنها دولة يسكنها الجنس الأبيض ذو العيون الزرقاء، وربما لأنها في النهاية دولة أوروبية وغير بوذية وغير شنتوية، وكان ثانيها مالم يتم الانتقام أن يتخلص من الاحتلال الأمريكي لبلاده، والذي كان على اليابان دفع تكاليفه، واستيراد بضائعه، وتعلم عاداته، التي كان أصعبها شيئا جديدا لم تعرفه اليابان من قبل اسمه الديمقراطية، وكان ثالثها إذا لم يكن ذلك ممكنا تجاه الولايات المتحدة والغرب أن يعطي كل وقته ومجهوده لاستعادة الأراضي اليابانية التي اغتصبتها روسيا في جزر الكوريل، وحتى لو ادعت موسكو أن بعض هذه الجزر حصلت عليها اليابان في الحرب اليابانية الروسية عام ١٩٠٥، فإن هناك كثيرا من الوثائق التي تدل على أن بعض هذه الجزر كانت في حوزة اليابان حتى قبل هذه الحرب، وكان رابعها، وهذا أضعف الإيمان، أن يبدأ عملية كبرى للطم الخدود والنواح على الظلم التاريخي، والتمييز العنصري، والتآمر الاستعماري، الذي لحق ببلاده، وكان آخرها ما لم يفلح ذلك كله أن يعود إلى التقاليد اليابانية الأصيلة ويقوم بالانتحار على طريقة مقاتلي الساموراي بغرس السيف في صدره، مالم يقم بعملية انتحارية أو استشهادية أو جهادية لقتل نفسه مع الأعداء في آن واحد.

ولكن «أكيو موريتا» لم يفعل أيا من ذلك، فقد وقر في قلبه أن هناك طريقا آخر له ولبلاده يستطيع به استعادة الكرامة المفقودة، والأرض المغتصبة، والخروج من الحطام إلى البناء، واستعادة المكانة العالمية في وجه القوى العملاقة، بل حتى السيطرة ليس فقط على آسيا ولكن على العالم كله. هذا الطريق يقوم على العلم

والمعرفة والعمل الذى ليس له حدود وفق الآفاق اللامتناهية للنصف الثانى من القرن العشرين، فرجلنا لم يستسلم للهزيمة فقط، ولكنه أيضًا لم يستسلم للآفاق الضيقة للصناعة اليابانية والتى كانت عائلته رائدة فيها فى صناعة النبيذ أو الساكى اليابانى المعروف فى مدينة ناجويا الصناعية فى وسط اليابان، فقد كان يعلم تماما أن طريق الصناعات القديمة مسدود ومغلق، وما ينتج من فكرة وصناعة وتقاليد قاد اليابان إلى الكارثة من قبل. وهكذا قام رجلنا بمصاحبة صديقه «ماسرو أبوكا» الذى رافقه فى أثناء الحرب فى وحدة البحوث العلمية فى البحرية فى العمل من أجل صناعة سلاح باحثا عن الحرارة إلى مخزن للبضائع لكى يبدآ معا رحلة الألف ميل بخطوة واحدة هى إنشاء شركة سونى» للإلكترنيات، التى لم يكن اسمها يعنى أى شىء أكثر من أنه يمكن نطقه بكل اللغات العالمية!

وعندما انتهت رحلة الألف ميل بالنسبة لرجلنا، كانت شركة «سونى» واحدة من كبرى الشركات الإلكترونية فى العالم، وتقتحم منتجاتها كل بيت، وتعتبر موضع التقدير والحسد من كبريات الشركات الصناعية. ولديها حجم من المبيعات يزيد على حجم الناتج القومى الإجمالى لغالبية دول العالم. الأهم من ذلك أن الشركة العملاقة قدمت الكثر لتغيير حياة البشر، فبدلا من أسطوانة الفونوغراف التقليدية الثقيلة ذات البوق الكبير، قدمت الشركة أجهزة التسجيل ذات الشريط المغناطيسى القادر على تسجيل ليس فقط الأغانى، ولكن كل ما يريد الإنسان تسجيله. وفى منتصف الخمسينيات حصلت الشركة على حق استخدام اختراع أهملت قيمته شركة «بل» الأمريكية اسمه الترانزيتسور لكى تجعل منه أعجوبة فى عالم الراديو مع بداية الستينيات، وأعقبته بالتليفزيون الملون بالغ النقاء، ومع منتصف السبعينيات كانت تقدم أعجوبة القرن العشرين جهاز الفيديو.

وفوق القمة كان يجلس «أكيو موريتا» مع صديقه يرقبان برضا تام ما فعلاه هما وأقرانهما فى شركات تويوتا وميتسوبيشى، التى لم تكن تختلف كثيرا عن مسيرتهما، فقد انتقلت اليابان من دولة صناعية من الدرجة الثانية ومدمرة تماما إلى دولة عملاقة، جاءها وزير الخارجية الأمريكى المستعمر يطلب العون المالى فى حرب الخليج.

ووسط انشغالاتهما المتعددة لإدارة شركة تتحرك فى أركان الدنيا الأربعة لم ينس أى منهما أن مهنته الأولى كانت الخلق والإبداع وإضافة المنتجات الجديدة، فقام رجلنا باختراع جهاز «الووكمان» الأعجوبة الجديدة فى عالم الشباب، ليس فقط اليابانى، ولكن الأمريكى والإفريقى والأوروبى والآسيوى. فقد كان اليقين الذى توصل إليه هو أن صعود اليابان لن يكون بالانفصال عن الدنيا ولاالحرب معها، بل أن تكون جزءا وجزءا مهما، من النظام العالمى بالعلم والمعرفة والعمل الشاق جدا.

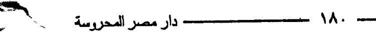
وكان وراء ذلك يقين أكبر، أن الخصوصية اليابانية سوف تظهر وتزدهر ليس من خلال أبنية ثقافية واجتماعية متخلفة، وإنما من خلال تركيبات حديثة ومتقدمة، تنقل اليابان من عهد إلى عهد، ومن عصر إلى عصر، ولذلك لم يكن أمام «أكيو موريتا» وصحبه الكرام أية مشكلة فى انتقاد «الحصن اليابانى» ونزوعه إلى العزلة عن العالم، ولم يجد هناك أدنى مشكلة فى أن يكون أول يابانى يدخل أمريكيين فى مجلس إدارة شركته العملاقة، لأن المزاوجة بين الخصوصية اليابانية والعالمية الأمريكية كانت طريقا لازدهار اليابان والعالم أيضًا، وبين هذا وذاك لا توجد خصومة تاريخية بل مشاركة كبرى وخلاقة لإعادة صناعة العالم والدنيا بأسرها.

٤- أستاذنا الأمين العام....!

الأصل فى عمل مراكز الدراسات الاستراتيجية أن تبقى رؤوسها باردة إزاء كل التطورات والأحداث السياسية مهما كانت سخونتها حتى لا تؤثر المشاعر على رصانة التحليل وفاعلية وواقعية السياسات التى تقترحها. وفى أغلب الأحوال فإنها لا تملك رفاهية الانفعال والسخط أو الرفض أو القبول لحالة بعينها بأية درجة من درجات الحماسة، لأن معنى ذلك أن تشوش على كفاءة تقييمها وتقديرها للأمور حتى ولو كان ما يحدث يشعل الأعصاب ويطيح بالعقول. ومن يتابع أعمال مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام فسوف يلحظ أننا بقدر الطاقة نحاول

الالتزام بهذه القاعدة الذهبية ليس فقط لأنها المحدد لعمل المراكز الاستراتيجية المحترمة بشكل عام وإنما لأننا نعتقد ان الساحة المصرية والعربية فيها ما يكفيها من المنفعلين ومشبوبى العواطف وأصحاب الرءوس الساخنة. ولكن كما أن لكل حالة استثناءاتها، ولأننا فى النهاية بشر، فإن هناك حالات قليلة لا نملك إزاءها إلا الغضب والانفعال ربما لأنها تمس ديارنا مباشرة، كما حدث فى حالة القانون ٩٣ حتى تم تجاوزه، أو فى حالة الموقف الأمريكى من إعادة ترشيح الدكتور بطرس غالى لولاية ثانية فى منصب الأمين العام للأمم المتحدة.

ومن المؤكد أن مصدر غضبنا إزاء الموقف الأمريكى يعود إلى أن الجيل الحالى من الباحثين السياسيين العرب والمصريين يدينون بالكثير لما تعلموه من الأمين العام عندما كان أستاذا مرموقا للعلوم السياسية فى جامعة القاهرة. وبالنسبة لنا فإن فضله كبير فيما وصل إليه مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام الذى لايزال الأمين العام رئيسه الشرفى وصاحب اسم مكتبته. ولكن مصدر الغضب أيضا يعود إلى أنه ربما لم يسد موقف للولايات المتحدة من الأكاذيب مثلما حدث فى هذه الحالة. فالتهمة الموجهة له تنصب على أنه لم يبذل الجهد الكافى فى إصلاح الأمم المتحدة سواء فيما يتعلق بميزانيتها أو بيروقراطيتها. وعندما تأتى هذه التهمة من دولة مدينة للأمم المتحدة، فإن النفاق لديها يكفى للغضب، وعندما لا يكون فيها أى أساس من الصحة، فإن الكذب فيها يقود إلى ما هو أكثر من الغضب. فمن الثابت أن د.بطرس غالى تولى الأمانة العامة للأمم المتحدة فى لحظة تحول تاريخية كبرى ترتب عليها انفجارات دولية كبرى شعرت المنظمة الدولية بأنها لا يمكنها البقاء بعيدا عنها، وفى سبع عشرة حالة منها تدخلت بقوات لحفظ السلام، حتى إن القوات التابعة للأمم المتحدة بلغت ٧٠ ألفا لأول مرة فى تاريخها. وبينما التدخل بالقوات جاء فى أكثر حالات الصراعات حدة، فإن هناك حالات أخرى للتدخل نجحت فيها الأمم المتحدة بالدبلوماسية الوقائية فى تفادى الصراع أصلا كما هو الحال فى حالة مقدونيا التى كان يمكن أن يصير فيها ماصار فى البوسنة، والنزاع بين ليبيا وتشاد، واليمن وإريتريا، ونيجيريا والكاميرون، واليونان ومقدونيا، فضلا عن حل نزاعات أهلية فى موزمبيق وأنجولا والسلفادور وهاييتى وكامبوديا، علاوة على كل أعمال الإغاثة الدولية غير المسبوقة فى حالات الصومال ورواندا وبوروندى وليبيريا وغيرها من الحالات.



كل ذلك تم رغم ان نسبة الزيادة الحقيقية فى ميزانية الأمم المتحدة كانت صفرا، وبعد خفض مكاتب الأمانة العامة من ٢٠ مكتبا إلى ١٢، وخفض عدد العاملين مع الأمين العام من ٤٨ إلى ٣٧ فردا، وبعد إلغاء ١٠٠٠ منصب من مناصب الأمم المتحدة مما جعل عدد العاملين فيها ينخفض بنحو ٢٠ ٪ عما كان عليه قبل عشر سنوات. وإذا عرفنا أن ذلك تم رغم تزايد أعمال الأمم المتحدة كما هو موضح، أما إذا أضيف لها أعمالها الأخرى فى المجال الاقتصادى والاجتماعى والتنمية ونشر الديموقراطية ومتابعة مخالفات حقوق الإنسان والحد من التسلح والمؤتمرات العالمية الكبرى للسكان والمرأة والحقوق الإجتماعية، وزيادة عدد أعضاء الأمم المتحدة عشرين دولة خلال السنوات الأخيرة، لأدركنا أن كفاءة الأمين العام الشخصية كانت العامل الحاسم فى خلق معادلة جديدة بين الموظفين والميزانية والأعمال لم يسبق أن وجدت فى الأمم المتحدة، وبظن كذلك فى معظم دول العالم.

لكل ذلك فإننا نشعر بالغضب، وهو مالم نشعر به قط عندما كان الهجوم لا يتوقف على د. بطرس غالى فى الصحافة المصرية والعربية رغم تعاطفنا الشديد معه وتفهمنا لمواقفه لأننا كنا إزاء مواقف سياسية من حق الجميع الإنتقاد فيها ومن حقه الرد عليها، وهو ما فعله عندما استجاب مشكورا لدعوتنا ودعوة «الأهرام» فى مطلع العام الحالى. أما عندما يكون النقد قادما من الولايات المتحدة ويتعلق بكفاءة أستاذنا الأمين العام، فإن غضبنا يكون بلا حدود !.

٥. الأستاذ... !

كنت جالسا فى مكتبى فى جامعة الاتحاد الأوروبى الواقعة فى ضاحية سان دومينجو خارج مدينة فلورنسا وسط منطقة توسكانى شاهقة الجمال بالخضرة الغنية والأشجار الباسقة، ومن بعيد كانت هناك قبة كاتدرائية سان جونز بشموخها الأخاذ

تأتى عبر النافذة حاملة أسرار عصر النهضة بما فيها من روائع مايكل انجلو، وفلسفة ميكيافيللى، وحماسة سافنونا رولا. ولما كان الوطن لا يغيب أبدا عن الذهن فقد قلبت أصابعى بين شبكات الإنترنت، وفيها وجدت صفحات «الأهرام ويكلى»، وإذا بى أجد ترجمة مقال الأستاذ حسنين هيكل عن البلقان والأزمة اليوجسلافية، واستغرقنى الأسلوب والموضوع حتى جاء من يطرق بابى ويقول إن الطلبة ينتظرون فى قاعة المحاضرات منذ فترة، ولا أظن أننى أنهيت محاضرة بمثل السرعة التى فعلتها حتى أعود مرة أخرى لكى استكمل قراءة المقال، متأملا، وحاسدا أيضاً!

وأذكر عندما دخلت «الأهرام» فى منتصف عام ١٩٧٥ للعمل فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، فقد كان السائد فى المؤسسة العريقة أنه عندما تذكر كلمة «الأستاذ» دون اسم فإن ذلك يعنى الأستاذ محمد حسنين هيكل وحده، رغم كثرة الأساتذة فى «الأهرام» من رواد الصحافة والسياسة والأدب والنقد. وظلت الحال على ذلك سنوات طويلة رغم ورود أجيال من منابع فكرية شتى، كان منها من أتفق معه، وكان منها من اختلف، ولكن ظل الجميع يتعارفون على أن «الأستاذ» الذى ترك «الأهرام» منذ وقت طويل لايزال على مكانته التى احتفظ بها من محبيه وكارهيه معا.

ولسوء الحظ لم يقدر لى مقابلة الأستاذ شخصيا إلا متأخرا للغاية، وكنت مثل كثيرين من أبناء جيلى ممن أدمنوا قراءة مقالاته «بصراحة»، وعندما حانت الفرصة لأول مرة كان الفشل حليفى، فبعد مظاهرات الطلاب فى فبراير ١٩٦٨، وكنت رئيساً لجمعية الفكر الاشتراكى(!) فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ذهبت إلى مبنى «الأهرام» فى شارع مظلوم لكى أدعوه لإلقاء محاضرة فى الكلية، ولكن سكرتيرته لم تعطنا الفرصة للقاء وذكرت أن «الأستاذ» على استعداد للقاء مجموعة من الطلاب فى مكتبه بدلا من المحاضرة، وعندما عدت لأستشير المرحوم الدكتور إبراهيم صقر، وكان رحمه الله أستاذا وصديقا وأبا لتلاميذه، قال لى إن جامعة القاهرة لا تذهب إلى أحد، وإنما يأتى إليها الجميع حتى ولو كان الأستاذ هيكل، وكان منطقا لا أستطيع مقاومته!

وبعد ذلك مرت السنوات، ولكن كتبه ومقالاته كانت دائما معى، فعندما بدأت العمل فى رسالتى للدكتوراة عن الإدارة الأمريكية لحرب أكتوبر، وكانت المصادر الأمريكية والغربية عموما والإسرائيلية غزيرة للغاية، ولذا كانت كتبه أهم مصادرى

القادمة من العالم العربى. وأذكر أن كتابا منها، أبو الهول والقوميسار، عن العلاقات المصرية - السوفيتية أعجبنى بشدة فعرضته على أستاذى توماس وايجل فإذا به يطلب منى كتب «الأستاذ» كلها، وبعدها قال لى هذا كاتب يمثل أرفع المستويات العالمية فى التحليل السياسى. ومن العجيب أن الرجل الجليل كان معجبا أيضاً لدرجة الهوس بالرئيس الراحل أنور السادات إلى الدرجة التى كان يقول فيها إن مشكلة القيادة الأمريكية فى الشرق الأوسط أنها لا ترقى إلى المستوى الاستراتيجى للرئيس المصرى، ولم أشأ بالطبع إخبار الرجل بمسافة الخلاف بين السادات وهيكل، ولكننى قدرت أنه ربما كان الفكر المصرى قادرا على إنتاج فكر عظيم حتى لو كان على طرفى نقيض.

وبعد ذلك كان اللقاء الأول فى حفل استقبال لمركز دراسات الوحدة العربية حين قدمنى إلى «الأستاذ» الصديق الدكتور مجدى حماد، وكان رقيقا للغاية فى تحيته، وبعدها حانت فرصة أكبر عقب زيارة إلى واشنطن حملنى فيها د. فوزى هيكل بعض الكتب وكان على توصيلها. ومن هنا كانت جلستنا الأولى، وأظننى كنت سخيفا للغاية فى أول لحظة حينما سألته فور المصافحة ما الوقت المحدد لى؟ ويبدو أن ذلك كان نوعا من الاستجابة الدفاعية تجاه ما تصورته من غطرسة بحكم التاريخ والمكانة، ولكن رده كان كريما بأكثر مما قدرت وتخيلت وبعدها تكررت مثل هذه الجلسات فى فترات متباعدة أحيانا ومتقاربة أحيانا أخرى، ودارت بيننا نقاشات وحوارات كانت دوما ممتعة، فلا أظن أن أحدا فى العالم العربى كله، بل كثيرين فى العالم كله، قرأ مثلما قرأ وزار مثلما زار، والتقى بشخصيات العالم الكبرى مثلما التقى.

وليس سرا أننا مختلفان فكريا فى كل شىء، ومن المنبع حتى المصب، ولكن الود الذى لا تفسده قضية كان دوما مجسدا، وكان هو يعبر عن أفضل تقاليد الممارسة الليبرالية فى تقديره لآراء الآخرين والاستماع والإنصات لهم. وفى مرة وصل الخلاف إلى قرب لحظة التصادم دون وعى منى بسبب حرب الخليج، فقد كانت جريدة الراية القطرية قد قررت نشر فصول كتابه عن الحرب. وللموازنة، ودفعا للنقد من الدول الخليجية الأخرى، طلبت منى التعليق على الكتاب الذى طال حتى صار عشر مقالات اجتهدت فيها قدر ما استطعت فى نقد كاتب عملاق، ولكننى بعد بدء

النشر فوجدت، بأن هناك ما يشبه حملة منظمة للهجوم على الأستاذ، وظهر كما لو كنت جزءا منها دون قصد أو نية، فما كان منى إلا إرسال كل المقالات له مع اعتذار لدقائق على ما كان من شطط حتمته سخونة الخلاف والفجوة بين الرؤى وبعدها استمر الحوار على فترات متباعدة، ولكنه فى كل مرة كان يبدو لى كأننا افترقنا بالأمس.

ولكن أفضل ما كان فى هذه العلاقة بعد الحوار الخلاق والممتع دائما هو تلك الهيبة الإنسانية التى تلتصق بالأساتذة وحدهم فى تقدير جهد الآخرين، فلم يترك مطبوعة من مطبوعات مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية إلا وكان سباقا بالتهنئة خاصة فى حالتى تقرير الحالة الدينية والتقرير الاستراتيجى العربى اللذين فازا بعد ذلك بجوائز معرض القاهرة الدولى للكتاب. وعندما اشتدت الحملة على بسبب مشاركتى فى التحالف الدولى من أجل السلام العربى ـ الإسرائيلى، فإنه مع اختلافه الشديد، كان مقدرا للاجتهاد المخالف ليس فقط فى السر، كما فعل كثيرون، وإنما فى العلن. وفى وسط هذه المآثر فقد كانت تنتابنى حيرة شديدة ممن يدعون السير على طريقة الأستاذ، كيف لم يتعلموا هذه الصفات فى الحوار والأخلاق أيضاً؟! ولكن ربما كان أهم ما لم يتعلموه هو القدرة الهائلة على التجديد الصحفى والكتابة السياسية التى اتصف بها «الأستاذ» وفى ظنى أن مقالاته الأخيرة فى «وجهات نظر» عن البلقان والملك حسين والقذافى وكلينتون ، والتى يمزج فيها المقابلة بالتاريخ بالعلم والأدب فى أسلوب أخاذ ومتوهج، هو درس آخر فى أعلى مراتب الكتابة الصحفية عالية القيمة والمعرفة والخيال.

٦ـ نزار قبانى.. وأحمد زويل...!

ليس صحيحا ما يقال إن للسفر سبع فوائد، فقد اكتشفت فائدة ثامنة وهى أنه بعد العودة تستطيع النظر فى المجلات والصحف مجمعة لأسابيع فى فترة واحدة، ومن

ثم تستطيع تعرف الموضوعات ذات الأولوية لدى النخبة، وربما يسعدك الحظ فتضع يدك على نبض الجماهير !. وعند عودتى من سفرة طويلة نسبيا إلى الولايات المتحدة وجدت الصحافة المصرية والعربية قد ذرفت الكثير من الدموع لوفاة الشاعر العربى الأشهر فى عصرنا نزار قبانى، وكذلك أشعلت الكثير من الشموع والمصابيح تحية لحصول العالم المصرى أحمد زويل على جائزة فرانكلين رفيعة المقام فى الولايات المتحدة. وبين الدموع والشموع بدت الصلة منقطعة، وبين البكاء والتعازى فى جانب، والاحتفالات والتهليل فى جانب آخر كانت العلاقة منبتة، وعكس ذلك قدرة كبيرة على فصل القضايا المرتبطة ربما تعجز أمم كثيرة غيرنا عن الوصول إليها.

الإنقطاع الظاهر بين هذا وذاك يعود أصوله إلى أن أولهما شاعر همه الأول الإنسان ومشاعره وأحاسيسه المتقلبة والمتغيرة والملتهبة أحيانا والباردة أحيانا أخرى، وثانيهما عالم شاغله الطبيعة والتحكم فيها وتعرف قوانينها وسرعات الحركة فيها إلى أقل لحظة زمنية يمكن للعلم التوصل لها. وهكذا بدت العلاقة بين الرجلين بعيدة بعد السماء السابعة، ولكن المهنة ليست القضية، وإنما الرسالة والمحتوى هما مربط الفرس، فمن يعرف شعر نزار قبانى فسوف يجد جوهرها النقد الشديد والحاد للتخلف العربى، فعلى حد قوله لبسنا (أى العرب أجمعين) قشرة الحضارة وروحا جاهلية، وحتى عندما أطال فى قضية المرأة وجسدها من قمة الرأس إلى إخمص القدم، فلأنها كانت البؤرة التى عندها تنعكس كل هموم عرب ما قبل الحضارة والقبلية والبدوية، والتى عندها أيضا يقف العرب مرتعدين من جموحات الرغبة وكوابيس العقم. وعندما أعلن قرب نهاية حياته وفاة العرب، فإن ذلك لم يكن فقط لأنهم فقدوا النخوة فى التعامل مع حال الهزيمة، وإنما أيضا لأنهم لم تكن لديهم الشجاعة لتعرف العصر. وكانت هذه إجابة نزار دوما أن نكون جزءا من العصر قلبا وروحا، جوهرا ومخبرا، فقد حثنا دوما على أن نقرأ كتابا ونكتب كتابا ونزور بلاد الثلج والضباب، ورافقها دوما بالدعوة إلى ترك لغتنا القديمة وكتبنا القديمة وكلامنا المثقوب كالأحذية القديمة!.

وهذا بالتحديد ما فعله أحمد زويل، فقد قرأ كتابا وكتب كتابا وزار بلاد الثلج والضباب وبات واحدا من أبرز علمائها وعقلياتها المخترعة المكتشفة والملهمة، بعد أن تبين له أن بلاد اللغة القديمة والكتب القديمة والكلام المثقوب كالأحذية القديمة لا تستطيع أن تمده بالقاعدة التكنولوجية، والأهم استيعاب جوهر الحضارة وليس قشرتها التى لن تمده بما يتناسب مع نفسيته الوثابة المبدعة. لم تكن قضية أحمد زويل فقط فقر معاملنا وجامعاتنا، ولكن مشكلته كانت مع العقليات. ومع المناخ الذى يرى فى العلم بدعة بقدر ما يرى المرأة عورة، ويرى القديم مقدسا ذا صيرورة مدهشة بقدر ما يرى الحديث عابرا ليس فيه إلا هيمنة غربية سوف تزول بإغماض العين عنها أو وضع الرأس كله فى الرمال. هناك فى الولايات المتحدة لم يجد حاجزا أمامه بسبب صغر السن، وهو الحاجز الذى يقف كالطود المنيع فى أمة العرب حتى إنها تعتبر كل من هو دون الستين عاما فى طور الشباب، وهى صفة غالبا ما تعنى قلة العقل وخفة الروح. ولم يجد حاجزا أمامه بسبب الدين أو العرق أو الجنسية فكانت كل الطرق مفتوحة، وملايين الدولارات متاحة، مادام كان قادرا على العطاء والاكتشاف ولا شيء بعد ذلك، لم يسأله أحد عما إذا كان من الأشراف و العوام، أو عما إذا كان عربيا أو أعجميا، أو غربيا أو شرقيا، أو من أهل الثقة أو أهل الخبرة ؟!.

وهكذا فإن أحمد زويل كان التجسيد الذى يريده نزار قبانى للمجتمع العربى والإنسان العربى اللذين فى تفاعلهما ينتجان التقدم والحضارة لفائدة الأمة والإنسانية جمعاء، كما كان التجسيد لواقع العرب الذى يجعل فخر الأمة واحدا من مطاريدها الكثر فى الحضارة الغربية. ولكن الأمة لا تستطيع ترك العالم لحاله، فمع براعتها الشديدة فى الهجاء، فإنها لا تقل براعة فى فن الفخر، ومادام الرجل فعلها وحاز إعجاب العالم، فلماذا لا نأخذ كل ذلك جاهزا وننسبه لأنفسنا باعتبار أن له صفات بيولوجية نادرة ترتبط بنا منحته النبوغ والعبقرية. أما المجتمع الذى أتاح له الفرصة والتقدير فسوف نلعنه صباح مساء لانحلاله وفسقه ومجونه. وحتى عندما جاء أحمد زويل ومعه مجموعة من العلماء لإقامة جامعة مصرية تربط بينهم وبين الوطن وتتيح العلم المتقدم لبلادنا رفض طلبه، فحسبنا فقط قشرة الفخر به، أما الجوهر فتلك

قضية أخرى لا نريدها حتى لا تعكر مزاجنا وتقض مضاجعنا. ألم يكن ذلك ما قاله نزار قبانى منذ وقت طويل !!.

٧ـ قصة الدكتور أحمد زويل... !

ليس صحيحا ما هو شائع أن فى السفر سبع فوائد فقط، فقد اكتشفت فائدة ثامنة هى أنه بعد العودة من الترحال، فإن المرء يصبح بوسعه مطالعة أخبار الوطن بصورة مختلفة حينما ينظر فى الصحف مجمعة عبر فترة طويلة نسبيا. وبعد عودتى من رحلة بعثة الأهرام الصحفية إلى آسيا التى استمرت ثلاثة أسابيع، وجدت الدنيا قد انقلبت تماما فيما يتعلق بالدكتور أحمد زويل العالم المصرى بجامعة كالتيك بكالفورنيا. فقد كان حاله عندما تركت القاهرة ملء السمع والبصر ومحل الإعجاب والتقدير من المجتمع المصرى بأكمله، ولكن ذلك وجدته تغير تماما فى الصحف التى طالعتها حيث وجدت من شكك فى جدارته العلمية، ومن لامه لأنه أخذ الضوء من علماء أفاضل بقوا فى مصر ولم يغادروها مثله، ومن لامه أكثر من ذلك لأن هناك فى الغرب وفى أمريكا خاصة من هو أحق منه بالشهرة والاعتراف بإنجازاته العلمية الباهرة.

ولكن هناك تهمة كانت أكثر ما استفزنى شخصيا وهى أن «زفة» أو «مولد» الشيخ زويل، كما ذكر أكثر من واحد من كتابنا المرموقين، كانت من صنعه ومن كفاءته فى إدارة العلاقات العامة وسعيه وراء الصحفيين ورجال الإعلام حتى يقع فى دائرة الضوء التى يعشقها ويتلذذ بها. ولما كان كاتم الشهادة آثم قلبه، ولما كنت كذلك واحدا من الذين قدموا الدكتور زويل من خلال برنامج تليفزيونى عملت بقدر الجهد والطاقة على ألا يكون جزءا من زفة إعلامية لا أظن أن أحدا أرادها، وإنما نقاش جاد حول أنسب السياسات التكنولوجية لمصر، بذل الرجل فيه كل ما لديه من الطاقة لكى يعطى خلاصة تجربته كما يعيشها ويراها، فإننى أشهد أنه لا يوجد ما هو أبعد عن الحقيقة من هذا الاتهام.

فحتى وقت قريب لم أكن قد التقيت الدكتور زويل إلا فى لقاءات خاطفة كانت واحدة منها فى ندوة عقدها مركز الأهرام الإقليمى للصحافة تحدث فيها، والأخرى جاءت فى مكتب الصديق أسامة الغزالى حرب فى مجلة السياسة الدولية، وفى المرتين لم يكن ما يوحى به إلا التواضع الجم مع مسحة خجل واضحة. وبعد فوزه بجائزة بنيامين فرانكلين العلمية أصبحت أترقب وصوله للقاهرة لدعوته للحديث حول موضوع بات على رأس أولويات مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، وهو السياسات التكنولوجية التى نعتقد أنها سوف تحدد إلى حد كبير مستقبل مصر. ولذا ما إن علمت بوصوله إلى القاهرة حتى تركت له رسالة فى الفندق الذى يقيم فيه، واستعنت بجهود الأستاذ لطفى الخولى، والدكتور أسامة الغزالى حرب الذى استعان بدوره بجهود السيدة آمال فهمى لكى يتم تحديد الموعد الذى تم فى النهاية بعد إلحاح منى، رغم تفهمى الكامل لقيود الوقت الشديدة التى كانت ملقاة على عاتق عالمنا.

وكان علىّ أن أذهب لاصطحابه فى ظهر يوم تسجيل البرنامج التليفزيونى من واحدة من القاعات الكبرى فى أحد فنادق القاهرة، حيث كان يلقى محاضرة عن اكتشافاته العلمية فى جمع من إحدى الجماعات العلمية فى مصر، وحين وصولى إلى القاعة هالنى ما رأيت فلم يكن فيها جمع من العلماء المتخصصين فقط وإنما جموع هائلة من الشباب الذين جاءوا من كل حدب وصوب لكى يستمعوا إليه حتى لو اقتضى الأمر الوقوف أو افتراش الأرض، وبعد أن انتهى تكالبوا عليه بالأسئلة التى فيها شغف بالعلم ومستقبل البلاد، وباختصار كانت نوعية أخرى من الشباب غير تلك التى لاينفك الكثيرون عن اتهامها بعدم الانتماء بعد مقارنتها بأجيال سابقة يدعى أنها وحدها احتكرت هذه الحقيقة. ولكن المشكلة الأكبر بعد نجاحه الخجول فى الاعتذار لعدد كبير بسبب موعده معى كانت فى الجمع الهائل من الصحفيين وشبكات التليفزيون والإذاعة المحلية والعربية التى أراد كل منها أن يأخذ بعضا من وقته.

وعلى أى الأحوال نجحت فى النهاية فى الوصول إلى مبنى التليفزيون وتسجيل البرنامج، ولكن ما إن خرجنا حتى وجدت نفسى فى وضع بالغ الحرج، فقد كان

الرجل بأدب جم قد قص علىّ جدوله الممتلئ حتى الحافة خلال اليومين الباقيين له فى مصر، وحاجته الماسة لقضاء بعض الوقت مع عائلته، ولكنى وجدت فى الانتظار الزميلة نهال سعد من محطة النيل الدولية ترغب فى بضع دقائق من وقته لبرنامجها، وبعد ذلك دخلت المذيعة اللامعة نجوى إبراهيم بابتسامتها العذبة الشهيرة ووضعت على عاتقه واجب ضرورة التحدث لأطفال مصر، وكان هناك أحد الزملاء الذى لم أشرف بالتعرف عليه يطلب مشاركته فى برنامج حق الجماهير.

ولا أدرى شخصيا ما الذى تم بعد ذلك، ولكنى قصدت أن أقص القصة بحذافيرها لكى أبين أن الدكتور زويل فى كل ذلك لم يكن ساعيا ولو مرة واحدة لعقد لقاء تليفزيونى أو صحفى، بل إن ما تم وفى حدود علمى وما شاهدته شخصيا تم بعد إلحاح كبير. وإذا كانت هناك ظاهرة تستوجب البحث فليست، بالتأكيد ولع عالمنا بالإعلام وإنما ولع الإعلام به والذى أرى أنه كان فى مكانه تماما لأنه كان من جانب اهتماما بالعلم والعلماء طالما جرى الحث عليه والمطالبة به، ومن جانب آخر كان اهتماما بشخصية مصرية نبتت بيننا وتركت بصمة فى الإنجازات العلمية العالمية فى ظل بيئة كان من الضرورى تعرفها إذا كنا بحق نريد للعلم والتكنولوجيا أن يكون لها مكان بيننا، ومن جانب ثالث فإن الإهتمام الإعلامى كان استجابة لنبض شعبى تجأوب مع شخص د. زويل وما يمثله من قيمة تدعو للفخر به والرجاء أن يكون مقدمة للاهتمام بمن هم مثله فى الداخل والخارج.

فما الذى يدعو إذن إلى نوبة الهجوم هذه، والادعاء على الرجل بما ليس فيه ومالم يقله قط ولم يسع إليه، فعلى كثرة ما أدلى من أحاديث وكلها مسجلة ومطبوعة لم ينكر فضل علماء مصريين فى الداخل والخارج، ولا ادعى مرة واحدة أن اكتشافاته وحدها هى أهم الاكتشافات، بل إذا كانت هناك قيم أراد أن يرسيها فقد كانت قيمة التراكم العلمى، وقيمة العمل ضمن منظومة علمية متكاملة يكون فيها للفريق وليس للشخص القيمة العظمى. فهل يضن البعض منا علينا بالاهتمام والاحتفاء بهذا الرجل لأن نجمه حجب نجوما أخرى لوقت قصير، أم أن البعض الآخر لا يعجبه أن يأتى لنا بطل مصرى علمى من كاليفورنيا بينما هم يرغبونه قادما من بيشأور، أم أن هناك جمعا منا يريد دنيانا كالحة مأزومة لا ينبت فيها لا زهرة ولا عالم؟!.

٨. لطفى الخولى المفكر والإنسان...!

هناك نوع من البشر تندم كثيرا لأنك لم تعرفه إنسانيا لفترة طويلة من حياتك، وأن المعرفة والقرب منه جاءت متأخرة للغاية، وإلى هذا النوع كان ينتمى لطفى الخولى الذى توثقت علاقتى الشخصية به فقط خلال الأعوام القليلة الماضية، ولم يكن ذلك لأننى لم أعرفه من قبل، فقد شب جيلنا كله على تجربته الرائدة فى مجلة الطليعة ، وعلى مقالاته فى الأهرام، لكن العلاقة الفكرية كانت أمرا والعلاقة الإنسانية كانت شيئا مختلفا تماما. وفى منتصف السبعينيات، عندما دخلنا مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى الدور السادس من مبنى الأهرام كنا قريبين منه فكريا وأيديولوجيا وحتى جغرافيا بحكم الوجود فى دور واحد، ولكن المسافة كانت بعيدة عنه بحكم الانتماء إلى أجيال مختلفة، وبحكم المهابة إزاء كاتب عملاق فى وقت كان الذين نهابهم كثرا فى المؤسسة العريقة من أمثال الأساتذة توفيق الحكيم ولويس عوض ونجيب محفوظ وأحمد بهاء الدين ويوسف إدريس.

واستمر الحال كذلك خلال الثمانينيات، حيث كانت هناك علاقة غير مرئية أساسها المتابعة الفكرية والسياسية والاختلاف فى لحظات كثيرة حول الموقف من اتفاقيات كامب دافيد ومعاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية، ولكن فى كل الأحوال كان هناك الاحترام والإعجاب بشخصية لم تكن تسعى بدأب لمعرفة الحقيقة فقط، ولكن أيضا للدفاع عنها بصلابة شديدة بالكتابة أو العمل السياسى من خلال حزب التجمع. خلال هذه الفترة لم يكن له هم سوى الدفاع عن القضية الفلسطينية، سواء كان ذلك من منفاه المؤقت فى باريس، أو من القاهرة عندما عاد إليها، وهو دفاع استمر معه حتى لحظات حياته الأخيرة، ولكن دفاعه لم يكن من ذلك النوع الأعمى الذى أورد القضية موارد التهلكة فى لحظات كثيرة من تاريخنا كما فعل كثيرون، وإنما كان دفاعا واعيا مستوعبا للحدود والضرورات، وللتغيرات التى تجرى فى عالمنا.

فلم يكن لطفى الخولى من هؤلاء الذين يعتبرون الجمود فخرا، بل كان لديه دوما قلق المفكر الماركسى الذى يبحث بلا هوادة عن الجدل فى الواقع الاقتصادى

والاجتماعى، ليس فقط على مستوى الوطن، وإنما أيضا على مستوى العالم، كما كان لديه دوما حساسية الأديب والفنان الذى يبحث عن القلب الإنسانى فى ذلك كله. وعندما جاءت التسعينيات كان من أكثر مفكرى مصر وعمالقتها حساسية لما جرى فى العالم وفى الإقليم. وكان ذلك هو الوقت الذى اقتربت منه، واختلطت فيه العلاقة بيننا فكريا وسياسيا وإنسانيا كذلك. وتكثف كل ذلك بشدة مع مشاركتنا فى حركة السلام المصرية. وربما يظن البعض أن عمله فى السنوات الأخيرة اقتصر على السعى الذى لا يكل من أجل سلام عادل ودائم فى المنطقة يعيد الحقوق العربية ويفتح أمام الأمة أبواب المستقبل فى عالم لايرحم المتخلفين والمتقاعسين، وإنما من موقع القرب منه وجدته يسعى فى كل الاتجاهات التى تعلى شأن البلاد، وفى أكثر الأوقات ازدحاما بالهجمات السياسية التى لاترحم، كان يضع طاقاته الجبارة من أجل إنشاء بنك للفقراء، ويعطى الرأى والمشورة لرجال الأعمال لإقامة مساكن لمحدودى الدخل، وينقب عن المواهب بين الشباب ويدفعها إلى مقدمة الساحة الفكرية والأدبية، وعندما حدثت كارثة الأقصر الإرهابية كان فى المقدمة بالمشورة والفعل للعمل من أجل تقليل آثارها على السياحة المصرية.

فى كل ذلك كان قلبا كبيرا رغم إصابته بثلاث أزمات قلبية تتابعت عليه من كثرة العمل والتفانى، وعندما كان يجلس فى جمع كبير أو صغير، فإن المرء لايملك تجاهل ذلك الثقل الفكرى والمعنوى الذى يجعله صامتا أو متكلما مركزا للمكان، وسواء كان المكان فى القاهرة أو فى واشنطن أو تل أبيب أو أى عاصمة عربية أخرى. ولكن القلب الكبير لم يكن قط قلبا خفيفا بل كان قلبا مقاتلا وعنيدا فيما يظنه حقا، ولا أعتقد أن سياسيا أو مفكرا مصريا تعرض لما تعرض له لطفى الخولى فى السنوات الأخيرة من هجمات لم تترك وسيلة غير أخلاقية إلا واستخدمتها. وأشهد أنه لم يهتز لحظة واحدة إزاءها، بل اندفع للكتابة والمناظرة فى كل الساحات الإعلامية بلا وجل أو خوف، وفى الندوات المفتوحة والمغلقة، ولم يترك نافذة واحدة لكى يصب منها آراءه وأفكاره إلا واستغلها غير عابئ بأساليب الخصوم الذين ترك لهم أدواتهم التى يجيدونها، أما هو فقد كان يستخدم أهم ما برع فيه.... الحجة والمنطق والولاء للمصالح العليا للوطن والأمة.

وفعل ذلك كله لطفى الخولى بنبل الفرسان، ولعلنى أذكر أنه خلال المعارك الشرسة التى خاضها من أجل السلام، والتى وصلت فى بعض الأحيان إلى حد محاولة الاستئصال من الحياة العامة، أن حمل له البعض طوعا وثائق تتعلق بأشخاص المهاجمين له بلاهوادة، ولكن رأيه كان قاطعا بأنه ليس فى معركة شخصية، وإنما فى معركة سياسية وفكرية ويجب أن تبقى كذلك، لأنها ليست معركة بين أشخاص، وإنما هى حوار حول مستقبل مصر والأمة العربية التى ضاع منها الكثير ولم تعد تحتمل إضاعة وقت آخر فى المهاترات.

ومن المؤكد أن كثيرين سوف يفتقدون لطفى الخولى: أنصار السلام العادل والدائم الذى لم يترك ساحة إلا واستغلها لكى يدافع عن حق الأجيال القادمة فى التقدم والتنمية، والفلسطينيون الذين بذل من أجلهم كل نبض فى فكره وقلبه من أجل حصولهم على حقوقهم المشروعة، وطوائف كثيرة من المبدعين الذين نقب عنهم ودفعهم إلا مقدمة الساحة حتى الذين جاء منهم من يهاجمه، والوطن والأمة التى حفر فيها تيارات فكرية طوال نصف قرن. ولكن بالنسبة لى فإن الفقدان سوف يكون فوق كل ذلك فقدانا لصديق حميم، تأخرت الظروف كثيرا فى اقترابى منه والتعرف إليه، ولكن السنوات القليلة الماضية حملت معها وشائج نادرة فى العلاقة بين أجيال مختلفة. ويالطفى الخولى إن فقدانك لعظيم، و.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

٩ـ فى ذكرى لطفى الخولى: الشجعان والجبناء...!!

قدر لى أن أزور العاصمة اللبنانية بيروت مرتين تفصلهما تسعة أيام فقط، الأولى فى مصاحبة بعثة «الأهرام» بقيادة الأستاذ/ إبراهيم نافع والتى طالع القارئ نتائجها خلال الفترة الماضية، والثانية كانت لحضور ندوة نظمها مركز الدراسات اللبنانية عن مستقبل لبنان بعد التسوية! وقبل الزيارة الأولى كان القصف الإسرائيلى الجبان للأهداف المدنية الإسرائيلية. وما بين هذه الزيارة وتلك حدثت الزيارة

الشجاعة للرئيس حسنى مبارك للبنان، وبعد الزيارة الثانية مباشرة كان علّى أن أجرى من المطار إلى الأهرام لحضور الذكرى السنوية الأولى بعد وفاة المفكر الشجاع لطفى الخولى. وبشكل ما بدا أن الزيارتين، وما بينهما، وما قبلهما وما بعدهما، تطرح بشكل دقيق قصة التفاعلات التى تمر بها منطقتنا وفى القلب منها موضوع الصراع العربى. الإسرائيلى الذى يبدو أنه يمر بمنعطف ربما سوف يتحدد عنده مستقبل السلام والحرب فى الشرق الأوسط.

عند هذا المنعطف تحديدا تجمعت قوى شجاعة تقأوم العدوان والاحتلال من جانب للسلام بين العرب والإسرائيليين. والقوى الأولى تمثلت فى المقأومة اللبنانية التى استهدفت قوات الاحتلال وعملاءه فى الشريط اللبنانى المحتل لكى يعلم أن أساليب المرأوغة والمنأورة لا تجدى كثيرا، وأن الشعوب لديها دوما من القوة المعنوية ما يجعلها تتخطى كل توازنات القوى المختلة تقليديا ونوويا، كما فعلت كل شعوب العالم طوال التاريخ لمقأومة الغزاة والمستعمرين. وضمن هذا الإطار فإن المقأومة اللبنانية لم تستهل فى مقأومتها باستهداف المدنيين، بل إنها ضمن احترامها للقواعد المقررة فيما هو معروف بتفاهم نيسان عملت على أن تكون عملياتها موجهة لأهداف عسكرية انطلقت من ونفذت فى الشريط الحدودى المحتل، ولم يكن فى ذلك لبس ولاشك. وإذا كانت المقأومة المسلحة موجودة على جانب فإن غصن الزيتون كان موجودا على الجانب الآخر متمثلا فى العرض السورى القاطع بأن الانسحاب الإسرائيلى حتى حدود الرابع من يونيو على جبهة الجولان سوف يكفل السلام بين سوريا ولبنان من جانب وإسرائيل من جانب آخر.

ولعل ذلك كان معنى زيارة الرئيس مبارك للبنان فقد عبر بصراحة عن تأييده للمقأومة اللبنانية باعتبارها حقا مشروعا لكل الشعوب فى الدفاع عن أراضيها والعمل على تحريرها بكل الوسائل، ولكنه من جانب آخر كان واضحا كل الوضوح فى أن مصر سوف لن تألو جهدا، أو تدخر وسعا، فى العمل من أجل السلام والتسوية مع إسرائيل، ومن ثم فإنه لم يستجب لمن طالبوه فى لبنان ثم بعد ذلك فى مصر بقطع العلاقات الدبلوماسية وسحب السفير المصرى فى تل أبيب لأن من يعمل من أجل المصالحة يصل ولا يقطع، يتصل ولا يفصل، فلعله يوجد فى الجانب الآخر من لديه الشجاعة، أو ستواتيه الشجاعة يوما لكى يقبل بسلام عادل ومتكافئ يعطى المنطقة

مستقبلا أفضل من ماضيها الذى عرفته طوال نصف القرن الماضى. والرسالة التى لا تقل أهمية فى خطوة مبارك الشجاعة لم تكن مقصورة على تقديم الدعم المعنوى لدولة عربية فى ساعة المحنة، وإنما توضيح الجانب الحضارى لعمل مصر من أجل السلام، فبينما كانت قوى الحرب الجبانة تهاجم المدنيين وتحطم البنى الأساسية التى بنتها بالعرق والدموع، كانت مصر تتقدم لبنائها من جديد.

ومنذ عام مضى جاءت روح لطفى الخولى مطلة بجلالها وعنفوانها على هذا المنعطف التاريخى، وهو الرجل الذى حمل عبء المقاومة والمساندة للقضية الفلسطينية طوال حياته، كما أنه كان ذات الرجل الذى حمل رسالة السلام لكى يتحرر الفلسطينيون والإسرائيليون معا. وبقدر ما كان شجاعا فى مواجهة منتقديه فى الداخل، فإن شجاعته الكبرى كانت فى مواجهة إسرائيل وفى قلبها، فقد كان يقدم تصالحا تاريخيا ينهى الصراع الذى طال وثقلت أعباؤه من جانب، ويقدم أسسه العادلة التى تقوم على الانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى العربية المحتلة من جانب آخر. وقد كان السيد فيصل الحسينى مصيبا تماما عندما بدأ حديثه فى ذكرى لطفى الخولى بتحية الرئيس مبارك لزيارته للبنان ثم بعد ذلك بتحيته للطفى الخولى الذى التقاه فى مظاهرة مشتركة عند جبل أبو غنيم، فقد كان كلا التحركين يصب فى اتجاه واحد شجاع يقوم على التحرير والسلام. وعندما سأله الأستاذ صلاح عيسى عن «التطبيع» قفز إلى لب الموضوع وليس ظواهره، قلبه وليس أطرافه، فالقضية كانت أن العمل الذى قام به لطفى الخولى يقاس بما يقدمه لهوية الشعب الفلسطينى داخل إسرائيل وخارجها، وبما يقدمه لتحريرها، وبما يقدمه للتسوية العادلة التى نعمل من أجلها، وقد كان المناضل الشجاع فى صف ذلك كله.

القوى الثانية تمثلت فى القيادة الإسرائيلية ومن شايعها فى الداخل الإسرائيلى وعلى الصعيد الدولى، فقد أتيحت لها فرصة تاريخية لتحقيق السلام الشامل مع العرب من خلال عملية سلام استمرت طوال مايقرب من عقد كامل، وكان آخر فصولها عودة سوريا إلى المفاوضات التى كانت إسرائيل قد قطعتها فى فبراير عام ١٩٩٦، ولم يكن لدى دمشق أية مشكلة فى إقامة سلام مع إسرائيل يقوم على الاحترام والأمن المتبادل، وتقاوم فيه العلاقات العادية التى تقام بين الدول تماما كما حدث مع مصر منذ عقدين تقريبا، ولكن مشكلتها، عن حق، كانت أن يتم ذلك فى

إطار من الانسحاب الإسرائيلى إلى حدود الرابع من يونيو، فلايجوز طبقا للقرارات الدولية ضم الأراضى بالقوة. ولكن قيادة باراك فى إسرائيل لم تكن لديها الشجاعة لكى تمسك بالفرصة التاريخية، بل وتملكها الكثير من الجبن أمام القوى المتعصبة والتوسعية الإسرائيلية، بل إنه فى ذات الوقت أغفل قوى السلام العربية والإيهودية التى حملته إلى رئاسة الوزراء. وأكثر من ذلك فإنه قام بما قام به كل الجبناء فى التاريخ باستهداف المدنيين العزل، والبنية الأساسية للدولة اللبنانية الصغيرة، لكى يحفر مسارات للكراهية والعنف والانتقام، لن تكون آثارها مقتصرة على العرب، بل إنها سوف تمتد إلى الإسرائيليين أيضًا، طال الوقت أو قصر. وكأن كل ذلك لم يكن كافيا فإن السيد دافيد ليفى وزير الخارجية الإسرائيلى سكب كمية هائلة من الزيت على النار عندما هدد أكثر من مرة بحرق لبنان، وهى تعبيرات جاءت من جوف التاريخ الذى طالما سعت إسرائيل إلى مناوأته، وتدخل قاموس التفاعلات بين الدول فى المنطقة لغة وثقافة للحرب.

هذه المواجهة خلال الفترة القصيرة الماضية بين قوى الشجاعة والنبل والتحرير للإنسان والأرض من جانب، وقوى الجبن والعدوان والاحتلال من جانب آخر، تلخص المنعطف الذى نعيشه فى الشرق الأوسط، وقد تسفر المواجهة عن يقظة أن نافذة الفرصة المتاحة تضيق بسرعة مخيفة ومن ثم يكتسب الجبناء الشجاعة اللازمة لقبول السلام العادل الذى يتيح قيام الدولة الفلسطينية فى كامل الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية وغزة، والجلاء عن الأرض اللبنانية والسورية المحتلة، كما يتيح بالقدر نفسه لإسرائيل وشعبها العيش فى سلام ووئام مع جيرانها، يبنون منطقة خالية من الخوف، وذاخرة بالأمن، ومزدهرة بالبناء. أما إذا لم تحدث اليقظة وظل الخوف من السلام سائدا، والاعتقاد فى غطرسة القوة شائعا، فمعنى ذلك أن أمامنا قرنا آخر نعيش فيه ما عشناه فى قرن مضى منذ قليل، وكانت نتائجه فادحة على الجميع.

ولو كان لطفى الخولى معنا اليوم لكان هذا قوله، وكما عرفته فإنه كان سيستمر فى دعوته من أجل السلام، وسيذهب إلى إسرائيل يوقظ الضمير الإنسانى ويمد يده للمناضلين من أجل حرية الإنسان، كما كان سيذهب إلى الفلسطينيين يشد الأزر

ويطلب الاستمرار فى التمسك بالحق لايفرق فى ذلك كما فعل دائما بين ياسر عرفات وأحمد ياسين، ولكنه كان سيضيف عملا آخر يجهد به قلبه المجهد، وهو الذهاب إلى لبنان وإلى الجنوب تحديدا ليقف مع المقاومة فى معاقلها يقدم ما يقدر عليه من عون الكلمة والموقف بالإضافة إلى العون المادى الذى يستطيع حشده. كان هذا ما سيفعله لطفى الخولى وليس ما اعتاد فعله آخرون من بيانات الاستنكار والشجب الزاعقة التى بعدها ينفض السامر وتتطهر النفوس بعد أن قامت بما تعتقد أنه أقصى واجباتها، ويا أيها الرجل العظيم الشجاع كم نفتقدك كثيرا!.

١٠- نوال المحلاوى...!

فى كل المؤسسات المصرية العملاقة توجد شخصيات بعينها تجسد روحها، وعلى عاتقها تقع مسئولية الارتقاء بها، والذود عن مثلها العليا حتى ولو لم تكن ممن يتصدرون الصفوف فى الاحتفالات الرسمية، وفى العادة فإن هؤلاء يقدسون العمل فى صمت إلى حد العبادة، ويحتفون بالإجادة والمهنية، ويعشقون الجديد، وعندما يذهبون عنا، تبقى أعمالهم شاهدة، ومؤسساتهم علامة على جهد لاينضب. ومن هؤلاء فى مؤسسة الأهرام كانت نوال المحلاوى مديرة مركز الأهرام للترجمة العلمية والنشر الذى أسسته وارتفعت به، وأرست تقاليده، وتركته واحدا من أهم علاماتها المضيئة. وما أظن أن مؤسسة أخرى للنشر فى مصر كانت تأخذ بمعايير التحكيم الصارمة للكتب العلمية قدر ما كانت تفعل سيدتنا الجليلة فى مركزها المرموق، ولم تكن تكتفى بالتقرير المكتوب بل كانت تعقبه بمناقشة مع المحكم تدهشه فيها بسعة الاطلاع فى دروب تخصصه، أو هكذا أحسست شخصيا حينما كلفتنى بتحكيم أكثر من كتاب وصلاحيته للترجمة.

ولكن نوال المحلاوى لم تكن فقط محترفة ومهنية على أرقى المستويات فى المؤسسات الصحفية، وإنما كانت قلبا كبيرا ونبيلا فى آن واحد، وأشهد أنها كانت

قادرة على الفصل بصفاء نادر بين معايير المهنة والعمل، والعلاقات مع الأصدقاء والزمـلاء، وفى الأولى كـانت تحـصل على الاحـتـرام، وفى الثـانيـة على حب غـيـر محدود، وفى الحالتين فإنها كانت تفعل ذلك فى إيجاز غير معهود فى بيئتنا الثقافية، حيث كانت جلساتها ومكالماتها قصيرة وكثيفة فى المعلومات وتحديد ما هو مطلوب بدقة، كما كانت رسالتها بالتقدير أو بالتشجيع على قصرها مشحونة بترددات وإشعاعات قلب كبير لا تدرى ما إذا كان موجها لك شخصيا أو أنه يشمل الوطن كله. لقد كـانت العظيمة الراحلة محملة بفهم عميق لكل ما يخص بلادنا، وفى أحيان كثيرة كانت كمن كان يحمل من الأسرار والمعرفة ما تنوء بحمله الجبال، وفى أكثر من مرة حاولت انتزاع بعض منها، ولكنها لم تكن من هؤلاء الذين يقعون بسهولة فى حيل الباحثين، حتى انتهى أمرى بسؤالها متى تكتب مذكراتها عن فصل من أهم فصول التاريخ المصرى؟ فكانت إجابتها قاطعة كحد الموسى أنها لن تفعل، ومع إلحاحى كانت الإجابة ربما فى يوم من الأيام.

ولكن القدر لم يسعفها ، ولم يأت إليوم من الأيام، ولا أدرى لماذا عندما مسها المرض اللعين كان لدى يقين أنها ستهزمه، وكتبت لها بهذا المعنى وهى على فراش المرض فى الولايات المتحدة، فقد كان لديها من العزيمة والقوة وصلابة الإرادة ما يكفى للانتصار، وعندما عادت إلى مصر ومكتبها فى «الأهرام» شعرت بأن نبوءتى تحققت، وعندما التقينا كان لديها الكثير من المشروعات وبعضها الذى كان يخصنى كان طموحا للغاية، ولكنها كانت تعلم أنها كانت من القليلين الذين لا أملك أمامهم سوى القبول، وربما كانت تعلم أنها فى سباق مع الزمن، وأنه لا راد لقضاء الله. لقد خسرت مصر و«الأهرام» شخصية عظيمة أعطتهما بلا حدود فى صمت، وأعطت العمل فى بلادنا قيمة عظيمة لا يعرفها إلا من يعشقونه ويقدرون قيمة بناء الأوطان، أما خسارتى الشخصية فهى فادحة، ولا يوجد فى قاموس الكلمات ما يصفها.

١١- وداعا.. «حبيبى».!!

فى الوقت الذى كانت فيه باكستان تدخل مرة أخرى فى النفق المظلم للحكم العسكرى، كانت إندونيسيا تنتقل إلى الحكم الديموقراطى، وسوف يشهد التاريخ أن ذلك تم على يد رجل قصير القامة وضئيل الحجم ولكنه حاد الذكاء، واسع المعرفة، أمسك بالحكم فى واحدة من أحرج اللحظات التى كانت من الممكن أن تؤدى ببلاده إلى التهلكة، ولكنه قاد سفينة إندونيسيا بوعى، وأمسك بالدفة بالحكمة، وأخذ شعبه إلى بر الأمان، إنه الرئيس بحر الدين يوسف حبيبى الذى تولى السلطة لمدة لاتزيد على ثمانية عشر شهرا، ومع ذلك حقق من النجاحات ما سوف يعد الولادة الثالثة لبلاده.

وإذا كان يحسب لسوكارنو أنه الرجل الذى قاد البلاد إلى الاستقلال وجعلها علما من أعلام حركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث وحركة عدم الانحياز، إلا أنه مثل كثيرين غيره غلبه الخارج على الداخل، وتصور أن تغيير العالم هو الذى سيغير وطنه، وكانت النتيجة تكريس التخلف والفوضى التى كانت تمزق إندونيسيا وتدخلها إلى حرب أهلية. وإذا كان سوهارتو يحسب له أنه لم ينقذ إندونيسيا من الصراع الداخلى فقط وإنما قادها اقتصاديا لكى تكون من النجوم اللوامع فى أمم آسيا الناهضة، إلا أنه مثل كثيرين غيره أيضاً سمح بأن يكون النمو مرادفا للفساد، والتقدم محكوما بالديكتاتورية فإنتهى ببلاده إلى أزمة اقتصادية وسياسية فادحة وضعتها مرة أخرى على حافة المجاعة والتمزق السياسى، أما حبيبى فسوف يحسب له أنه أبعد بلاده عن حافة جرف هائل كادت تقع فيه عندما عصفت بها الأزمة المالية كما لم تعصف بها أحداث من قبل، فقد انهارت المؤسسات المالية، ومن ورائها الاقتصاد كله ، وبعدها جاءت الانفجارات السياسية التى أطاحت بحكم سوهارتو كله خلال أسبوعين كانت فيها إندونيسيا كلها فى الشارع فوارة بالهواجس والشكوك التى مالبثت أن طالت بالعنف الأقلية الصينية الغنية وكانت جاهزة لسفك الدماء ومد الحريق لكل من تظن أنه أضاع الثروة والغنى التى بدا أنها طارت إلى غير رجعه.

فى هذا الوقت بالذات جاء إلى السلطة بحر الدين يوسف حبيبى الذى لم يخطر له فى أكثر أحلامه جنونا أن يكون يوما رئيسا لإندونيسيا وخلفا لأبيه الروحى والمعنوى سوهارتو، والذى أتى به من ألمانيا فى عام ١٩٧٥ شابا يافعا ناجحا وصل إلى أرفع المناصب فى شركة ألمانية لصناعة الطائرات لكى يقود مسيرة التصنيع الأندونيسية ويجعلها قادرة على المنافسة بين النمور الآسيوية الصاعدة. وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاما لم يكن حبيبى يتصور أكثر من أن يجعل إندونيسيا شريكا عالميا فى صناعة الطائرات، خاصة الطائرات الصغيرة التى يستخدمها رجال الأعمال والتى قط سوقها متصاعدة، ولم يكن يتصور أكثر من أن يظل قريبا من سوهارتو القوى الذى كان صديقا لوالده لكى ينعم بالقوة والنفوذ. ولكن ما تصوره حبيبى كان أمرا وما حدث فى الواقع أمر آخر، وعندما اختاره سوهارتو لكى يخلفه كان يلقى به فى بحر متلاطم الأمواج وعاصف الرياح ومتفجر بالأعاصير والبراكين، فقد بدا أن السبعة عشر ألف جزيرة التى تتكون منها إندونيسيا كما لو كانت لها تغرق مرة واحدة.

وعندما التقته بعثة «الأهرام» إلى آسيا فى يوليو من العام الماضى كان قد مضى عليه فى الحكم أربعون يوما فقط، وأذكر أن الرئيس حبيبى كان لايزال غير مصدق أن الأقدار قد اختارته لهذا المنصب، ولهذه المهمة، ولكنه تمالك نفسه ووضع برنامجا للإنقاذ الوطنى قوامه بعث الروح فى المؤسسات الوطنية والدستور الأندونيسى، والقضاء على الفتنة ضد الأقلية الصينية التى كانت ضرورية لبعث اقتصادى جديد، والانتقال إلى الديموقراطية عبر انتخابات حرة لأول مرة فى تاريخ إندونيسيا، وفوق ذلك كله القيام بإصلاح مالى واقتصادى جذرى يجعل بلاده تقف على أقدامها من جديد. هذا البرنامج لم يكن مقبولا فى إندونيسيا من الكثيرين، فكانت هناك كثرة تريد ثورة ديموقراطية كاملة تقلب إندونيسيا كلها رأسا على عقب، وكان هؤلاء على استعداد دائم للنزول إلى الشارع يسعون للصدام مع الجيش والنظام، فقوة الطلبة التى أطاحت بسوهارتو لم تكن على استعداد للقبول بالإصلاح التدريجى بينما كانت تمتلك كل الحس الشعبى الناقم والساخط على الفساد والجمود السياسى الطويل، وكان هناك حتى بين الذين اعتقدوا فى إمكانية الإصلاح من يشككون فى حبيبى نفسه ليس فقط فى قدرته على تحقيقه، ولكن لأنهم اعتقدوا أنه ليس إلا

امتدادا للنظام القديم، وواحدا من عملاء سوهارتو، الذين يريدون كسب الوقت حتى يعيدوا الأمور إلى ما كانت عليه من ديكتاتورية وتسلط.

وأذكر أننى سألت ميجاواتى سوكارنو زعيمة المعارضة الإندونيسية عما إذا كانت تعتقد أن حبيبى سوف ينفذ البرنامج الذى أعلنه، وكانت إجابتها قاطعة أنه لن يفعل، ولكنه فعلها، وسار برنامجه الذى أعلنه وفق جدوله الزمنى كما حدده، وعقدت الانتخابات التشريعية والرئاسية فى مواعيدها المقررة، ونجح برنامجه الاقتصادى، وعادت إندونيسيا إلى النمو الإيجابى مرة أخرى بعد أن كان نموها السلبى قد وصل إلى ١٥ ٪، وارتفعت قيمة عملتها التى كانت قد انهارت كلية تقريبا، وعادت صادراتها تتدفق على العالم، ولكن ربما كان أهم ما فعله حبيبى هو التخلص من مشكلة تيمور الشرقية، فبعد الكارثة التى تعرضت لها بلاده والتى كادت تودى بها نهائيا، فإنه كان يعلم أنه لن يستطيع إنقاذها إلا بمساعدة الغرب الذى كان قد قدم لإندونيسيا حزمة من المساعدات بلغت ٤٣ مليار دولار، ولما كانت هذه المشكلة تقف حائلا دون العلاقات الوثيقة مع الغرب والمجتمع الدولى الذى لم يعترف بضم أندونيسيا لتيمور الشرقية، اتبع الأسلوب الديموقراطى، ومنح الجزيرة حق تقرير المصير فى الاستفتاء الذى قاد إلى خيار استقلالها.

لقد كان بوسع حبيبى أن يفعل ما فعله الكثيرون غيره فى بلاد العالم الثالث فيحكم بالحديد والنار، وكان بوسعه أن يلقى باللائمة على الغرب فى الكارثة التى وصلت إليها إندونيسيا، وكان بوسعه أن يلقى القبض على سوهارتو ويضع عليه كل اللوم لما آلت إليه أحوال البلاد، وكان بوسعه استغلال قضية تيمور الشرقية لتعبئة المشاعر الوطنية وراء حرب تتيح له الاستمرار فى الحكم، ولكنه لم يفعل أيا من ذلك، ومهد الطريق للإطاحة بنفسه ديموقراطيا. وفى النهاية فإنه خسر مقعد الرئاسة لأنه اختار تواصل إندونيسيا مع تاريخها، ولأنه عمل على التغيير من خلال المؤسسات وليس من خارجها، ولأنه عمل على تقدم إندونيسيا بالتوافق مع العالم وليس من خلال الثورة عليه، ومن المدهش أن البرلمان الذى سحب منه الثقة لأنه خسر تيمور الشرقية كان هو ذات البرلمان الذى أقر نتيجة الاستفتاء فيها. وفى كل الأحوال فإن حبيبى كسب نفسه وكسب لنفسه مكانا فى التاريخ على أنه الرجل الذى أنقذ إندونيسيا وأدخلها الديموقراطية.

ما بقى بعد ذلك سيكون فى أيدى الإندونيسيين أنفسهم، فقد فعل حبيبى مالم يفعله إلا القليلون من حكام العالم الثالث حين يتركون السلطة من خلال آليات ديموقراطية، كما حدث من قبل مع نيريرى فى تنزانيا، وسنجور فى السنغال، وسوار الذهب فى السودان. وفى العادة فإن التاريخ يصبح فى يد النخبة السياسية التى يصبح عليها ترسيخ البناء الديموقراطى، وإثبات أن نظام الحكم القائم على المشاركة العميقة للقوى السياسية المختلفة ليس قناعا للفساد والفوضى السياسية كما حدث فى الحالتين السودانية والباكستانية حتى تقنط الجماهير وتجد نفسها تطالب بالديكتاتورية مرة أخرى تحت وهم الخلاص والإنقاذ للوطن والأمة.

وعلى أى الأحوال فإن النخبة الإندونيسية نجحت فى اختبارها الأول، وجاء سحب الثقة من حبيبى ليس اعتراضا على المسيرة التى رسمها، وإنما وضع لنهاية صفحة من صفحات التاريخ الإندونيسى ارتبطت بسوهارتو أن وضع نهاية لها، وجاء انتخاب عبد الرحمن وحيد تعبيرا عن القدرة على بناء التوافق الوطنى على شخصية هى تجسيد للتسامح والوسطية، وفى الوقت نفسه بعيدة عن ضغوط الشارع العفوية والغوغائية أحيانا والتى أرادت إعادة صياغة إندونيسيا من خلال الشارع وليس من خلال المؤسسات الوطنية، وأخيرا فقد جاء اختيار وحيد لميجاواتى سوكارنو نائبة له اعترافا بنتائج الانتخابات التشريعية التى حصلت فيها على أعلى الأصوات. وباختصار كانت البداية صحيحة لعهد جديد سوف يكتب التاريخ أن نواته وضعها شخص قصير القامة، ولكنه عملاق فى فكره ونظره الثاقب هو بحر الدين يوسف حبيبى.

الفصل الخامس

نهايات وبدايات

١ ـ ذكريات عام مضى... !

نهاية عام وبداية عام تشكل دائما لى معضلة كبرى، فمع هذه الليلة الحاسمة بين زمن ميلادى وآخر ينطلق جيش جرار من الصحفيين والإذاعيين وانضم لهم مؤخرا فيلق جديد من أهل التليفزيون يسألون عن أهم الأحداث العالمية وأهم الشخصيات وأهم الكتب والمسرحيات.. إلى آخر ما هو معروف الآن وتجده فى صدارة الصحف والمجلات، وبعدها مباشرة ينطلق الجميع ليسألوك عن تنبؤاتك للعام الجديد وما الذى سوف يحدث فى عملية السلام ومن سيصعد ومن سيهبط ومن سيذهب إلى غير رجعة. وأعترف أننى فى كل مرة أشعر بحيرة بالغة، ففى العادة فإنه لا يوجد لدى إجابة محددة على كل هذه الأسئلة المعقدة، وحتى لو كانت لدى إجابة فإنها فى العادة بالغة الطول بينما السائل الفاقد الصبر دائما يريدها فى كلمة أو كلمتين، كما أنه ليس لديه صبر للانتظار حتى أفكر فى السؤال الأول وهو لديه قائمة طويلة يريد استيفاءها بسرعة، وهو فى النهاية يجد صعوبة هائلة فى فهم حالتى خاصة أنه لا يوجد من سيحاسبنى إذا ما اخترت حدثا ليس له أهمية تذكر، أو أن الشخصية التى اخترتها لم يسمع بها أحد من قبل، أو أن تنبؤاتى عن السنة القادمة لن تصدق منها نبوءة واحدة، فمن ـ على أية حال ـ سوف يحاسبنى فى نهاية العام عما إذا كنت مصيبا أو ـ كما هى العادة ـ جانبنى الصواب ؟!.

مشكلتى دائما، وربما مشكلة كثيرين غيرى، هى أن هناك فارقا بين التاريخ والتواريخ، الأول تصنعه أحداث فارقة تصير الدنيا بعدها مختلفة عما قبلها، فنقول إن القرن العشرين بدأ مع الحرب العالمية الأولى وانتهى مع سقوط حائط برلين رغم أن الحرب جاءت بعد أربعة عشر عاما من بدايته وسقط الحائط قبل أحد عشر عاما من نهايته. أما الثانية فربما لا توجد لها قيمة إلا فى اهتمام الصحافة بها لعلها تغطى مساحة للنشر أو فترة للإذاعة لا يوجد فيها حقا ما ينشر أو يذاع. ولذا فإننى لابد أن أعتذر لكل من سألونى ولم يجدوا إجابة، ربما لأننى لا أعتبر توقف عملية السلام حدثا يستحق الإشارة إليه، فما معنى أن يكون التوقف أمرا ذا شأن، أو أن مجازر الجزائر أو مجزرة الأقصر تستحق التسجيل مادامت واقعة القتل تعنى نهاية الحياة والأحداث للقتلى على الأقل، وإذا كنت قد اخترت النعجة دوللى كأهم الأحداث والشخصيات فى العام فلم يكن مقصودا قط إهانة التاريخ أو النعاج !.

والمسألة تكمن فى أن تصوراتى عما يستحق التسجيل فى عام يختلف كثيرا عن تصورات الكثرةمن العرب، فهم يتخيلون أنفسهم مركز الكون وماداموا كذلك فإن الأحداث التى تهمهم لابد أنها تشكل حركة العالم حينما يرصدون تاريخ عام، كما أن قادتهم بالضرورة هم الذين يديرون مسار البشرية. ولما كنت أعتقد يقينا أننا لسنا مركز الكون وأن حركة التاريخ فى أغلبها يجرى بعيدا عنا من خلال التطورات التكنولوجية الكبرى التى تجرى فى عالمنا وتحركات القوى الكبرى والعظمى ابتعادا واقترابا من بعضها البعض سياسيا واقتصاديا فإن اختيار دوللى رمزا للعام يبدو للكثيرين نوعا من العبث غير المستحب باعتباره يذكر بموضوع الاستنساخ الذى لا نعلم حتى الآن على وجه الدقة عما إذا كان مسموحا به فى الشرع أم لا، أو ربما لأنه يذكرنا بثورة تكنولوجية لا ناقة لنا فيها ولاجمل وهما - الناقة والجمل - على أى حال آخر المخترعات التى قدمناها للبشرية ومعها طائفة هائلة من قصائد الشعر.

ولقد أدهشنى كثيرا أن أحداثا عالمية بالغة الأهمية من وجهة نظرى المتواضعة لم تلق أى اهتمام فى حسابات العام العربية، وأستعجب كثيرا على مشاهد هامة تمر علينا وعلى صحافتنا وكتابنا ثم نمر عليها مرور الكرام رغم دلالاتها البالغة وانعكاساتها الكبرى على مستقبلنا ومستقبل العالم. المشهد الذى أقصده كان سفر المكوك الأمريكى أطلانتيس خلال الصيف إلى الفضاء الخارجى محملا بقطع غيار ورواد فضاء جدد إلى سفينة الفضاء الروسية مير التى تعدت عمرها الافتراضى منذ

سنوات وأصبحت مثل كل العربات الخردة متآكلة الأسلاك والسيور ولها جهاز كمبيوتر أجهدته الإصلاحات وكان هناك شك كبير فى قدرته على البقاء مما شكل خطرا على الركاب والمسافرين. وبعد عملية ميكانيكية مجهده جرت عملية اصلاح السفينة وجرت عمرة على أجهزتها حتى تعمل بكفاءة مرة أخرى وجرت عملية إحلال وتبديل للطاقم الذى انتظر طويلا يلف حول الكرة الأرضية منذ شهور طويلة داخل كبسولة ضيقة لا يوجد خارجها إلا سموات لا نهائية من الظلمات.

دلالة ذلك أولا أنه بات بالقدرة البشرية قبل نهاية القرن العشرين إقامة محطات فضائية مأهولة لفترات طويلة من الزمن بعد أربعة عقود فقط من سفر أول رواد الفضاء جاجارين السوفيتي لبضع ساعات فقط فى الفضاء القريب من الكرة الأرضية. ودلالة ذلك ثانيا أنه بات ممكنا نقل حمولات كبيرة من خلال مكوك الفضاء الأمريكى و يستطيع الخروج والدخول إلى المجال الأرضى بسهولة بالغة، والأهم من ذلك القيام بعمليات ميكانيكية معقدة فى نظم فيزيقية تختلف تماما عما عرفناه على الأرض. وكلتا الدلالتين تؤشر أنه بات بمقدور البشر إقامة محطات كبرى مأهولة لفترات طويلة سوف تشكل منصات الإطلاق إلى الكواكب البعيدة والقريبة بدلا من إطلاقها من على المحطات الأرضية، وهذه سوف تكون خطوة متقدمة للغاية لن نعرف آثارها على البشرية ربما إلا بعد بضعة عقود من القرن القادم، ولكن ما نعرفه أن الإمكانية موجودة وليست محض خيال علمى تعرفه السينما العالمية وأفلام حرب الكواكب. ودلالة ذلك أخيرا، أن التعاون الأمريكى الروسى بلغ ذرى هائلة فى البحث العلمى، ومثلما تقوم الولايات المتحدة على الأرض بإرسال البعثات التى تقوم بإصلاح الاقتصاد الروسى، فإنها تقوم بإرسال ميكانيكية الفضاء الأمريكيين لإصلاح المركبة الروسية، وهذه دلالة سياسية لهؤلاء الذين ينتظرون جولة جديدة من الصراع الروسى ـ الأمريكى وعودة الأيام السعيدة للحرب الباردة !.

وإذا كان لدى أحد شك فى أن التعاون الأمريكى ـ الروسى ليس تكنولوجيا علميا فقط، فربما كان علينا تذكر مشهد سفر الرئيس الروسى بوريس يلتسين إلى باريس لكى يوقع معاهدة للمشاركة مع حلف الأطلنطى ـ التجسيد العسكرى للقطبية المنفردة ـ يعطيه صوتا فى تحركات الحلف وتوسعاته نحو شرق أوروبا، كما شهدوا ذهاب يلتسين مرة أخرى إلى دينفر فى الغرب الأمريكى لكى يحضر قمة الدول الصناعية السبع ليس كعضو كامل فيها، ولا كمراقب، وإنما ربما كمشاهد، فلا أحد على أى

الأحوال يعلم التسمية الدقيقة حتى الآن. وهكذا ذهب القطب القديم - قلب الاتحاد السوفيتى السابق - لكى يلتحق أو يلتحم عسكريا واقتصاديا وسياسيا مع المجموعة الغربية، وذهبت مع أدراج الرياح الأفكار الذائعة عن عالم متعدد الأقطاب، لأنه لم يعد مقبولا، ولا حتى ممكنا فى زمان العولمة والكونية والكوكبية - أيا كانت التسميات - أن تعود القطبية كما كانت فى الماضى تعبيرا عن التنافس الاستراتيجى على الكرة الأرضية. ففى دينفر جلس الجميع يفحصون أحوال العالم ويقررون ماذا يفعلون فى البوسنة وفى الشرق الأوسط وفى إفريقيا، ولكن قبل كل ذلك كله كيف يفتحون الأسواق، وكيف ينتجون، وكيف يخترعون، وكيف ينظمون عملية المنافسة بينهم. حضور روسيا كان هاما رغم أن صحتها الاقتصادية معتلة بقدر اعتلال صحة رئيسها، ولكن تماثل كليهما للشفاء قضية محورية لدفن العالم القديم كلية والاستيقاظ على عالم جديد لم يعرفه تاريخ البشرية من قبل !!.

ولكن القصة لم تكن تخص روسيا فقط ، ولا أدرى شخصيا ما إذا كانت الصحافة العربية قد انتبهت لموافقة شعب المجر فى استفتاء عام على الدخول فى حلف الأطلنطى بعد موافقة الحلف على التوسع شرقا وقبول ثلاث دول فقط رغم تعدد طلبات الالتحاق والانضمام إلى المؤسسة الأمنية الغربية الذائعة الصيت والقوة والمنعة. وربما يرى البعض أن الحدث لا يوجد فيه ما يشغل البال، ولكن القضية هى أن ذات الشعب كان حتى وقت قريب لا يتعدى بضع سنوات كان جزءا من حلف آخر هو حلف وارسو، وأيامها كان يقال لنا إن الشعب المجرى كان سعيدا كل السعادة لأنه كان جزءا من المنظومة الاشتراكية التى كان بيدها مفاتيح السعادة الأبدية والتاريخ المضمون لانتصارات الطبقة العاملة. ولكن بعد هذه السنوات القليلة لم ينهر حلف وارسو فقط، بل إن الشعب المجرى وفى انتخابات حرة تماما قرر الانضمام إلى الحلف الآخر المعادى وتحمل التكاليف الباهظة للانضمام إليه والتى ستنفق على إعداد البنية الأساسية العسكرية لبلاده حتى تتلاءم مع الحلف العسكرى الغربى الذى سينفق ما يزيد على ٣٢ مليار دولار على التوسع فى البلدان الثلاثة: المجر وبولندا و جمهورية التشيك.

المدهش هنا أن شعب رومانيا حزن حزنا بالغا لأن الدورة الحالية فى الانضمام إلى الحلف تجاوزته وخرج يستقبل كلينتون هاتفا ومعاتبا الولايات المتحدة على

تركها له بعيدا عن الحضانة الدافئة للحلف الغربى. هل مسألة الفرح المجرى والحزن الرومانى راجعة للخوف من روسيا، أم أن المسألة أكبر من ذلك؟ ولماذا تدخل هذه الدول دوائر النفوذ العسكرية الغربية وبإرادتها الحرة ولا يصرخ أحد ذعرا من الغزو الأجنبى والغزو الثقافى والانسحاق الحضارى كما تعودنا واعتدنا فى بلادنا ؟ الظن كل الظن أن هذه الدول فعلت كل ذلك لأنها تريد أن تكون جزءا من العالم الغربى فى كافة أبعاده العسكرية والاقتصادية والثقافية كذلك لأنها ترى ما لانراه ولا تخاف مما نخاف، وربما لأن لديها الثقة بالنفس والقدرة على العمل والتنافس بمايكفى لكى تكون جزءا من هذا العالم. وإذا كانت روسيا ودول أوروبا الوسطى والشرقية قد خانت الأمانة الاشتراكية فهل لفت نظر أحد خبر قيام الرئيس الصينى جيانغ تسه مين بقرع أجراس بداية يوم العمل فى بورصة الأوراق المالية فى نيويورك خلال زيارته للولايات المتحدة؟ أهمية الخبر من ناحية الصين أن الدولة الصاعدة التى لاتزال شيوعية من الناحية الرسمية قدمت الاعتراف بأهم القلاع الرأسمالية فى عالم اليوم، ومن ناحية أخرى فإن هذه الأخيرة قدمت اعترافا بأن الصين صارت من الدول الرأسمالية العريقة إلى الدرجة التى تسمح لرئيسها بإعطاء إشارة العمل للحركة الرأسمالية التى تتحرك باتساع المعمورة. حدث هذا فى الوقت الذى كان فيه المئات وأحيانا الألوف يقومون بالتظاهر فى كل مكان ذهب إليه الرئيس الصينى احتجاجا على حقوق الإنسان فى الصين وعلى الذكريات المريرة لمذابح ميدان السماء السمأوى منذ سنوات. وفى كل مرة وفى مواجهة المظاهرات كان الرئيس يبتسم ويصرح بأن مسألة حقوق الإنسان من صميم الشئون الداخلية الصينية، ويبدو أن مستضيفيه من الأمريكيين لم يكن لديهم ما يعترضون به على ذلك، فالأرجح أنهم قرروا أن المهم فى الموضوع هو كسب الصين إلى الصفوف الرأسمالية وذلك أبقى من قضية الديموقراطية وحقوق الإنسان. وفى المدى القريب فإن الصين تبدو جنة رأسمالية حقيقية خاصة مع صدور القانون الذى يسأوى بين الأجانب والوطنيين فى الحقوق والواجبات، وفى نفس الوقت فإن نقابات العمال واقعة تحت الرقابة الصارمة للحزب الشيوعى، فماذا يريد الرأسمالى أكثر من ذلك قدرة هائلة على الكسب فى سوق واسعة بلا مطالبة برفع الأجور أو الإضرابات المقلقة والمعطلة والذائعة فى العالم الغربى ؟!.

على أى الأحوال ربما لا يكون كل ذلك لافتا للنظر فى العالم العربى الذى يظن أن العالم لا يتحرك إلا وفق إيقاعات نتنياهو وخاتمى وصدام حسين، ولكن ما لفت نظر العالم حقا لأسابيع طويلة كان فتاة صغيرة اسمها لويز وودورد وكانت تسبق أخبارها الأزمة العراقية أحيانا وفى كل الأحوال كانت تسبق قضية الشرق الأوسط العتيدة. قصة الفتاة لويز أنها بريطانية من قرية صغيرة فى بريطانيا لم يسمع بها أحد من قبل هى قرية أوبرى، وكانت تعيش فى مدينة بوسطن الأمريكية حيث استأجرتها أسرة أمريكية كجليسة لطفلها الرضيع ذات مساء، وفى وجودها مات الطفل، واتهم الوالدن لويز بقتله وقدمت للمحاكمة وطالب الادعاء بالحكم عليها بالسجن مدى الحياة، وحكم عليها المحلفون أنها مذنبة، إلا أن القاضى وفى مرة نادرة فى تاريخ القضاء الأمريكى قرر أن الجريمة ليست القتل مع سبق الإصرار وإنما هى قتل خطأ نتيجة الإهمال ومن ثم حكم بعقاب الفتاة بفترة السجن التى قضتها رهن القضية.

ما يهمنا فى الموضوع ليس الحادثة والقضية التى يحدث مثلها بالعشرات يوميا فى كل أركان الكرة الأرضية، ولكن القصة هى قصة قريتها التى لا يتعدى سكانها ثلاثة آلاف نسمة، والتى لم تقبل فكرة أن الفتاة الوديعة التى يعرفونها يمكنها القيام بهذه الجريمة، ومن ثم تجمعت على قلب امرأة واحدة قادت القرية إلى التبرع بما مقداره نصف مليون جنيه إسترلينى للدفاع والمحامين، وفتحت صفحة على شبكة الإنترنت، وبدأت القرية فى كتابة المقالات والدفوع إلى الصحافة الأمريكية ترد فيها على الهجمات التى تعرضت لها لويز، وكان نتيجة ذلك الحكم الذى وصل إليه القاضى والذى أصر على إصداره لأول مرة على شبكة الإنترنت لأن المهتمين بالقضية كانوا بامتداد العالم كله ومن المكسيك حتى اليابان. التجربة هنا تقول أن قرية فى الغرب قادرة على التضامن والدفاع عن إبنتها فى الغربة البعيدة، ومن ثم فإن إشاعة الغرب المنحل المغرق فى الفردية ليس لها أساس. أكثر من ذلك إن هناك من وسائل الاتصال العالمية ما يمكن قرية صغيرة من الدفاع عن حقوقها المشروعة إذا كان لها ما يكفى من الإصرار على ذلك وبلغة تمكن الناس فى أركان المعمورة من التعاطف معها ومع قضيتها حتى ولو كانت قضية فتاة صغيرة ومغمورة ولم يسمع عنها أحد من قبل. ومعنى ذلك أن الوصول إلى الرأى العام العالمى واكتسابه ليس بالأمر المستحيل لمن يعرف كيف يتعامل مع وسائل الاتصال العالمية ولا يكتفى بالحديث مع نفسه ومؤيديه وبعد ذلك يدعى أن العالم لا يفهمه!!.

لم يندهش أحد فى عالمنا العربى لقصة العام هذه، وربما بهرته قصة الأميرة ديانا لأنها كانت جاهزة بقصة المؤامرة المثيرة التى منعت ملك بريطانيا المقبل من أن يكون له إخوة تجرى فى دمائهم الدماء العربية المقدسة ولهم أبناء عمومة عرب. وعلى أى الأحوال فإن قصة تريزا القديسة فى الهند لم تثر خيال أحد، فربما كان فضلها ونضالها من أجل الفقراء شائعة غربية نسجتها أجهزة الإعلام الغربية التى تقوم على الأساطير والأكاذيب، وإذا كانت هذه السيدة قديسة حقا، فلماذا ذهبت إلى الهند ولم تأت إلى أراضينا حيث النضال الحقيقى من أجل الحرية والعدل !.

لقد طالت الذكريات عن العام أكثر مما ينبغى، وآن أوان التوقف عن ذكر المباح منها، لأنه مقلق للراحة ومزعج للعقل، وكل عام وأنتم بخير!!.

٣. عالم جديد.. وعالم قديم.. وعام ١٩٩٧... !

فهم ما جرى فى عام بعينه لا يكون بإعادة رصد أحداثه، والتذكير بما كان فيه من فواجع وكوارث أو أحداث جسام يمكن أن توصف بأنها تاريخية أو نقطة تحول تجعل الدنيا مختلفة بعدها عما كانت قبلها. فالحقيقة أنه لايوجد عام واحد يمكنه حمل كل ذلك على كاهله، اللهم إلا إذا تم بمهارة ليّ عنق الوقائع وتحميلها ما لا تحتمل من معان ومقاصد، حتى يكون لها من الأهمية ما ليس فيها وتنتهى المسألة كلها فى النهاية مع بزوغ العام الجديد، ومع حرارة شمسه يتروى العام الذى مضى فى زوايا النسيان. ولكن فهم ما حدث يكون بإعادة توقيعه فى التيار العام للتوجهات الكبرى لحركة التاريخ وتعرف الحد الذى وصلت إليه خلال العام موضع الاهتمام وعما إذا كان قد جرى تأكيدها أو أن هناك ما جاء على خلاف ما كان متصورا حدوثه أو أنه حدثت مراجعة أو تراجع فى اتجاه بعينه فاتحة الباب لاتجاهات أخرى أو أن المسألة برمتها لا تزيد على جمل زمنية اعتراضية على مسار عام لا يلبث بعدها التيار الرئيسى من عودته إلى مساره المتوقع.

والمسار الذى يأتى فيه العام الذى أوشك أن يذبل جاء مع التغيرات الكبرى التى جرت فى عالمنا مع مطلع التسعينيات بعد انتهاء الحرب الباردة وزوال الاتحاد السوفيتى، واستيقاظ العالم على دنيا غير الدنيا وزمن غير الزمن حينما تولد نموذجان للعلاقات: النموذج الأول يشمل الدول التى يتكثف فيما بينها الاعتماد المتبادل بدرجة كبيرة وتتشابك مصالحها الاقتصادية والمالية، وتتشابه توجهاتها الايديولوجية (الديموقراطية على الأغلب)، وتتميز بدرجة غير مسبوقة تاريخيا من التقدم التكنولوجى الصناعى، وهى الدول التى تضمها منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية وغرب الباسفيك. هذه الدول لم يعد متصورا أن تستخدم القوة العسكرية فيما بينها، فقد أصبح من المستبعد تماما أن تشن الولايات المتحدة حربا لضم كندا، أو تسعى الولايات المتحدة مرة أخرى لاخراج الولايات المتحدة من المحيط الباسفيكى، أو حتى أن يعود الصراع الفرنسى - الألمانى إلى الظهور مرة أخرى وإلى استخدام العنف المسلح الشامل كما حدث خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. فى هذا النظام فإن السياسة السائدة تكون فى اطار الاندماج والتكامل وليس الصراع والتفتت .

وليس معنى ذلك أن الخلافات والتنافس سوف يختفيان فى هذا النموذج، ولكنه سوف يتركز فى معظم الأحوال فى المجال الاقتصادى، حيث تسعى كل دولة إلى تحقيق أقصى الفوائد الممكنة متأثرة فى ذلك عادة بالقطاعات السكانية والاقتصادية فيها الأقل اندماجا فى النظام العالمى. وهنا فإن الدول قد تلجأ لبعض الإجراءات السلبية مثل وضع قيود على التجارة، أو إبقاء قيمة عملتها أقل من قيمتها الحقيقية بهدف تشجيع الصادرات، أو تضع حواجز غير جمركية على وارداتها من نوع أو آخر. المهم هنا أن جوهر النزاعات يكون حول تحقيق مزايا نسبية وليست مطلقة وعلى الأغلب حول أمور اقتصادية، ومن ثم فإن التعامل معها يكون بصورة تدرجية وبوسائل اقتصادية جماعية أو ثنائية، ولكنها فى كل الأحوال لن ينظر لها على أنها تهدد القيم الأساسية للدولة أو مكانتها القومية أو كرامتها أو تشكل تهديدا لحياة أفرادها.

النموذج الثانى القائم على الصراع والعنف ويقع بشكل عام بين دول العالم الثالث، مع استثناءات قليلة فى دول العالم المتقدم (حالة أيرلندا الشمالية هى المثال

الواضح) حيث لا تتوافر أو تضعف روابط الدولة القومية، ومن ثم تنمو الصراعات والحروب الأهلية العرقية والقبلية والدينية، ويزداد تأزمها بفعل المجاعات والأزمات الاقتصادية والفساد والسلطوية فى نظم الحكم. وفى بعض الأحيان فإن ضعف الرابطة القومية يمكن أن يقود قيادة سلطوية للمغامرات الخارجية والحروب الإقليمية فى محاولة للتجاوز أو القفز على ضعف هذه الرابطة. ولما كانت دول العالم الثالث تتباين فى درجة نموها وتطورها ومشاركتها فى النظام العالمى، فإن انغماسها فى هذا النموذج سوف يتوقف إلى حد بعيد على مدى تطور هذه العوامل بحيث إنه يمكن تصور اقترابها من النموذج الأول كلما كانت متماسكة قوميا ونامية اقتصاديا ومشاركة بشكل ديناميكى ومتطور فى روابط الاعتماد المتبادل العالمى، وابتعادها عن هذا النموذج واقترابها من النموذج الثانى كلما ضعفت هذه العناصر أو تراجعت.

العام ١٩٩٧ كان مؤكدا للنموذجين بشكل مدهش، فاجتماعات الدول الصناعية ـ فى إطار النموذج الأول ـ جرت فى مواعيدها المقررة تماما سواء بين الدول السبع أو فى إطار المنظمات الإقليمية مثل الاتحاد الأوروبى أو العابرة للقارات مثل الآبيك. ولكن الأهم من ذلك أنه حدثت ثلاثة تطورات هامة، أولها التوسع فى حلف الأطلنطى لكى يشمل ثلاث دول جديدة هى المجر وبولندا وجمهورية التشيك بينما بقيت باقى دول أوروبا الشرقية واقفة فى الطابور تنتظر القادم من الأعوام حتى يكون لها شرف دخول التحالف الأمنى للعالم الصناعى. وفوق ذلك جرى خلق إطار جديد فى حلف الأطلنطى أيضا للواقفين فى خارج الطابور وأولهم روسيا الاتحادية وهو المشاركة من أجل السلام الذى يعطى موسكو صوتا فى تقدم الحلف قرب حدودها !!. والثانى كان فى الاتحاد الأوروبى الذى أخذ يكمل استعداداته لإصدار العملة الأوروبية الموحدة إليورو، وفى نفس الوقت اتخذ قرارا بالتوسع لكى يضم خمس دول جديدة تنضم إليه مع حلول عام ٢٠٠٢ مع بقاء ست دول أخرى فى قائمة الانتظار وعليها الاستعداد و التسخين والتغيير فى داخلها حتى تدخل دائرة القبول. المهم هنا أن تركيا بقيت خارج القائمتين العاجلة والآجلة رغم أنها كانت أول من تقدم للعضوية، ورغم أنها عضو فى حلف الأطلنطى وشاركت فى الدفاع عن الغرب طوال العقود الخمسة الأخيرة، إلا أن داخلها وسياستها الخارجية لاتزال

يجعلانها تنتمى إلى العالم القديم بصراعاته الداخلية ومخالفته لحقوق الإنسان وباستعراض العضلات العسكرية فى قبرص وبحر إيجة مع قمع مواطنيها الأكراد. والثالث فقد كان القرار الأمريكى والأطلنطى بمد عمل قوات الحلف فى البوسنة لأنها الساحة التى تبقى الولايات المتحدة قائدة للتحالف الغربى فى أوروبا، ولأنها الساحة التى يعمل فيها العسكريون الروس تحت القيادة الأمريكية، ولأنها الساحة التى لا يريد أحد أن يتجدد فيها العنف فى قلب العالم الصناعى الجديد.

ولكن ليس معنى ذلك أن النموذج كان متسقا تماما مع نفسه، فرغم أنه نجح فى اجتذاب الصين إلى داخل أصول اللعبة بالزيارة التى قام بها جيانج تسه مين إلى الولايات المتحدة واعطائه إشارة البدء لأحد أيام عمل بورصة الأوراق المالية فى وول استريت المعقل الرسمى للرأسمالية المالية العالمية، إلا أن بورصات الأوراق المالية خرجت عن الخط قرب نهاية العام عندما بدأت الأسواق تنهار فى جنوب شرق آسيا. وفى البداية ظهر التضامن بين الدول الرأسمالية الحقة القديم منها والجديد من خلال اللجوء إلى الآليات التى سبق وأنقذت المكسيك، إلا أن فاتورة للإنقاذ مالبثت أن تصاعدت إلى أرقام فلكية مما جعل الولايات المتحدة تتردد، وتبعتها دول أخرى. ويبدو أن هذه المعضلة سوف تكون على رأس أعمال العام القادم، خاصة أن جنوب شرق آسيا أصبحت جزءا لا يتجزأ من عملية الإعتماد العالمى المتبادل فى التجارة والصناعة والمال، وإذا أصابها مرض فلابد أن تتداعى له باقى أعضاء النظام الرأسمالى العالمى بالسهر والحمى !. ولكن من يدفع ثمن ذلك هذه المرة، وهل هناك حل لهذه المشكلة التى جاءت من قلب العولمة وتهددها فى نفس الوقت ؟.

النموذج الثانى المنتشر من حدود الصين شرقا حتى شاطئ المغرب على المحيط الأطلنطى غربا، ومن آسيا الوسطى شمالا حتى جنوب إفريقيا جنوبا ظل مخلصا لنفسه اللهم إلا من بعض التعديلات الكمية، فالصراعات الداخلية المحتدمة ظلت على حالها تقريبا مع تصاعدها فى الجزائر إلى حدود غير مسبوقة. وفى قلب إفريقيا تمكن كابيلا من الإطاحة بموبوتو، ولكن الفوضى لاتزال ضارية وإن كانت الدماء السائلة أقل سيلانا، ولكن الانقلابات العسكرية فى الكونجو الديموقراطية وفى سيراليون بقيت مخلصة للنموذج. الحروب الإقليمية إنعدمت تقريبا، وإن بقيت صراعاتها وأزماتها دون حل، فالصراع حول قبرص أججه أخبار حصول الحكومة

القبرصية على الصواريخ أرض ـ جو وأعلنت تركيا أنها سوف تضربها، ومعها بقى التوتر بين تركيا واليونان، أما فى الخليج فقد قام صدام حسين بأزماته الدورية للخلاص من الحصار والتى انتهت كما هى العادة بالتهديد الأمريكى بالضرب العسكرى ثم التراجع العراقى المعروف. وعلى أى الأحوال فإن الأزمة مستمرة حتى العام القادم، ولكن إيران خرجت فائزة قليلا هذا العام عندما أجرت انتخابات جاء على أثرها محمد خاتمى المعتدل الذى نجح فى عقد المؤتمر الإسلامى فى طهران ومن فوق منصتها أعلن عن رغبته فى الحوار مع الشعب الأمريكى العظيم!. وبغض النظر عن الحوارات الأخرى بين إيران من ناحية ومصر والسعودية من ناحية أخرى فإن الحديث عن السوق الإسلامية المشتركة لم يختلف كثيرا عن أحاديث أكثر طولا عن السوق العربية المشتركة. أما عن أزمة الشرق الأوسط العتيدة فإنها استقرت على نمطها الذى أرسته فى العام الماضى ومنذ تولى بنيامين نتنياهو للسلطة فى إسرائيل. فالمفاوضات لم تستأنف على أى من الجبهات، اللهم إلا من أيام قليلة فى بداية العام نجم عنها اتفاقية الخليل، وفيما بعدها لم يأت شىء غير التوسع الاستيطانى الإسرائيلى، والهجمات الانتحارية الفلسطينية، ومحاولات مصرية وأمريكية وأوروبية لإخراج عملية السلام من غرفة الإنعاش التى دخلتها، وهى غرفة تم نقلها بكاملها إلى العام القادم.

وهكذا لم يخرج العام ١٩٩٧ عن التيار العام للأحداث منذ بداية التسعينيات، ولكنه على أى الأحوال أغناه بالتفاصيل والجمل الاعتراضية، وقدر غير قليل من التعقيد !!.

٤ـ بشأن الذى جرى فى عام ١٩٩٧... !

حثنى كثرة من الأصدقاء والقراء طوال العام، وخاصة خلال الشهور والأسابيع الأخيرة، على الرد على الهجمات التى شنتها على شخصى عدد من الصحف الحزبية والأخرى المملوكة لفرد أو لأفراد، وكان إلحاحهم شديدا بعد أن وصل الأمر

إلى سلسلة من الادعاءات والافتراءات والأكاذيب غير المسبوقة فى الجدل الصحفى المصرى. وقام منطقهم على أنه من حق القارئ أن يتعرف جميع جوانب الصورة، وأن توضع أمامه الحقائق التى يتبين من خلالها الغث من السمين، وأن حرية الصحافة التى حاربنا من أجلها فى معركة القانون ٩٣ لم تكن من أجل تسليه.يا لمن لا يعرفون إلا التشهير والابتزاز والاغتيال المعنوى والإرهاب الفكرى ويتوهمون فى أنفسهم القدرة على فرض الوصاية على المجتمع السياسى فى مصر من أول الباحثين السياسيين حتى الإمام الأكبر شيخ الأزهر. الأهم من ذلك كله، وربما بث ذلك القلق فى نفسى، أنهم طالبونى برد الصاع صاعين خاصة أن الذين احترفوا الهجوم بيوتهم من زجاج وورق !.

وكان ردى على هؤلاء جميعا ـ بعد الشكر والتقدير ـ أولا أن المساحات المخصصة لى للكتابة هى أمانة فى عنقى سواء تجاه مؤسسة الأهرام التى شرفتنى بها، أو تجاه القارئ الذى انتزع من وقته الثمين لكى يقرأ لى، وهى أمانة لا يمكن استخدامها فى الدفاع عن شخص، أو أن تتحول قيد أنملة عن طرح القضايا الكبرى التى تهم الوطن والأمة، أو يضيع فيها جوهر المناظرات الكبرى لتصير محض مهاترات. وثانيا أن الساحة المصرية والساحة العربية معها مليئة بالمساجلات والشجارات العقيمة، والتى لن يضيف إليها الكثير مساجلة وشجار آخر، خاصة إذا ما تسلح البعض بالبذاءات اللغوية ومطأوى قرن الغزال الكلامية وكانت إضافتهم الوحيدة لمستقبل البلاد أنواعا جديدة ومبتكرة للبلطجة الصحفية. وثالثا أننى أرى التحول عن المواجهة الفكرية إلى الهجوم الشخصى شهادة على الإفلاس الفكرى، وإعلانا عن الخروج من ساحة الحوار الجاد، حتى لو كان الاختيار بعد ذلك استبدال الحجارة بالفكرة. ورابعا، أننى أتفهم تماما حالة الارتجاج النفسى والعاطفى والعقلى التى يتعرض لها البعض نتيجة الانقلاب العالمى المعاصر والأفكار التى ترتبت عليه داخل مصر، ومن ثم فإنه علينا أن نتوقع فى مثل هذه الحالات خيالات المؤامرة والعودة الشديدة إلى الماضى. وخامسا أن هناك حدودا فى الوقت والطاقة لدى أى شخص ولا يمكن استنفادها فى معارك لا طائل من ورائها، خاصة فى ظل المهام الكبرى التى أخذها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية على عاتقه من المساهمة فى البناء المعرفى الوطنى حول كافة القضايا والتحديات التى تجابهها مصر فى الإصلاح الاقتصادى

والسياسى ومقاومة كافة أشكال الإرهاب وتنمية الخيارات المصرية بدءا من حقل التكنولوجيا حتى حقل السياسة الخارجية. هذه المهام تترجم عمليا إلى كتب وكتيبات، وتقريرين سنويين، وخمسة مطبوعات شهرية، فضلا عن الندوات وورش العمل المحلية والعربية والدولية، والمساهمة فى مطبوعات الأهرام المختلفة والتى بلغت فى عام ١٩٩٦ ما وصل إلى ٤٩٣ عملا وزاد على ذلك هذا العام. كل ذلك يستدعى جهدا ومتابعة وعملا متصلا مع النخبة الممتازة من الباحثين والخبراء الذين تسبق أفكارهم وطموحاتهم القدرات والإمكانات، ومن ثم فإن أقل ما يستحقونه هو المثابرة والعمل الجاد والحث المستمر، والأهم من ذلك الوقت.

وسادسا، وربما كان ذلك أهم الحجج التى قدمتها، أنه لا ينبغى أبدا أن يطغى الضجيج والصخب على جوهر الخلاف الفكرى الحاد الذى ساد مجتمعنا هذا العام وأظنه سوف يكون معنا خلال الأعوام المقبلة. وفى حياة المجتمعات فإن هناك لحظات ينبغى فيها أن توضع الاختيارات الكبرى فى الداخل والخارج بأكبر قدر من الوضوح، ويصبح بعد ذلك من حق الرأى العام وحده أن يقرر مايراه صالحا. وأظن ان العام الذى نشهد ساعاته الأخيرة عرف - بعد استبعاد التفاصيل والظلال - صراعا حادا بين مدرستين فكريتين واحدة منها تنظر إلى المستقبل وتترقبه بالاستعداد والعلم، والثانية متشبثة بالماضى ولديها قدرة فائقة على الولولة ولطم الخدود والبكاء على الأطلال. الأولى تضع مصر فى مركز اهتمامها وعلى رأس أولوياتها، والثانية تضيع مصر فيها داخل مصالح شعوب ودول أخرى ليس لنا على مسارها وحركتها سيطرة حتى ولو كانت عربية أو إسلامية. والأولى ترى مصر جزءا من عالم يتغير بسرعة مخيفة وعليها أن تتكيف معه بزيادة القدرات والطاقات والقدرة على المنافسة الاقتصادية والسياسية والثقافية، والثانية تراها فى حالة صراع مستمر لايكون إلا بتغيير الدنيا بأسرها حتى تتطابق معنا ووفق شروطنا. والأولى مؤمنة تماما بحرية الرأى والتعبير والاختلاف فى كافة القضايا ما كبر منها وما صغر، والثانية تسمح بذلك - إذا سمحت - فقط فى حدود رؤيتها الأيديولوجية الخاصة وما بعد ذلك محرمات وخطايا جزاؤها الرجم أو الطرد من البلاد أو الطعن فى الرقاب أو الشرف الوطنى. والأولى تستفيد من التجربة العالمية الراهنة والتى تجعل من المبادرة

الفردية والقطاع الخاص رأس الحربة فى التقدم الاقتصادى، والثانية ترى أن التجربة العالمية ما هى إلا حالة ردة مؤقتة وبعدها سوف تعود الشعوب إلى رشدها وتعود بعدها أعلام الاشتراكية خفاقة وعالية، ومن ثم فإن العملية التخصيصية التى تمر بها مصر لا يمكن وصفها إلا بالتعجل فى أحسن الأحوال وبيعا لمصر فى أسوئها. والأولى ترى السياسة حركة وفعلا وتغييرا للواقع من خلال خطوات ومراحل متتابعة تتلاءم فيها الأهداف مع القدرات، والثانية ترى السياسة مواقف كلما علا صوتها ببريق الكلمات وتباعدت فيها المسافة بين الأهداف والإمكانات تكفى لتحقيق النشوة والوصول إلى الغرض.

والأولى تعتبر السلام والاستقرار فى الشرق الأوسط شرطا ضروريا للتنمية المصرية، ومن ثم فهى على استعداد لتسوية عادلة للصراع العربى - الإسرائيلى من خلال عملية السلام التى بدأت منذ موافقة الرئيس جمال عبدالناصر على مبادرة روجرز وحتى اتفاقية الخليل فى يناير الماضى، والثانية ترى أن استمرار الصراع واستئناف الحروب ضرورة لتثوير المجتمعات العربية ولا يجد حله إلا فى التصفية الكاملة للكيان الصهيونى. والأولى على استعداد للحركة على كافة المستويات العالمية والإقليمية والمحلية من أجل تحقيق السلام، والثانية تريده من خلال تحالف مع الدول الراديكالية فى المنطقة. والأولى تنظر إلى اتفاقية السلام المصرية - الإسرائيلية على أنها إنجاز هائل نجم عنه تحرير سيناء واستعادة مصر كافة ترابها الوطنى، والثانية لا ترى فى الاتفاقية إلا عارا مصريا فصلها عن باقى الأمة العربية وخاصة تلك الدول التى تمارس الصمود والتصدى أو تلك التى تريد تحرير كامل فلسطين من خلال الأنغام الدامية لأم المعارك فى الكويت. والأولى تريد للشعب الفلسطينى أن يمارس حقه فى تقرير المصير ويختار استراتيجياته وتكتيكاته العسكرية والسياسية من خلال قيادته الشرعية والوحيدة المنتخبة انتخابا حرا وديموقراطيا، والثانية تريد للشعب الفلسطينى أن يمارس حقه فى تقرير المصير من خلال المساحة التى تتيحها له كافة النظم العربية والإسلامية وحركاتها الثورية وغير الثورية ونقاباتها واتحاداتها المهنية وحتى بعض الأفراد الذين أعطوا أنفسهم حقوق وصاية خاصة والتى فوضت كلها مؤخرا منظمتى حماس والجهاد الإسلامى أن تقوم بهذه المهمة التاريخية من خلال العمليات الانتحارية.

تلك هى القضية الفكرية الكبرى فى مجتمعنا، وما بعدها ليس إلا مماحكات ومحأولات مستمرة لإخراج الكرة من الملعب من قبل الذين لهثت أنفاسهم وعجزت حجتهم، بينما ينبغى للجميع الاحتفاظ بها داخل الساحة حتى تستمر المباراة، وساعتها سيكون شعبنا وحده الحكم!!.

٥- بشأن الذى جرى فى عام ١٩٩٨...!

بعد أيام سوف ينتهى عام ١٩٩٨، ويبدأ العام الأخير من القرن العشرين والألفية الثانية بعد الميلاد، وعندما يرجع المؤرخون إلى ما جرى فيه فسوف يلحظون أنه العام الذى شهد أولى الأزمات الاقتصادية العالمية الكبرى فى عهد العولمة وما بعد انتهاء الحرب الباردة، وبقدر ما سوف يبحثون عن أسبابها ودوافعها، فإنهم سوف يشهدون بتراكم القدرة الدولية على التعامل معها والبحث عن السبل التى تؤدى إلى تجأوزها رغم ما غمض فيها من متغيرات جديدة على الخبرة الإنسانية. ولابد أنهم سوف يسجلون أن السنة انتهت بواحد من أهم الإنجازات التكنولوجية منذ بداية عصر اختراق الفضاء بالبدء فى إقامة أول محطة فضائية مأهولة ودائمة خارج الكرة الأرضية وبالتعأون بين ست عشرة دولة فى مقدمتها الولايات المتحدة، وهو ما سيخلق بعد ذلك قدرات فائقة لاختراق الفضاء السحيق، ويقدم نتائج جديدة تماما للعلوم وسبل الحياة التى تطورت كلها فى التاريخ البشرى تحت ظروف الجاذبية الأرضية. وفى الشرق الأوسط سوف يراقبون بدهشة التغيرات الطفيفة التى جرت عليه، والتى لم تتعد الانكماش الاقتصادى نتيجة انخفاض أسعار النفط، والتوالى الممل للأزمات العراقية، والتقدم الضئيل فى عملية السلام العربية الإسرائيلية ممثلا فى اتفاق واى بلانتيشن.

وفى مصر سوف يلاحظون أن الإرهاب توارى كثيرا وكاد ينتهى بالفعل، أما الحالة الاقتصادية فقد استمرت فى تحسنها وبمعدلات معقولة رغم انخفاض أسعار

النفط وظروف الأزمة الاقتصادية العالمية، أما بالنسبة للحالة السياسية، فإن الملاحظة سوف تكون أنها ظلت على حالها دون تقدم يذكر اللهم إلا من وجود ظاهرة جديدة غير مألوفة هى ثورة أعضاء البرلمان من الحزب الوطنى الديموقراطى على حكومتهم لسبب سوف يجتهد المؤرخون كثيرا فى فهم معناه وهو قيام الوزراء بإعطاء تأشيرات مضروبة للنواب، وإصرار رئيس مجلس الشعب على ضرورة حضور الأعضاء لجلسات مجلس الشعب، وهو التقليد الذى لم يكن قد استقر بعد فى الحياة السياسية المصرية. ومن المرجح أن المؤرخين سوف ينقسمون إزاء هذه الظاهرة، فالقانونيون لن يجدوا فى القانون واللوائح ما يعطى النواب الحق فى عدم مباشرة حقوقهم السياسية التى انتخبوا من أجلها، أما الأكثر فطنة من باحثى العلوم السياسية، فإنهم لن يجدوا سببا واحدا لإصرار البعض على حضور النواب للجلسات فى ظل التفاهمات القائمة وغير المكتوبة بين الحكومة ونوابها، خاصة فيما يتعلق بمجلس حكمت محكمة النقض ببطلان انتخاب ما يقرب من نصف أعضائه، ولولا أن التقاليد استقرت على أن المجلس هو سيد قراره لكانت هناك انتخابات جديدة تصحح الأوضاع وتضعها فى مسارها المستقيم.

ولكن الذى سوف يلفت نظر المؤرخين كثيرا هو الهجمة الشرسة التى شنها البعض على البحث العلمى ومنظمات حقوق الإنسان، وربما سوف يعتمدون تاريخ بدء الهجمة فى شهر سبتمبر عندما جرى الهجوم على استطلاع الرأى العام الذى قام به مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام والذى اتهم بالسرية وانتوجه إلى جهة أجنبية واختراق الأمن القومى والبحث فى تلافيف عقل الشعب المصرى الذى يجب أن يظل مغلقا لا يعرف أحد عنه شيئا. وبعد ذلك امتدت الهجمة لكل ما يمت للبحث العلمى فى العلوم الاجتماعية بصلة، وكانت الذريعة للهجوم هذه المرة هى التمويل الأجنبى الذى ما لبث أن صار اتهاما بالخيانة وبيع مصر ليس فقط لمراكز البحث العلمى العامة والخاصة، وإنما امتد لجماعات حقوق الإنسان والجمعيات الأهلية، وعلى الأرجح سوف يجد المؤرخون مفارقات مدهشة لابد أنهم سوف يتعبون كثيرا فى البحث عن تفسير لها.

المفارقة الأولى أن الحملة نشبت وكأن هناك حربا ضروسا تجرى بين مصر والولايات المتحدة والدول الغربية التى جاء منها التمويل، رغم معرفة القائمين أن

المعونات التى جاءت من هذه الدول لمصر تجأوزت ستين مليار دولار خلال العشرين عاما السابقة لم تحصل على مثيل لها أية دولة أخرى من دول العالم الثالث، وأن التجارة المصرية فى معظمها تجرى مع هذه الدول، بل إنه فى وقت الهجمة جرت مناورات عسكرية مشتركة بين الولايات المتحدة ومصر، كما جرى حوار استراتيجى هدفه تعزيز العلاقات الوثيقة بالفعل بين الطرفين، كما كانت تجرى مفاوضات للمشاركة بين مصر والاتحاد الأوروبى فى إطار إعلان برشلونة الذى له جوانب أمنية وأخرى اقتصادية وثالثة تتعلق بالديموقراطية وحقوق الإنسان. النتيجة المنطقية لذلك هو أن هناك مصالح استراتيجية مشتركة بين الطرفين، وأن التنمية والاستقرار فى مصر هى من ضمن مصالح العالم الغربى نظرا لدورها الإقليمى والعالمى، ولكن المفاجأة التى سوف يجدها المؤرخون أن بعض كتابنا وصحفنا تصوروا أن هناك حربا تجرى بين الطرفين، وسوف يقفون كثيرا أمام ما كان يكتبه واحد من كبار كتاب المعارضة عن المواجهة بين الجبهة العربية ـ الإيرانية التى تقف فيها مصر رغم عدم وجود علاقات دبلوماسية بين القاهرة وطهران، والتحالف الأمريكى الصهيونى رغم كل ما ذكر عن العلاقات بين القاهرة وواشنطن.

المفارقة الثانية أن الحملة على جمعيات حقوق الإنسان جاءت من صحيفة يشارك كبار كتابها فى مجالس أمناء الجمعية المصرية لحقوق الإنسان وفى جمعيات أخرى تعمل فى نفس الحقل، بل إن رئيس تحرير الصحيفة كان عضوا قياديا فى الجمعية المصرية وقت أن كانت تتلقى التمويل الأجنبى من ستة مصادر ممتدة من واشنطن حتى استوكهولم. ولا شك أن تفسير ذلك سوف يستعصى على المؤرخين، خاصة أن الحملة نظرت إلى الجمعيات وكأنها مجموعة من البوتيكات أو الدكاكين التى لا تعرف الشفافية المحاسبية رغم أن كل إصدارات هذه الجمعيات تكتب على كافة مطبوعاتها مصادرها التمويلية، كما أن تقاريرها السنوية المقدمة لمجالس أمنائها تحتوى على كل التفاصيل الخاصة بمحاسباتها المالية التى لابد من اعتمادها من محاسبين ومراجعين معتمدين، ولذا ربما يستخلصون أن تقاليد عام ١٩٩٨ كانت أن الشفافية تحتسب فقط عندما تعرض الموازنات على الصحيفة المعنية حتى تعطى البراءة من التلاعب وهى المهمة التى لم يختصها بها الدستور أو القانون العام، خاصة أنها ذاتها، ومعها بوتيكات ودكاكين صحفية، لا تخضع لنفس التقاليد المحاسبية فى عرض موازناتها على جمعيات حقوق الإنسان.

المفارقة الثالثة أن الصحافة المصرية فى نهاية القرن العشرين لم تكن تعرف الكثير عن فضيلة التحقق من المعلومات ومصادرها، فبعد ما يقرب من قرن ونصف قرن من تاريخ الصحافة فإن قولا ذاع فى بر مصر أن المؤسسات الأجنبية أعطت مائة مليون دولار (أى ٣٤٠ مليون جنيه مصرى بسعر صرف الجنيه فى عام ١٩٩٨) للبحوث الإجتماعية. وعندما سيقلب المؤرخون فى المقالات والتحقيقات الصحفية فلن يجد أحدا ذكر مرة واحدة مصدر هذه المعلومة، مما سيدفعهم لمراجعة ميزانيات المؤسسات المانحة والمتاحة لمن يبحث عنها لأنها كلها تنتمى لدول تجعل الشفافية أمرا هاما من أمور سياستها، وساعتها سوف يكتشفون حجم المفارقة لأنهم سيجدون أن المبلغ الذى خصصته هذه المؤسسات للدول العربية جميعا لا يتعدى فى مجموعه ١٥ مليون دولار (تقدم مؤسسة فورد الأمريكية ١٠ ملايين من هذا المبلغ والباقى موزع على كافة المؤسسات الألمانية والهولندية والإسكندنافية المختلفة)، أما نصيب مصر فى هذا المبلغ فيقل عن خمسة ملايين دولار(تقدم منها مؤسسة فورد مليونين والباقى موزع على المؤسسات الأخرى)، أى نحو ٥٪ من المبلغ الذائع فى الصحافة المصرية. ومع ضآلة هذا المبلغ فإن المؤرخين المخلصين سوف يندفعون لتعرف موازنات المؤسسات المشابهة فى العالم ليكتشفوا أنه طبقا لأرقام التسعينيات فإن أعلى المؤسسات البحثية فى العالم من حيث مصروفات التشغيل السنوية كان مؤسسة راند الأمريكية التى بلغت موازنتها السنوية ١١٥ مليون دولار، أما أصغرها على الإطلاق وفقا لما هو مسجل فهو المركز الإقليمى للدراسات الإقتصادية والاجتماعية والتنمية فى دولة كينيا الإفريقية والفقيرة وموازنته السنوية ٥٠٠ ألف دولار، أى أعلى من موازنة أى مركز علمى غير حكومى للبحوث الاجتماعية فى مصر، باستثناء مركزين للدراسات الاقتصادية يقومان بوظائف استشارية للحكومة المصرية وهيئة المعونة الأمريكية. وبين المعهدين توجد المراكز العظمى مثل المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية فى لندن والذى بلغت موازنة التشغيل فيه عن عام ١٩٩٧ مايزيد على أحد عشر مليون جنيه استرلينى، أما معهد جافى للدراسات الاستراتيجية فى جامعة تل أبيب فكانت موازنته عن نفس العام ٣ ملايين دولار، أما معهد بحوث التنمية فى تايلاند فإن موازنته ٣,٥ مليون دولار.

إزاء هذه المعلومات المتاحة والتى لم يتم البحث عنها ربما نتيجة الكسل المهنى، فإن ما قيل فى عام ١٩٩٨ عن ملايين الدولارات التى تتبختر فيها مؤسسات البحث

فى العلوم الاجتماعية سوف يكون متجنيا للغاية، خاصة وأن الصحافة المهاجمة لم تبذل مجهودا يذكر لحصر الإنتاج العلمى لهذه المؤسسات والبحث فى تكلفة هذا الإنتاج من حيث عدد الباحثين المشاركين والمصروفات الإدارية والطبع والتوزيع حتى يمكنها الاكتشاف أن الباحثين المصريين المطلوب منهم إنتاج علمى راق يدعم المعرفة العلمية فى البلاد اللازمة لأى تقدم سياسى واقتصادى واجتماعى كانوا بالكاد يعيشون فى ظروف معيشية تمثل الحد الأدنى الذى يمنعهم من الهرب إلى الخليج أو العمل لدى الصحف والمجلات والإذاعات العربية والأجنبية والتى أتاحت لآخرين من نفس الأجيال ثروات طائلة.

المفارقة الرابعة سوف تأتى من عدم فهم المؤرخين كثيرا لماذا ثارت الضجة حول التمويل الأجنبى خاصة أن الغالبية الساحقة من هذا المبلغ توجه إلى مراكز بحوث تابعة للجامعات الحكومية أو لمؤسسات شبه حكومية وكلها خاضعة للمراقبة والمراجعة من الأجهزة المعنية، ولذا لم يكن مفهوما لماذا طلبت الصحافة الثائرة من الحكومة التدخل فى الموضوع وهى التى تحصل على الجانب الأعظم من الأموال، والأهم من ذلك أن الحكومة ذاتها هى التى سعت ونجحت فى سعيها لعقد اتفاقيات مع الحكومات الأجنبية والهيئات المانحة لفتح مكاتب فى مصر تكون وظيفتها تحديدا هى إعطاء المنح فى مجال البحوث الاجتماعية التى لابد أن الدولة المصرية رأت فيها فائدة لزيادة الطاقة العلمية والمعلوماتية فى مصر المحروسة التى لأسباب تاريخية كانت طاقتها الاقتصادية ضعيفة وعاجزة عن توفير الموارد لأبحاث حقيقية، حتى إن المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية بدأ بحثا عن توزيع المصريين لوقتهم عام ١٩٨٧ وانتهى فى عام ١٩٩٨ أى بعد أحد عشر عاما توارد عليه ثلاثة أطقم بحثية، ثم انتهى بأن يكون بحثا استطلاعيا على عينة من ٢٠٠ مفردة (قارن ذلك بالبحث الذى أجراه مركز الدراسات عن المشاركة السياسية والذى استغرق ستة أشهر فقط وكان الاستطلاع على ١٣٠٠ مفردة) . صحيح أن البحث فى النهاية مثل إضافة علمية مرموقة للمعرفة فى مصر، إلا أن إنتاجه فى هذه المدة وعلى هذه الصورة فى النهاية كان تعبيرا عن ضعف الطاقة على إنجاز البحوث فى الوقت الذى يحتاجها فيه المجتمع بسبب فقر الموارد المادية التى جعلت الأطقم البحثية تترك البحث بحثا عن أعمال أخرى داخل الوطن أو خارجه تعينها على أعباء الحياة. من هنا سيجد المؤرخون أنفسهم أمام تساؤل ربما سوف يعجزون

عن الإجابة عنه، وهو لماذا شنت الصحف هذه الهجمة على مراكز البحث العلمى والتمويل الأجنبى تحت راية حماية الأمن القومى رغم أن المسألة كانت أبسط من ذلك بكثير، وهى أن تطلب من الحكومة إغلاق مكاتب المؤسسات المانحة فى مصر، وتلغى الاتفاقيات التى وقعتها معها وكفى المؤمنين وغير المؤمنين شر القتال.

المفارقة الخامسة تخص التحقق فيما يتعلق بجمعيات حقوق الإنسان، فالمؤرخون سوف يدهشون كثيرا من أن أحدا لم يتحقق ولم يبحث فى وظائفها التى تقوم بها، وعما إذا كان ذلك يبرر تعددها أم لا، فالنظرية الشائعة فى عام ١٩٩٨ كانت أن هذا التعدد راجع لأسباب شخصية نتيجة رغبة كل فرد من نشطاء الحقوق أن يكون له بوتيكه الخاص، ولكن النظرة الفاحصة ربما دلت على أن كل واحدة منها كان لها مجال عملها المتميز والذى يحتاج إلى برامج مختلفة من العمل والاحتراف المهنى، فمن المؤكد أن مجال المساعدة القانونية الذى يحتاج إلى محامين يختلف عن مجال التعذيب الذى يتطلب أطباء. وربما كانت نظرة أخرى على بلدان أخرى متقدمة ومتخلفة ومراقبة ما فيها من منظمات سوف يجد هذا التعدد طبيعيا للغاية، ولايدعو إلى سوء الظن والتقدير، والإستغراق فى تشويه السمعه والحط والازدراء بجماعة من المصريين لم يختلف أحد على نبل المهمة التى يقومون بها. هنا سوف يدهش المؤرخون كثيرا لمدى الخفة التى تم بها تناول الموضوع وكأن هذه المنظمات تقف فى مواجهة وزارة الداخلية المصرية التى قامت بجهد بطولى خلال العام لمقاومة ظاهرة الإرهاب كما فعلت خلال السنوات السابقة، ففى الحقيقة فإن جهود هذه المنظمات كان يهدف فى النهاية إلى التكامل مع جهود الوزارة وترقية وسائل عملها، كما يفعل الصحفيون عندما ينتقدون سلامة الطرق دون انتقاص من جهود وزارة التعمير، أو انتقاد انقطاع الكهرباء فى بعض المناطق دون انتقاص من جهود وزارة الكهرباء، أو انتقاد مناهج التعليم دون انتقاص من جهود وزارة التربية والتعليم. فلو أن مثل هذه النظرة سادت لأدى ذلك إلى ترقية مصر كلها وارتفعت مستويات التعامل مع حقوق الإنسان فى مصر وهو هدف يصبو إليه العاملون فى حقل حقوق الإنسان وفى وزارة الداخلية على السواء.

إزاء هذه المفارقات الخمس فإن المؤرخين سوف يجدون صعوبة كبيرة فى تفسيرها، وربما تذهب بهم اجتهاداتهم بعيدا هنا أو هناك، ولكن سوف يلفت نظرهم كثيرا أن جماعة من الصحفيين أصبحت مصابة بحساسية بالغة من موضوع المعرفة

والبحث العلمى، ربما لأن كتاباتهم الإنشائية والقائمة على الولولة ولطم الخدود باتت مهددة من نوعيات جديدة من الكتابة قائمة على المعرفة والمعلومات التى يتيحها البحث العلمى الرصين. وسيقف واحد على الأقل من المؤرخين أمام عبارات وردت فى مقال لرئيس تحرير إحدى صحف المعارضة التى قال فيها إن البحوث الاجتماعية لا تتكلف شيئا على الإطلاق، والأهم أن الانتقادات التى يقدمها للتمويل الأجنبى لا تنطبق على التمويل العربى والإسلامى، والعبارات التى جاءت على يد كاتب مرموق فى صحيفة قومية من أن العيب فى منظمات حقوق الإنسان أنها لم ترتبط بالتوجه والحس الإسلامى للبلاد. وربما لن يستطيع هذا المؤرخ أن يصل إلى القطع فى استنتاجاته من هذه العبارات، ولكنه سوف يجد شبهة فى أن البعض فى بر مصر عام ١٩٩٨ كان يريد الاستثناء لنوعية معينة من البحوث الممولة من دول راديكالية ومحافظة فى المنطقة ولا يعرف أحد عنها شيئا كما هو الحال مع التمويل الأجنبى الذى يمكن لأى إنسان باحث عن الحقيقة أن يعرفه، كما أنه سوف يجد شبهة فى أن البعض كان يأسف لأن التيار الإسلامى الأصولى لم يتمكن من السيطرة على جماعات حقوق الإنسان كما فعل مع الكثير من المؤسسات الاجتماعية والسياسية فى مصر، وهى نقطة تحسب لهذه الجماعات ولا تحسب عليها.

هذه التفسيرات سوف تظل قاصرة وناقصة، ولكن أيا ما كان التفسير فإن اندهاش المؤرخين الأكبر سوف يكون من عجز البعض فى النخبة المصرية عن التوصل إلى لب المشكلة الخاصة بالتمويل الأجنبى، والتى إذا وضعت إلى جانب المعونة الأجنبية، وهجرة العمالة المصرية إلى الخارج، لدلت على أن المشكلة تكمن فى ضعف الطاقة الاقتصادية لمصر فى نهاية القرن العشرين والحاجة الماسة لكى توجه كل الجهود المصرية لمعالجة هذه القضية من أجل اعتماد مصر على ذاتها دون حاجة لكل ذلك. ومن المؤكد أنهم سوف يتعجبون كثيرا من هؤلاء الذين لم يدركوا فقط هذه الحقيقة وإنما كانوا يعملون بكل الطاقة على توريط مصر فى كل ما يكلفها غاليا من صراعات خارجية، ويقفون موقفا مهاجما لكل محاولات الإصلاح الاقتصادى التى تتم بغرض زيادة الطاقة الاقتصادية لمصر. هنا فإن المؤرخين سوف يتساءلون عن تلك المصادفة التى تجمع هذه المواقف المتناقضة، ولكن أيا كانت تساؤلات المؤرخين، فإننا نقول لقرائنا الكرام، كل عام وأنتم بخير !!.

٦- ليلة رأس السنة ٢٠٠٠...!

إليوم من المؤكد أن كل المصريين يعرفون أين قضوا ليلة رأس السنة ١٩٩٦، ولكن كثيرين غيرهم فى العالم لم يكتفوا بهذه المعرفة بل باتوا يبحثون عن المكان الذى سيكونون فيه ليلة رأس سنة ٢٠٠٠، أو بداية الألفية الثالثة بعد الميلاد. ولدهشة القادرين منهم فإنهم وجدوا كل الأماكن الرئيسية فى الدنيا من فنادق وقاعات لهو قد تم حجزها بالفعل وأصبحت كاملة العدد منذ عام ١٩٩٠ من هؤلاء الذين كان لديهم القدرة على التخطيط والتنبؤ على مدى عقد كامل وربما أكثر. وربما يعرف بعض المصريين أين تقع مكانة مصر على خريطة العالم الاقتصادية والسياسية مع بداية النصف الثانى من التسعينيات، ولكن موقعها وموضعها مع نهاية القرن العشرين سوف يتوقف كثيرا على الاختيارات التى نختارها داخليا وخارجيا. فقد انتهى الزمن الذى تحجز فيه أمة مكانتها على موائد العالم الرئيسية، بفعل تاريخها أو جغرافيتها، أو بفعل صلات الحسب والنسب، أو لمجرد اعتيادها واعتياد الآخرين وجودها فى نفس المكان فى كل قرن وفى كل عام.

وأين ستكون مصر فى ليلة رأس السنة ٢٠٠٠ سيتوقف كثيرا على الكيفية التى تختار بها وتؤلف ما بين الدوائر الخارجية العديدة العربية والأوسطية والمتوسطية والإفريقية والتى تناديها إليوم، وتدعوها بالإغراء تارة، والضغوط تارة أخرى، وبالحنين تارة ثالثة، والمصلحة تارة رابعة. وربما كان أسوأ ما تفعله مصر أن تترك نفسها فى مهب كل ريح وعاصفة، لتجد نفسها على شطآن لم ترغبها، أو على موائد لم تألف من يجأورونها فيها، أو فى فنادق لم يعرف لها نجوم، أو لا تجد لنفسها مكانا على الإطلاق، فتقضى الليلة التى ستنبئ بكل ما سيأتى فى القرن القادم موزعة بين خوف ووحشة وعزلة. أما أفضل ما تفعله، فإنها تفعل ما فعله آخرون عندما عرفوا منذ أكثر من خمس سنوات مضت أن التزاحم والتدافع على ناصية الزمن القادم يقتضى اتخاذ إجراءات فى التو واللحظة للتأكد من الحصول على مقعد بين الأكثر بأسا وغنى !.

و للأسف فإن اختيارات مصر الكبرى حتى الآن لم تأخذ ما تستحقه من عناية وتمحيص. الدولة لديها ما يكفيها وهى مشغولة بالإدارة اليومية لشئون ستين مليونا يزيدون كل لحظة، وبمقاومة الإرهاب، ومؤخرا مواجهة الكوارث الطبيعية من زلازل وسيول، وتسيير الأمور الخارجية وفق قائمة الأعمال التقليدية فى المنطقة من التسوية العربية الإسرائيلية إلى المصالحة العربية إلى حل المنازعات الإفريقية، وكلها تنتمى إلى الماضى، ولا مكان فيها لمستقبل. المثقفون والكتاب استهوتهم كثيرا المقارعة بين الشرق أوسطية والعروبة، وأفردت لهما صفحات الصحف وقاعات الندوات، حتى وجد فيها شعراء ساحة أكثر إثارة من الحب والغرام. وبقيت ساحة المتوسط وإفريقيا مرتبطة بمؤتمرات القمة، والمنازعات والمذابح فى الصومال ورواندا وبوروندى، ترتفعان فى الاهتمام العام ليوم أو يومين، ثم تذهبان إلى النسيان حتى تأتى مناسبة تالية جديرة بصور الصحف وكاميرات التليفزيون !.

ولكن المؤكد أن الأمر من الأهمية بحيث يحتاج منا أولا إلى الاتفاق على المعيار الذى على أساسه نختار ونقرر أين نركز مواردنا المادية والبشرية والمعنوية المحدودة لتحقيق الحد الأقصى من المصلحة الوطنية. ولكن البعض منا لا تعنيه القضية على الإطلاق، فأين نكون ليلة رأس سنة ٢٠٠٠ فى رأيه مسألة تنتمى إلى الغرب ولا تهمنا فى قليل أو كثير، ولا تقع فى دائرة تقاليدنا ومواريثنا، وفى الحقيقة أن ما يهمه هو كيف ننقل القضايا التى شغلتنا منذ القرن التاسع عشر إلى القرن الحادى والعشرين. والبعض الآخر يعتقد أن القضية محسومة إلى الدرجة التى لا نحتاج فيها إلى بحث أو تفكير، فخيار الهوية العربية يحتم علينا قضاء وقدرا أن نقوم بما قام به سيزيف فى الأسطورة المشهورة فنحمل صخرة العروبة على كاهلنا إلى قمة الجبل، وكلما سقطت من بين أيدينا إلى السفح ما علينا إلا الهبوط معها ومعاودة الصعود من جديد. والبعض الثالث لا يرى أن هناك اختيارا يحتاج إلى قرار، وان ما علينا إلا الذهاب فى كل الاتجاهات والبحث عن المصلحة حيث توجد. وهكذا فإن الاتفاق على الكيفية التى نختار بها ونؤلف بين الاختيارات الكبرى، ربما يحتاج إلى اتفاق قبله حول أهمية الموضوع وحيويته، وهى مسألة تحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير، وربما معاودة قراءة هذا العمود من أوله مهما كان صداع اليوم التالى لرأس السنة لا يزال باقيا. .!.

٧- بشأن الذى جرى فى ألف عام... !

أيام وتنتهى الألفية الثانية بعد الميلاد وتبدأ ألفية جديدة يعلم الله وحده إلى أين تنتهى بنا وبالبشرية، ولعلى من أكثر الناس سعادة بالوصول إلى سنة ٢٠٠٠ ليس بسبب العولمة الملعونة، وإنما لأنه منذ بلغت سن الوعى فى مطلع الستينيات والحديث عن ذلك العام السحرى لا ينقطع، وها نحن أخيرا قد أقبلنا عليه وعرفنا الذى جرى، وسوف نحتاج فترة أخرى طويلة حتى يبدأ الحديث مرة أخرى عن الألفية الرابعة وقى الله القادمين من بنى البشر شر الصراع والاقتتال حولها. ولعلى حسدت كثيرا هؤلاء الذين عاشوا عشية الألفية الثانية، فعلى الأرجح أنهم لم يصدعوا رءوسهم بالموضوع لأن الإحساس والشعور بالزمن ومنجزاته لم يكن بذلك الإلحاح الذى نعرفه إليوم، ولم يكن ما عرفوه عن الألفية الأولى يختلف كثيرا عن خمس ألفيات سبقتها قبل بداية التاريخ الميلادى الذى صار معبرا عن تاريخ الإنسانية كلها، ولعل ذلك كان أبرز ما حققوه من منجزات على مستوى العالم، وما عدا ذلك كانت هناك منجزات حققتها إمبراطوريات وأقوام متفرقة عرفوا شريعة التوحيد تحت راية الإمبراطورية الرومانية المسيحية والإمبراطورية العربية الإسلامية.

أما الألفية الثانية فقد كانت حافلة خاصة فى قرونها الثلاثة الأخيرة خاصة فيما تعلق بالمعادلة الأزلية بين الإنسان والغذاء، فقد كانت مسيرة الإنسانية سهلة فى بداية الخلق، كان الخير فيها كثيرا ووافرا حتى إن نسل آدم وحواء أخذ يتزايد تدريجيا حتى وصل عدد من سكن الكرة الأرضية إلى ٣٠٠ مليون نسمة فى عهد النبى موسى عليه السلام، وبعدها استقر الرقم على هذا المنوال تقريبا لقرابة ألفين من الأعوام ، كانت فيها سنون سمان وأخرى عجاف، وكانت فيها أزمنة وعصور، ومر أنبياء وأباطرة، وصعدت وهبطت دول وممالك، كان البشر فيها يتناسلون قدر ما أسعفتهم الطاقة والموارد، وكانت الأمراض والأوبئة والحروب ونفاد الغذاء تتكفل بإبقاء التوازن على حاله عند ذات الرقم. ولكن وبعد الثورة العلمية والتقدم التكنولوجى والطبى وفى وقت ما فى نهاية القرن الثامن عشر أخذت البشرية فى

النمو مرة أخرى حتى اكتمل مليارها الأول مع مطلع القرن العشرين، وبعدها تسارعت معدلات النمو السكانى حتى جاء المليار الثانى مع حلول عام ١٩٢٧ والثالث عام ١٩٦٠ والرابع عام ١٩٧٤ والخامس عام ١٩٨٧ والسادس عام ١٩٩٩. وهكذا فإن أبرز منجزات الألفية الثانية كانت استعادة الإنسان لعافيته الإنتاجية حتى فاقت عافيته الجنسية والتناسلية لإنتاج المزيد من البشر، ولم يكن ذلك ممكنا لولا الثورات الزراعية والصناعية التى عاشها وحققت لأول مرة عولمة العالم والتى بدأت مع الكشوف الجغرافية التى لفت الأرض واستلزمت التطور فى وسائل الإتصال والمواصلات، وكلاهما عرفنا بوحدات زمنية أكثر قصرا، وبعد أن كان الإنسان يعرف حياته بآلاف السنين ثم بالقرون ثم بالسنوات بات يحسبها بالساعات والدقائق والثوانى حتى وصل عالمنا المصرى أحمد زويل إلى الفيمتو ثانية !.

ويشكل ما كان ذلك دلالة على التقدم الإنسانى بشكل عام، ولكن على الوجه الآخر كان الثمن فادحا، فالسبعة قرون الأولى من الألفية الثانية شهدت حروبا دينية طاحنة، فعرفنا الحروب الصليبية فى قلب العالم القديم تحت رايات المسيحية والإسلام، وبعدها انتقلت الحروب إلى داخل كل دين، وعرفت أوروبا بالذات حروبا بين البروتستانتية والكاثوليكية عرفت بحرب المائة عام تخللتها نوبات من المجاعات والأوبئة التى كان أبرزها الطاعون، وبعد إرهاق شديد استقرت الدولة القومية لأول مرة مع معاهدة ويستفاليا فى منتصف القرن السابع عشر لكى يبدأ بعدها الزحف الأوروبى على العالم الذى أخذ شكل الحروب الاستعمارية التى وصلت ذروتها مع القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. ومن المدهش أن الحروب الاستعمارية ولدت معها حروب التحرر الوطنى، وكان الأول منها قد جاء مع الثورة الأمريكية التى لم تكن أول من حقق جلاء للمستعمرين فقط ولكنها لأول مرة تهز المركز الأوروبى للعالم وتنقله بعيدا عنها إلى العالم الجديد، وهو الأمر الذى خلق تيارا عالميا نحو التحرر استمر حتى الستينيات من القرن العشرين عندما لفظت الظاهرة الاستعمارية التقليدية أنفاسها.

ولم يكن ذلك ممكنا لولا أن أوروبا أرهقت نفسها بتناقضات هائلة أدخلتها فى حروب طاحنة فاق ضحاياها كل ما عرفته البشرية طوال ألفياتها السابقة، فالدولة القومية التى أفرزت الثورات الصناعية المتتالية ولدت معها أيديولوجيات جماعية

كانت واحدة منها على إليمين المتطرف، حيث ظهرت الفاشية والنازية فى إيطاليا وألمانيا، وواحدة منها كانت على إليسار المتطرف أيضا الذى جاء مع ظهور الشيوعية التى تجسدت فى الثورة البلشفية فى روسيا. ورغم أن الحربين العالميتين فى النصف الأول من القرن العشرين نجحتا فى تصفية الأيديولوجيات القومية، فإن الحرب الباردة التى لم يمتشق فيها سيف ولم يشرع فيها رمح ولم يطلق فيها رصاصة واحدة هى التى قادت إلى تصفية الأيديولوجية الثانية وإمبراطوريتها السوفيتية وتوابعها الاشتراكية والتى انهارت كبنيان من الورق.

ومن المدهش أن الألفية التى عرفت هذه السلسلة المميتة من الحروب الدينية والاستعمارية والتحررية والأيديولوجية قادت فى النهاية إلى عالم أكثر اندماجا وتكاملا بل وقادرا لأول مرة فى التاريخ البشرى على الخروج إلى خارج الكرة الأرضية لكى يداعب أقمارا وكواكب ونجوما كان غموضها يشكل وحيا وشعورا غامضا بالحب والجمال والتواضع البشرى إزاء الكون كله. ولم يكن ذلك ممكنا لولا القفزات التكنولوجية التى انتجت الحروب والصراعات كثيرا منها، وتكفلت بالباقى طرق الصناعة والتجارة وحركة الإنسان عبر القارات والبحار. وعلى مسيرة الإندماج هذه كان هناك بعض البشر أسرع من غيرهم، وقدمت أوروبا أول معجزة للتكامل والاندماج دون جيوش أو مدافع، حتى باتت قبل انصرام الألفية وحدة اقتصادية واحدة وتضع أسسا لتجاوز الدولة القومية سياسيا ودفاعيا من خلال الاختيار الطوعى للأمم والشعوب، وكل ذلك فى تماس مع عمليات أكبر على مستوى العالم كله تحركها منظمات اقتصادية وشركات وأسواق للمال والبضائع.

ومن المدهش أكثر أن الألفية التى بدأت بالصراعات بين الأقوام والقبائل انتهت فى زمن الاندماج العالمى بالعودة إلى نفس البداية مرة أخرى، وكأنه لم يكن كافيا انهيار الدولة القومية نتيجة عمليات الاختراق العالمى لها، وإنما أيضا نتيجة عودتها مرة أخرى إلى وحداتها العرقية والدينية والاثنية، فلم يكن الاتحاد السوفيتى هو الذى تفكك وحده وإنما معه دول أخرى كثيرة أخذ التفكك فيها أشكالا وأنماطا مختلفة، وبعضها صاحبه عنف وبأس شديد، وبعضه تم بطرق سلمية ومخملية، وكأنه بات على كل دول العالم أن تختار طريقها بين الاندماج والتفكك. كل ذلك جرى فى

الألفية الثانية، أما عن االثالثة المقبلة، فهذه قصة أخرى سوف يحكيها لكم شخص آخر فى الأهرام العربى بعد ألف عام !!.

٨- أفراح رحلة قرص الشمس...!

ليلة الألفية الثالثة لم تكن كما كل ليلة، ومن تابعوها على شاشات التليفزيون كان عليهم متابعة رحلة قرص الشمس حول كل نقطة فى الكرة الأرضية، أو على الأدق رحلة كل من هذه النقطة وهى تدور حول الشمس وحول نفسها لتؤذن بنهاية اليوم الأخير من ألف عام، وفى لحظتها كانت هناك كاميرات البشرية تنقلها إلى كل أرجاء المعمورة، وفى مكان ما من المحيط الهادى كانت بداية النهاية، وبعدها انتصف الليل عند كل خط طول، وعند كل منطقة زمنية، وعند كل البشر بثقافاتهم وحضاراتهم المتنوعة، وفى كل مكان كان هناك القادة يبدأون شيئا ما تنطلق بعده إلى السماء كل الأضواء الملونة، وسواء كانت المسألة فى يد الرئيس زيمين فى الصين، أو مبارك فى القاهرة، أو الأمير تشارلز فى لندن، أو كلينتون فى واشنطن، ومعهم جميعا تنوعت رسالة إلى العالم عبر الأقمار الصناعية، وكلها كانت ممتلئة بالشباب، كلها رغم اختلاف كل اللغات كان فيها مكان للافتة كتب عليها HAPPY NEW YEAR!!.

ولم يكن ذلك فقط ما جمع العالم على موعد، وإنما تعبيرعن الفرحة الإنسانية بالوصول إلى هذه النقطة من الزمن، فوجود الإنسان على الأرض لم يكن دوما مسألة مفروغاً منها، فقد وجدت عليها مخلوقات عديدة ولكنها لسبب أو لآخر اختفت كلية إما لأنها عجزت عن التكيف مع الظروف المتغيرة وإما لأنها خلقت لنفسها ظروف تدميرها، وهى النقطة التى اقترب منها الإنسان كثيراً عندما اخترع السلاح النووى وما تفرغ عنه من أسلحة، ومع ذلك فقد بقى السلاح فى محبسه، وما كان من حرب باردة كان من الممكن تحولها إلى حرب ساخنة لم يحدث بل تسلل الدفء

إلى علاقات كانت منذرة وخطيرة، وهكذا فإن الإنسان انتصر على نفسه وشره، وبقى يعمر فى الأرض، بل ربما يستفيد من التطور الذى أحدثه على طريق الهلاك لكى يستخدمه على طريق السلم والعمران، فالصاروخ الذى كان متوقعاً أن يحمل عدداً من الرءوس النووية لتدمير البشرية كان هو الذى عليه بعد ذلك أن يحمل الكبسولات المأهولة أو غير المأهولة إلى الفضاء الخارجى.

الفرحة الكبرى إذن كانت بانتصار الإنسان على نفسه واحتفاله بوصوله إلى هذه النقطة من الزمن أى بعد ألفى عام من ميلاد المسيح، ولكن النقطة زمنيًا رمزية، فهى تحمل معها كل النقاط الزمنية الأخرى لما قبل الميلاد وبعده، وعندما خرجت القيادات الصينية فى بكين بكامل هيئتها، فإنها كانت تحتفل أيضاً بالتقويم الصينى، وكذا فعل المصريون الذين احتفوا مع الألفية الثالثة بسبع ألفيات سبقتها، وباختصار كبير فإن البشرية التى جاءت فى قوارب زمنية وحضارية مختلفة كانت فى لحظة مرور قرص الشمس تعيش كلها فى سفينة وحضارية مختلفة كانت فى لحظة مرور قرص الشمس تعيش كلها فى سفينة واحدة أقرب إلى سفينة نوح التى صارت الكرة الأرضة كلها.

ولكن المسألة لم تكن «البقاء» فقط، ولكنها كانت التقدم أيضًا، وهناك شائعة ذائعة بين العامة أن الإنسان يتأخر ولا يتقدم، وأنه فى الماضى كان أكثر سعادة من الحاضر، وأكثر من ذلك أنه كان فيما مضى أفضل صحة وأشد عافية، وهكذا الحديث فى حد ذاته جاء بسبب التقدم، فالإنسان القديم لم تكن تشغله القضية كلية، وعما إذا كان يسير إلى الأمام أم إلى الخلف، وبالتالى فإن موضوعات كالتقدم والسعادة والصحة والتماسك الأسرى، هى من حصاد الفكر الإنسانى المتقدم الذى أخذ بأدوات العلم يقيس الماضى ويفحص العلاقات الاجتماعية، وعندما بدأ الإنسان فى المقارنة فى المكان أو فى الزمان، فإن معرفته تضاعفت كثيراً، وبات ممكناً نقل الخبرات، والتكنولوجيا والأدوات والوسائل، ومن المؤكد أن الزيادة السكانية، وزيادة عمر الإنسان، لم تكن نتيجة التأخر والتعاسة وإنما نتيجة تحسن قدرات الإنسان الفعلية التى أعطته امتدادات هائلة لقدراته، فالحب الذى كان يمارس فى الماضى تحت ضوء القمر، بات الآن من الممكن ممارسته فى كل الأوقات تحت مصابيح متفأونة

القوة والخفوت والألوان داخل أماكن نظيفة وملهمة، وحاجات الإنسان الأساسية التى كانت تتم تلبيتها فى الهواء الطلق، حيث درجات الحرارة والبرودة لم تكن مواتية، فضلاً عن الحشرات والزواحف غير المأمونة، باتت الآن تتم فى أماكن مغطاة بالسيراميك المريح والمبهج.

السعادة إذن التى كنا نسمع دومًا أنها شائعة فى الماضى لا يوجد الكثير مما يؤيدها، وعلينا أن نتأمل عالماً مليئًا بأمراض الملاريا والتيفود والطاعون والحصبة وشلل الأطفال والرمد، وفى وقت من الأوقات كانت الأغلبية الساحقة من البشر لا تعيش قليلاً فقط ولكنها أيضاً كانت فى كثير من الأحوال ممن نسميهم الآن من ذوى الاحتياجات الخاصة.

صحيح أن عصرنا مع الألفية الثالثة يعرف أيضًا أمراضًا كثيرة ومميتة مثل السرطان والايدز، إلا أن العالم تعلم فى مسيرته الطويلة كيف يقضى على الأمراض، وبالتالى فإن المسألة مع كل مرض ليس عما إذا كانت البشرية سوف تتخلص منه أم لا، وإنما متى يتم ذلك وبأى تكلفة، فقد كان من آيات التقدم الإنسانى وضع منظومات متكاملة للتعامل مع الأمراض المختلفة فى الجامعات ومراكز البحوث، ولعل ذلك كان جوهر التقدم الإنسانى أن تزداد قدرة الإنسان على التغلب على مشاكله ومد حواسه إلى ما هو أكثر من طاقتها الطبيعية لكى يلمس آفاقًا جديدة ودنيا أخرى مع كل لحظة زمنية.

أفراح الإنسان إذن منطقية، وحدوثها فى وقت واحد على مدار الكرة الأرضية ظاهرة جديدة تماما، وقد توصف بأنها «العولمة» أو «الكوكبة» ولكنها كانت فى كل الأحوال متجسدة فى شبكات تليفزيونية تجمع بين خطوطها وحدة الجنس البشرى، وحتى لا تكتمل الأفراح تماما، كما نعرف فى الأمثال الشعبية، فإن هناك دومًا من يحب تنغيصها ويذكر المحتفلين ليلة الألفية بأن هناك من لا يحس بها إطلاقا فى جمهورية الشيشان، حيث توجد أشرس حرب ومذبحة، وسوف يكون هناك من يذكر أن هناك مليارا ونصف المليار من البشر يعيشون بين درجات متفاوتة من الفقر والعدم، ومن المؤكد أن هؤلاء لا يعنى لهم التقدم شيئًا كثيرا، مع ذلك فإن الفرحة

سوف تظل ممكنة، فوجود أربعة مليارات ونصف المليار فوق حد الفقر يسمح بالاستمتاع باللحظة والاحتفاء بها، ولم يحدث فى تاريخ البشرية قط أن توافر الغذاء والكساء والحاجات الأساسية مع قدرات مختلفة على التواصل مع جماعات بشرية مختلفة كما يحدث الآن، كما أن ما يحدث فى الشيشان يذكرنا بأن رسالة الجنس البشرى لم تكتمل بعد حتى يكون أكثر سماحة وعدالة، وربما يعزينا أن صراعات كثيرة أخرى آخذة فى السير على طريق التسوية، وإذا كانت صراعات الشرق الأوسط فى طريقها إلى الخفوت فإنها فى إفريقيا وآسيا تحت السيطرة، وفى كل الأحوال فإن حرباً عالمية شاملة لم تعد مكتوبة فى الأوراق.

٩. بشأن الذى جرى فى القرن العشرين...!

يقال فى الفلسفة الجدلية إن التغير يحدث من خلال تراكمات كمية صغيرة، لكنه عند لحظة معينة من التغيرات يحدث تغير كيفى كبير يقلب الظاهرة رأسا على عقب، وينقلها إلى مستويات جديدة لم يعرفها أحد من قبل حتى يصير التغير علامة فارقة يقول الناس عندها: كان هذا قبل هذه اللحظة المهمة، وكأن ذاك بعدها وقد كان القرن العشرون، هو قرن التغيرات الكيفية الكبرى بعد بضعة آلاف من السنوات تراكمت فيها تغيرات كمية شتى، حدث ذلك فى كل الظواهر الأساسية التى عرفها الإنسان مثل الحرب والسلام، ومثل الإنتاج والتوزيع والاستهلاك، ومثل الحب والكراهية، والتكنولوجيا، وفوق ذلك كله الدولة القومية ذاتها التى برزت كفكرة مع الثورة الفرنسية قبل قليل من نهاية القرن الثامن عشر، وصارت مثالا مع القرن التاسع عشر، ومع القرن العشرين، صارت هى الهدف والمقصد لكل الجماعات الإنسانية.

لكن المدهش أن الدولة القومية وصلت إلى عنفوانها فى النصف الأول من القرن العشرين، وبشكل ما كانت الحربان العالميتان تعبيرا عن الظاهرة فى أكثر أشكالها تطرفا، خاصة فى اليابان وألمانيا وإيطاليا، لكنها كانت موجودة أيضاً فى كل حركات التحرر الوطنى، التى أرادت الانسلاخ من إمبراطوريات قديمة مثل الإمبراطورية

العثمانية أو إمبراطوريات حديثة نسبيا مثل الحالتين الفرنسية والبريطانية، أما فى النصف الثانى، وبالذات فى العقود الثلاثة الأخيرة، فإن الدولة القومية بدت أشبه بمكعب الثلج الآخذ فى الذوبان بفعل «العولمة» التى اخترقت حدود التجارة والاستثمار، وبفعل ثورة الاتصال والعولمة اللتين جعلتا السموات مفتوحة وبفعل حركة الأموال الداخلة والخارجة عبر أسواق المال وعبر وسائل أخرى جعلت السيادة تفقد كثيرا من حدتها. ومن المثير هنا أن الدول التى رفعت الراية القومية بتطرف شديد فى النصف الأول من القرن، ودفعت فى ذلك ثمنا غاليا، كانت هى التى قادت بعد ذلك عملية إذابة الحدود القومية والتنازل عن السيادة لسلطات «فوق قومية» أعلى منها، فمن المؤكد أن ألمانيا كانت هى القائدة وراء إقامة التجمع الذى وصل إلى مرحلة الاتحاد الأوروبى، كما كانت اليابان هى القوة الدافعة وراء عملية التجمع الآسيوى، الذى أبى القرن أن ينتهى قبل أن يعلن عن وجوده وعن نيته التكامل والاندماج، وإقامة بنك مركزى وعملة موحدة.

وفى الحقيقة فإن السلوك الألمانى واليابانى كان تعبيرا عن تطور كيفى فى مسار الجماعات البشرية التى قامت العلاقات بينها على أساس من العنف والاستعباد المتبادل والرغبة العميقة فى تحقيق الثارات التاريخية، وبشكل ما فإن اليابان وألمانيا لعبتا لعبة التاريخ إلى آخرها فى الحرب العالمية الثانية، لكن الثمن كان فادحا للغاية، حيث ضربت الأولى بالقنابل الذرية، أما الثانية فقد دمرت عن آخرها، وقسمت ونزعت منها أراض شاسعة. المثير بعد ذلك أن تقوم الدولتان بإعادة البناء بالتعاون مع الدول «المعادية»، ثم بعد ذلك التحالف معها، والأهم الاندماج الاقتصادى من خلال خطوات سلامية وتطوعية فى تجارب هى الأولى من نوعها فى التاريخ البشرى التى جرى العرف على أن يكون الاندماج والتكامل من خلال الغزوات الإمبراطورية، صحيح أن التجربة الأمريكية الفيدرالية سبقت كل ذلك بقرنين، إلا أن صعود الولايات المتحدة من قلب التحرر من الاستعمار، ثم بعد ذلك التوسع الإمبراطورى غربا على حساب الوطنيين ودولة المكسيك، ينزع عنها الصفة التطوعية التى تجرى على التجربتين الأوروبية والآسيوية.

على أى الأحوال، فإن التطورات الكمية لفكرة التجمع البشرى الواسع التى حملها الكثير من الأنبياء والرسل والمفكرين والفلاسفة حجزت لنفسها مكانا خلال القرن

العشرين، ورغم أن فكرة وجود قانون دولى قديمة للغاية منذ العصور الرومانية، إلا أن الفكرة لم يقدر لها أن تصير حقيقة إلا مع القرن العشرين عندما وجدت محكمة العدل الدولية وعصبة الأمم والأمم المتحدة، والأخطر من ذلك وجود منظمات عالمية تتخذ القرارات بديلا عن الدول التى تنظم أمورا حيوية مثل الطيران المدنى والاتصالات العالمية، وغيرها من المجالات التى لم يعد هناك بد من تنظيمها على مستوى كوكب الأرض كله، وليست دولة واحدة فيه فقط. بمعنى آخر فإن فكرة «المصلحة العالمية» التى طالما قررتها دول أو جماعات بشرية بعينها طوال المسيرة الإنسانية، حدث فى القرن العشرين ولأول مرة وضعها فى إطار مؤسسى يكون فيها لكل الدول تمثيل وقول وتصويت، يستوى فى ذلك دولة مثل الولايات المتحدة، ودولة مثل فيجى، صحيح أن هذه المساواة تبدو شكلية أحيانا نظرا للنفوذ الكبير والقدرة الفائقة للدولة العظمى على تمرير وجهات نظرها، إلا أن ذلك لا يأخذ من فكرة «الكونية» والمصلحة العالمية كثيرا، فاختلاف القدرة على التأثير فى اتخاذ القرار، يوجد أيضًا داخل كل جماعة بشرية حتى فى الدولة القومية ذاتها، فمساواة المواطنين أمام القانون تخف كثيرا أمام عدم المساواة فى الثروة أو السلطة أو كليهما معا.

هذا التطور «الجمعى» لبنى البشر كان سيظل عمليا مهما كانت وجاهته النظرية ما لم يحدث ذلك التطور الهائل فى وسائل الاتصال والمواصلات التى حققت فى القرن العشرين مالم تحققه فى كل مراحل التاريخ، وربما احتاج الإنسان إلى خمسة آلاف عام لكى يعرف العربة التى تجرها الخيول، وحتى بداية الألفية الثانية بعد الميلاد، لم تكن السفن الخشبية قادرة بعد على عبور المحيطات، واحتاج الأمر إلى تسعة قرون لكى نصل إلى السفن الحديدية لكن القرن العشرين عرف التطور الكيفى الأعظم، وفى الحقيقة فإن العالم الجديد لم يعد عالما جديدا على الإطلاق، وصارت الأرض كروية بحق تلتف حولها الطائرات والسفن وكابلات الاتصال التليفونية، والموجات السلكية واللاسلكية، ونبضات الإنترنت الذاهبة أو القادمة بين الماء واليابسة، ويحمل كل ذلك معه بضائع وسلعا وأموالا وعلما ومعرفة ولم يكن الإنسان بقادر على أن يمارس وجوده على الكرة الأرضية مالم يخرج خارجها، لا ليشاهدها فقط، ويتأكد من كرويتها، وإنما لكيلا لا تصير ذاتها أكثر من منصة فى فضاء واسع يطلب

الاستكشاف، وبحالتها هذه كمنصة لابد من وحدة أجزائها السياسية والاقتصادية وإدارة إمكاناتها كلها فى توافق وتواؤم كبير.

ولعل هذا الاتجاه الذى بدأ فقط مع نهاية الخمسينيات مع رحلة جاجارين الأولى، التى انتهت بنزول الأمريكى أرمسترونج على سطح القمر عام ١٩٦٩، هو الذى سيخط التاريخ القادم فى القرن الحادى والعشرين، لكن نصيبه فى القرن العشرين أنه أظهر سخافة الصراع السوفيتى - الأمريكى، فمع وجودهما معا خارج الأرض كلها بدا الصراع عليها مفتعلا ولا يتماشى مع منطق الأشياء، وزوى الذى لم يستطع أن يقدم الجديد لتجمع العالم، بل بدت فكرته عن صراع الطبقات والأمم والشعوب منافية لمسيرة التاريخ، ومقتضى الحال، فلم يكن الصراع هو ما يحتاجه البشر، وإنما التنافس السلمى من أجل الكرة الأرضية كلها.

١٠- بشأن الذى جرى فى عام ٢٠٠٠...!

ليلة عيد الميلاد الفاصلة ما بين ١٩٩٩ و ٢٠٠٠ لم تكن ليلة مثل كل الليالى التى عرفتها البشرية، وبشكل ما اكتسبت تاريخا خاصا بها ربما لأنها كانت نهاية قرن وبداية قرن آخر، وربما لأنها كانت نهاية ألفية وبداية ألفية جديدة، وربما لأن الدنيا اختلفت حول عما إذا كانت هذه الليلة الخاصة لها مثل هذه الخصوصية أو أن علينا انتظار عام كامل على الحد الفاصل بين عامى ٢٠٠٠ و ٢٠٠١ حتى يكتمل القرن وتكتمل الألفية. على أية حال اختفى الخلاف لمجرد أن العالم كان مستعجلا للغاية وقرر الاحتفال على مدار الكون بالليلة التى ليست مثل كل الليالى، ولأول مرة فى التاريخ شاهدنا على شاشات التليفزيون الاحتفال بدءا من جزيرة صغيرة فى المحيط الهادى انتصف فيها الليل قبل بقية الأرض، ومن بعدها جاء انتصاف الليالى على مدار خطوط الطول حتى وصلت إلى المحروسة حيث جرى الاحتفال فى أقدم بقعة على امتداد المعمورة عند سفح الأهرامات. وهناك كان يجرى احتفال ليس مثل كل الاحتفالات، جاء له من فرنسا موسيقى خاص اختلف المصريون بشأنه كما هى العادة، وعما إذا كان ما أعده يليق بعبقرية مصر ومكانتها أو أنه كان رأس جسر

لمؤامرة كونية ماسونية صهيونية، ولكن عندما بدأ العزف الموسيقى والعروض الراقصة هبط ضباب كثيف ولم يبق الكثير الذى يمكن تصويره إلى العالم، وبعدها انتقلت العدسات إلى خط طول آخر، وعاصمة أخرى انتصف فيها الليل، فاتحا الباب لقبلات كثيرة، أنهت عاما وقرنا وألفية.

ولأن الأيام لا تؤرخ بالاحتفالات وإنما بالأحداث والوقائع وحركة البشر، فقد جرى ما جرى فى عام ٢٠٠٠ مثل كل الأعوام بحلوها ومرها، وفى منطقة الشرق الأوسط كانت البداية متفائلة للغاية حينما انتقل على الجسر الفاصل ما بين القرنين العشرين والحادى والعشرين عودة المفاوضات السورية - الإسرائيلية، وكان الظن ساعتها أن التوصل إلى سلام سورى - إسرائيلى صار ممكنا بعد أن ضاقت الهوة بين الطرفين، وقيل أيامها إن الرئيس حافظ الأسد يريد إنهاء المعضلة قبل رحيله وانتقال السلطة فى دمشق إلى نجلة بشار. وكما هى العادة راحوا إلى المفاوضات وجاءوا إلى واشنطن، وانتهى الموضوع فى شهر مارس فى جنيف عندما التقى الرئيس السورى الرئيس الأمريكى، وفشلت المفاوضات ولم يحدث السلام وذهب إلى الرفيق الأعلى شخصية تاريخية وانتقلت السلطة فى دمشق بيسر وسهولة.

ولكن الإخفاق على المسار السورى فتح الباب على مسارين آخرين، فقد قررت إسرائيل الانسحاب من طرف واحد على الجبهة اللبنانية بعد فشلها فى مواجهة المقاومة الباسلة لحزب الله، وإخفاقها فى التعامل مع النساء لابسات السواد من أمهات جنود الجيش الإسرائيلى. وبعدها ضغط باراك ومعه كلينتون الذى باتت شهوره معدودة فى البيت الأبيض لكى يفتح المسار الفلسطينى كما لم يفتح من قبل بمواجهة قضايا الحل النهائى فيما عرف بقمة كامب دافيد الثانية. وحبس العالم أنفاسه على مدى أسبوعين منتظرا ظهور الدخان الأبيض وانتهاء القمة بالنتيجة السعيدة والتوصل إلى السلام فى أرض الأنبياء والرسل، ولكن السلام كان عصيا واستحق اللعنة عندما تبين أن إسرائيل تريد القدس لها، وأخفقت القمة وانفتح باب جهنم فى انتظار مواجهة عربية - إسرائيلية جديدة. ورغم حلاوة الروح فى انتظار استئناف المفاوضات مرة أخرى، جاء اقتحام شارون لساحة المسجد الأقصى شرارة لنشوب الانتفاضة الفلسطينية الثانية وبسببها التهبت المشاعر العربية، وعقدت قمة عربية فى القاهرة، وإسلامية فى الدوحة، ودولية فى شرم الشيخ. وبعد القمم والدماء

السائلة حتى الركب لم يشأ العام أن ينتهى قبل أن تبدأ المفأوضات من جديد فى واشنطن مرة أخرى لكى تدور دورة السلام والصراع دورة كاملة فى انتظار العام الجديد.

وفى مصر جاء العام الجديد ومعه وزارة جديدة كان عمرها أسابيع فى ليلة عيد الميلاد، ولكنها لم تكن مثل كل الوزارات التى تأتى فى العادة لاستكمال المسيرة التى لا تنقطع بين وزارة وأخرى، فقد كانت البلاد تعانى من ركودا أو انكماشا اقتصاديا تعددت أسبابه، ومعه ارتبكت أحوال العملة المصرية، وانقلب التفاؤل السائد خلال الأعوام الماضية إلى تشاؤم حأول رئيس الوزراء ووزراؤه بعد المصارحة بالأحوال غير السعيدة تبشير المواطنين بانتهاء الغمة قبل نهاية العام. ولكن العام انتهى ولم تكن الغمة قد زالت رغم التصريحات المتفائلة، فظل الانكماش على حاله، وظلت العملة على ارتباكها، وبقيت الصادرات على حجمها تقريبا بعد زيادة طفيفة، وانخفضت الاستثمارات الأجنبية رغم إلحاح رئيس الوزراء أننا نحتاج إلى خمسة مليارات منها حتى ينعدل الحال.

ولكن الأحوال لم تكن سيئة على أرض الكنانة، فقد خرجت المحكمة الدستورية العليا عن النص الذى تم ترديده على مدى العقود الماضية وحكمت بضرورة الإشراف القضائى على الانتخابات التشريعية. وكان ذلك فاتحة لأمور لم يتعودها أحد فى النظام السياسى، ورغم ارتباك الأحزاب والسلطات، فقد جاءت التجربة بالجديد من حيث نظافة صندوق الانتخابات فى الخريف، ودخل مجلس الشعب ٧٠٪ من الأعضاء الجدد غالبيتهم من الشباب فعلا، وليس من هؤلاء الذين يبررون كبر السن بشباب القلب. ومع الجلسات الافتتاحية للمجلس الجديد وانتخابات رؤساء اللجان ووكلائهم كان هناك من الظواهر مايقول إن فى المجلس ما هو أكثر من تجديد الأعضاء، وتجديد العلاقة بين الحزب الوطنى الديموقراطى وأحزاب المعارضة.

أما العالم فقد كان، كما هى العادة، يسير مسيرته الخاصة، حيث حدثت مجموعة من التطورات العالمية، أولها ما جرى فى يوجوسلافيا، عندما جرت الانتخابات الرئاسية وحأول ميلوسوفيتش سفاح الصرب المعروف سرقة نتيجتها، إلا أن تدفق الجماهير الصربية على مبنى البرلمان فى الثامن من أكتوبر فتح الباب للإطاحة

بالطاغية وتولى سدة السلطة الرئيس الجديد كوستنيتشا الذى فتح الباب لتاريخ جديد للاتحاد اليوجوسلافى والبلقان وأوروبا وربما العالم كله. وكان لافتا للنظر أن أحد الشعارات الرئيسية للرئيس الجديد هو لحاق يوجوسلافيا بأوروبا، وهو ما جعل الاتحاد الأوروبى يبادله ودا بود، فتمت دعوته إلى عدد من المجالس الأوروبية، ورفع الحظر المفروض على يوجوسلافيا التى سرعان ما استعادت مقعدها فى الأمم المتحدة. وفى جمهورية مقدونيا بدا ممكنا لأول مرة منذ انتهاء الحرب الباردة أن منطقة البلقان الشهيرة فى تاريخ الصراع الدولى شهدت اجتماع قادة الدول فى مقدمتهم يوجوسلافيا لكى يضعوا نهاية لعقد مرير من الصراع والتوتر أعاد للأذهان القرن التاسع عشر بأكمله، وفى الوقت نفسه يضعون البداية للتعاون الإقليمى والاندماج فى أوروبا والنظام الاقتصادى العالمى.

فى ذات الوقت كانت تجرى تطورات مثيرة فى الجهة الأخرى من العالم فى منطقة شمال شرق آسيا بين الكوريتين الشمالية والجنوبية، وبعد نصف قرن من الصراع الدامى جاءت الخطوة من القيادة الجديدة فى كوريا الجنوبية التى اتخذت سلسلة من المبادرات تجاه الشمال. وجاءت النتيجة أسرع بكثير مما توقع الكثيرون، فبعد أن كانت كوريا الشمالية واحدة من أخطر الدول «المارقة» فى العالم، أصبحت وبسرعة شديدة موضع الاهتمام والود، حيث سارعت بريطانيا وألمانيا إلى إقامة العلاقات الدبلوماسية معها، وتبعتها إليابان بالرسل والخطابات، وقامت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية برحلة إلى بيونج يانج وسط ترحيب كورى شمالى حافل وضعتها جنبا إلى جنب مع زعيم الدولة على منصة استعراض احتفالات الدولة الملونة بالأعلام والبيارق الشيوعية.

وهكذا انقلب حال كوريا الشمالية تماما فى النظام العالمى، وكان الانقلاب حادا إلى الدرجة التى دعيت فيها إلى حضور مؤتمر قمة الدول الأوروبية الآسيوية الثانية وهى نوعية جديدة من القمم تجرى ما بين الدول الاستعمارية السابقة التى مزقت آسيا بالحروب والمحن والأزمات التى قتل فيها الملايين بالأفيون وبالقتل المباشر، والدول المستعمرة (بفتح الميم) سابقا، ولكنها صارت مستقلة وعرفت طريق الازدهار والاندماج فى الاقتصاد العالمى.

ولم تكن القمة الأوروبية الآسيوية هى آخر القمم التى تجرى بين القارات، ففى شهر نوفمبر وفى دولة بروناى الصغيرة عقدت قمة دول منتدى التعاون الاقتصادى لدول آسيا والمحيط الهادى (آبيك)، وهو تجمع تصاعدت أهميته خلال العقد الأخير بين دول الأمريكتين ودول شمال وشرق وجنوب شرق آسيا، وتضم عدة تجمعات إقليمية مثل آسيان ونافتا، ودولا رأسمالية غربية مثل الولايات المتحدة وأستراليا ودولا رأسمالية وشيوعية فى ذات الوقت مثل الصين وفيتنام، ودولا متقدمة للغاية مثل كندا ودولا نامية بحق مثل ماليزيا، ودولا كبيرة للغاية مساحة وسكانا مثل الصين ودولا صغيرة للغاية مساحة وسكانا مثل سنغافورة، ودولا لها عقائد مسيحية وإسلامية وبوذية وهندوسية، ومهما كانت التناقضات بين ذلك كله، والصراعات التاريخية الدامية بين كل الأطراف، فقد كان الهدف هو إنشاء سوق تجارة حرة على جانبى المحيط بين الدول المتقدمة فى عام ٢٠١٠ والدول النامية فى عام ٢٠٢٠. ولم تكن قضية القمة فقط تحقيق هذا الهدف ولكن أيضًا إعطاء دفعة لعمليات الاندماج العالمى برفع الحواجز والتناقضات من طريق دورة جديدة لتحرير التجارة العالمية بعد النكسة التى تعرضت لها فى مؤتمر سياتل فى عام ١٩٩٩، ورفع آخر العقبات أمام دخول الصين منظمة التجارة العالمية، وفتح الأبواب أمام دخول روسيا وفيتنام إلى هذه المنظمة التى تتجسد فيها عولمة التجارة العالمية.

وسط كل ذلك الذى جرى فى آسيا كانت فيتنام نجما خاصا، فقد كانت هى الدولة التى تجسد على أرضها أخطر صراعات الحرب الباردة وأشدها تكلفة، وفيها هزمت الولايات المتحدة بعد ثمن فادح من القتلى والجرحى والموارد. ولكن بعد ربع قرن من هذا الصراع الدامى، كانت - فيتنام التى لاتزال شيوعية - تتبع الطريق الصينى فى التطور الرأسمالى وتصبح جزءا من آسيان الرأسمالية كلها، وعضوا فى منظمة «آبيك» وتطرق باب منظمة التجارة العالمية، وكل ذلك وهى تحقق معدلات متسارعة للنمو والإصلاح الاقتصادى. وعندما حط بيل كلينتون رئيس الولايات المتحدة قدميه فى فيتنام بعد حضوره قمة بروناى، فإن أحدا لم يتساءل من الذى كسب الحرب الفيتنامية فى النهاية؟ وهل هى فيتنام التى جاءها الرئيس الأمريكى يطلب ودها وربما مغفرتها، أم أنها الولايات المتحدة التى أصبحت فيتنام شريكا فى مظلتها المالية والاقتصادية والتجارية العالمية؟!.

وقبل نهاية العام عقدت آخر القمم العالمية فى «نيس» الفرنسية حينما اجتمع قادة دول الاتحاد الأوروبى من أجل توسيع الاتحاد لكى يصل أعضاؤه إلى ٢٧ دولة خلال السنوات القادمة، وكان ذلك يعنى عبئا كبيرا يعرف الأوروبيون من التجربة كيف يتحملونه. وكل عام وأنتم بخير!!.

١١- أوراق شاب عاش بعد ألف عام...!

عنوان هذا المقال مقتبس من عنوان المجموعة القصصية الرائعة للأستاذ جمال الغيطانى فى نهاية الستينيات، وكان بطل الروائى الفذ يقص علينا قصته منذ ألف عام مضت فى زمن المماليك ليحكى لنا عن نفسه وعنا أيضًا فى وقت كسحتنا فيه وحطمت ضلوعنا وطحنت عظامنا هزيمة يونيو ١٩٦٧ لنجد أسباب الهزيمة راقدة تحت جلودنا لألفية كاملة إلا قليلا، ومالم تحدث كارثة غير منظورة لكوكب الأرض، فإن بطلا مثل هذا سيطل علينا فى نهاية الألفية الثالثة التى بدأت منذ أيام قليلة باحثا عن الذى جرى غداة الألفية التى سبقته. فكما فعلنا منذ أيام، فإن كل الصحف والمجلات ومصادر المعرفة إلى الخلف بعضها امتد لألف سنة، وبعضها اكتفى بالقرن، وقلة نظرت بسرعة إلى ١٩٩٩ كما اعتادت من قبل كل عام وكما كنا نحن أسعد حظا بكثير عن نظائرنا عند نهاية الألفية الأولى الذين لم يكن لديهم لاصحف ولا مجلات ولا أى من وسائل الصحافة الإلكترونية، ولا حتى طابعة من أى نوع، فكان حسابهم للتاريخ دروسه لا يوجد أكثر من مخطوطات محدودة فإن بطلنا الجالس على الجسر الزمنى بين الألفيتين الثالثة والرابعة سوف يكون محظوظا للغاية، فإذا كان مصدر حظنا هو التطورات الهائلة التى حدثت خلال القرن العشرين وأتاحت لنا من السجلات والأفلام ووسائط التصوير والصورة ومصنفا جغرافيا حسب مايحدث فى كل بقعة على وجه البسيطة من المكسيك إلى الصين ومن كوكب الأرض حتى كوكب المشترى، وزمنيا حسب كل ثانية (وربما الفيمتوثانية إذا أراد).

بطلنا هذا سوف يقلب أوراق (كلمة أوراق هنا تعبير مجازى، فعلى الأرجح أنها لن يكون لها وجود بعد استبدال رقائق أخرى بها من نوعيات قابلة للتخزين الهائل للمعلومات) ليلة رأس سنة ٢٠٠٠، وربما لبضعة أشهر قبلها، بحثا عن أنثروبولوجيا السلوك البشرى فى تلك الأزمنة، وسوف يكتشف أن الحماقة البشرية لم تكن دائما غلابة، وفى كثير من الأحيان فإن بشرا كان لديهم قدر ميسور من الحكمة، حتى إنهم قبل عامين من نهاية الألفية الثانية تنبهوا إلى كارثة الصفرين فى الحاسبات الآلية، ومن ثم بدأت على مستوى كل بلد، وبمراقبة دولية وعالمية، وعلمية الإعداد والإصلاح والتى لولا أنها تمت على أكمل وجه لانهارت الطاقة الكهربية فى بلاد، وسقطت سدود فى بلاد أخرى، واختفت طائرات من السماء، وانطلقت صواريخ نووية إلى حيث لا يعرف أحد إلى أين تسير. وبشكل ما فإن الشاب الذى عاش بعد ألف عام سوف يشعر بكثير من الامتنان لهؤلاء العباقرة الذين اكتشفوا المشكلة، وبذلوا جهدا كبيرا فى إقناع العالم بوجودهم وبضرورة معالجتها. فلولا تشارك الدنيا فى الاحتفال بلحظة انتقال الزمن الذى لم يعرف أحد من البشر قدره المصريين معناه حتى إن كثيرا من المفكرين (منهم هنرى كيسنجر بالمناسبة)، اعتبروا «الخلود» هو الصفة المصرية الأصلية. ولكن لم يعجب طائفة من المصريين، وكان ذلك مشروعا تماما يعرف هذه الأيام أن يشعر بعض المواطنين بالعزوف عن الاحتفال لأسباب متنوعة، وعلى اعتبار أن ذلك جزءاً من الحرية الشخصية أو خوفا من الإصابة بالرشح فى ليلة باردة، ولكن المشكلة بدأت من اعتقاد هؤلاء أنه كان بوسعهم منع المجتمع والدولة عن المشاركة، ومع قرارهم هذا بدأت سلسلة من الأمور العجيبة التى لن يرد لها مثيل فى أى من عواصم العالم الأخرى فى شرق المعمورة وغربها، وفى شمالها وجنوبها، على تنوع الملل والمعتقدات، والألوان والأهواء والأمزجة.

الحالة المصرية كانت حالة خاصة للغاية لأن ما جرى فيها قام على سلسلة من الأكاذيب وحشر الموضوعات وخلطها بطريقة لم تشهدها بلاد أخرى، فقد قامت على بناء من الأكاذيب التى تستهدف إصابة الاحتفال بالسكتة القلبية خوفا من أن تضبط مصر وهى متصلة بالعالم فى ليلة واحدة، كما أن الاحتفال عند سفح الأهرامات قد يذكر المصريين بأن لهم حضارة أخرى عريقة تضاف لحضاراتهم القبطية

والإسلامية والعربية، وربما لأن جريمة كبرى سوف تحدث فى تلك الليلة وهى الفرح والحبور والسورو، فالأصل فى الحياة هى الغم والكرب والجهامة وجلد الذات على حظنا الهباب. الأكذوبة الأولى جاءت من أن السيد ميشيل جار ـ الموسيقى الفرنسى الذى سوف يعد موسيقى الاحتفال كما فعل فيردى من قبل عند افتتاح قناة السويس ـ صار يهوديا، ورغم أن ذلك فى حد ذاته لا يعنى أى شىء فى الثقافة الإسلامية باعتبار اليهود من أهل الكتاب، فإن الرجل لم يكن كذلك، ومع هذا فقد بقيت الصفة لصيقة به مع إلحاقها بصفة أخرى هى «صهيونى» لم يقدم أحد دليلا واحدا عليها، فلم يقدم أحد صورة تدل على مشاركة الموسيقى الفرنسى الشهير فى مظاهرات تطالب إسرائيل بالاحتفاظ بالأراضى العربية المحتلة، ولم يقدم أحد إيصالا دالا على أن الرجل قدم تبرعات نقدية أو غير نقدية لصالح الأسلحة النووية الإسرائيلية.

ومع اجتماع «اليهودى» مع «الصهيونى» مع لفهما لفا وسط «الحلف الإسرائيلى الأمريكى»، بدت أمسية الألفية جزءا من مؤامرة كونية وحالة من حالات الخيانة العظمى، وظهر أن دقات الدفوف وأنغام الأورج وأصوات أم كلثوم ومحمد منير وأضواء الليزر أمور تفقد الأمة أعز ما تملك من عزة وعفة وشرف. هذا العجب الذى سوف يدهش كثيرا ذلك الشاب الذى عاش بعد ألف عام، سوف يصل إلى أقصى جهودهم التى منعت الكارثة الكبرى للإستخدام غير المقصود للأسلحة الذرية، لما وجد رجلنا شيئا على ظهر الكوكب يكتب عنه.

بطلنا هذا سوف يشعر بفرحة طاغية عندما يستعيد شبكة الاحتفال بالليلة على مستوى العالم كله، وسوف يلاحظ كيف عبرت حضارات متنوعة عن نفسها فى هذه المناسبة التى لم يتقاعس عن الاحتفال بها الصينيون والهنود والأوروبيون والأمريكيون والأفارقة وغيرهم من الثقافات الفرعية، ولم يجد أحد غضاضة فى هونج كونج وسنغافورة، حيث الثقافة الصينية غلابة وكاسحة، من الاستعانة بعدد من المغنيين الأوروبيين والأمريكيين للاحتفال بإليوم السعيد، وحتى الرئيس جياج تسه مين رئيس الصين لم يجد غضاضة فى الاستماع إلى موسيقى أفرزها العالم الإمبريالى وعزفها باقتدار عازفون فى قلعة الشيوعية الباقية فى عالم تلك الأيام، أما المدهش أكثر فقد كانت النغمات التى تولدت فى أكثر القارات غنى وهى أمريكا،

كما أن بعضا من دقات «الرأى» ونغماتها الشمال أفريقية المسلمة كانت تحرك خصورا وقلوبا كثيرة فى أوروبا المسيحية. كانت ليلة أحتفل فيها العالم المعروف أيامها بفرحة، وذابت فيها للحظات أحقاد وثارات كثيرة،، وبدت «العولمة» التى انتقدها كثيرون فى الربع الأخير من القرن العشرين حالة بهيجة للغاية، وكان هذا الشعور غالبا إلى الدرجة أن محتلين متنافسين إلى حد قطع الرقاب مثل «التايمز» و«النيوزويك» الأمريكيتين اختارتا أغلفة متماثلة لأول أعدادهما فى الألفية الثالثة يوجد فى مركزها برج إيفل الشهير فى العاصمة باريس مخترقا فى قامته العالية كتلة هائلة من الضوء وكتب على كل عدد يناير ٢٠٠٠، وبينما أضافت الأولى «مرحبا بقرن جديد»، كتبت الثانية «مرحبا بالقرن الحادى والعشرين» وفى أعلى الصفحة من كل مجلة كانت هناك إشارة إلى آخر موضوعات الألفية التى انتهت مثل استقالة يلتسين وحال روسيا بعده، على أى الأحوال كان ذلك توارداً للخواطر جرى مثله على الكون كله ربما حتى للحظات أو ثوان قليلة.

الأوراق أو الرقائق سوف تكشف عن بعض الاستثناءات المثيرة، ففى مصر المحروسة كان هناك مالم يحدث فى العالم أجمع، فقد كان طبيعيا من بلاد فجر الضمير الإنسانى أن قمته عندما يجتمع كل ذلك مع مؤامرة أخرى من نوع أكثر عجبا هو «الماسونية» التى دل عليها فكرة «الهريم» الذهبى الذى سوف يعلو الهرم الأكبر فى قمة الألفية، ولكى تكتمل حلقات المؤامرات، فإن ذلك كله موجود على خلفية الدولار الأمريكى الذى جاء منذ قيام الولايات المتحدة والتى - كما تقول الأكذوبة - قام بثورتها وجمهوريتها «الماسونيون». هنا فإن شابنا ربما يخبط برأسه فى الحائط، فالولايات المتحدة، طبقا للكتب السيارة المتاحة للعامة فى ذلك العصر منذ ألف عام، قامت كحركة تحرر وطنى ضد الاستعمار، ولم يثبت أحد أو يقدم دليلا فى الأكذوبة التى عاشت فى مصر أن الأربعين رجلا الذين وضعوا الدستور الأمريكى كانوا من الماسونيين، كما أن مذكرات هاميلتون وماديسون وجيفرسون وجورج واشنطن - أى الآباء المؤسسين للدولة - ليست فيها آية دلالة على ذلك. الأهم من ذلك كله وكان لا يحتاج إلا لقيل من الجهد، أن الدولار الأمريكى لم يكن عليه أى رسم للهرم أو الهريم منذ قيام الدولة وحتى عام ١٩٣٥ - أى فى زمن الكساد العظيم - عندما قرر فرانكلين روزفلت أن يضاف لفئة دولار واحد رسم لهرم ناقص

يعلوه هريم يكمل النقص، وكانت الفكرة - كما وردت في الكتب هي أن الأمريكيين قد حققوا إنجازات هائلة حجمها يقدر بحجم الأهرامات المصرية، وأنه مهما كانت الظروف الصعبة الراهنة فإنه بمقدورهم الاستمرار واستكمال الهرم - أي الإنجاز - بوضع الهريم فوق القمة.

الشاب الذي عاش بعد ألف عام سوف يضرب كفا بكف، وسوف يعجب أشد العجب كيف عرفت مصر المحروسة هذه النوعية من الأكاذيب، التي من الواضح أن أصحابها كانوا على استعداد لبلوغ أي مبلغ حتى تعزل مصر، وتعشش فيها الخرافات والنزاعات، وربما تحقيق فرز طبقي واجتماعي وإقليمي وطائفي بين الجماعات، وإيجاد حالات من التوتر السياسي لعله يفرز انفجارا، ومع ذلك كان هناك صمت كثير، ومع الصمت فإن الأفعال والأكاذيب الشريرة تجد متنفسات غير منصورة أو متخيلة لها، هنا فإن شابنا سوف يتساءل: هل لكل ذلك علاقة بحالة من العنف الدموي جرى في بلدة «الكشح» في صعيد مصر بعد أيام من هذه الحالة المصرية الخالصة؟!

الفصل السادس

فى السفر والترحال



١ـ فى السفر والترحال.. !

كنت أعرف منذ زمن طويل أن السفر والترحال له سبع فوائد لم أنجح أبدا فى عدها كلها، ولكن واحدة منها تعلمتها من الشاعر نزار قبانى الذى قال لنا فى الستينيات ضمن أمور أخرى كثيرة إنه علينا أن نكتب كتابا ونقرأ كتابا آخر ونزور بلاد الثلج والضباب. أيامها كان الشاعر الشهير يدعو إلى الهرولة تجاه الشمال ليس فقط لنعرف بيئة مغايرة تعرف الثلج والضباب الذى لا نعرفهما فى بلادنا، وإنما لكى نتعلم شيئا آخر غير قيم البداوة الذائعة فى الصحراء الفكرية العربية القاحلة. ولكن ما رآه شاعرنا أمرا نحتاجه بشدة للتخلص من عقدنا النفسية والثقافية وحتى الجنسية، أصبح الآن حالة عالمية أصبح فيها السفر والسياحة من أعمدة الاقتصاد العالمى، بل لعله الآن بات جزءا من النظام العالمى الجديد الذى يستنكر كثرة من العرب وجوده على الإطلاق.

وربما لم أفاجأ كثيرا بالإعلان الذى نشره المجلس العالمى للسفر والسياحة فى مجلة الإيكونوميست البريطانية ذائعة الصيت والذى قالت فيه إن ما يجمع كلا من الرئيس بيل كلينتون والملك حسين والرئيس مبارك ورئيس الوزراء بنيامين نتنياهو والرئيس سوهارتو والرئيس كارلوس منعم وغيرهم، هو أنهم جميعا وضعوا على رأس

أولوياتهم الاقتصادية تشجيع السفر والسياحة. أما لماذا فعلوا ذلك على تباعد المسافات والرؤى بينهم، فلأن السفر والسياحة أصبح أكثر القطاعات الاقتصادية نموا فى العالم. فيكفى أن نعرف إنه القطاع الذى يعمل فيه الآن ٢٦٢ مليون نسمة، أى أكثر من كل سكان العالم العربى، أو ما يساوى ١٠,٥٪ من القوى العاملة فى العالم، وخلال العشر سنوات القادمة سوف يضاف لهم ١٢٠ مليون فرصة عمل إضافية. ولكن المسألة برمتها ليست عملا فقط، وإنما أيضا قيمة اقتصادية بلغت ٣,٣ تريليون دولار من الناتج المحلى العالمى. ولمن لا يعرف فان التريليون هو ألف مليار، والمليار ألف مليون، والمليون بالطبع نعرفه جميعا. وبعد عشر سنوات أخرى سوف يزداد هذا الرقم بثلاثة تريليونات إضافية، وساعتها سوف تبلغ الاستثمارات فى هذا القطاع ١,٦ تريليون دولار، وساعتها أيضا ستشكل ١٠,٩٪ من الإقتصاد العالمى. الأرقام هنا ربما تهم كثيرا أو قليلا، ولكن الأهم منها أنها تعنى إن إنسان العالم الجديد لن يكف أبدا عن السفر والترحال وسوف يزور بلادا كثيرة فيها الثلج والضباب، بقدر ما فيها من الجبال والصحارى، وبعضها يركب المرسيدس، وبعضها الآخر يركب الأفيال، أما بعضها الثالث فلا يزال يركب الجمال !!.

٢- خريف باريس... !

كان مشهد الخريف خلابا والعربة تقطع الطريق من مطار شارل ديجول الدولى إلى باريس، حيث كانت الأشجار تقطع الزمن بين الصيف والشتاء وتتحول أوراقها إلى ألوان تخطف القلوب.. ومن خضرة نقية تتحول إلى الأصفر فالبرتقالى فالأحمر.. فإذا ما صار بنيا حل الموت وتسقط مع أول هبة للريح وفى بلاد تغير الفصول.. لا تتغير الأشجار من لون إلى لون واحد، ولا حتى فى الشجرة الواحدة لا يشمل التغيير والانتقال من حال إلى حال كل ورقة، فالأمر يتحدد حسب نسب الضوء وزوايا الرياح وجهات سقوط المطر والنتيجة لوحة أخاذة من الطبيعة المغسولة متعددة الألوان فتحل بالعين سرورا لا يخلو من شجن تغير المواسم، ولا بأس من لحظة خاطفة يستعيد فيها الذهن أحوال بلاد لا يتغير فيها طقس.

ولم تكن الرحلة إلى فرنسا بالطبع للتمتع بألوان الخريف، وإنما كانت للمشاركة فى ندوة عقدها المعهد الفرنسى للعلاقات الدولية لمناقشة ميثاق الأمن والاستقرار فى البحر المتوسط الذى كان متوقعا إقراره خلال أيام فى مارسيليا فى مؤتمر لوزراء خارجية الدول الموقعة إعلان برشلونة، وربما حتى على مستوى الملوك ورؤساء الدول والحكومات حسب ما كانت تأمل الرئاسة الفرنسية للاتحاد الأوروبى. هذا الميثاق كان خطوة أخرى فى عملية البناء المؤسسى لعلاقات الخمس عشرة دولة الأوروبية الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى مع اثنى عشر بلدا جنوب البحر المتوسط، ويتضمن قواعد وأصول التعامل بين هذه الدول جميعا فى المجالات السياسية والأمنية، ولكن الميثاق ربما يكون أول ضحايا أحداث الشرق الأوسط الدامية، فما إن بدأت أعمال الندوة حتى بات واضحا أن القضية ليست ما الذى سوف تحتويه الوثيقة من بنود ومبادئ وإنما الحريق المشتعل فى فلسطين. وحسب ما قاله واحد من المتحدثين واضعا النقاط فوق الحروف إنه إذا كان هناك منزل يحترق الآن فإننا لن نستطيع الزعم بأن لدينا الوسيلة لمنع احتراقه فى المرة القادمة. وهكذا لم يعد أحد على استعداد للحديث عن الميثاق الذى سيمنع الحريق فى المرة التالية، وإنما البحث عن عربة إطفاء للمنزل المشتعل بالنار.

وهكذا وضع الميثاق على الرف، ولكن مناقشة الأوضاع فى الشرق الأوسط لم تكن مسألة سهلة، والبحث عن دور أوروبى فيها لم يكن أقل صعوبة، فرغم مشاركة خافيير سولانا السكرتير العام السابق لحلف الأطلنطى والمسئول الآن عن السياسة الخارجية والأمنية المشتركة للاتحاد الاوروبى، فى مؤتمر شرم الشيخ، وكان ذلك يعنى دورا ما فى ساحة التسوية، إلا أن وجوده لم يدل على كثير من الفعل، بل ربما كانت الإشارة أكثر إلى اللا فعل حيث تواترت البيانات الأوروبية التى تدين العنف وتطالب الطرفين بضبط النفس. وباختصار كانت أوروبا تزحف وراء الولايات المتحدة، وليس بعيدا عنها، وعلى هذا الطريق سقطت كأوراق الخريف الذابلة كل الإعلانات من فينيسيا حتى برلين.

وحتى الآن ليس مفهوما تماما هذا الموقف الأوروبى البائس، وهل يعود لتعقيد الموقف فى الشرق الأوسط، أو نتيجة الضغوط الأمريكية؛ أو لأن أوروبا تريد الاستمرار على مائدة المفاوضات، ومن ثم تتحسب للموقف الإسرائيلى منها، أو على

الأرجح أنه راجع إلى ضعف آلية التعاون السياسى الأوروبى التى تحاول خلق سياسة خارجية وأمنية مشتركة لدول الاتحاد الأوروبى، فخلال أسبوع واحد تعرضت هذه الآلية لضربتين: الأولى أن دولا من الاتحاد مثل بريطانيا وألمانيا ذهبت دون تشاور لإعادة العلاقات الدبلوماسية مع كوريا الشمالية فى محاولة لإحراز سبق على منافسيها فى أوروبا وخارجها، والثانى انقسمت فيه دول الاتحاد الأوروبى فى التصويت بين مؤيد وممتنع على قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة لإدانة الاستخدام الإسرائيلى للقوة فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، وقبل هذا الأسبوع الحافل بالانقسامات الاستراتيجية الاوروبية، كانت أوروبا قد انقسمت فيما سوف تفعله مع العراق، وما تفعله فى إفريقيا، وحتى عندما بدا أن لديها سياسة مشتركة فى البلقان، فإن ذلك بدا نتيجة انتصار التغيير فى يوجوسلافيا بأكثر منه نتيجة جهد سياسى مشترك.

كان الخريف يهبط ثقيلا على الموقف الأوروبى من أزمة الشرق الأوسط، مثقلا بالابتزاز الإسرائيلى، وخوفا من الولايات المتحدة، وعجزا عن الثبات على مبادىء مستقرة.. وربما لأن قصة الاتحاد الأوروبى كان فيها شىء مختلق من أولها، فقد تصور كثيرون فى أوروبا، وأكثر منهم فى العالم العربى أن حركة التوحيد الأوروبى ترمى إلى خلق قطب عالمى مناهض، أو على الأقل موازن للولايات المتحدة، ولو لعب الحظ لعبته واستعادت روسيا عافيتها، وحافظت الصين على استقلالها، وعادت اليابان إلى الحظيرة غير الغربية لكى تنتقم لضربها بالقنابل النووية، لأصبح فى العالم خمس قوى تتنافس وتتوازن، ويبقى لكل دول العالم الأخرى، بما فيها العرب بالطبع.. المناورة والمداورة واللعب على حبالها جميعا.

الواقع الأوروبى لا يشير إلى كثير من هذا الخيال، فهو جزء من حلف الأطلنطى الذى كان عليه أن يقود أوروبا فى عقر دارها خلال التسعينيات، والشركات الأوروبية باتت تندمج مع الشركات الأمريكية كل صباح، والاتصالات والمواصلات عبر الأطلنطى وعبر الباسفيك لا تنقطع طوال الليل والنهار، وفوق الجميع أقمار صناعية تربط أسواق المال وساحات الأفكار والمؤسسات، وحتى عندما اخترعت أوروبا عملة جديدة هى اليورو ظننا أنها ستكون عملة العملات التى ستنزل فى النهاية الدولار عن عرشه، وتحمس لها الكثيرون فى العالم العربى لعلها تخلصنا من الدولرة، بل إن

الرئيس صدام حسين شخصيا أعلن أنه لن يبيع النفط إلا باليورو فالعملات الأخرى تتراجع قيمتها بأكثر من الثلث، ويفقد العرب على الطريق ٢٢ مليار دولار كاملة نتيجة التخفيض.

وبينما تساقطت وتراجعت السياسة الأوروبية كما تساقطت أوراق الخريف في باريس، فإن ذلك لم يكن نهاية المشروع الأوروبي في حد ذاته، لأن أوروبا لاتزال تتوسع لكي تضم أقطارا جديدة، وتتعمق وحدتها لكي تشمل أبعادا كثيرة أمنية وسياسية سوف تشمل خلال عقدين ثماني وعشرين دولة، ولكن كل ذلك لا يعني من جانب ظهور دولة مركزية على الأقل خلال المستقبل المنظور، أو حسب ما يقوله الأوروبيون خلال نصف القرن القادم، وحتى هذا التاريخ ويقضي الله أمرا كان مفعولا فإن النهاية سوف تكون للمشروع الأوروبي كما نتخيله، أو يتخيله بعضنا، وليس كما تفرزه عملية معقدة للتطور التاريخي في العالم يعيش وسطها الأوروبيون ويتفاعلون معها، وفي وسطها تسقط أوراق كثيرة في الخريف كما تزهر زهور كثيرة في الربيع!

٣. ربيع طهران... !

في عهد إلكسندر دوبتشيك عرفت تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ما عرف آنذاك «بربيع براغ»، فحتى ذلك الوقت كانت الدولة مثل غيرها من دول حلف وارسو الشيوعية يحكمها بقبضة من حديد، الحزب الشيوعي التشيكي ومن ورائه كل أجهزة القمع المعروفة تحسب الهمسات على النخبة التشيكية وتتأكد دوما أنها تسير على خط الحزب وقيمه التي وصفت بأنها سامية، ومن وراء الوراء كانت القوات السوفيتية وأجهزتها الأمنية أيضاً تقف تراقب الموقف في كل دول أوروبا الشرقية كلها بحيث تكون مخلصة للتعليمات العليا للماركسية اللينينية. وما إن جاء الرجل إلى السلطة، وكان يعرف قدر العفن الذي ألم بالحزب وما وراءه حتى موسكو، حتى بدأ تجربة

لتجديد الاشتراكية، كان أهم ملامحها تخفيف قبضة الحزب والأجهزة على حرية التعبير، وعلى حرية البشر، فانطلق المفكرون والأدباء والشعراء والفنانون لكى ينسجوا ربيعا متعدد الألوان حتى قارب كل ألوان الطيف الثقافية والأيديولوجية. أيامها ترقب الناس فى خارج الدولة هذه التجربة الفريدة بالأمل، فكان هناك من التقدميين من فرحوا لإمكان أن تطور التجربة الاشتراكية ذاتها من الداخل، وكان هناك من يرى أنها ما هى إلا خطوة وبعدها يأتى التغيير الكبير بالتخلص من هيمنة الحزب الواحد، وفى الغرب كان هناك من اعتقد أنها لحظة سوف تنتشر عدواها إلى باقى الدول الاشتراكية وينهار الستار الحديدى فى أوروبا.

ولكن «ربيع براغ» لم يستمر طويلا، فما أن جاء الصيف وبالتحديد فى شهر أغسطس، حتى تدخلت القوات السوفيتية واحتلت براغ نفسها، ونهض الحزب الشيوعى التشيكى فى ثورة على الثورة لكى يطيح بدوبتشيك ويدخله السجن، ومن بعده كان مصير من ساهموا فى الربيع الطارئ إما فى السجون وإما فى المعتقلات وإما ذهبوا إلى المنفى أو مباشرة إلى الحياة الآخرة. وأيامها تحسر البعض على ضياع فرصة تطوير الدول الاشتراكية من داخلها، أما البعض الآخر فإنه رأى أن الحسم السوفيتى جاء فى وقته تماما حتى يطيح بالمؤامرة الغربية على عفة النظام الاشتراكى. وعلى أى الأحوال فلم يمض أكثر من عقدين حتى ضاعت التجربة الاشتراكية كلها، وانهار الاتحاد السوفيتى ذاته، وانقسمت تشيكوسلوفاكيا إلى دولتين للتشيك والسلوفاك، ولكن كلتيهما تقدمت لعضوية حلف الأطلنطى والاتحاد الأوروبى وهما تحتفلان بربيع للديموقراطية يستمر طوال فصول السنة. بعض من هذه القصة جرى فى طهران مؤخرا، وجاءت بشائره مع انتخاب الرئيس محمد خاتمى منذ عامين وانفتحت إيران بعض الشىء على العالم الخارجى، وظهر فيها تجمع جديد عرف بالاصلاحيين، مالبثوا فى الانتخابات الأخيرة فى شهر فبراير حتى اكتسحوا الانتخابات البرلمانية، ومع مطلع الربيع كانوا قد أصبحوا قلب الساحة السياسية، يحركون الجموع برياح الحرية التى تناقش كل شىء من أول طبيعة الدولة، وحتى علاقة الرجل بالمرأة، وفوق كل ذلك الموضوع الأزلى للعلاقة مع الغرب خاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

وكما حدث في «ربيع براغ» من قبل أصبحت التطورات الإيرانية موضوع الساعة. المتفائلون استبشروا خيرا ورأوا النظام الإيراني يجدد نفسه ويخرج من عباءته التجديد المطلوب الذي يحافظ على جوهر النظام ولكي يصالحه مع نفسه ومع العالم في ذات الوقت. أما المتشائمون فقد وجدوا في الأمر ردة، وفي الثورة رجعة منذرة، أما الذين لا هم متفائلون أو متشائمون فقد قالوا إن القضية في النهاية بين أجنحة داخل نظام ثيوقراطي يخرج كل من خالفه من دائرة اللعبة السياسية، ومن ثم فإن مالدينا في طهران لايخرج كثيرا عن تبادل للأدوار داخل ذات الفرقة المسرحية، أما الأكثر حكمة من الجميع فكان موقفهم أن القصة الإيرانية لم تكتمل بعد، وما على الجميع إلا الانتظار حتى تكتمل فصولها. الولايات المتحدة كان لها رأي آخر، فكما حاولت أن تشد عضد من اعتبرتهم من المعتدلين في الثمانينيات بما عرف في ذلك الوقت بفضيحة إيران - كونترا، فإنها مرة أخرى لم تقف لتتفرج، وإنما عملت على شد عضد الإصلاحيين هذه المرة بالإفراج عن أرصدة إيرانية والسماح للتجار الأمريكيين باستيراد السجاد العجمي والفستق الفارسي.

ولكن «ربيع طهران» لم يستمر طويلا، ولم يصل حتى إلى الصيف كما جرى في ربيع براغ الآخر، وبسرعة استجمع المحافظون قوتهم، وشحنوا حناجرهم، وبدأ الهجوم على الإصلاحيين من كل حدب وصوب حتى قبل أن يقدر للبرلمان الجديد استكمال انتخابه وعقد جلساته الأولى. وظهرت العين الحمراء بإطلاق النيران على من كان هناك ظن في شدة إيمانه وتمسكه بمبادئ الإمام، وتم إغلاق ١٦ صحيفة ومجلة بدت متحررة أكثر مما يلزم في مجتمع محافظة يقرر تقاليده مجلس الإرشاد الأعلى. ودخل الصحفيون السجون وعندما خرج بعضهم بكفالة فقد وصلت قيمتها إلى ٤٨ ألف دولار، وكانت التهمة الجاهزة هي مخالفة مبادئ الإسلام والثورة، بل كان هناك من تم عقابه لأنه لازم كهنة الشيطان الأعظم بحضور مؤتمر في برلين.

المدهش في الموضوع أن المعجبين في ديارنا بالتجربة الإيرانية لم ينطقوا بحرف، وبعد أن كانوا يعايروننا بحرية الصحافة في طهران مقارنة بما يجري لدينا، فإنهم سكتوا تماما، ومن أعطونا الدروس نقلا عن «الإيكونوميست» في لندن أن نظام الحكم يمكن أن يكون إسلاميا وديموقراطيا في آن واحد، لم يعلقوا بكلمة، وحتى الليبراليين الذين لم تعجبهم التجربة في شيء لم تصدر منهم رسالة احتجاج واحدة،

وتركوا هذه المهمة لوسائل الإعلام والمنظمات الأهلية الغربية، فالرأى لديهم أن أهل طهران أدرى بشعابها ودروبها، وإذا كان الربيع محملا بكثير من رياح الخماسين، فإنها واحدة من طبائع الفصول فى الشرق الأوسط الذى وضعتنا الأقدار وسط تقاليده ومثله.

وإذا كان ربيع طهران قد انتهى قبل أن يبدأ، فإنه أثبت أمرا واحدا هو أن الإصلاحيين أكثر أصالة مما كان مقدرا للبعض منا، وأنهم يدفعون ثمنا غاليا قد يصل إلى حد الحياة نفسها ذودا عن قيمة الحرية وحق الاختيار، فهم ليسوا جزءا من مسرحية يحكمها نص واحد، بل إنهم على الأرجح لديهم نص وقصة مختلفة تماما عمن قرروا استئصالهم من الساحة. المحافظون من ناحيتهم أثبتوا أنهم مثلهم مثل محافظين قبلهم ليسوا على استعداد لقبول قواعد اللعبة التى تقررها الانتخابات العامة حتى وسط القيود والقواعد التى قرروها، وفى يدهم وحدهم راية الإسلام يرفعونها فى وجه من له تفسيرات واجتهادات مختلفة. ولما لا توجد هذه المرة أحذية سوفيتية ثقيلة تقص براعم الربيع قبل إزهارها، فإن الفصائل الثورية سوف تتكفل بالمهمة، ولكن الإصلاحيين ليسوا خالين من عناصر القوة فمن ورائهم الشباب والطلاب والنساء، وهؤلاء عندما يغضبون يكون لهم رأى فى متى يأتى الربيع ومتى يذهب؟!

٤.أيام لشبونة...!

فى يوم من أيام التاريخ كان على بابا روما أن يحل مشكلة التنافس الأسبانى البرتغالى على استكشاف العالم وامتلاكه بأن يرسم خطا وهميا على الخريطة يقسمه فيها بين مدريد ولشبونة وهو ما حددته بعد ذلك معاهدة توردازيلاس عام ١٤٩٤. ووضعته قرب الساحل الإفريقى الغربى وجعلت كل ما يقع غربه يخص أسبانيا أما ما يقع شرقه فيخص البرتغال. كان العصر عصرا للقطبية الثنائية بلغة عصرنا بين الأمتين البحريتين اللتين تقاسمتا شبه الجزيرة الأيبيرية، وعلى عاتقهما وقعت

مسئولية التاريخ لاكتشاف الدنيا الجديدة وربط الأجزاء المعروفة منها من خلال حقيقة بسيطة كانت ظلمات العصور الوسطى قد منعت تصورها وهى أن الأرض كروية. وهكذا ومن موانئ أسبانيا والبرتغال خرج كريستوفر كولمبس وفاسكو ديجاما وماجلان وهنرى الملاح لكى يكتشفوا العالم الجديد فى الأمريكتين ويدورون حول العالم من خلال مضيق ماجلان ويلفون حول إفريقيا من رأس الرجاء الصالح.

رائحة ذلك كله وآثاره يحسه ويشمه كل من يزور البرتغال وعاصمتها لشبونة ويجده فى تماثيل الميادين وأسماء الشوارع وواجهات المبانى ما كان منها قصرا للملوك وما كان مسكنا للعامة. ورغم أننا لا نسمع عن البرتغال كثيرا فى السياسات العالمية إلا عندما تتولى لفترة ستة شهر رئاسة الاتحاد الأوروبى، فإن قصتها لاشك مثيرة وغنية. ففى موقعها المواجه للمحيط الأطلنطى جعلها أمة بحرية من الطراز الأول، وجاء موعدها مع القدر قبل قرابة خمسة قرون لتسطر لها مكانة فى غزو الشرق كله حتى إليابان وبعض من الغرب فى البرازيل، ومن هذا وذاك حصلت على مكانة إمبراطورية فى كتب التاريخ لم تستمر كثيرا فى الواقع فقد غالبتها أسبانيا وبعد ذلك غالب الاثنان بريطانيا وهولندا واتجه التاريخ سبيلا آخر، لأن البرتغال وأسبانيا رغم فلاحهما فى علوم البحر فلم يكن لديهما الكثير فى علوم الصناعة والمال والإدارة التى استقرت فى لندن وأمستردام.

ولكن حصول البرتغال على مكان يوما فى التاريخ وكتبه ولوحاته لم يرحمها كثيرا فيما تلا ذلك من عصور، وباتت أرضا لا يوجد فيها إلا المياه الراكدة والآسنة للجمود والتخلف فى أوروبا، وظلت كذلك حتى الربع الأخير من القرن العشرين عندما حدثت ثلاثة تطورات هامة. أولها أنها تخلصت من ديكتاتورية سالازار التى خلقت وهما بخصوصية الحالة البرتغالية عن بقية أوروبا فعرفت الطغيان والتخلف فى آن واحد، وثانيهما أنها تخلصت من المستعمرات الإفريقية والآسيوية فى أنجولا وموزمبيق وتيمور الشرقية بعد أن أدركت أن الاستعمار ليس فقط مفسدة للمستعمرات وإنما للمستعمر أيضاً عندما كانت توحى بوجود إمبراطورية واسعة حتى ولو كانت مفلسة وعاجزة، وثالثها الدخول إلى الجماعة الأوروبية وبعد ذلك الاتحاد الأوروبى أى الانفتاح على القارة التى ابتعدت عنها طويلا.

هذه التطورات مجتمعة خلقت برتغالا جديدا، ومن قدر له زيارات متعاقبة لها ولعاصمتها فسوف يرى حالة من السباق مع الزمن تختلف فيها الأمور فى كل زيارة عن الزيارة السابقة، وبعد أن كانت البرتغال فى مطلع الخمسينيات لا تزيد كثيرا، وفى أحيان تقل اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا، عن حالة بعض المستعمرات مثل مصر مثلا، فإنها فى مطلع القرن الحادى والعشرين تلتحق بسرعة فى ركب الدول الصناعية المتقدمة فى العالم. وعندما تحدث هذه النقلة فى حياة الشعوب والأمم فإن أشياء كثيرة تتغير فى الثقافة العامة، فالتاريخ مثلا ينتقل من كونه تعبيرا عن الزمن الماضى الذى يحكم حاضر أمم أخرى لكى يكون تعبيرا عن الزمن القادم أى المستقبل، ويكون للذاكرة التاريخية دور فى تحديد الخصوصية فى عالم إليوم وليس العزلة عنه، ودورا فى الفكر والعمران ولكنه الذى يتصل بالفكر والعمران فى العالم الواسع.

وعندما قمت بزيارة لشبونة مؤخرا لحضور مؤتمر عن الجهود الدولية متعددة الأطراف فى المجالات الأمنية والاقتصادية والسياسية بمناسبة الذكرى العشرين لإنشاء مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية، كانت العاصمة التى لم تفقد صلتها المعنوية مع الزمن الإمبراطورى، واقعة تماما وسط أحداث عالم إليوم. وربما فى حدود ما أعلم لا توجد عاصمة أوروبية مماثلة لها نفس الإخلاص للوحدة الأوروبية وضرورة الإسراع بها، وبنفس الحماس للفكرة الديموقراطية والليبرالية، ربما لأنها جاءت للفكرتين متأخرة أكثر مما ينبغى، وربما لأنها أدركت حجم الفائدة التى تحصل عليها دولة ما من النظام الديموقراطى ومن التكامل الاقتصادى والسياسى مع دول أخرى كانت حتى فترة قريبة للغاية لا تتعدى ربع قرن تراها فى مواقع الأغراب والخصوم.

ويبدو أن النجاح يدعو إلى النجاح، ومع التغير السياسى والاقتصادى والثقافى الداخلى، فإن الطاقات المتولدة عنها من الفكر إلى البضائع يحتاج دوما أسواقا واسعة، وإذا كانت أوروبا هى السوق الأقرب، فإن ذلك لم يمنع من مد الجسور والصلات إلى أسواق ومجالات أخرى. وإذا كانت الولايات المتحدة حليفا تقليديا منذ اختارت البرتغال الالتحاق بحلف الأطلنطى، فإن الحلف العسكرى الذى قام لمناهضة الشيوعية لا يصير له معنى الآن دون التحول إلى علاقات اقتصادية وسياسية وثيقة

تعطى معنى خاصا لوجود ٤٥ مليون أمريكى من أصول برتغالية يمكن ربطهم ثقافيا واقتصاديا بالوطن الأم. وإذا كانت البرازيل الدولة القارية على الجانب الآخر من المحيط ذات لغة وثقافة برتغالية، فإن صلتها بالبرتغال يمكنها أن تكون لها ذات النتائج التى حصلت عليها بريطانيا من وجود الولايات المتحدة الأنجلوساكسونية على الشاطئ الآخر من الماء، ولذلك ربما لا توجد دولة أخرى أكثر حماسا لمنظمة الميركوسول التى تضم دول أمريكا الجنوبية وتحاول السير على مسار الدول الأوروبية فى التكامل مثلما هو الحال فى البرتغال التى تراها امتدادا مستقبليا هائل الإمكانات الاقتصادية للقارة الأوروبية.

وكأن كل ذلك ليس كافيا لدولة لايزيد عدد سكانها على عشرة ملايين نسمة، ولكن عندما يصل متوسط دخل الفرد إلى ١٥ ألف دولار، وتسعى الدولة لكى يصل إلى ضعف ذلك كما هو الحال فى الدول الأوروبية المتقدمة، فإن الدنيا بأسرها لا تكفى. وفى لشبونة فإن الدنيا ممتدة حتى تيمور الشرقية ومكاو فى آسيا، وأنجولا وموزمبيق، وحيثما وطأ الملاحون البرتغاليون ماء أو أرضا، وكل ذلك ليس إحياء للإمبراطورية القديمة، ولا عودة للاستعمار الذى مضى، وإنما إحياء لروابط وعلاقات يمكن استثمارها فى عالم اليوم وتقدم أسواقا ومكانا ووجودا. فالقضية فى ظل التكامل الأوروبى ليس أن تكون البرتغال جزءا من الاتحاد الأوروبى، وإنما أيضا أن تكون جزءا فاعلا وعالى القيمة ويضيف بقدر ما يأخذ وأكثر. ورغم أن القومية البرتغالية نشأت فى خضم عملية طرد العرب فى القرن الثانى عشر، فإن لشبونة الآن تبحث وتبعث كل ما كان له صلة بالعرب والمسلمين، فالقضية ليست قضية ثارات تاريخية ودينية إنما هى قضية عالم اليوم والغد.

٥ - ليالى استنبول...!

حكمت ظروف العمل أن أزور استنبول مرتين خلال أقل من شهر للمشاركة فى مؤتمرين مختلفين، وبالتالى أتيحت الفرصة لأول مرة لتعرف المدينة التى كانت

آخر عواصم الخلافة الإسلامية، والتى حكمت منها مصر ومعظم العالم العربى على مدى خمسة قرون تقريبا. وبالإضافة إلى التاريخ فإن المدينة الواقعة على البسفور، والمنقسمة بين قارتى آسيا وأوروبا تتميز بأنها خليط يجمع بشكل ما بين القاهرة، خاصة الجزء التاريخى الإسلامى منها، والإسكندرية حيث يوجد ساحل بحر مرمرة الذى هو صورة مصغرة من البحر الأبيض المتوسط الذى يلتحم مع مائه عند بحر إيجة. ومهما رأى الأتراك فى أنفسهم أو ظنوا أنهم جزء من أوروبا لأن المدينة شرق أوسطية لا ريب بكل ما يجمع المنطقة من ملامح وصفات، ربما لأن الرابطة العثمانية كانت أولى الصيغ التى جمعت شعوبها وقبائلها فى رابطة واحدة على مدى أكثر من خمسة قرون.

ولكن ربما كان الأمر المدهش فى استنبول أننى تركتها فى المرة الأولى فى أوائل شهر يونيو، وكان سعر الدولار فيها يساوى مليونا من الليرات التركية، وإذا به فى أوائل شهر يوليو ينخفض بما مقداره ٢٥٪، وهكذا زادت ثروتى المليونية بمقدار الربع خلال فترة تقل عن أربعة أسابيع. ولو تخيلنا أن الحالة كذلك فى مصر لوصل سعر الدولار إلى خمسة جنيهات، وهو الأمر الذى كان سيسبب ذعرا هائلا لو أخذنا فى الاعتبار الحالة التى عرفها المصريون عندما وصل سعر العملة إلى أربعة جنيهات، بعد ثبات دام تسع سنوات تقريبا. وعلى أى الأحوال فإن هذه لم تكن المرة الأولى التى ينخفض فيها سعر العملة التركية. فعندما زرتها لأول مرة منذ أكثر من عشر سنوات كان الدولار يساوى ٦٥٠ ليرة ، أى أن قيمته انخفضت أكثر من عشرة أمثال خلال عقد من الزمن. ولعل ذلك فى حد ذاته يخلق ثقافة خاصة لأصحاب العملات المتغيرة السعر بسرعة شديدة، وفى حالة العملة التركية. فقد وصلت هذه السرعة إلى مستويات فلكية منذ شهر مارس الماضى عندما تم تعويم العملة وسمح لها بالهبوط إلى المستويات الحقيقية لسعرها. وفى مثل هذه الثقافة فإن الدفع الفورى وبالنقود (كاش) بالغ الأهمية، فأى انتظار يعنى الحصول على النقود وقد نقصت قيمتها بالفعل، ولذلك فإن البائعين فى استنبول على استعداد لتخفيض السعر فورا بما مقداره ٢٥٪ إذا كان الدفع فوريا، أما إذا تم ذلك بعملة مثل الدولار الأمريكى أو المارك الألمانى فإن تخفيضا إضافيا قدره ١٠٪ سوف يضاف فورا. وفى مثل هذه الأجواء فإنه لا يوجد لدى أحد وقت لكى يلجأ إلى البنوك، ويصير سوق العملة هى السوق التركية كلها، وفى مكان مثل السوق الكبيرة المغطاة فى استنبول فإنه يصير بمثابة البنك المركزى للدولة.

وحينما قال لى الصديق التركى، أستاذ العلوم السياسية فى واحدة من أشهر الجامعات التركية ومن أكثر الأساتذة الذين عرفتهم نشاطا ونشرا فى الدوريات العالمية، إن دخله انخفض إلى النصف خلال الشهور القليلة الماضية وبدت المأساة الاقتصادية قريبة للغاية مجسدة فى وجه واسم وحياة محددة وليس أرقاما مجردة. ولكن رغم ذلك فلم يوجد فى ليالى استنبول ما يشير إلى مأساة من نوع ما، فالحياة تمضى بزخم هائل من التدافع والسرعة والعمل، مع قدرة مذهلة على التكيف مع أوضاع صعبة، وفى لحظة ما فإن الزائر للمدينة سوف يحس أنه يواجه عدد سكانها البالغ ستة عشر مليونا من البشر الذين لا يكفون عن الحديث والصياح والعمل حتى ولو عزت فرصه كثيرا. وفى الليل لا يبدو أن شيئا تغير كثيرا، فالعاصمة التجارية والاقتصادية والثقافية لتركيا لا تعرف الهجوع والسكينة، وعندما يأخذ القارب المختار من عشرات القوارب والسفن المرء عبر البسفور والدردنيل وبحر مرمرة وأبواب البحر الأسود، فإن المدينة تبدو معلقة كلها فوق الجبال كأنها حبات من اللؤلؤ المتناثر فوق الربى العالية، حيث تختلط أسرار الدنيا مع مآذن الجوامع التى يبلغ عددها ثلاثة آلاف من المساجد مع عدد غير معلوم من المآذن.

وبشكل ما فإن آخر عواصم الخلافة العثمانية تبدو – رغم المصاعب الكثيرة – متعايشة مع نفسها، ومع ذلك الجسر الشهير عند البسفور الذى يربط آسيا وأوروبا، أو هكذا على الأقل ما يتخيله أهلها. فالجسر الذى يبدو من بعيد – مع جماله الآسر – رفيعا متوترا بين قارتين، يظهر كما لو كان معبرا عما يريده الأتراك لنفسهم، مع يقين أنهم لأسباب متنوعة قد خرجوا من الشرق أو الشرق الأوسط على وجه الدقة، ولكنهم لم يهبطوا إلى أوروبا بعد. وبقدر ما يسمع الإنسان عن انضمام تركيا للاتحاد الأوروبى فى المستقبل، والأوروبية والعلمانية وحتى الديموقراطية التى أهلتها لذلك، فإنه لن يعدم سماع نبرة عالية من الشك فى حدوث ذلك الآن أو فى المستقبل، بل إن النغمة العربية الذائعة عن أن الغرب، وأوروبا تحديدا، تكره العرب لوجه الله ، لا بد من سماعها من أتراك متغربين ومخلصين فى غربيتهم، فمع كل عقبة على الطريق لا يجد التركى أسهل من إلقاء تبعاتها على ذلك الغرب الذى لا يريده بين صفوفه مهما فعل واقترب، فالطريق إلى الأوروبية يبدو طويلا وعصيا على

الوصول. وما بين الاقتصاد المتردى والثقافة المختلطة والجسر الرفيع المتوتر بين الشرق والغرب يكون العبء ثقيلا والمسئولية غير قابلة للحمل.

وتتعقد المسألة برمتها أكثر عندما يظهر وكأن أهل استنبول، ومعهم أهل تركيا، يبدون وكأنهم اتخذوا قرارين فى نفس واحد، قرار الوجود مع الغرب، وقرار البقاء فى الشرق. وبقدر ما يظهر الأول على ساحل المدينة، فإن الثانى يفرض نفسه عند الأسواق والجوامع الكبرى. وبشكل ما فإنه عند النساء تتجسد المعضلة الكبرى، وما بين آخر صيحات باريس للأزياء، وآخر أشكال الحجاب فى طهران يتزامل القراران ويتواجدان. ورغم أن هذه المعضلة تكاد تكون متجسدة فى كل عاصمة شرق أوسطية تقريبا فى القاهرة أو بيروت، فإنه لا يوجد مثيل للتوتر الحادث بين القرارين فى استنبول. ربما لأن هناك قدرا من القسر الناجم عن الأصولية العلمانية التركية التى لا يوجد مثيل لها فى كل العواصم الغربية الأخرى، وربما لأن الديموقراطية العسكرية التركية تبدو غير منسجمة مع المشروع الغربى كله، وربما لأن هذا وذاك دفع وبشدة رجال ونساء استنبول لتأكيد ما يعتقدونه ويرونه جزءا من ذاتيتهم المتفردة، وهو إعلان سياسى وثقافى لا تكف نخبة المدينة الصاخبة عن إعلان كراهيتها له بقدر ما تعلن إعجابها وحبها لجسر التوتر المعلق فوق البسفور.

٦ـ قابلت بشراً سعداء...!

رمت بى المقادير لقضاء ليلة فى مدينة الإسكندرية، وكما هى العادة انتهى المطاف إلى الجلوس فى واحد من تلك المقاهى على الكورنيش لتناول الشاى والتطلع إلى البحر والتأمل فى أحوال الناس، وكانت المفاجأة هى أن هناك آلافا من البشر يتجولون وعلى وجوههم ابتسامات واسعة، وفى تحركاتهم قدر كبير من السرور والحبور، وباختصار يشعرون بقدر ليس قليلا من السعادة. لم يختلف الأمر كثيرا إذا كانت الأسر كبيرة أو صغيرة، فى بداية العمر أو فى الطريق إلى الكهولة والشيخوخة،

أو كانت النساء محجبات أو غير محجبات، أو كان الشباب فى سن اللهو واللعب أو فى زمن المسئولية الأولى، وفى كل الأحوال والأعمار كان الجميع يعبرون عن سعادتهم الخاصة بالتمايل مع موسيقى صاخبة تأتى من اتجاهات شتى، ورغم اختلاطها وتزاحمها فقد كان الجالس والواقف والماشى ينتقى بقدرة عجيبة ما ينسجم معه ويطابق مزاجه، وفى نفس الوقت يقوم بأعمال متنوعة للحفاظ على سلامة الأسرة من نزق عفاريت الأطفال أو شراء الحلوى أو عبور الشارع، أو حتى الجلوس على المقاهى لاحتساء الشاى بالنعناع أو بدونه.

كانت الأفواج تروح وتجىء وكأنه لا يوجد فى البلاد أزمة للركود أو السيولة، أو كأنهم لا يعرفون أن عملية السلام متعثرة، وبشكل ما لم ينتقص من سعادتهم الحكم الأخير فى قضايا الفساد ولا حتى حكم المحكمة الدستورية العليا ببطلان انتخابات مجلس الشعب للمرة الثالثة على التوالى، وهكذا الكثير من الأحداث التى عادة ما تشيع التعاسة لدى النخبة فى القاهرة . ومن كثرة شيوع هذه الأحداث ظننت، وبعض الظن إثم، أن أهلنا المصريين لديهم مشكلة تاريخية مع فكرة السعادة، حتى إن المشهد الافتتاحى لتاريخنا الذى عرفناه من أسطورة إيزيس وأوزوريس كان مأساويا للغاية وحافلا بالخيانة من الأخ لأخيه، حتى مزق الأول جسد الثانى وبعثره قطعا بطول مصر حتى شاطئ البحر وما كان على السيدة الوفية إلا أن تجمعها وهى تبكى فكان من دموعها نهر النيل، وعندما اكتمل الجسد حطت عليه ونفخت فيه من روحها، فعاد حيا وفى أحشائها كان حورس الذى كان عليه بعد ذلك الانتقام لأبيه. الأسطورة كانت درامية بكل المعانى، وفيها من الحزن والحسرة ومشاعر الانتقام ما يأكل الروح ولا يبقى فيها إلا المرارة والإحباط، ومنها انسحبت غلالة من التعاسة اعتصرت نفسها فى الناى المصرى، وفى المواويل التى لا تكف عن التذكير بغدر الأيام.

على شط الإسكندرية لم يكن هناك شىء من هذا، وعلى العكس كان هناك بشر سعداء قرروا الخروج على الأساطير القديمة والتمتع بالحياة والتخلص من عناء عام، والاستمتاع بنسمات طرية بعث بها البحر، صاحبها موسيقى وأغان تبعث على البهجة والحب، حتى وصل واحد منها لأسباب غير معروفة إلى أن قلبه مشتعل بالنار. ساعتها تذكرت أن مطرب جيلنا عبد الحليم حافظ كان أيضا قد وصف حبه

بأنه نار، وعلى سبيل التأكيد أكثر من نار، ولكن أيامها كان ذلك باعثا على تعاسة لا حد لها، جعلت النموذج العاطفى الأمثل لحب الرجل للمرأة، ذلك الذى يختلط بقدر هائل من العذاب والسهد والحزن والكرب بوجه عام. هذه المرة كان الأمر مختلفا، فنار الحب خلقت إحساسا آخر بالنشوة التى تحرك عصائر الوجود والإقبال، وأوجدت تعبيرات للاقتراب والحميمية والحماسة للعيش والتواصل بالظرف والطرافة والابتسامة، وأحيانا الضحكة العالية التى لا أعتقد أن أحدا فى العالم يعرفها غير المصريين.

ما سبب هذه المفارقة المذهلة بين مشهد الشعب فى الإسكندرية ومشهد النخبة فى القاهرة؟ وهل يكفى الاختلاف فى درجة الحرارة بين القيظ والنسمة لتفسيرها؟ وهل صحيح أن الإجازة والتصييف لهما طقوسهما التى تأبى الكآبة والنكد الأزلى الذى يوفره المصريون لبقية العام ومشاكل الثانوية العامة والدروس الخصوصية، وهل يكون الموضوع أن النخبة هى التى اخترعت الغم المصرى الأصيل وفرضته على الشعب الذى يتمرد عليه فى الصيف ويستسلم له بقية العام، أم أن هناك أمرا ما فى هذه المدينة يغسل الروح وينقى الفؤاد ؟!. أسئلة كثيرة البحث عن إجابة لها لا يناسب مقتضى الحال، وعلى الأغلب فإنها تفسد المتعة بوجود مصريين سعداء أحيانا، وبمدينة استعادت مرة أخرى شيئا من رونقها وذوقها العام، وهذا فى حد ذاته إنجاز كبير يلامس الحياة مباشرة ويضعها فى قبضة اليد وفى متناول العين، وعندما يحدث ذلك فإن تاريخا بأكمله يعود ملء السمع والبصر.

فعندما أنشأ الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية عام ٣٣٢ قبل الميلاد، فإنه كان يمد الحضارة المصرية القديمة، والبرية النهرية فى معظمها، بمكان على البحر الأبيض المتوسط بالذات حيث الطريق لأوروبا وكل الحضارة الغربية فيما تلا ذلك من حقب وعصور. ومن المدهش أن هذه المدينة ولمدة تصل إلى سبعة قرون كاملة كانت أهم ميناء تجارى ومركزا للعلم والتعلم والحضارة على جانبى البحر، ومن الناحية المعمارية كانت المنافس الأول لأثينا مهد الحضارة الهيلينية وروما مركز الحضارة الرومانية، ومعهما كانت تمثل مثلث الأصول للحضارة الغربية المعاصرة. وبقدر ما كانت فنارتها واحدة من أعاجيب الدنيا السبع ودلالة على مكانتها التجارية الفريدة، فإن مكتبتها التى كانت تتلقى كل ما يمر على الميناء على سطح السفن من

مواد يمكن قراءتها لكى تنسخها وتحفظها، كانت لها نفس المكانة التى تعرفها مكانة مكتبة الكونجرس الأمريكى فى عالمنا المعاصر، ولعلها كانت أكثر أهمية ودلالة على علم أهل المدينة الذين كان عددهم لا يزيد على ٣٠٠ ألف نسمة، بينما كانت مكتبتهم تحتوى على ٧٠٠ ألف كتاب ومخطوط، ولعله أعلى معدل عرفته البشرية حتى الآن بالنسبة للعلاقة بين الإنسان والكتاب. وإذا كان الهولنديون المعاصرون يفخرون بأن هناك كتابا لكل ثلاثة من الأفراد فى هولندا، فإن أهل الإسكندرية القدامى كان بوسعهم القول إن لديهم أكثر من كتابين لكل مواطن سكندرى. وحتى بعد انتحار كليوباترا، آخر ملوك البطالمة، وحرق الرومان لمكتبة الإسكندرية، فإن المدينة التى أصبحت التالية فقط لروما من حيث المكانة السياسية، فإنها ظلت لثلاثة قرون تالية هى مركز التجارة والعلم والتعلم فى الإمبراطورية الرومانية كلها.

بالطبع فإن البشر السعداء الذين قابلتهم على شط الإسكندرية لم يدر بخلد أى منهم شىء من ذلك، وربما قارنوا من وقت لآخر بين تجربتهم السعيدة الحالية وتجربتهم السابقة فى الساحل الشمالى الذى قد يكون أكثر أناقة، والمياه فيه زرقاء فوسفورية براقة، ولكن من فيه يشعرون بوحدة عارمة. والمصريون فى العموم لا يحبون الوحدة أو العزلة، ويريدون الصحبة والكثرة والضجيج والازدحام، وتبادل النكات جنبا إلى جنب مع أكياس الترمس والذرة المشوى وقطع الفطير المتنوعة المذاق.

٧- ابتسم أنت فى الإسكندرية... !

عندما وجه الدكتور محمد السعدنى أستاذ التحاليل الطبية بجامعة الإسكندرية، ولم أكن قد شرفت بمعرفته من قبل، الدعوة لى تليفونيا لإلقاء محاضرة بعنوان (مصر وتحديات القرن الحادى والعشرين) فى الجمعية الوطنية لإعداد مصر للقرن الحادى والعشرين، استجبت على الفور. فقد فاجأنى أن تكون هناك جمعية أهلية فى

مصر تهتم بهذا الموضوع، فالذائع لدينا جمعيات وجماعات كثيرة جل اهتمامها كيف تعد مصر لدخول القرن السابع أو العاشر الميلادى. ومن وصل منها إلى القرن العشرين فإن محط رؤيتها لم يزد كثيرا على عشرينيات القرن أو ستينياته خاصة بعد أن اصطلح على تسمية هذا أو ذاك الزمن الجميل. وهكذا شددت الرحال إلى الثغر حاملا ـ كما هى العادة ـ المادة العلمية الخاصة بهذا المقال الأسبوعى الذى كنت قد قررت تخصيصه للمفاوضات السورية – الإسرائيلية، وعددا من الصحف والمجلات، ورسائل للقراء جاءت من العالم العربى إلا واحدة مصرية، وشريطين للموسيقى الشعبية الهندية أهدتنى إياهما محررة للشئون الخارجية فى صحيفة تايمز أوف إنديا أجرت معى لقاء مؤخرا حول حال الشرق الأوسط.

وبعد عشرين دقيقة من مغادرتى لمبنى الأهرام فى شارع الجلاء، كنت فى أول طريق مصر ـ الإسكندرية، وكان الفضل فى هذه السرعة الخارقة لمحور ٢٦ يوليو الذى كان ناعما كالحرير، ولكن قراءتى لملف المفاوضات السورية – الإسرائيلية وما يدور فيها كان كافيا لكى يلقى بظل ثقيل من الغم والهم خشية ضياع آخر الفرص على الأقل لهذا العام للتوصل إلى تسوية تكفل لشعوب المنطقة مستقبلا أفضل مما عاشته طوال نصف القرن الماضى. وزاد من الاكتئاب كثيرا أن الموسيقى الهندية التى استندت إلى الناى وآلة تشبه الربابة كانت ألحانها عصيرا للحزن المصفى والألم الصافى الذى نعرفه فى موسيقانا القادمة من صعيد مصر، ويبدو أن فقراء العالم ينتجون فى النهاية أنغاما واحدة كلها أنين وشجن!.

على أى الأحوال خرجت من أفكارى السياسية والفنية على مشهد بوابة الطريق الفرعونية الجميلة والتى لم أكن قد شاهدتها من قبل، وكان ذلك بداية لتغيرات كثيرة جعلت الطريق مختلفا عما كان عليه الحال منذ فترة تقل عن العام عندما طرقته آخر مرة، ومناقضا تماما لصفة الصحراوى الذى مازلنا نطلقها عليه، فقد كانت المزارع ممتدة على الجانبين، وبعضها كان ممتدا بالعمق إلى آخر النظر، وبعضها الآخر كانت له أسوار خضراء تتدفق منها شلالات للزهور ألوانها تسر الناظرين، وبين المساحات الخضراء تواجدت كل أنواع الخدمات ومحطات الإغاثة، وكثرة من المشروعات التى لاتزال فى دور التحضير والتجهيز، وباختصار كان الطريق عنوانا لما درجنا على تسميته ثمار السلام التى تجمعت عليه بعد عقدين من تحرير سيناء.

كان المشهد مبهجا بكل المقاييس وبات مناقضا بشدة للموسيقى الهندية فاستبدلتها بأخرى مصرية مناسبة لمقتضى الحال لم يقطعها فى النهاية إلا البوابة الهيلينية للإسكندرية، ومن بعدها الكبارى الأنيقة للطريق الدولى، وفى دقائق كان هواء البحر النقى وكورنيش المدينة فى صورته الجديدة فى متناول إليد.

وبقدر ما كان كل ذلك باعثا على السرور، فإن البهجة العظمى جاءت مع لقاء أهل الإسكندرية بلهجتهم المحببة، التى يختلط فيها التواضع بالتفاخر والكبرياء فى مزيج خاص، والذى امتد حتى الثالثة من صباح يوم الجمعة، فبعد اللقاء مع الدكتور السعدنى الذى أعطانى معلومات عن تاريخ الجمعية التى كنت أتمنى أن يوجد أمثالها فى مصر منذ خمسين عاما حتى نعد للقرن قبل وصوله إلينا. كانت المحاضرة والنقاش الذى أداره السيد فيصل خطاب فى قصر الثقافة بسيدى جابر. كان الحضور ممثلا لكل الاتجاهات الفكرية والألوان الحزبية، ودار فى ليبرالية كاملة والتزام تام بالوقت، وفيما عدا مشاكسة صغيرة بين السيدة نادية حسن ممثلة عن الحزب الوطنى والأستاذ إبراهيم عبدالملاك أمين عام حزب العمل حول أى منهما يحب أكثر الرئيس حسنى مبارك، فإن الحوار جرى فى سهولة ويسر، والأهم أنه جرى داخل الموضوع الخاص بالمستقبل على عكس ما اعتدناه فى منتديات كثيرة يكون الزعم فيها بالحديث عن قادم الأيام وبعد لحظات يعود الجميع إلى ما ذهب منها وما انقضى. كانت الهموم معروفة كيف نواجه العولمة؟ وماذا نفعل مع تحديات السلام إذا أتى وإذا لم يأت، وبين هذا وذاك كان موضوع الديموقراطية وانتخابات مجلس الشعب القادمة كبداية جديدة لها هو الذى حصل على القسط الأكبر. ولكن الجديد هذه المرة كان مشاركة الشباب والشابات الواسعة، وعلى عكس ما هو شائع عن أولاد هذه الأيام، فقد كان حديثهم منتميا إلى أقصى درجة، متابعا وبدقة كبيرة لما يجرى ويدور، ومعلقا عليها دون إطالة، وبلاتشنج أو شعارات، ومهما كانت الألوان المذهبية فقد كان جميعهم يتطلعون بأمل للمستقبل عارفين بأعبائه ومشاكله.

وباختصار، كان نبض جماهير الإسكندرية مختلفا كثيرا عما يقوله لنا الذين يدعون التخصص فى قياس نبض الجماهير، كان سؤالهم عن العولمة ليس عما إذا كنا نقبلها أو نرفضها، ولكن كيف نستعد لها، وكان سؤالهم عن السلام والتسوية ليس عما إذا كنا نريدها أو لانريدها وإنما عن كيف تتعامل مصر مع متغيراتهما، وكان

سؤالهم عن الديموقراطية ليس قبولا أورفضا لها وإنما يتضمن قلقا عليها، وعما إذا كانت الانتخابات القادمة سوف تكون أفضل حالا من انتخابات عام ١٩٩٥ وعما إذا كانت توجيهات الرئيس مبارك سوف يتم تنفيذها أم تفريغها من مضمونها ساعة الجد. كل ذلك كان أسئلة مشروعة، ولم يتضمن أى منها الولولة الشائعة فى مصرنا عند التعامل مع هذه الموضوعات، وكلها تحتوى على رغبة تدعمها إرادة للتعامل الإيجابى مع تحديات القرن الذى أصبحنا فيه.

المفاجأة أن ذلك لم يأت فقط من أعضاء الجمعية التى شغلت نفسها بإعداد مصر للقرن الحادى والعشرين، بل أتت أيضا ممن يشاركونها أحلامها من أحزاب مختلفة كان من بينها قيادات حزب العمل بالإسكندرية الذين كان كرمهم حاتميا بعد المحاضرة، ورغم أن بعضهم انتمى إلى جماعات راديكالية فى الماضى، إلا أن تجربتهم السياسية فى العمل العام ومع الجماهير بالفعل قادتهم إلى درجة كبيرة من الاعتدال والنضج السياسى الذى جعلهم يتقاسمون مع غيرهم من الأحزاب الأخرى رؤى مستقبلية وقواسم مشتركة حتى بدت لى مفارقة لما هو شائع عن الحزب وصحيفته. وبدون الدخول فى كثير من التفاصيل، فقد بدت لى النخبة السياسية السكندرية، رغم ما بينها من تمايزات، قد تأثرت إلى حد كبير بالتجربة التنموية الباهرة التى عاشتها خلال العامين الماضيين، وإذا كان لأحد أن يؤكد الرابطة بين التقدم الاقتصادى والنضج السياسى، فإن الإسكندرية تقدم له أدلة كثيرة على ذلك نرجو أن يتواكب معها سلوك الجميع فى الانتخابات القادمة بحيث لا تتابعها أحكام لمحكمة النقض تكون لها نتائج سياسية باهظة مهما كان الخلاف حول دلالاتها القانونية.

فى الصباح الباكر، كانت أشعة شمس ذهبية وعفية تعكس نفسها على سطح البحر الذى كان مسالما فتناثر على شطآنه عدد ممن احترفوا الصبر بصيد السمك، ولم يخل الأمر من فتيان يسبحون فى مياه أمواجها حنونة، وعلى الكورنيش الجديد الأنيق جرى شباب يضرب الأرض بقوة وكأنه يستنطق فيها صحة المستقبل، وهنا وهناك كان الأكبر سنا يتأمل الحكمة فى الزرقة المتناهية للبحر والسماء، وعلى الجانب الآخر من الطريق كانت الإسكندرية تجدد نفسها بالفن والمعمار، وعندما ظهر الطريق الصحراوى سابقا مرة أخرى، كانت هناك أشياء كثيرة تدعو إلى التفاؤل،

ولكن بعد أن عبرت البوابة الفرعونية على مشارف القاهرة كنت قد عدت مرة أخرى إلى ملف المفاوضات السورية – الإسرائيلية، وساعتها أدركت أننى فى حاجة إلى الاستماع إلى الموسيقى الهندية مرة أخرى !.

٨. من أصيلة إلى الإسكندرية...!

التغيير دائماً ممكن وحتى إلى الأفضل، ومن يقل إنه مكتوب علينا الجمود فى كل شيء، وأن الدنيا تسير دوما إلى الأسوأ فإن عليه نفض رداء التشاؤم الذى من كثرته ساد اعتقاد عام أن تغيير واختلاف ما نحن عليه بات من ضرب المستحيل. لائحة الأسباب عن ذلك معروفة، فالأشخاص فى أماكنهم لايبرحونها، والشخوص فى محلاتهم لا ينتقلون خطوة، والنظم العربية تأخذ الحكمة من السلحفاة فى الحركة، وهناك نوع من التراضى العام أن أمورا مثل الإندفاع والانطلاق والقفز الكبرى هى من قبيل الخطيئة التى لا تغتفر والذنب الذى لا يمحى.

ما الذى يدعو إذن إلى الخروج عن المألوف العام سوى حالتين سارت لهما الأقدام من قبيل الصدفة خلال شهر أغسطس أولاهما إلى الإسكندرية والثانية إلى أصيلة القرية المغربية الصغيرة القابعة على المحيط الأطلنطى جنوب طنجة. فكما حدث مع معظم المصريين، فقد كنت من هؤلاء الذين عشقوا الإسكندرية فى الأزمنة القديمة ثم هجروها فى الأزمنة الحديثة بعد أن شاخت المعشوقة وهرمت قبل فوات الأوان، وأصبحت عروس البحر المتوسط مزحة مثل تلك المرأة التى تدعى أنها فى سن المائة صارت ملكة جمال الكون. ولذا وكما يحدث فى كل عام ذهبنا لقضاء الإجازة فى الساحل الشمالى، وهناك وتحت ضغط من هم أكثر ولاء لمدينة الإسكندر ذهبت ليوم واحد لكى أجد نفسى أجوب المدينة ذهابا وإيابا فى فرحة لا تصدق حيث كان هناك تغيير بل وانقلاب وفى فترة قصيرة لا داعى لتكرار الحديث عنه لأنه بات مرصودا الآن وبكثرة. ولكن ما جذب الانتباه كان البشر وأهل الأسكندرية الذين وجدت فيهم حالة من التفاؤل والفخر والمشاركة لم تحدث من قبل، والأهم من ذلك حالة المرح

والابتسامة والنظر إلى المستقبل حتى إنك ما إن تبدأ الحديث مع واحد من أهل الإسكندرية حتى يسرد القصة فقد فعلنا كذا وكذا، والخطة فسوف نفعل كذا وكذا.

بعد ذلك ذهبت إلى أصيلة لأول مرة لحضور موسمها الثقافى وللمشاركة فى ندوة عن العولمة، فبشكل ما كان لدّى دوما قدر من الوجل من حضور المهرجانات الثقافية العربية، ولم يكن ما سمعته من الذين ذهبوا مايدفع إلى تغيير الرأى، ولكن هذه المرة تغلبت الأسباب على المخاوف وذهبت لأجد فريدة مضى عليها عشرون عاما من البناء المتواصل تربط بين التنمية والثقافة فى صحبة أثيرة جعلت من أصيلة القرية الصغيرة المختلفة كما كل قرانا العربية قبلة للزائرين والسائحين لا يتمتعون فقط بمياه المحيط وإنما بالثقافة الرفيعة فى الموسيقى والفن التشكيلى والحوارات الأدبية شعرا ونثرا. ومرة أخرى فإن العلامة الفارقة هى السرور والحبور والتفاؤل لدى البشر وقصة الإنجازات التى تراكمت عاما بعد عام، وخطة المستقبل الذى يوقن الجميع أنه سيكون أفضل من الماضى والحاضر.

وما بين الإسكندرية وأصيلة لم يكن الشاطئ الطويل للبحر الأبيض المتوسط حتى يلتقى بالمحيط وإنما التجربة الغنية التى تشير إلى أن الأفراد القادة لهم وزن هائل فى التغيير تمثل فى حالة الإسكندرية فى محافظها الجديد عبد السلام المحجوب، وفى حالة أصيلة فى السفير محمد بن عيسى سفير المغرب فى واشنطن وراعى المشروع على مدى عقدين، وبعد ذلك يأتى مدخل التغيير ذاته من خلال الثقافة والجمال الذى يدفع دماء جديدة ونقية إلى عروق البشر فتدفعهم إلى المشاركة بوجدانهم وعقولهم وإضافاتهم التى لا تنتهى، وما بين الثلاثة القادة والمدخل والبشر نصبح أمام قصة للتغيير غير مألوفة لدينا ولكنها بالتأكيد قابلة للتكرار!!.

٩ - سينتوزا...!

من المؤكد أن أحدا لم يسمع بهذه الكلمة من قبل، وربما ظنها البعض نوعا من الصابون، أو الأكلات الشعبية فى إفريقيا، أو اسما كوديا لعملية عسكرية جرت فى

بلاد بعيدة وفى حرب لا نعرف متى حدثت على وجه التحديد، وربما كانت اسم الدلع الشعبى لأحد لاعبى كرة القدم المشهورين. كان هذا على الأقل ما دار فى ذهنى عندما نظرت فى برنامج زيارة مدينة سنغافورة ضمن بعثة «الأهرام» إلى آسيا، وبعد ذلك عرفت أنها جزيرة صغيرة لاتزيد مساحتها على أربعين هتكارا، وأنها أحد الأماكن السياحية المشهورة فى كبرى قارات العالم. كنا قد وصلنا توا من الهند بعد رحلة استغرقت الليل بطوله ووصلنا فى السابعة والربع صباحا، وكانت مواعيدنا فى التاسعة تماما، أما الذهاب إلى الجزيرة فيكون بعد ذلك بساعة.

ولكن عناء السفر والعيون المحمرة من طول السهر فى طائرة ظلت متقلبة المزاج نتيجة مرورها فى تقلبات جوية ورعدية جعلت الحياة ذاتها معلقة بين السماء والأرض ضاع كله بمجرد عبورنا للجسر الأنيق للغاية بين الجزيرة الأم وسينتوزا. ولم يكن ذلك راجعا بحال لمضيفتنا الأنيقة وابتسامتها الساحرة وعيونها اللامعة، والتى كان علينا التعامل مع جاذبيتها خلال الساعة والنصف التالية، وإنما كان الأمر كله راجعا إلى الجزيرة ذاتها التى كانت لا تقل أناقة وسحرا ولمعانا حتى إنها صارت تجتذب فى العام أكثر قليلا من ٤ ملايين سائح، ولما كنت أعرف أن أقصى رقم وصلت إليه مصر فى فترة المد السياحى قبل حادث الأقصر المشئوم وكان أقل قليلا من هذا الرقم، فقد كان على أن آخذ الجزيرة الصغيرة بجدية أكثر.

كانت المقارنة فادحة بكل المقاييس، ولكن سرعان ما تبين أن الأمر كله ليس فيه معجزة، وإنما فيه مفهوم متكامل للتنمية السياحية تجمع الماضى والحاضر والمستقبل فى تكامل مذهل. فماضى الجزيرة جعلها واحدة من المناطق التى استقرت فيها القيادات البريطانية إبان الحرب العالمية الثانية، أما حاضرها فتمثل فى حالة النمو الهائلة التى جرت فى منطقة شرق وجنوب شرق آسيا خلال العقدين الأخيرين، ومستقبلهما جزء من مستقبل سنغافورة كلها والتى لا تفعل شيئا إلا وفى ذهنها القرن الواحد والعشرون. ولذا فإن الزائر للمدينة سوف يجد «القلعة» التى ترقد حولها بضعة مدافع عتيقة، وكذلك المبانى كلها على الطراز البريطانى العتيق ولكن بدرجة أعظم من الأناقة التى ربما لم تعرفها بريطانيا العظمى فى تاريخها، وكذلك سوف يجد كل ما يكفى للهو البرىء فى النافورة الراقصة وساحات الموسيقى وربما التسوق إذا كان قد بقى لديه مال لزيارة الجزيرة الكبرى، والمعرفة من متحف خرافى للأحياء

المائيـة، وللعاشقين فإن بوسعهم الهبوط إلى تحت الماء فى نفق زجاجى تحيط به كافة أنواع الأسماك الصديقة وغير الصديقة، وهناك يستطيعون تناول العشاء وهم يتأملون فى أسماك القرش والأحياء الملونة والطائرات تحت الماء!. المستقبل تجده فى أن الجزيرة كلها إلكترونية تقريبا من حيث التحكم فى كل شىء، أما الحركة فهناك التلفريك والمونوريل، وهناك بالطبع الأقدام التى سوف تسير وسط بحار من الخضرة والنظافة والحدائق المنسقة بلا ورقة شجر واحدة خارجة عن مسارها الجمالى الطبيعى. ما رأيكم أن نشحن كل المسئولين عن السياحة فى بلادنا إلى سينتوزا لكى نتعلم شيئا من دولة كانت حتى وقت قريب للغاية نامية؟

١٠. تأملات آسيوية...!

حينما خرجت بعثة «الأهرام» إلى آسيا للقاء مع السيد نواز شريف رئيس وزراء باكستان همست فى أذن الأستاذ إبراهيم نافع قائلا لقد صافحنا فى التو إليد التى فى إمكان إصبع منها إصدار الأمر باستخدام الأسلحة النووية، فقال ضاحكا لقد صافحت أيادى كثيرة من هذه النوعية من قبل فى لقاءاتى مع ريجان وبوش وكلينتون وميجور وميتران وشيراك. وهكذا كانت القائمة طويلة للذين يملكون القدرة على إبادة مئات الألوف من البشر فى لحظة من لحظات القرار الصعبة. وساعتها لم أتمالك نفسى من استعادة الرحلة التى قمت بها إلى هيروشيما فى ديسمبر ١٩٨٦ وكيف تابعت لحظة بلحظة فى متحفها إلقاء وتفجير أول قنبلة فى التاريخ الإنسانى، وهو ما كان كافيا لكى يصيبنى بالاكتئاب ليومين متتاليين. ولكن كان أكثر ما شدنى فى المتحف لوحة سميت «الظل» وقصتها أن شخصا ما لا يعرف أحد اسمه أو عنوانه كان واقفا أمام حائط من الجرانيت، ولم يكن بمقدور أحد قط بعد ذلك أن يعرف ما إذا كان الرجل فى طريقه إلى التسوق أو أنه فى انتظار حبيبة لا تعرف تقاليد المواعيد الدقيقة مع من تحب وترضى، ولكن ما نعرفه أن الرجل أثناء وقوفه حدث الانفجار النووى ومن ثم انطبعت صورته كالظل كما فى لوحات السليوليت، فقد كانت ملامح رأسه وجسده المطبوعة محددة بالتحولات التى جرت حولها على

الحائط الذى أصبح كله من الزجاج أو حبات الكريستال. وباختصار شديد فإن إليابانى الطيب تلاشى تماما، ولم يعد فى مقدورنا معرفة تاريخه، أصله وفصله، ولم يبق منه شىء يقص علينا ما الذى شعر به ساعة أن شاهد الوهج النووى، ولا مادار فى ذهنه فى تلك الثانية التى كانت باقية من وعيه، ولا حتى تلك اللحظة من الألم الهائل التى ربما لم تتح له الفرصة للصراخ.

قيل لى يومها إن المستشار الألمانى ويلى برانت حين شاهد هذه اللوحة لم يتمالك نفسه من البكاء، وربما بكى كثيرون بعده لا نعرفهم، ولكن ما نعرفه أن قنبلة هيروشيما كانت الفاتحة لافتتان البشر بالسلاح النووى حتى بات ما لديهم منه يكفى لإفناء الإنسانية بضع مرات. وفى البداية كانت هناك دولة واحدة هى الولايات المتحدة تمتلك سلاح الفناء، وبعد ذلك انضم إليها الإتحاد السوفيتى الذى أصبح سابقا ثم بريطانيا وفرنسا والصين، وحتى وقت قريب كانت إسرائيل والهند وباكستان لديها ذات الآلة الجهنمية فى صمت، ولكن الدولتين الأخيرتين قررتا إخراجها من تحت الغطاء. أما لماذا قرر الجميع ذلك فكانت الإجابة التى لخصت كل الإجابات على لسان السفيرة السابقة لدى واشنطن مليحة لودى رئيسة تحرير صحيفة الأخبار الإنجليزية فى إسلام أباد «لم يكن لدينا خيار آخر، إنها مسألة بقاء» وساعتها لم أتمالك نفسى من استعادة التاريخ كله، فقد كان هذا تماما ماقاله كل من امتلك القنابل النووية.

ولكن مليحة لودى كانت مفعمة بالحياة، وفى عينيها من الذكاء والطاقة ما يكفى أمة بأسرها، ولا أدرى شخصيا كيف كان بقاؤها مهددا وهى جالسة فى مكتبها تقود الرجال كمال فعلت قريناتها من قبل بنازير بوتو وأنديرا غاندى وغيرهما من بنات حواء، وكان حالها كما حال أخريات وجدناهن على الجانب الآخر فى نيودلهى يسرن ويتزوجن ويقدن وينجبن الأطفال وباختصار يعطين للحياة معنى بعيونهن السوداء الكحيلة بأسرار الميلاد والبعث. ولكن مليحة وأقريناتها على الجانب الآخر لم

يكن لديها خيار آخر، وكان بقاؤهن مهددا من قوة غامضة تقع دائما فى الناحية الأخرى وتستعد فى وحشية وهمجية لكى تضع الجميع فى «الظل»...!

١١ ـ التخلف الأمريكى... !

عندما كنا ندرس المادية الجدلية لكارل ماركس وغيره من المفكرين تعلمنا أن المراحل التاريخية لا تنتهى بكلياتها أبدا وإنما يبقى دوما بعض من آثارها مع كل مرحلة جديدة فى التاريخ البشرى فلا عهد الرق ينتهى مع عصر الإقطاع ولا هذا يختفى مع الرأسمالية، وفهمنا لماذا استمرت حتى الآن ملكيات يعود بعضها إلى العصور الوسطى ولماذا لايزال القضاة البريطانيون يلبسون الباروكة البيضاء عندما يعتلون منصة المحكمة وهكذا أو هكذا قيل لنا إن النظم الاجتماعية لا تختفى أبدا، وإنما هناك دوما بقايا لها تستمر ضمن تركيبات نظم اجتماعية جديدة ولكنها فى كل الأحوال تتجه بالتطور الإنسانى خطوة متقدمة إلى الأمام ويبدو أن بعضا من هذا على الأقل صحيح وأن أكثر المجتمعات تقدماً فى العصر الحالى اقتصاديا وتكنولوجيا فى الولايات المتحدة يحمل فى جنباته أشكالا كثيرة من التخلف الذى تناسب مستوياته كثيرا ما نعرفه فى العالم الثالث وأكثر من هذا، فإن آخر مراحل الرأسمالية المعاصرة ممثلة فى العولمة الأمريكية قد تكشف عن أشكال بدائية تقدم من المشكلات ما لا يقل عما تعرفه بلدان متخلفة.

مناسبة هذا الحديث جاءت فى مطار رونالد ريجان القومى بالعاصمة الأمريكية واشنطن حينما بدأت رحلة العودة من زيارة أخيرة للولايات المتحدة حيث تجمع على بوابة شركة «تى . دبليو. اى» الأمريكية كل من كاتب هذه السطور، والدكتورة منى مكرم عبيد والصديق الدكتور عمرو عبد السميع مدير مكتب الأهرام فى أمريكا الذى تفضل مشكورا بوداعنا، مع الوفد الفلسطينى الذى كان عائدا لتوه من جولة مفاوضات أخرى مرهقة وفى المقدمة منه الأخ أحمد قريع رئيس المجلس التشريعى الفلسطينى، والأخ حسن عصفور الوزير بالسلطة الوطنية الفلسطينية. كان الوقت

ا. ساعة الرابعة بعد الظهر، وبدأنا نواجه أكثر مشاكل العالم الثالث حدة فى واحد من أكثر المطارات العالمية تقدما، ومع واحدة من أكبر الشركات التى يفترض أنها تحمل العلم الأمريكى فى التقاليد الرأسمالية العريقة التى يفترض فيها مراعاة حقوق المستهلكين الذين هم فى هذه الحالة نحن، وأن الزبائن الذين هم نحن كذلك يفترض أنهم على حق.

وعندما وصلنا لم تكن هناك مشكلة جمة فى شحن الحقائب اللهم إلا من صعوبة قليلة فى التفاهم وعلى بعد أمتار قليلة وصلنا إلى بوابة الخروج فإذا بمن عليها يخبرنا أن الأحوال الجوية ليست على مايرام وأنهم ليسوا متأكدين بالمرة مما إذا كان ممكنا سفرنا فى هذا اليوم أم لا خاصة أن هناك تراكما لرحلات سابقة لم يقدر لها السفر بعد. ولم تكن مسألة الأحوال الجوية جديدة على أى منا وعلى أى الأحوال فإن أحدا لم يكن على استعداد للمخاطرة وسط عواصف رعدية، ولكن تحذيرا كهذا كان سوف يكون مفيدا أكثر لو عرفناه ـ كما يحدث فى شركات العالم المتقدم ـ قبل مغادرة مكان الإقامة وعلى أكثر تقدير قبل شحن الحقائب التى لا تبعد إلا أمتارا قليلة عن المكان الذى نقف فيه. الأكثر من ذلك أن التقدم التكنولوجى حتى هذه اللحظة لم يكن حاسما بعد بأنه سوف يستحيل السفر. ومن ثم فإنه على مدى خمس ساعات كاملة تراوحنا بين استحالة السفر إلى إمكانية وسفر البعض منا أو جميعنا دون مرافقة الحقائب أو جميعنا مع الحقائب. والأهم أنه لما كان على بعضنا أن يلحق بطائرات أخرى من مطار نيويورك فقد كان الوقت يمضى دون يقين بالحالة التى سوف نؤول إليها من سفر أو قعود ،ولكن المشكلة الكبرى أن أحدا لم يعرف على وجه التحديد ما إذا كانت العواصف تشمل مطار نيويورك، ومن ثم فإن التأخير متوقع أيضا هناك. فكما يحدث فى كثير من مطارات العالم الثالث تلقينا سبعة تقديرات مختلفة ومعها سبع نصائح مختلفة عن الحالة فى المطار الآخر.

ولم تكن الساعات الخمس سهلة على وجه الإطلاق. فقد ظهرت العولمة فى أكثر حالاتها بدائية. ففى المواجهة على البوابة كان هناك ثلاثة من الأمريكيين يعودون إلى أصول جغرافية مختلفة إفريقية وأسبانية وثالثة لا يعرف أحد كنهها على وجه التحديد ولكن المهم أنها تمثل ثلاث لكنات مختلفة للغة الإنجليزية. ومن وقت لآخر كانت تظهر مضيفة بلكنة نيويورك. على الجانب الآخر كان المسافرون الذين ينتمون إلى عشر جنسيات على الأقل لهم لكناتهم الخاصة كذلك. ولكن المدهش أنه لم يكن

هناك من بينهم أمـريكى واحـد، وهكذا أدركنا أنه ربما تكون الشـركـة العـالميـة مخصصة فقط للدول النامية وتتعامل بنفس مستوياتها، على أى الأحوال فإن العولمة فقدت نقطة رئيسية فى مطار رونالد ريجان القومى فقد ثبت أن الادعاء بسيادة اللغة الإنجليزية فى لهجتها الأمريكية على العالم ليس له أساس، أولا لأنه لا توجد هناك لهجـة أمريكية واحـدة كما أن العالم الذى تعلم الانجليـزية كل على طريقتـه سوف يخترع لغة إنجليزية تناسب مقتضى الحال ولكنها لا تصلح بالضرورة للتواصل على المستوى العالمى.

الأخطر من ذلك ـ كما يحدث كثيرا فى دول الجنوب ـ أنه لا يوجد أحد تتحدث معه، فبسبب التقدم التكنولوجى لم تعد هناك حاجة لوجود مكاتب لشركات الطيران فى المطارات فما على الراكب سوى الاتصال برقم يبدأ بـ٨٠٠ وبعدها سوف يجد من يساعده على الفور ويحدد له متى سوف يسافر وكيف. وهكذا ونظريا فإن العولمة تبدو جميلة وتوفر المال والجهد والمكان والمعلومات الكافية ولكن واقع العولمة شىء آخر. فمرة أخرى فإن الباحث عن اليقين سوف يتعامل مع لكنات غير مفهومة لشركة «تى دبليو اى» وبعدها سوف يستمع إلى قطع من الموسيقى انتظارا لإجابة لا تأتى أبدا.

وهكذا فشلت كل محاولات الفهم والتفاهم وانتهى الأمر بالجميع لا يعرفون على وجه الدقة ما الذى سوف يفعلونه فى اليوم التالى بعد أن قررت الأغلبية بأسلوب ديمقراطى أنه لابد من المبيت فى واشنطن ليس خوفا من الأحوال الجوية فقط وإنما خوف من الضياع فى مطار نيويورك الأكثر عولمة وتقدم وبالتالى ربما ليس أكثر تعقيدا فقط وإنما أكثر تخلفا كذلك. على أى الأحوال وحتى يطمئن القارئ الكريم فقد عدنا بسلامة الله بعد يومين فقدنا فيها حقائبنا. ولم يضع الوقت سدى تماما فقد عقدنا ندوة مع هذه الكوكبة من رفاق المطار حول سر التخلف الأمريكى. وكان الأخ حسن عصفور ملحا تماما فى أن أبحث عن تحليل علمى للبدائية فى الدولة العظمى الوحيدة الباقية فى عالمنا وقد وجدته فى نظريات ماركس التى كان معجبا بها فى أزمان مضت، فأمريكا أيا كان تقدمها تعيش حالة جدلية فيها التخلف يقف جنبا إلى جنب التقدم وكان من حظنا أن وقعنا فيه!!.

١٢ - بجوار زهرة «التيوليب»... !

يحيى المصريون بعضهم البعض فى الصباح بالقول «صباح الفل» و «صباح الياسمين» و «صباح الورد» ، ورغم هذه التحية الودود للغاية، فإننا لا نجد كثيرا الفل والياسمين والورد والأزهار فى العموم فاعلة فى حياة المصريين حتى إن من تعودنا وجودهم لبيعها فى مفترقات الطرق وعلى كورنيش النيل قل عددهم إلى حد كبير، ربما لأن عائد البيع قليل بعد أن قل الحب كثيرا فلم يعد الحبيب على استعداد لشراء زهرة للمحبوبة، أو لأن المحبوبة فقدت حماسها لمثل هذه الهدايا المتواضعة القيمة، وربما، وهو الأرجح، أننا نقول شيئا فى العادة ونفعل شيئا آخر. الهولنديون يختلفون معنا فى هذا الشأن، فلم ترد الأزهار فى تحيات الصباح أو المساء، ومع ذلك فقد خلدها فان جوخ فى أكثر من لوحة، وأصبحت جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية للناس يتبادلونها فى كل المناسبات، وتنتشر فى البيوت والشرفات، وهى واحدة من أهم المنتجات والصادرات والصناعات بشكل عام، وفوق ذلك فإن واحدة منها هى زهرة «التيوليب» صارت شعارا ورمزا قوميا كالعلم والنشيد.

تبادر إلى ذهنى كل ذلك فى زيارة لهولندا من أجل المشاركة فى حلقة فكرية عن «التدخل الإنسانى» ، وفى الطريق من المطار إلى الفندق فى مدينة نوردويك الأنيقة على بحر الشمال، كانت مزارع الزهور ممتدة على مدى البصر، ولمن يعتقد مثلا أن الحقول تعنى اللون الأخضر، فإن «الأرض الواطئة» وهو الاسم الرسمى لهولندا كما نعرفها تكذبه تماما، فبوسع الزائر لها أن يجد حقولا كاملة من اللون البنفسجى أو الأصفر أو الأحمر، وفى بعضها وبمعجزة الله والبشر يمكنك أن تجد هذه الألوان مجتمعة فى خطوط متناسقة قلمتها وأحسنت صنعها أذواق غنية ونفوس مرهفة. ووسط ذلك كله فإن زهرة «التيوليب» هى الملكة على عرش الزهور، وربما لأنها تقف شامخة على ساقها الطويلة الخالية من الأوراق، وربما لأن الألوان فيها توجد فى حالة نقية للغاية، وربما لأن الهولنديين وقعوا فى هواها وكفى، فالهوى لا يعرف التفسير!.

ولكن أيا كانت الأسباب فإن من يقدم على حدائق «كيوككينهوف»، التى تعد أهم معارض الزهور فى العالم، فسوف يجد لزهرة «التوليب» التى تقف جنبا إلى جنب مع أجمل زهرات العالم، مكانة خاصة تدل على أن الهولنديين فى زمن العولمة يحتفلون كثيرا بكل ما يعتبرونه خاصا بهم من دون كل شعوب العالم، لأنها فى ألوانها النقية الصافية شهادة كبرى على الإتقان والجهد العلمى والصناعة الخلاقة. وربما تكون هولندا من أكثر دول العالم دخولا فى العولمة، فرغم حضارتها الغابرة، وإمبراطوريتها الشاسعة السابقة، فإنه لا يوجد هناك من يبكى على الأطلال، ولا من يشق الثوب حسرة على ما كان، وإنما يوجد فقط من هو على استعداد لحمل الزهرة المجيدة إلى أسواق العالم ومن ورائها صناعات كثيرة.

ولمن لا يعرف فإن مملكة «الأراضى الواطئة» أو «نذر لاندز» لاتزيد مساحتها كثيرا على ٤١ ألف كيلومتر مربع، منها ٣٨ ألفا فى أوروبا، والباقى فى جزر البحر الكاريبى المعروفة باسم الأنتليس وأوروبا، أى أنها أقل بمقدار الثلث عن شبه جزيرة سيناء المصرية، أما عدد سكانها فلم يصل بعد إلى ١٦ مليون نسمة، أى ما يساوى تقريبا عدد سكان سوريا، أو نصف عدد سكان المغرب. ومع ذلك فإن الناتج المحلى الإجمالى للمملكة يساوى تقريبا الناتج الإجمالى للدول العربية جميعا والتى بلغ عدد سكانها ٢٨٠ مليون يعيشون على مساحة تساوى مساحة الولايات المتحدة الأمريكية. والمملكة هى الدولة الثالثة فى تصدير الغذاء فى العالم، وبالنسبة لكل الصادرات فهى الدولة السادسة، وهى نفس المكانة الخاصة بالاستثمارات الخارجية. وحتى نوضح الصورة أكثر فإن صادراتها فى عام ١٩٩٨ بلغت ٢٠٤ مليارات دولار ولا يسبقها إلا فرنسا بصادرات قدرها ٢٥٩ مليارا، وبريطانيا ٢٩١ مليارا، واليابان ٣٠٤ مليار، وألمانيا ٤١٥ مليارا، والولايات المتحدة ٨٦٧ مليارا، أما بعدها فقد أتى كل العالم.

إذا جاز التعبير، فإن هولندا من أكثر بلدان العالم عولمة وفق كل المقاييس المتعارف عليها، ومع ذلك فإنها من أكثر بلدان العالم تمسكا بالخصوصية التى يمكنك لمسها أينما ذهبت، ولا تعبر عنها زهرة «التيوليب» فقط، وإنما يعبر عنها فى كل الأشكال المتعارف عليها للثقافة. هنا فإن «الخصوصية» ليست شعارا يرفع فى وجه العولمة، وإنما حالة تمارس فى أنحاء الحياة اليومية. فالفن الهولندى الشهير الذى قام على أعمال الرسامين العظام من أمثال رامبرانت وفان جوخ وفيرومير ليست أعمالا يتم التغنى بها فى الصحف، ولكن أصولها ممتدة إلى ١٠٠٠ متحف تنتشر فى جميع أنحاء المملكة متاحة لكل المواطنين الذين يبلغ نصيب كل منهم من

المتاحف أعلى من أى نصيب لفرد آخر فى العالم، أما صور الأصول فهى متاحة للكافة وتجدها فى البيوت والمؤسسات العامة.

العمارة الهولندية ليست مثل العمارة العربية أو الفرعونية يتحدث عنها الجميع ولا يتمثلها أو يعيش معها أحد، وإنما هى محفوظة تماما، ولا يملك أحد أن يغير فيها شىء، على ضفاف القنوات، أو على شواطئ البحر، أو فى داخل المدن، وكذلك الحال بالنسبة للتصميم الهولندى للعمارة الداخلية والأثاث والمعروف بالبساطة والصفاء والتقشف النابعين من الثقافة الدينية البروتستانتية التى تجدها شائعة فى كل مكان، وتنتقل من جيل إلى جيل سواء كان العصر عصر الخيول أو عصر الطائرات النفاثة والأقمار الصناعية والإنترنت. ويلقى الأدب والشعر والكتاب نفس المعاملة، فهى أمور لا تخص النخبة السياسية والفكرية فى المجتمع لكى يرفعوها سيفا للخصوصية فى وجه العولمة، وإنما هى أمور من أمور العامة يذهبون من أجلها إلى المكتبات التى تبلغ مقتنياتها من الكتب ٤٥ مليون كتاب، حتى إن عدد المسجلين للاستعارة من المكتبات العامة يبلغ ٤.٥ مليون مستعير، كما يذهبون من أجلها إلى المتاحف والمسارح وصالات الموسيقى.

هنا فى هولندا، بجوار زهرة «التيوليب»، لا تعامل الثقافة والحضارة والخصوصية معاملة «الأنتيكات»، والآثار والكتب القديمة، والتى تستخدم للتفاخر مع الأمم الأخرى، أو لجذبها بالسياحة نحو تاريخ كان زاهرا، وإنما كحقيقة يومية يعيشها الشعب نفسه ويستمتع بها، ويجعلها تتداخل فى كيانه لأنها فى النهاية هى المميز والمحدد له مع الآخرين فى العالم. وهى بهذا المعنى تساهم فى العولمة، لأنها تقدم ذوقا ومذاقا خاصا تحتاج له سوق عالمية لا ترضى إلا بالتنوع والتعددية.

١٣ـ من واشنطن إلى طوكيو إلى الفضاء...!

خلال أربع وعشرين ساعة ما بين صباح الخميس وصباح الجمعة الماضيين جرت ثلاثة أحداث فى العالم لم يفلح أى منها فى انتزاع الصدارة لدى صحفنا

القومية والحزبية رغم أهميتها. والخيط الرفيع الذى يربط بينها رغم ما يبدو من تباعد المسافة والموضوعات بينها. الحدث الأول كان بدء أعمال اللجنة القانونية لمجلس النواب الأمريكى لبحث تقرير المحقق الخاص حول مخالفات الرئيس وليام جيفرسون كلينتون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى مدى اثنتى عشرة ساعة متواصلة قام كينيث ستار بتبرئة الرئيس من عدد من التهم الموجهة له، ولكنه وجه إليه اتهامات أخرى تخص موضوع مونيكا ليونسكى رأى أنها طبقا للدستور الأمريكى تقدم أسبابا لعزله، وقامت اللجنة ومحامى الرئيس بمناقشته، وبعد ذلك أصبح على اللجنة القانونية اتخاذ القرار بعرض الموضوع على مجلس النواب. بقية القصة هنا لا تهمنا كثيرا فى هذا المقام، ولا حتى دقائقها الدستورية والقانونية، ولكن ما يهمنا أن الحدث كله جرى أمام العالم أجمع، فقد نقلته كافة الشبكات التليفزيونية العالمية بكافة تفاصيله، وفى شبكة السى. إن. إن، فإنها حتى لم تقطعه بالإعلانات، بمعنى أن الشفافية كانت عالمية هذه المرة وليست محلية فقط. صحيح أن الحدث ليس الأول من نوعه فى التاريخ الأمريكى، فقد جرى مثله عام ١٩٧٤ إبان التحقيق فى فضيحة ووترجيت، إلا أن التحقيقات والتقارير عنها ووقائع الجلسات كانت تجرى وراء الغرف المغلقة، وكان على الصحفيين الجرى وراء تسريب الأخبار هنا وهناك. بهذا المعنى فإن الحدث تاريخى بكل معنى الكلمة، ليس فقط لأنه تجرى فيه إجراءات التحقيق فى إمكانية عزل رئيس للدولة، حتى ولو كانت الدولة العظمى الوحيدة فى العالم، وإنما أيضا أمام العالم كله دون خوف أو وجل من نشر غسيل نظيف أو قذر، وكأن الأمريكيين يقولون لسكان الأرض قاطبة من منكم على استعداد لمواجهة الذات وسوءاتها بهذه الشجاعة ؟.

وعلى بعد آلاف الأميال من مبنى الكونجرس فى واشنطن كان الحدث الثانى يجرى فى طوكيو حيث كان الرئيس الأمريكى ذاته، المعرض للمحاكمة والعزل لأنه كذب بصدد خطيئة جنسية، يقوم بالتحاور والضغط وإلقاء المحاضرات على اليابانيين من أجل إصلاح اقتصادهم لأن ذلك ضرورة لإنعاش الاقتصاديات فى آسيا والنظام الاقتصادى العالمى كله، لأنه رغم كل شىء فإن الاقتصاد اليابانى هو الاقتصاد الثانى فى العالم ومن ثم فإن مرضه يؤدى إلى تداعى اقتصاديات أخرى بالسهر والحمى. ولحسن الحظ أن الرئيس الأمريكى لم يكن من المؤمنين بأن الدنيا

فى سبيلها إلى التحول إلى نظام متعدد الأقطاب، تكون فيه إليابان قطبا منافسا ومصارعا للولايات المتحدة فى السياسة الدولية، وإلا لكان تركها تسقط فى هوة أزمتها خوفا من المستقبل. ولحسن الحظ أيضا أن إليابان ذاتها لم تكن تؤمن بهذه النظرية لأنها حتى قبل أن يصل إليها ساكن البيت الأبيض اتخذت أكبر حزمة من الإجراءات لإصلاح اقتصادها، كان مجرد الإعلان عنها وبدء تطبيقها سببا فى إعطاء دفعه لكل الاقتصاديات الآسيوية التى تعرضت لأخطار مروعة خلال الفترة الماضية، فانتعشت أسواق المال، وتحسنت أوضاع العملات حتى فى بلد مثل إندونيسيا الذى يعانى مصاعب عدة، وعادت الاستثمارات مرة أخرى. ومن المؤكد أن الأزمة الاقتصادية الآسيوية لم تنته بعد، ولكن سرعة التعامل مع الأزمة وآثارها من قبل الدول والمؤسسات الدولية الاقتصادية والمالية كانت تاريخية. فلم يسبق فى تاريخ العالم أن تم إنفاق مئات المليارات من الدولارات لإنقاذ اقتصاديات الدول كما حدث فى هذه الأزمة، وكانت الولايات المتحدة فى مقدمة الدول بالمساعدة ليس لسواد عيون أحد، وإنما لأن صحة الاقتصاد الأمريكى لن تستقيم مالم يكن الاقتصاد عفيا فى طوكيو وسيول وجاكرتا. وقد ذهب الرئيس الأمريكى إلى طوكيو للتأكد من ذلك حتى لو علم قبل رحيله أن مؤشر داو جونز قد استعاد كل ما فقده وعبر حد التسعة آلاف نقطة، ولكن الاعتماد العالمى المتبادل بين الدول المنتجة حقا فى العالم يطالب الجميع ألا يتركوا أمرا للصدفة أو الحظ.

وعلى بعد آلاف الأميال أيضا وفى طاجاكستان كان يجرى حدث فريد غير مسبوق فى تاريخ البشرية وهو إطلاق الجزء الأول من أول مستعمرة فضائية مأهولة إلى الفضاء الخارجى، والتى سيكتمل بناؤها خلال ستة أعوام، وتكون صالحة بعد ذلك لإطلاق المركبات إلى الفضاء السحيق بدلا من إطلاقها من على كوكب الأرض. هذا المشروع تشترك فيه ست عشرة دولة فى المقدمة منها الولايات المتحدة وروسيا، وبتكلفة حتى الآن قدرها ثلاثون مليار دولار، أى أن الإنسانية ممثلة فى هؤلاء المهتمين بالعلم والتكنولوجيا قد قرروا الغزو المشترك للكون، مع كل ما يشكله ذلك من قفزات هائلة للعلم تنجم عن التعامل مع ظروف أقل تقييدا لحركة الخلايا والجزيئات بعيدا عن الجاذبية الأرضية. وبقدر ما يفتحه المشروع من آفاق، فإنه يعبر عما وصلت إليه الدول المشاركة وبالذات وكالة ناسا الأمريكية القائدة

للمشروع من إنجازات علمية باتت قادرة على حمل أحمال كبيرة للفضاء الخارجى وتجميعها فى شكل مستعمرة تكون بدورها قادرة على تجميع مركبات فضائية مقبلة وإدارة عمليات إطلاقها ومتابعتها وصيانتها.

الأحداث الثلاثة لم تلق الكثير من الاهتمام لدينا، لأن الحدث الأول لم يكن يعبر إلا عن الخطيئة والمعصية فى أسوأ الفروض، أو عن انتصار القانون على الأخلاق فى أحسنها على حد تعبير بعض كتابنا المرموقين كنوع من تقسيم جديد للعالم بين الذين يهتمون بالقانون وبين الذين يتمتعون بالأخلاق الفاضلة. أما الحدث الثانى فهو يعبر عن العولمة التى لا نحبها كثيرا ونتخوف منها فى كل الأحيان. أما الثالث فهو تعبير عن تكنولوجيا لا ناقة لنا فيها ولا جمل. ولذا فإن صحفنا ووسائل إعلامنا لم تبد اهتماما كبيرا بها فدفعتها للصفحات الداخلية، أو أوردتها على سبيل تحصيل الحاصل ومتابعة الأحداث العالمية. وفى صحيفة واحدة على الأقل من الصحف الحزبية فإن الأخبار الثلاثة لم ترد على الإطلاق لأنها كانت مشغولة بتتبع الخطط الإسرائيلية لمهاجمة سوريا، بعد أن تتبعت فى الأسبوع الماضى الخطط الأمريكية لمهاجمة العراق، وقبلها بفترة قصيرة كانت تتبع الخطط التركية لمهاجمة القاهرة ودمشق وطهران فى آن واحد !.

ولا شك أن كل ذلك مفهوم لأن لكل منطقة فى العالم مشاكلها التى يجب أن تهتم بها، ولكن ذلك ينبغى ألا يمنعنا من وقت وآخر من التأمل فى أحوال العالم، وربما كانت الأحداث الثلاثة التى جرت بين صباح وصباح تنقل لنا خطابا عن العالم المقبل تكون فيه الديموقراطية والشفافية والمحاسبة هى النظام السياسى الذى لايقدر على إخفاء شىء أو مداراته، ويكون الاعتماد المتبادل فيه من الكثافة حتى تختفى الحواجز بين الدول إلى الدرجة التى تجعل كل قطب ملهوفا على الصحة الاقتصادية والسياسية للأقطاب الأخرى حتى لا تصير هناك أقطاب على الإطلاق، ويكون فيها الإنسان مطلا من الكون على كرته الأرضية فيجدها محزمة بشبكات المعلومات والتجارة والشطارة فيبث فيها من طاقاته وأقماره ضوء معرفة وشعاع تقدم.

أين نحن من ذلك كله؟ سؤال لايهم كثيرا، وحتى يمكننا أن نهز الأكتاف، فالأمر من قبل ومن بعد لا يخصنا من قريب أو بعيد، ولا داعى أيضا لأن نرفع القبعة تحية لعالم شجاع قادم لأننا لا نلبس القبعة على الإطلاق حتى نرفعها لأحد، ولكننا لا

نملك السخرية والحط من شأن العولمة ومن يمارسونها سياسيا واقتصاديا وتكنولوجيا، وعلى الأقل دعونا نتأس بقول المسيح عليه السلام عن مريم المجدلية : من لم يكن منكم بلاخطيئة فليرمها بحجر !!.

١٤ ـ حوارات تركية... !

كان أول من استقبل بعثة «الأهرام» إلى أنقرة الآنسة «جيدا» مفوضة من مكتب الإعلام فى رئاسة الوزراء لكى تقود خطواتنا فى العاصمة التركية، ويبدو أنها كانت تعرف تساؤلات كثير من الوفود قبلنا عن معنى اسمها، فبادرت قائلة إن «الجيد» هو واحد من الأحجار الثمينة فى الصين وشرق آسيا، كما أنه لدى العرب يعنى السيدة ذات الرقبة الطويلة والتى اعتبروها دلالة على الحسن وربما طريقا إلى الفتنة. وبالطبع لم يتطوع أحد منا لشرح معنى أسمائنا، وعلى أى الأحوال فقد تكلمت الآنسة «جيدا» كثيرا وتميزت بكفاءة عالية فى تسيير جدولنا المزدحم، حتى عندما كانت تعتب علينا لتأخرنا لدقائق، فإن غضبها لم يتعد أن تزداد زرقة عينيها اللتين تظن أن زرقة محيطات وبحار العالم قد تجمعت فيهما، ولكنها كانت كافية دوما لكى تجعلنا نلتزم فى موعدنا التالى.

وعندما بدأ موعدنا الأول فى اليوم التالى لوصولنا بزيارة قبر كمال أتاتورك كنا قد عرفنا عن مرشدتنا أنها ابنة سفير تركى مرموق خدم فى عواصم كثيرة، ومن ثم كانت تعرف عدة لغات بطلاقة كبيرة لم تكن منها العربية، ولكننا أخذنا حذرنا على أية حال، فقد كان قولها «أهلا وسهلا» مصاحبا بابتسامة مشرقة ينم عن بعض المعرفة. وكان القبر عبارة عن مبنى فسيح للغاية أرضيته من رخام أسود وسقفه أحمر موشى باللون الذهبى وأمامه حرس لا يتحرك ويتغير طبقا للتقاليد الألمانية فى حركات معلومة يقف أمامها السائحون لالتقاط الصور كما هو الحال أمام قصر بكنجهام فى لندن، وملحق بالمبنى متحف يضم مقتنيات الزعيم الخالد، وأخيرا حجرة لبيع كتب وصور ومقتنيات تذكارية لمن يريد الذكرى.

وقد فاجأتني الآنسة «جيدا» مرتين خلال هذه الزيارة، الأولى عندما كنا في المتحف حيث كان فيه كثير من الكتابات العثمانية بالحروف العربية، ويبدو أنها ظنت في خيرا فسألتني عن معناها وهي التي كان عليها أن ترشدنا إليها، وبالطبع حاولت القراءة لعل وعسى أن تقود الحروف إلى اللغة، ولكني لم أصل إلا إلى بعض الأسماء والتواريخ ودلالة ما عمن أرسل الرسالة. أما الثانية فقد جاءت بعد أن انتهينا حيث قالت بجدية تامة لولا هذا الرجل لكانت تركيا قد بقيت في عصور الجهالة ولما حصلت على ما أنا فيه الآن من حرية. ويبدو أنها قالت ذلك لكي تقنعني بعد أن بدا على وجهي أنني لست مقتنعا أن يحصل رجل مهما كان له من أمجاد على هذه الدرجة من القداسة، وهو شعور راودني من قبل عندما قمت بزيارة قبر «لينين» في موسكو، و «ماو» في الصين. وعلى أي الأحوال فإنني لم أعلق ربما لأنني لم أكن على استعداد لبدء مناقشة في هذه المرحلة المبكرة من الرحلة، وربما لأنني قررت مبادلتها نفس الصمت الذي أعطتني إياه عندما أشرت إلى صورة تضم أتاتورك وزوجته ولاحظت بصوت مسموع أن الزوجة محجبة فما كان من «جيدا» إلا أنها أشاحت بوجهها بعيدا.

ولكن «جيدا» المتميزة دوما بالابتسامة وحيوية الشباب بدا عليها معاناة شديدة عندما كان علينا زيارة مقر حزب الفضيلة حيث كان في استقبالنا الدكتور إيرتان يوليك نائب رئيس الحزب بحبور وبشر واضحين، حيث اجتمعنا معه في حجرة تعلوها صورة لأتاتورك وهو يكبر واقفا أثناء الصلاة. كانت الصورة مختارة بعناية، أما شعار الحزب الموجود في كل مكان وعلى المطبوعات فقد كان مختارا بعناية أكبر، وفيه كان الهلال الموجود على العلم التركي الأحمر، ولكن بدلا من أن تتوسطه نجمة كان يتوسطه قلب يربطه بالهلال خمسة خطوط مستقيمة عرفنا منه أنها تمثل معاني: الديموقراطية، وحقوق الإنسان، والحريات، وسيادة القانون، والتنمية الاقتصادية المتواصلة. وباختصار كان الحزب يريد توقيع نفسه ضمن التيار العام في السياسة التركية، وأكثر من ذلك كان يزايد عليها في ديموقراطيتها وعلمانيتها، أما مشكلته فكانت مع النظام السياسي الذي يريد كل ذلك بمواصفات تركية خاصة، فمن وجهة نظر الحزب أن كل ذلك له مواصفات عالمية لا تنفع معها فكرة «الخصوصية»، ولا تعرف الديموقراطيات الغربية فكرة الدور الخاص للمؤسسة العسكرية، ولا التدخل في الحريات الخاصة وفي مقدمتها الملبس. وضمن هذا الإطار

دافع الحزب باستماتة عن كونه حزبا جديدا لايمت لحزب الرفاه بصلة حتى ولو كان جل أعضائه من ذات الحزب، أما هجومه فقد خص به حزب الله التركى الذى وصف بغضب واضح بأنه لا يمكن أن يكون حزبا لله وإنما حزب للوحوش، وعلى الأرجح، كما قيل لنا، أنه لا يمت لتركيا بصلة، وإنما هو صنيعة خارجية لأرمينيا أو الموساد!.

وجه «جيدا» كان يتقلب فى كل لحظة يصف فيها نائب رئيس الحزب حال حزبه والقضايا المرفوعة عليه أمام القضاء، وبان عليها الارتياح وخرجت منها زفرة من انزاح من على قلبه كابوس ثقيل عندما خرجنا فى النهاية إلى الشارع. واستعادت «جيدا» حيويتها تماما عندما أخذنا الطريق إلى جامعة «بليكنت»، فقد كانت هى الجامعة التى تخرجت فيها، ولابد أنه كانت لها فيها ذكريات كثيرة، وعند باب كلية الهندسة وجدنا رجلا يتقدم نحونا بسرعة فاردا ذراعيه مرحبا وقائلا بالعربية «أهلا وسهلا» وقادنا إلى مكتب رئيس الجامعة وعندما دخلنا سألته أين يريدنا أن نجلس وأين سيجلس الرئيس؟ فأشار إلى مقعد لكى أجلس فيه، أما أنا رئيس الجامعة فسوف أجلس هنا، مشيرا إلى مقعد آخر!.

كان الرجل سليل واحدة من العائلات التركية الغنية والعريقة التى وهبت نفسها لرفعة تركيا، ووجدت أن السبيل إلى ذلك يكون من خلال جامعة خاصة متقدمة تخرج تلك النوعية من الخريجين التى تناسب العالم المعاصر، ولذلك فإن عدد طلبتها لم يزد على عشرة آلاف، ربعهم يحصل على منحة للدراسة مع مصروف جيب، أما الباقى فيدفعون المصروفات التى تشكل ٣٠٪ من الميزانية وتقدم الدولة ٨٪، أما الباقى فيأتى من ريع ٦٠ مشروعا قدمتها عائلته للجامعة التى يعمل بها ٩٧٠ أستاذا منهم ٣٠٠ من الأجانب، ويتقدم لها الطلاب من كل أنحاء العالم. وكان الغرض من كل ذلك خلق شبكات عالمية من العلاقات تبدأ بين الطلبة من أيام الدراسة فى مناخ علمى يجرى طبقا للمواصفات العالمية، وعندما ودعنا الرجل بعد جولة فى المكتبة كان سعيدا للغاية عندما ظهرت فتاتان محجبتان، فقد كان ذلك ردا عمليا على بعض من أسئلتنا، أما «جيدا» فقد تملكتها سعادة غامرة فقد التقت رئيس جامعتها أخيرا!!.

١٥ - «واشنطن.. والتطور العربى... !

عندما طلب منى الصديق د. محمد السعيد إدريس أن أخصص مقالى هذا الأسبوع فى الكتابة عن التطور العربى ومعوقاته، وقعت فى حيرة بالغة، فقد كنت قد عقدت العزم على الكتابة عن العاصمة الأمريكية «واشنطن» بعد زيارة لها استغرقت بضعة أيام وجدتها فيها تحتفل بمرور ٢٠٠ عام على إنشائها وبدء الحياة فيها لكى تصير مقرا للحكم فى الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت فى ذلك الوقت تتكون من ١٣ ولاية فقط لاغير، وبعد قرنين صارت تضم ٥٠ ولاية ويمتد نفوذها بامتداد المعمورة، وفى أحوال كثيرة إلى ما هو أبعد من ذلك فى أجواء الفضاء الخارجى. وللوهلة الأولى بدا لى أنه لا توجد علاقة بين الموضوعين، بل إن كثيرا من المفكرين العرب لديهم اعتقاد جازم أن واشنطن هى المعوق الرئيسى للتطور العربى، وكأن الحالة سوف تكون أفضل كثيرا لو اختفت تماما من على وجه الكرة الأرضية، أو كأن حالة الوحدة العربية والتقدم العربى كانت سائرة فى اتجاه الانطلاق الكبرى نحو الوحدة والتقدم لولا قيام الولايات المتحدة الأمريكية.

وبغض النظر عن درجة الصحة فى وجهات النظر، فإن النظرة المتفحصة تشير إلى أن واشنطن على الأقل يمكنها تقديم بعض الدروس للعرب، فأيا كانت مساوئها فإنها تقدم لنا دروسا بالغة الأهمية للدولة الاتحادية التى تضم ذلك العدد الهائل من الولايات والذى كان ممكنا أن يكون دولا متفرقة ومتناحرة رغم وحدة الثقافة الأنجلو سكسونية، فوحدة الثقافة اللاتينية الأسبانية لم تحقق هذه الوحدة فى أمريكا الجنوبية والوسطى، كما أن الثقافة العربية لم تنجح حتى الآن فى تحقيق هذا الهدف. ومن المدهش أنه رغم العلاقات القوية بالعداء أو بالصداقة بين الدول العربية وأمريكا، فإن هناك القليل من الاهتمام العربى الثقافى والفكرى بالتجربة الأمريكية، وفيما عدا القليل من الدراسات والكتب التى اهتمت بالسياسة الخارجية الأمريكية وخاصة ما تعلق منها بالصراع العربى - الإسرائيلى، فإن المفكرين العرب لم يجدوا الكثير فى التجربة الأمريكية الذى يستحق الاهتمام، وفيما أعلم أنه لأول مرة نوقشت فيها

رسالة للدكتوراة عن النظام السياسى الأمريكى كانت منذ أسابيع قليلة عندما دافعت د. منار الشوربجى عن رسالتها الخاصة بدورة واحدة للكونجرس الأمريكى.

وعلى أى الأحوال فإنه لا ينبغى الاستغراق كثيرا فى لوم الفكر العربى فيما يخص أمريكا، فرغم العلاقات الوثيقة مع روسيا حاليا والاتحاد السوفيتى سابقا، فإن المكتبة العربية كانت خالية من الاهتمام بكليهما، وكذلك كان الحال مع الهند، وعلى الأرجح أن الأمر سوف يكون كذلك مع اليابان حتى ولو بعنا لها النفط والغاز واشترينا منها عربات التيوتا وتلفاز السونى، فالأصل لدينا أن الأسباب غير معروفة فى التطور العربى هو أن ندعو العالم للاهتمام بنا باعتبارنا مركز الكرة الأرضية ومحورها الدائم، أما أن نهتم نحن بالعالم، فإن ذلك لن يكون جديرا بأولوياتنا، أما إذ أخذنا أحد مأخذ الجد واهتم بدراستنا وفهمنا فإننا سنسارع فورا إلى القول إن ذلك يحدث لأسباب استعمارية!.

وربما كان ذلك واحدا من عقبات التطور العربى. فقد حرمنا التعلم ليس فقط من التجربة الأمريكية ولكن من كل التجارب العالمية، وكان ذلك ماتفادته واشنطن تماما، بل إن واشنطن ذاتها جاءت نتيجة هذا التعلم. فالآباء المؤسسون للتجربة الأمريكية درسوا دراسة بالغة وعميقة التجربة العالمية وتاريخ الفكر السياسى العالمى وتوصلوا منه إلى أنه لن يكون ممكنا قيام دولة اتحادية وقوية وديموقراطية مالم تحل معضلة التعامل بين الولايات الكبيرة والصغيرة، وما بين السلطة المركزية وسلطات الولايات، بالإضافة إلى عشرات من المشكلات الأخرى التى لاتقل أهمية. وبعد ثلاثة عشر عاما من الثورة الأمريكية على الاستعمار البريطانى، وستة أعوام من الدستور الكونفدرالى الذى كادت الثورات والتمردات والخلافات بين الولايات تمزق الوحدة التى تكونت خلال مرحلة الاستقلال، توصلت تلك النخبة التى اجتمعت فى فيلادلفيا ليس فقط للدستور الأمريكى كما نعرفه الآن، اللهم إلا من عدد محدود من التعديلات، وإنما إلى ضرورة قيام عاصمة للاتحاد تكون لها استقلاليتها الذاتية وخاضعة فقط للكونجرس، فلم يكن معقولا أن تكون العاصمة واقعة ضمن الولايات الكبيرة مثل نيويورك، وإلا وقعت تحت هيمنتها وسببت الضغينة لدى الولايات الأصغر، ولم يكن ممكنا أن تكون العاصمة فى ولاية صغيرة مثل ميرى لاند وإلا ما أعطاها أحد اهتماما فى الولايات الكبرى، وهكذا استقر الاتفاق على قيام العاصمة فى

نقطة ما بين ولايتى فيرجينيا وميرى لاند على نهر البوتمالك حتى يستقر الحال لعاصمة تصوروا أنها سوف تكون عاصمة العالم حتى ولو بعد قرنين من الزمان.

هذا الحل كان معقولا فى الحالة الأمريكية، ويبدو أنه لم يكن بعيدا عن الذهن كثيرا فى التجربة الأوروبية عندما جعلوا بروكسل مكانا للمؤسسات الأوروبية الرئيسية، وعندما وصل الرئيس الأمريكى الثانى جون آدامز إلى العاصمة الجديدة التى سميت باسم سلفه جورج واشنطن، لم يكن فيها الكثير الذى يسعده أو يسعد زوجته، فلم يكن هناك إلا بقايا قرية صغيرة من الصيادين يعيشون وسط أحراش ومياه ضحلة ويابسة موحلة، ولم يكن هناك إلا جناح واحد قد تم استكماله من البيت الأبيض، وحتى مبنى الكونجرس لم يكن قد عرف بعد قبته التى صارت شهيرة فيما بعد، وبالنسبة للزوجة المسكينة فقد كان حظها عاثرا فى غياب الأسواق التى تستطيع التسوق فيها لشراء مستلزمات الرئيس!.

وبالطبع فإننا فى الحالة العربية لم يكن هناك صدى لمثل هذا التفكير، وحتى بين القوميين العرب فإن فكرة عاصمة للعرب بعيدة عن بغداد أو دمشق أو القاهرة لم ترد ولو مرة واحدة، وعلى الأرجح أن هذا التفكير لم يرد لأن أحدا لن يرغب فى البعد عن المقاهى والمنتديات التى يلذ فيها الحديث عن الوحدة العربية. ولكن هذا لم يكن حال جون آدامز رغم شكوى زوجته المستمرة، وعلى الأرجح أنه لم يرد على ذهن أحد من الرؤساء الأمريكيين على مدى القرنين التاليين حتى ولو تغيرت شكوى الزوجات وتبرمهن من غياب الأسواق لى غياب الأزواج فى مهمام سرية فى الغرفات المغلقة فى البيت الأبيض!.

وعلى مدى قرنين تغيرت واشنطن ونمت عبر تراكم طويل كانت أزماته سببا فى تغيير حالها، فكانت مأساة الحرب الأهلية هى التى أضفت عليها من الهيبة والسلطان ما يكفى للحفاظ على الاتحاد، أما الحربان العالميتان الأولى والثانية فقد مدت سلطاتهما التعبوية إلى الولايات الخمسين التى عبرت قارة بأكملها من المحيط إلى المحيط، أما التقدم العلمى والتكنولوجى فقد مد بشرايينها إلى العالم أجمع . فى الحالة العربية المقابلة لم يكن هناك التراكم ولا استفدنا كثيرا من الحرب أو السلام أما التقدم العلمى فقصته مختلفة تماما.

١٦ ـ المحطة الأخيرة هلسنكى... !

نزلت إلى مطار هلسنكى عاصمة فنلندا لأول مرة فى حياتى، وكان شاغلى الأول هو كيف ستفى الاستحكامات التى أعددتها لمقاومة البرد المنتظر نتيجة الاقتراب من القطب الشمالى، اما الفنلنديون أنفسهم فلم يكونوا منشغلين باستقبالى بالطبع وإنما باستقبال بيل كلينتون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وبوريس يلتسين رئيس روسيا الاتحادية اللذين جاءا إلى عاصمة القمة ـ كما يسمونها ـ للتباحث حول أمور لا تقل أهمية عن توسيع حلف الأطلنطى. وبعد ان اكتشفت ان الصقيع الفنلندى ليس بالفظاعة التى تخيلتها، فإن الاكتشاف الأعظم لم يكن فقط دفء شعب يعيش وسط الجليد، وإنما كيف يدير شعب ودولة أمورهم فى ظل عالم جديد ومتغير. ويجب أن اعترف بأن معرفتى بفنلندا لم تتعد قط قصتين كاشفتين، الأولى حدثت عندما قابلت أول فنلندى فى حياتى فى ندوة فى سالزبورج فى النمسا عام ١٩٨٤ وكان رجلا عسكريا مهذبا عندما أخبرنى أن عليه مغادرة الندوة قبل انتهائها نظرا لوجود تدريبات ومناورات عسكرية عليه المشاركة فيها لأنها تقوم على تدريب قوات الدفاع الجوى الفنلندية على اعتراض الصواريخ السوفيتية او الأمريكية عابرة القارات . ساعتها بدا الأمر عبثيا فما، الذى يفيد فيه اعتراض الصواريخ بعد تدمير الكرة الأرضية بأكملها؟ ولكن الرجل كان جادا تماما فى أن فنلندا ـ وهى بلد محايد ـ عليها أن تقوم بواجبها فى إثبات قيامها بالاعتراض حتى ولو انفجر الكون بعد ذلك. القصة الثانية كانت ذائعة على شكل نكته قوامها أن الرئيس الفنلندى كان يتحدث تليفونيا فى وجود آخرين مع الرئيس السوفيتى برجينيف، ولم يكن لديه قول سوى نعم التى كررها سبع مرات ثم فجأة قال لا، فانتفض الحاضرون جزعا وهلعا من قولة للقوة العظمى القريبة، ولكن الجزع والهلع انقشع عندما أخبرهم الرئيس أن بريجنيف سأله هل يريد إضافة شيء لما قاله فكانت الإجابة صارمة لا !.

كان الزمن زمن الحرب الباردة وفنلندا بلد محايد غربي النزعة ولصيق بالاتحاد السوفيتي الشيوعي والمسلح بالاسلحة النووية حتى الأسنان، وما شغل الفنلنديين أيامها إثبات حيادهم بالوقوف في وجه صواريخ عملاقة لا يملكون إزاءها حولا ولا طولا، وفي الوقت نفسه التكيف مع حقيقة جوار جغرافي صعب. وفي وقتها كانت قصة الحرب الباردة كلها تتلخص فيما إذا كان النموذج الفنلندي سوف يمتد إلى أوروبا كلها أو أن أوروبا هي التي ستمتد إلى فنلندا، وكان تحقق الأخيرة وانضمام فنلندا إلى الجماعة الأوروبية ترجمة لا يقابلها ترجمة أخرى لانتهاء هذه الحرب. وهكذا وجدت نفسي في هلسنكي وهي تتهيأ لكي تكون عاصمة للقمة والوفاق والتكيف مع عالم جديد ربما ساهمت في صنعه بطريقتها الخاصة، لأنها عرفت قواعد اللعبة واحترمتها ولم تحاول التمرد عليها أو التعالي فوقها، وفي كل الأحوال فإنها كانت تعمل بدأب لتستعد للمستقبل القادم. هل تعلمون أن صادرات فنلندا الدولة التي لا يزيد عدد سكانها على خمسة ملايين تزيد على خمسة أمثال صادرات العرب غير البترولية رغم ان عددهم زاد على مائة وخمسين مليون نسمة ؟!!.

١٧- على ضفاف نهر أرنو... !

كل مدن العالم الكبيرة لها صلة بنهر ما يعطيها مذاقها وحضارتها أيضًا، النيل في القاهرة، والسين في باريس، وهدسون في نيويورك، والتيمز في لندن، وأرنو في فلورنسا، وعلى ضفاف هذا الأخير بدأت علاقة مع المدينة قبل أعوام قليلة قبل الميلاد، عندما قام على شاطئ النهر معسكر للجيش الروماني كان بداية لمدينة اشتقت اسمها من الزهور المنتشرة حولها، حيث توجد غابات ومروج توسكاني الشهيرة، ولكن المدينة لم تحفر لنفسها مكانا في التاريخ إلا مع بواكير عصر النهضة

حيث برزت أسماء مايكل أنجلو فى الفن، وميكيافيللى فى السياسة، وأسرة ميديشى فى الحكم، وسافونا رولا فى اللاهوت والتعصب.

ولكن تاريخ المدينة وقبابها وكنائسها ومتاحفها الكثيرة ربما لا تكون أهم ما فيها، ففى ضاحية سان دومينجو فوق تلال توسكانى الغنية الخضرة توجد تجربة ربما لو درسناها لتعلمنا كثيرا، هى معهد الجامعة الأوروبية، وهو مخصص لطلبة الدراسات العليا، ونشأت فكرته عام ١٩٥٥، أى قبل توقيع معاهدة روما التى أنشأت السوق الأوروبية المشتركة فى مارس ١٩٥٧، ولكنه لم يصبح حقيقة واقعة إلا فى ١٩ أبريل ١٩٧٢ بهدف تخريج أجيال جديدة تقود أوروبا الموحدة، وتبحث فى مشاكل ومعوقات حركتها وسعها الذى امتد من ست دول حتى وصل إلى ١٥ دولة وفى الطريق عشر دول أخرى سوف يتم ضمها خلال السنوات العشر المقبلة. وما تبقى بعد ذلك إلى البيت الأوروبى الكبير.

وتضم الجامعة أربعة أقسام فى التاريخ والحضارة رالاقتصاد، والقانون، والسياسة، والعلوم الاجتماعية، ومراكز للدراسات الأوروبية المتقدمة ومركز لوبرت شوماء، ولمن لا يعرف شوما، فإنه كان وزير خارجية فرنسا وقدم واحدة من أفضل الأفكار الخلاقة للتغلب على أسباب الصراع فى أوروبا التى مزقتها حربان عالميتان خلال نصف قرن، فبدلا من الدعوة للانتقام من ألمانيا فى حرب خرجت فرنسا فى نهايتها منتصرة، فقد رأى أن الصلب والفحم هما أساس الصناعات الحربية فى الدول الأوروبية، ومن ثم فقد لعبا دورا فى تقوية المؤسسات العسكرية التى كانت تقود أفكار الحروب المتتالية فى القارة التى كانت تعيسة للغاية، ومن هنا جاءت فكرة الجماعة الأوروبية للصلب والفحم التى وضعت تحت قيادتها «فوق القومية» هذه الصناعات، ومن ثم باتت الحرب مستحيلة، وتم التخلص من واحد من أهم أسباب الصراع والقتال والتدمير ودورات الانتقام والانتقام المضاد.

وقد ساقتنى الظروف إلى هذه الجامعة للإشراف على ورشة عمل من الطلبة الذين يعدون رسائلهم للدكتوراة عن قضايا الأمن فى البحر المتوسط، والذين جاءوا من دول أوروبية شتى، فليس سراً أن أوروبا تعد الآن من خلال إعلان برشلونة العدة للتوسع فى اتجاه دول جنوب البحر المتوسط، ومن هنا فإن الاتحاد الأوروبى لابد أن

يواكب ذلك بالخبراء اللازمين للعمل الذى سيتكثف خلال الأعوام العشرين القادمة. وإذا عرفنا أن هناك برامج مشابهة تخص التوسع فى شرق أوروبا لأدركنا كيف تعمل المجتمعات المتقدمة للإعداد للمستقبل.

الفكرة ربما ليست جديدة تماما علينا، وأظن أن إنشاء معهد الدراسات العربية التابع للجامعة العربية كان له ذات الهدف، إلا أننا حتى الآن لم نقابل خريجا خبيرا فى شئون التكامل والوحدة، والتعامل مع أوروبا أو مع الآخرين.، وفى حدود تجربتى السابقة، فإن طلاب المعهد كانوا من أقل نوعيات الطلاب فى العالم العربى والذين لم يجدوا مكانا آخر يذهبون إليه. وربما تغير ذلك أو بعضه الآن تحت القيادة الرشيدة للصديق د. أحمد يوسف أحمد، ولكن النتيجة حتى الآن كما يبدو من العمل العربى المشترك، والصعوبات التى تواجهها دول عربية شتى فى مفاوضات الشراكة مع أوروبا، غير ظاهرة، وربما يحتاج المعهد لمزيد من الدعم والخبرة وتحديد الهدف، فربما ساعتها يتكون لدينا جيل يعرف كيف يحقق الوحدة العربية فعليا بدلا من هؤلاء الذين يحققونها بالبيانات والهتاف.

ولكن المشكلة لدينا ربما تكون أكبر من كل ذلك، فالماضى حاضر بقسوة مخيفة والحاضر نكاد لا نعرف عنه شيئا، والمستقبل غائب بطريقة هائلة، ويكفى مراجعة بعض ما نشر فى الصحافة المصرية والعربية خلال الأسبوعين الأخيرين حتى نكتشف الهوة التى وصلنا إليها، فأولويات التنمية والتكامل اختفت فجأة، لكى يحل محلها إحباط مؤتمر عقد فى القاهرة، وتحرير الأراضى العربية المحتلة تناقص كثيرا حتى صار وقف التطبيع هو الهدف. أما الديمقراطية فقد تم اغتيالها تماما بعد قرار بحصنا عدم الاستماع لما يقوله آخرون صوابا أو خطأ. وليت الحال توقف عند ذلك، فبعد أهداف جديدة أقلها هو اعتبار الاتفاقيات الموقعة بين الحكومات العربية وإسرائيل غير ملزمة لشعوب العربية، وهو ما يعنى سحب الشرعية عن الحكومات العربية القائمة وإعلان الحرب عليها، فقد يكون مفهوما تماما إعلان حزب ما عزمه فى حالة وصوله إلى الحكم التعامل بشكل مختلف مع قضية الصراع العربى- الإسرائيلى، ولكن أن يدعى مؤتمر تمثيله للجماهير العربية وبعد ذلك يضع فى يده أهم قرارات الحرب والسلام فإننا نصبح أمام مستقبل منذر، إذا كان هناك مستقبل

على الاطلاق، خاصة أن المؤتمر لم يخف تأييده للإرهاب والخروج على شرعية الدولة، باستعادة ذكريات حزينة عن منظمة ثورة مصر.

وقد يكون مفهوما تماما تكوين جمعية أهلية للدعوة إلى وقف التطبيع مع إسرائيل، وأتمنى أن توافق الحكومة عليها بأقصى سرعة، فذلك يدخل فى صميم حقوق الديمقراطية والتعبير، ولكن الذى لا يدخل فى هذه الحقوق، ليس فقط أن تكون هذه الجمعية أداة للسب والقذف والتشهير والاغتيال المعنوى أو المادى، ولكن أيضاً ألا تجيب على الأسئلة الرئيسية المطروحة على الوطن. فإذا كانت ساعة العمل قد دقت حقا، فلابد أن نعرف إلى أى اتجاه، فإذا كان قد تم تجريد الحكومات العربية من شرعيتها فهل ستكون الإطاحة بها هو هدف العمل؟ وإذا لم يكن الحال كذلك؟ والأرجح أنه ليس كذلك، فهل يعنى عدم التزام الشعوب العربية بالاتفاقيات الموقعة الوقوف فى وجه تطبيق اتفاق واى ريفر الذى سيؤدى إلى الانسحاب من أراض فلسطينية؟ وهل هذه هى الرسالة التى أراد البعض منا إرسالها إلى إسرائيل والولايات المتحدة وأوروبا وروسيا، أى الدول الراعية والمتداخلة فى عملية السلام بطريقة أو بأخرى؟ وماذا سوف يكون عليه الحال بعد بدء المفاوضات السورية ـ الإسرائيلية التى وضع الرئيس حافظ الأسد هدفا لها هو الانسحاب الكامل مقابل السلام أى إقامة علاقات طبيعية كاملة؟ فهل سيعد ذلك أيضاً غير ملزم للشعوب العربية بما فيها الشعب السورى الشقيق؟.

وإذا كانت لحظة العمل قد حانت فعلا، أفلا ينبغى على للجمعية الجديدة، التى نأمل قبول تسجيلها بسرعة، أن تضع احتمال أن يصدقها الإسرائيليون، ومن ثم لا يوافقون على الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة، وهو ما يعنى ضرورة الاستعداد لتحريرها بالقوة المسلحة؟ فمادام الشعار هو أن ما أخذ بالقوة لا ينبغى استعادته بالوسائل السلمية ومؤتمرات السلام وإنما بالقوة المسلحة، فإن برنامجا حافلا للعمل لابد من تقديمه لأبناء الوطن الآخرين لكى يضمن لنا حربا منتصرة وليست من نوعية الحروب التى عرفناها من قبل. وأتصور أن أشقاء الوطن العقلاء فى الجمعية الجديدة والذين حمل الكثير منهم مواقع المسئولية الثقيلة، عليهم أن يقدموا لنا برنامجا لاقتصاد الحرب والتصنيع العسكرى، فى ظل ظروف لابد أنها سوف تكون صعبة دوليا وإقليميا، وربما يطرحون علينا إلغاء البرنامج المصرى الحالى

لتعمير وتنمية سيناء، فلا معنى لإنفاق عشرات المليارات من الدولارات فى منطقة قد يطولها شرور القتال.

ساعة العمل التى حانت إذن ليست شعارا يطلق، وإنما هى برنامج للعمل، ولابد أن أهدافه تزيد كثيرا على وقف عمل حركة السلام المصرية التى اتفق الجميع على أن أعضاءها لايزيدون على حفنة من البشر لا يعبرون إلا عن أنفسهم. وعلى أى الأحوال، فقد تم الانتصار الساحق عليهم، ووضعوا فى القوائم السوداء لعزلهم أو لاغتيالهم. وبرنامج العمل يعنى خطة وتعبئة داخلية وخارجية وجدولا زمنيا وموارد، فلا يصح فى نهاية القرن العشرين أن تكون ساعة العمل التى حانت هى ذاتها ساعة العمل الثورى التى دقت من قبل فى الستينيات، وقادت إلى احتلال الأراضى العربية من القنطرة إلى القنيطرة، وقادتنا إلى مراتب للتخلف بين الأمم، كما لا يجوز لها أن تكون من نفس النوعية التى قادت إلى أم المعارك الشهيرة التى نعلن بعدها انتصارنا لأن الله قد حبانا ببقاء النظام الثورى حتى ولو تحطمت موارد أمة عظيمة.

التجربة بين شمال البحر المتوسط وجنوبه، وبين تجربة تعتمد على التخطيط طويل المدى وحشد الموارد خلفه وتحقيقه خطوة بعد أخرى من الفحم والصلب وحتى اليورو، وتجربة لها شعارات كبرى ولكن دون برنامج أو خطة أو موارد.. حمى الله مصر من بعض أبنائها، أما أعداؤها فإنها من المؤكد كفيلة بهم!!.

١٨ - اللقاء فى الجزيرة...!

اندهشت كثيرا عندما قرأت فى الصحف الثورية المصرية عن أنباء هزيمتى وانتصار الأستاذ أمين إسكندر فى المناظرة التى دارت بيننا فى برنامج «الاتجاه المعاكس» فى قناة الجزيرة القطرية، ولم يكن مصدر الدهشة أن إعلان النصر جاء بنفس الطريقة التى أعلن بها الرئيس العراقى نصره فى موقعة «أم المعارك» الشهيرة،

فذلك بات من التقاليد العربية العريقة، وإنما لأنني تصورت أن المسألة لم تكن معركة على الإطلاق، وإنما مناظرة فكرية يطرح كل منا فيها رأيه أمام الرأى العام العربي الذى قد يأخذ بأى من الرأيين، أو يصل إلى رأى ثالث لم تصل إليه حكمة الطرفين فى النقاش والحوار. ولعلى ظننت، وكان زميلى فى الحوار متفقاً على ذلك، أنه أيا كانت شقة الخلاف بيننا، وهى كبيرة، فإن الخلاف لا يفسد للود قضية، وأن أيا منا لن يسمح باختلاق شجار فكرى هدفه الأساسى تسلية مشاهدى القناة التليفزيونية من أهلنا فى الخليج خاصة عندما يكون طرفا الحوار من المصريين، بل لعلنا ضحكنا معا عندما وجدنا إصرارا من تليفزيون الجزيرة على فصلنا فى فندقين مختلفين خوفا فيما يبدو من مخاطر التصفية الجسدية المعتادة فى بلاد أخرى بين المختلفين فى الرأى.

ولكن المفاجأة كانت كما جاء فى الصحف الثورية أنه جرى الإعداد للموضوع على طريقة المعارك الحربية، وتم التشاور مع المذيع على من سيتم حشدهم للمداخلة فى الحوار أو التراشق المنتظر، كما عقدت جلسة لإعداد زميلى فى الحلقة ليكون على مستوى الشجار المتوقع، وعلى الأرجح أنه تم تقسيم العمل بين التيارات القومية والإسلامية لكى تنزل بمطارقها على رأسى، ولكن المشكلة فى كل هذا الإعداد والتجهيز أنه أغفل أهم ما فى الموضوع وهو الحجة المراد عرضها على الرأى العام؛ وبدلا من الإجابة عن السؤال «كيف نحرر الأراضى العربية المحتلة؟» الذى هو جوهر الموضوع والنقاش، وجدنا مهاترات شخصية، وتأكيدا على العدوانية الإسرائيلية التى نعرفها جميعا، والإرادة العربية التى لا تلين، وكلها مواقف لا علاقة لها بالسياسة التى يفترض أنها الأداة التى تنقلنا من حال إلى حال، ومن الاحتلال إلى التحرير.

ولعل المفارقة الكبرى بين الخيال والواقع حدثت حتى قبل بدء الحلقة التليفزيونية، فقد قام العماد مصطفى طلاس - وزير الدفاع السورى - بإلقاء خطابه فى لبنان الذى أصبح شهيرا، وسوف يؤرخ له فى الأدب السياسى العربى والذى سب فيه سبا فاحشا الرئيس ياسر عرفات، وجاء الرد الفلسطينى مناسبا لمقتضى الحال

العربى، وبعد ظهور ذلك فى صحف الصباح، إذا بالعماد يلقى بتصريح لو كالة الأنباء السورية ينفى كلية أنه قال ما قال، ولكن قناة الجزيرة كان لديها تسجيل كامل بالصوت والصورة لخطاب العماد فأذاعته مع النفى وردود الفعل كل ساعة، وفى الوقت الذى كان فيه المتداخلون فى حلقة «الاتجاه المعاكس» يتحدثون بعلو الصوت عن الإرادة العربية التى لا تلين، والوحدة العربية التى لا يغلبها غلاب، كان الواقع يطل علينا زاعقا بحال الأمة وما وصلت إليه، ومن قادة لا يختلفون كثيرا فى المنطق والشكل والمضمون عن حال المتداخلين فى الحوار.

وربما كان ذلك هو جوهر المأساة العربية، فمع تصور التحلى بكل أنواع حسن النية وسلامة المقصد لدى الطرف الآخر من الحوار، وهو ما كان متوافرا لدى الأستاذ أمين إسكندر، فإن المفارقة للواقع والحقائق تبدو مخيفة، فلا أحد لديه علم بما جرى ويجرى فى العالم، ولا حتى فى المنطقة العربية، ولا معرفة بتوازنات القوى ولا كيفية التعامل معها، بل وصلت المأساة إلى قمتها فى أن أحدا لم يقرأ قراءة حقيقية فى اتفاقية السلام المصرية ـ الإسرائيلية، فقد كان هناك إصرار مدهش على أنه لا توجد مناطق مقيدة للتسلح على الجانب الإسرائيلى، ولابدا أن أحدا على استعداد للإقرار بأن الاعتراف بوجود إسرائيل تم مع الموافقة على القرار ٢٤٢، بل وصل التعامى عن الحقائق إلى القول إن الرئيس الخالد عبد الناصر هو الذى شن حرب أكتوبر ١٩٧٣ رغم وفاته قبل حدوثها بثلاث سنوات بعد موافقته على مبادرة روجرز وفى وعقب مؤتمر للقمة عقد بمناسبة المذبحة التى كانت تجرى للفلسطينيين فى الأردن.

وفى غيبة الاتفاق على المعلومات الأساسية فإن الحوار لا يكون صعبا بل يكاد يكون مستحيلا، خاصة لو قاطعته قصفات متواصلة من الخطب المنبرية، والتسليم الكامل بكل كلمة يقولها الإسرائيليون على أنها كلمات مقدسة، وإجراء المقارنات على غير أسس واحدة فيختلط الناتج الإجمالى بالناتج المحلى بمعدلات النمو بالتراكم الرأسمالى، ويتم اختيار الأرقام بالطريقة التى تناسب كل مقتضى للحال، وفوق ذلك كله فإنهم يستخدمون المنطق والمنطق المضاد له بنفس الحماسة، فهم يثيرون قضية حضور أو عدم حضور السيد عمرو موسى - وزير الخارجية ـ لمؤتمر القاهرة للسلام

إما لتأكيد تبعية أعضاء المؤتمر المصريين للسلطة فى الحالة الأولى وأما القول إنه مؤتمر لقيط فى الثانية، وهم مع المطالبة باستطلاعات للرأى العام حتى نتعرف رأى الجماهير العربية، ولكن إذا تمت فإنها تعتبر اختراقا للعقل العربى وتفتيشا فى تلافيف الوجدان العروبى الذى لا ينكشف على أحد، وهم مع الضرورات إذا كانت تحد من السلطة، ولكنهم مع الخيارات التى تفضى بها إلى التهلكة، وعلى المثقف أن يختار بين الضرورات والخيارات وكأن موقفه الفكرى معلق فى عالم الأحلام بين السماء والأرض.

وبعد ساعتين من الحوار أو اللاحوار انطلقت بنا السيارة على كورنيش مدينة الدوحة الهادئة على شاطئ الخليج والذى كانت أمواجه رقيقة تعكس أضواء فيها الكثير من الدعة والرفاهية، ولو كنا قد صدقنا هؤلاء الذين تداخلوا فى الحوار من القاهرة والكويت وباريس لتخيلنا جماهير الأمة لا تنام الليل انتظارا للمعركة المظفرة صباح الغد، ولكنهم مثلهم مثل الجماهير الأخرى التى تركناها فى القاهرة كانوا يحلمون بمستقبل أفضل تتحقق فيه آمالهم فى التقدم والرفعة، وعند الفجر سوف يتضرعون إلى الله عز وجل أن يحمى أمتهم من أعدائها ومن المغامرين من أبنائها على حد سواء!!

١٩ـ رحلة عام ٢٠١٤...!

حتى وقت كتابة هذه السطور كانت المركبة «بولار لاندر» المتجهة من الأرض إلى المريخ عاجزة عن إخبار محطتها الأرضية فى مدينة باسادينا فى ولاية كاليفورنيا عما إذا كانت قد نجحت فى الهبوط على سطح الكوكب الأحمر أم لا، ورغم المحاولات التى كان يقوم بها طاقم معمل الدفع النفاث المسئول عن المهمة التى كلفته بها وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» للاتصال بالمركبة إلا أنها ظلت صامتة، حتى عندما وضع العاملون فى المعمل لوحة ضخمة أمام الكاميرات يقولون فيها «بولار لاندر رجاء الاتصال تليفونيا»، وبالطبع لا ندرى بالضبط ما الذى حدث

للمركبة فى رحلتها الطويلة فى الفضاء الخارجى، ولا ما الصعوبات التى تعرضت لها فى مهمتها التى كانت تتلخص فى هبوطها على الكوكب ثم خروج ذراع منها تغرف حفنة من تراب الأراض ثم تعود بها إلى صندوق داخل المركبة حيث يجرى تسخينها ومن خلال هذه العملية نعرف العناصر التى تتكون منها التربة.

ولكن الذى نعرفه أن نجاح أو فشل المركبة سيكون خطوة على الطريق الطويل لوصول الإنسان إلى المريخ فى الرحلة التى بات مقررا لها أن تحدث فى عام ٢٠١٤، وإذا كانت السوابق شاهدة على المستقبل، فإن القرار الأمريكى الذى اتخذه الرئيس جون كيندى عام ١٩٦٠ بهبوط الإنسان على القمر فى عام ١٩٦٩ قد تم احترامه، وعندما وضع أرمسترونج رائد الفضاء قدمه إليمنى على أرضه قال إنها خطوة عظيمة للبشرية. وبالفعل فقد كانت خطوة عظيمة للبشرية سبقها عقد كامل من المحاولات الناجحة والفاشلة، ولحقتها خطوات كبيرة فى اقتحام الفضاء الخارجى حتى إن العقود الثلاثة التالية على الحديث الكبير شهدت تطورا فى مجال الفضاء لا يقل مطلقا عن ذلك التطور الذى طرأ على السفن الخشبية التى اكتشفت العالم الجديد وبدلتها بطائرات الكونكورد التى تعبر المحيط فى ثلاث ساعات، أو التطور الذى عرفته العربات التى تجرها الخيول وحلت محلها عربات الجاجوار، أو التطور الذى حدث لتليفون العمدة فى القرى المصرية ووضع مكانه التليفون المحمول!. المسافة العلمية ما بين المركبة «بولار لاندر» فك الله كربتها، والمركبة «لونا»، التى حملت الإنسان إلى القمر، هى ذات المسافة أو أكثر التى عرفنا فى كل مجالات التطور العلمى والتطبيقات التكنولوجية، وهى مسافة تحمل قدرا هائلا من القفزات العلمية فى دفع المركبات لمسافات بعيدة، وفى الاتصال عبر نوافذ فضائية عبر حركة الكواكب والأقمار، وفى دينامية الحركة على أرض لم يمسسها بشر من قبل.

هذه التطورات تجعل علماء إليوم أسعد حالا من علماء الماضى الذين كان عليهم العمل فى مستويات بدائية من المعرفة العلمية، ولكنهم وربما سوف يكونون أتعس حالا بحكم التحديات الجديدة المفروضة عليهم، فالقضية لم تعد الوصول إلى قمر على «ناصية» الأرض ولا يعنى الكثير، وإنما الوصول إلى كواكب المجرة التى سوف تفتح الباب للخروج منها إلى المجرات الأخرى ربما قبل نهاية القرن الحادى

والعشرين، خاصة بعد استكمال محطة الفضاء الدائمة المأهولة التى سوف ينتهى العمل فيها عام ٢٠٠٦، هذا الخروج إلى الفضاء السحيق يشكل دورة جديدة من عمل العلماء انشغلوا عنه فى السابق بالعمل من أجل جعل برامج الفضاء أكثر ربحية وتجارية، وأكثر فائدة لبنى البشر الآن وليس فى المستقبل، ولذا فإنهم ركزوا على الأقمار الصناعية التى تدور قرب الأرض وتخلق أسواقا كبرى للاتصالات والبث التليفزيونى ومراقبة الطقس والناس وأخيرا الإنترنت، أما وقد أصبحت المهمة الآن فى متناول يد الجميع حتى أن بلدانا نامية مثل الصين والهند دخلت فى سوق إنتاجها، فإن العلماء الأمريكيين نقلوا برامجهم إلى مسافات أخرى بعيدة للغاية ولا أظن أن هناك برامج لدى دول أخرى للحاق بها.

المهم أنه بين الآن وعام ٢٠١٤ سوف يكون العالم قد تغير كثيرا، وفى العادة فإن البشر يتفاءلون بما هو قادم لعله يكون أفضل حالا مما هو ذاهب، وقد لاحظت أن كل قادة الرأى والسياسة والفن والأدب قالوا كلمات طيبة عن القرن القادم، إلا أن واحدا منهم فقط هو لى كوان يو رئيس وزراء سنغافورة الأسبق والأب الروحى لما يسمى بالمعجزة الآسيوية، كان له رأى آخر حينما قال إن القرن القادم لن يختلف كثيرا عن القرن العشرين «فقط نتمنى ألا يكون أسوأ حالا»، وهى درجة من التشاؤم وعدم الثقة فى الطبيعة البشرية التى تلقى بظلها الشرير على كل ما يحرزه العالم من تقدم علمى وتكنولوجى، وربما كان الأكثر عدلا ملاحظة السباق بين الطيب والخبيث فى التقدم الإنسانى، وأظن أن الأول أكثر غلبة على الثانى حتى إنه دائما ما يجد حلا للمشكلات التى تتولد عن الشراهة البشرية والشر الإنسانى.

وفى بلد مثل الولايات المتحدة التى يأخذ عليها كثير من البشر مآخذ كثيرة، وبعضهم يتهمونها بالهيمنة والسيطرة، إلا أنه لا يمكن تجاهل ماتقدمه آلاتها العلمية الجبارة للبشرية جمعاء تفتح أفاقا جديدة للإنسان فى معرفته بنفسه ومعرفته بالكون، وفى بعض الأحيان حتى تخفف آلام البشر، وربما كانت أسعد الأخبار التى سمعتها

أخيراً هو خبر كشف الباحثين الأمريكيين عن دواء تجريبى تشير الاختبارات التى أجريت عليه إلى أنه قد يوقف أحد أشكال سرطان الدم، وربما يحدث ثورة فى مجال علاج السرطان، وقد تمت تجربة الدواء على ٣١ مريضاً بسرطان النخاع بالعقار المسمى «سى تى آى ٥٧١» فشفى ثلاثة منهم شفاء تاماً، أما الباقون فقد تحسنت حالاتهم وعادت خلايا الدم البيضاء والحمراء إلى طبيعتها.

الطريق إذن إلى عام نزول الإنسان إلى المريخ قد يكون حافلا ببعض الأخبار السارة بالنسبة للأمراض التى دوخت الإنسان طوال القرن العشرين وفى المقدمة منها مرض السرطان، الذى جاء التقدم فيه من خلال القفزة المعرفية فيما يتعلق بالخلية البشرية التى يبدو أن التعقيد والتفرد فيها لا يقل بحال عن التعقد والتفرد فى الكون كله، وما بين الخلية الحيوية الدقيقة والصغيرة، وما بين الكون كله، يجرى البحث والدراسة، ولا تختلف درجات التعقيد فى البحث وعقباته والتقدم والتأخر فيه من هذا إلى ذاك، وإذا كانت المركبة «بولار لاندر» انقطعت خطوط الاتصالات بها أو حتى فشلت كلية، فإن تلك لم تكن المرة الأولى فقد سبقتها مركبات أخرى إلى المريخ هما «مارس أوبزيرفر» و «باث فايندر» اللتان لم تحققا الهدف، ومع ذلك فإن المعرفة التى تولدت عنهما كانت هائلة بكل المقاييس، فالإنسان لا يتعلم فقط من نجاحاته وإنما الأهم من إخفاقاته أيضاً.

ولعل ذلك هو الفارق الأساسى بين الدول المتقدمة والمتخلفة، ففى الأولى يكون البحث العلمى والمعرفة هو الطريق إلى تكوين عناصر القوة، وفى الثانية فإن الكلمة والشعار هما اللذان يعطيان الوهم بها، وفى الأولى فإن الإصرار رغم العقبات ونوبات الإخفاق يظل قائما حتى بلوغ الهدف، وفى الثانية فإن اليأس والنكوص يسود عند أول عقبة، وعلى الطريق إلى عام ٢٠١٤ سوف يصعد من استمر فى المحاولة، ويخفق من تراجع عنها أما بعد هذا العام فسيكون هناك عالم جديد حقا ولكن على المريخ هذه المرة!!

٢٠ ـ سويوز ـ تى ـ إم ٣٢...!

ربما يبدو هذا العنوان غير تقليدى ولكنه سوف يكون معتادا فى قادم الأيام، فقد سبق أن كانت هناك عناوين لرحلات جوية فى المقالات والكتب وأفلام السينما وكانت كلها تقول معلومات عن شركة الطيران ورقم الرحلة وموعد الإقلاع والبوابة التى ينطلق منها المسافرون، وكان معنى ذلك أن بنية أساسية ضخمة قد تكونت مع اختراع الطائرات فكانت مصانع إنتاجها والمطارات التى تطير منها وشركات تسويق استخدامها تجاريا للسياحة أو للشطارة. الآن لا يوجد كل ذلك بالنسبة لمركبات الفضاء والرحلات إلى العالم الخارجي ولكن بدايات ذلك كله دخلت الحياة العملية عندما قررت موسكو أن تقبل أول سائح على ظهر مركبتها سويوز تى ـ إم ٣٢ وبالمصادفة كان الرجل أمريكيا وبالمصادفة أيضا كان الرجل من رجال الأعمال وبالمصادفة ثالثا كان الرجل غنيا جدا إلى الدرجة التى جعلته يدفع ٢٠ مليون دولار ثمنا لتذكرة الذهاب إلى الفضاء ومراقبة الكرة الأرضية من خارجها مع قضاء بضعة أيام ممتعة فى المحطة الدولية الدائمة.

وهكذا أصبح السيد دنيس تيتو أول إنسان يذهب إلى الدنيا خارج الكرة الأرضية باعتباره إنسانا عاديا فى الطريق إلى رحلة دفع ثمنها وهو بالتالى مثل أول إنسان ركب القطار عندما كان يسير بسرعة لا تزيد على ستة كيلو مترات فى الساعة وأول إنسان يركب السيارة بدلا من الحصان وأول إنسان يركب الطائرة لغير الأغراض العلمية أو الحربية. ولو تخيلنا كل ذلك الذى حدث بعد وجود هذا الراكب الأول فربما عرفنا ما الذى سوف يحدث بعد رحلة دنيس تيتو. القطارات تحولت إلى محطات هائلة وقدرات فائقة على اختراق المسافات ونقل البضائع والبشر وربط أجزاء الدول، حتى إنه يصعب تخيل وجود الولايات المتحدة كدولة لو لم توجد السكك الحديدية. والسيارات حدث معها نفس الشيء وبعد أن كانت أضحوكة وسائل النقل لأنها باستمرار تحتاج غذاء خاصا لا يمكن توافره بذات السهولة التى يتوافر بها غذاء الحصان فقد اندثر هذا الأخير كوسيلة نقل وامتدت الطرق الممهدة للسيارات وبعدها

محطات البنزين ومعه تطورت صناعة هائلة للنفط وشركات صناعية وتجارية كبرى.

أول سائح للفضاء الخارجى لن يجد أيا من ذلك موجودا ولكنه سوف يطلق إشارة الانطلاق، ومن المتخيل أن تكون هناك خلال نصف القرن القادم محطات كثيرة فى كل دولة أو ربما يوضع عدد من المحطات على خط الاستواء وتذهب إليها الطائرات بالركاب الذين ينطلقون منها إلى المركبات الفضائية التى عليها البقاء لإعادة التموين بضع ساعات فى المحطة الفضائية الدائمة قبل الانطلاق إلى الكوكب المعنى فكما نجد التكامل الآن بين وسائل النقل المختلفة، حيث يرتبط كل مطار بشبكة الطرق البرية والحديدية وربما البحرية أحيانا فليس بعيدا أن يحدث ذلك مع دمج وسائل السفر إلى الفضاء معها.

ويبدو أن بعض المشكلات التى عرفناها فى السابق ونعرف بعضها حاليا عن مصاعب السفر ومشاقه بدأت بالفعل فى الظهور، فبينما كانت مركبة سويوز تستعد للانطلاق ومعها أول سائح فضائى حتى أعلنت وكالة ناسا الأمريكية استحالة حدوث ذلك لأن هناك مشاكل فى الحواسب الآلية للمحطة يقوم المكوك إينديفر بإصلاحها وهو يحتل الرصيف الوحيد المتاح فى المحطة فضلا عن انشغال المحطة بأعمال أخرى منها تركيب الذراع الآلية الكندية «كندرام ٢» حتى يمكن إعادة مركبة التموين الإيطالية رافيللو إلى المكوك. الصورة هنا لا تختلف كثيرا عما يحدث فى أى مطار دولى عندما يطلب من الطائرات عدم الانطلاق من بلادها لأن مطار الاستقبال لديه زحمة طائرات أو أن هناك ظروفا جوية طارئة مثل الضباب والعواصف الرعدية أو بسبب الإضراب من جانب عمال المطار كما يحدث فى معظم الأيام فى المطارات الإيطالية.

لكن يبدو أن المشكلات التى سوف يواجهها دنيس تيتو أكبر من المعضلات الفنية أو بسبب الظروف الطبيعية الصعبة، فكما ظهر من تطور الأحداث أن هناك عناصر سياسية قد دخلت الموضوع، فالجانب الأمريكى ممثلا فى وكالة ناسا غير متحمس

لأن يقوم أول مواطن أمريكى سائح بالذهاب إلى الفضاء الخارجى من خلال مركبة روسية، صحيح أن هناك اعتراضات فنية تثيرها الوكالة لأن الراكب غير مدرب أو أن البرنامج الفضائى غير مؤهل بعد لاستقبال العامة أو للخوف من المخاطر الجديدة فى رحلة تحفها مخاطر هائلة بطبيعتها. لكن أيضا ليس مستبعدا أن تكون هناك أسباب أخرى، فالولايات المتحدة لا تريد أن تستعيد أحداثا فى الزمن الماضى باتت ذكرى لا يريد أحد تذكرها عندما سبقت روسيا أو الاتحاد السوفيتى آنذاك الولايات المتحدة إلى الفضاء عندما أطلقت أول رحلة يقودها رائد الفضاء يورى جاجارين، أيامها هز هذا الحدث الأعصاب الأمريكية وناسا لا تريد هزات جديدة بعد أن ظنت أنها قد حسمت سباق الفضاء لصالحها وإلى الأبد، فالوكالة الأمريكية هى التى تدفع الجانب الأكبر من التكلفة للمحطة الفضائية الدائمة لأنها لا تريد لأحد أن يفاجئها بمبادرات جديدة غير محسوبة.

لكن بغض النظر عن الغيرة المهنية أو استغلال المقدرة الاقتصادية أو الخلاف فى وجهات النظر الأمريكية والروسية بشأن المسألة الفضائية فإن الأمريكيين وجدوا مشكلة فى أن يسبقهم الروس الجدد فى المسألة الرأسمالية إلى مسألة تجارية بحتة تعتقد الولايات المتحدة أن ذلك مصدر امتيازها وتفوقها وهى كذلك لا تقبل بالطريقة البدائية التى بدأت بها روسيا الموضوع، حيث سمحت لراكب فضائى واحد دفع ٢٠ مليون دولار فقط بالسفر إلى الفضاء فما كانت أمريكا سوف تفعله هو أنها سوف تذيع من خلال مراكز علمية كثيرة كيف أن الخروج إلى الفضاء يطيل عمر الإنسان، وعلى الأرجح قدراته الجنسية أيضا، ومن الجائز أن حالة انعدام الوزن تقضى على كل التجاعيد، وبعد ذلك تفتح الباب للآلاف المؤلفة معلنة أنها سوف تختار طبقة متميزة بحيث يشعر من يذهب بأنه سوف ينتمى إلى صفوة من نوع ما، حيث يذهب واحد تلو الآخر ربما مصحوبا بزوجته حتى تتحقق السعادة الزوجية أو يتاح لأيهما الخلاص من الطرف الآخر على مسافات بعيدة من الوطن، بعد ذلك كله سوف يتم تحديد السعر وقد يكون أكبر أو أصغر مما قدرته روسيا، لكنه فى كل

الأحوال سوف يكون متصلا بعملية كبرى وشبكة هائلة من المصالح التجارية والصناعية التى ستسدد كل ما دفعته أمريكا على برنامج الفضاء منذ بدايته حتى لحظة جلوس أول السائحين إلى الفضاء فى مقعده فى الطريق إلى السماء، هل هذه أحلام أو تخيلات لا أساس لها؟ من لا يصدق فعليه أن يعود إلى التاريخ، وسوف يجد كل ذلك ممكنا تماما.

٢٢ ـ فندق فى الفضاء... !

بشرى جديدة للمصطافين والباحثين عن الراحة والبال الخالى من المشاكل والمتعة الصافية، فلن تكون إجازاتهم القادمة على حافة المياه الفسفورية واللازوردية فى الساحل الشمالى المصرى وعند أقدام «عجيبة» مرسى مطروح، ولا حتى فى المياه الزرقاء الصافية فوق الشعاب المرجانية فى شرم الشيخ ونوييع الغردقة، ولا حتى فى الأماكن الرائعة التى لا نعرف كيف نصفها لأنه لم يتوافر المال لزيارتها فى كان ونيس وفينيسيا. فقد صار بوسع هؤلاء جميعا أن يمضوا إجازتهم فى الفضاء الخارجى، أو هكذا أعلنت وكالة الفضاء الأمريكية المدللة باسم ناسا أنها سوف تبنى محطة فضائية على شكل فندق يدور حول الأرض ويمكن لراغبى السياحة قضاء عطلاتهم فيها. وبهذه الطريقة سوف يكون بوسع أهل الأرض جميعا مشاهدة كل أنواع المياه فى البحار والمحيطات بألوانها المختلفة مرة واحدة عن بعد حتى ولو كانت التكلفة غالية قليلا وتصل حاليا إلى ثمانية ونصف مليون دولار. صحيح أن المشاهدة وحدها لا تكفى، وأن الأرض لاتزال لديها ميزة السباحة والتمتع ببعض المشاهد المثيرة، إلا أنه من الممكن التغلب على هذه العقبة فى المستقبل بتوفير حمام للسباحة داخل المحطة الفضائية، أو على الأرجح فإن السباحة فى الفضاء لن تكون أقل متعة.

وحتى لا يحزن أحد ويتصور أن التكلفة المرتفعة للسياحة الفضائية هى وسيلة جديدة للتفرقة بين الطبقات وشق صف الانسجام الكونى بين الشعوب الغنية والفقيرة، فإن الشركة التى سوف تقوم ببناء الفندق بشرتنا أيضاً أن التكلفة المرتفعة للرحلة سوف تتناقص حتى تصل إلى ١٧ ألف دولار فقط، وهو مبلغ يظل هائلا

بمعايير العالم الثالث. ولكننا نرجح على أية حال أن المسألة برمتها ما هي إلا قضية وقت ليس إلا فسوف تنخفض تكاليف الرحلات حتى تصبح في متناول الجميع خاصة أن تخفيضات هائلة سوف تمنح للرحلات الجماعية، ومن ثم فإن بوسعنا طمأنة من تعودوا بحكم الموارد المحدودة سياحة الشركات إلى أنهم لن يحرموا من متعة البقاء في كبسولة على شكل فندق معلقة بين السماء والأرض ولمن لا تثيره هذه الصورة في قليل أو كثير، فما عليه إلا البقاء على الأرض، ومن يعش فسوف يرى كثيرا جدا!!.

٢٣ - الصلاة في معبد الشنتو...!

لمن لا يعلم فإن ديانة الشنتو هي الديانة الأصلية لليابانيين، وهي تقوم على عبادة الأسلاف والأجداد ورمزها هو جبل فوجي المهيب العالي للغاية والمكلل عند فوهته البركانية بالثلج الأبيض. وهكذا فإن جوهر الديانة هو التوجه إلى الأقدمين للحصول على ما لديهم من حكمة، وإلى الجبل إبتغاء مرضاته حتى لا يصب غضبه في حمم مسمومة. ومنذ دستة من السنوات زرت اليابان وفي مدينة كيوتو قادني دليلي إلى واحد من معابد الشنتو حيث وجدت نفسي في ساحة تقع في وسطها مدرجات تحيط بكمية من الحصى وفي وسطها بعض الأحجار المقدسة أو هكذا قال، ولما جلست على واحد من المدرجات لم أدر ماذا أفعل تحديدا، فهمس الرجل في أذني ما عليك إلا النظر إلى هذه الأحجار ثم تتأمل وتستغرق في التفكير واسترجاع روح الأجداد. ويبدو أن الدليل استشعر حرج موقفي فأنهى الطقوس بسرعة، وأفادني أن هذه الإجراءات ربما تتعارض مع ديانتي، ولكن اليابانيين لا يشعرون بالحرج، فرغم أنهم أخذوا البوذية والمسيحية كديانات إلا أنهم يجمعونها مع ديانة الشنتو في آن واحد لأنها هي التي لا تزال تعبر عن روح اليابان الأصيلة !. فكما قيل لي فإن الياباني يمارس البوذية خلال اليوم ولكنه يتزوج في الكنيسة، أما عند الوفاة فإنه يدفن على طريقة الشنتو حتى يضمن الخلاص والانضمام إلى أرواح أسلافه العظام.

ولا أعتقد أن السيد جيمس ميللر الممثل لشركة فورد موتورز الأمريكية للسيارات في اليابان قد شعر بهذا الحرج عندما كان عليه الصلاة جنبا إلى جنب مع أعضاء

مجلس إدارة شركة مازدا اليابانية فى حضور واحد من الكهنة فى معبد الشنتو فى جزيرة مياجيما اليابانية. فكما ذكرت صحيفة الهيرالد تريبيون فإن السيد جيمس تمتع بالمرونة التى تتطلبها إدارة الاقتصاد العالمى عبر ثقافات وديانات متعددة، ومن ثم فإنه قام بالتأمل واسترجاع روح الأجداد والحديث إلى أحجار جبل فوجى المقدسة فى صمت بليغ، والقيام بالانحناء اللازم والمضبوط للكاهن، ولم يكن ذلك لسبب آخر إلا تعميق العلاقة بين شركتى مازدا وفورد والتى تملك فيها الأخيرة نحو ثلث أسهم الأولى. ولكن الزيارة لم تكن لزيادة الحصة الأمريكية وإنما لإصلاح حال «مازدا» التى تعثرت خطواتها خلال الأعوام الأخيرة وحققت خسائر كبرى ومن ثم تمت الاستعانة لأول مرة بالخبرة الإدارية الأمريكية لكى تنقذ درة الصناعة اليابانية من الخطر.

السيد جيمس كان يعلم تماما حساسية أقرانه اليابانيين الذين جعلوا من التقاليد اليابانية مفخرة فى الإدارة والسلوك، ولما كان عليه أن يحدث اقتحاما فى أسلوب الإدارة اليابانى وتطعيمه بالأسلوب المباشر الأمريكى الذى يعبر الساحة بين الصراحة والوقاحة بسرعة كبيرة، فإنه كان عليه أن يفعل ذلك وسط احترام للتقاليد اليابانية العريقة، فالكل فى النهاية يريد الإنتاج والأسواق والربح، ولكن ذلك لابد أن يتم بسلاسة ورفق ومع احترام الذات والخواص القومية. ولكن الخبر وتفاصيله لهما دلالة أكبر وأعمق، فمن فرط اهتمامنا وتركيزنا فى الشرق الأوسط، وهو إهتمام وتركيز مطلوب ومرغوب، فإننا نغفل عن الكثير من التطورات التى تجرى فى عالمنا والتى تشكل فى النهاية النسيج الذى منه تنطلق فى النهاية التطورات التاريخية الكبرى التى تفاجئنا. فربما كان أهم علامات العقدين الأخيرين عمليات الاندماج والتعاون بين الشركات العالمية العملاقة فى كافة المجالات، ولكن صناعة السيارات الاستراتيجية والمحورية لكثير من الصناعات الأخرى هى القائدة فى هذا المجال، وما ذكرناه بين فورد ومازدا نجد مثيله بين جنرال موتورز الأمريكية وتويوتا اليابانية. وخلال الأسابيع الماضية فقط تصدرت قائمة الأخبار العالمية شراء شركة مرسيدس بينز الألمانية لحصة كبرى فى شركة كيرزلر الأمريكية وكذلك فعلت فولكس واجن الألمانية مع رولزرويس البريطانية بعد أن انتزعتها انتزاعا من براثن شركة «بى. إم. دبليو» الألمانية كذلك. المهم أن ما ينتج بعد ذلك ليس يابانيا ولا ألمانيا ولا أمريكيا ولا بريطانيا إنه شىء آخر جديد تماما، ربما يصلى العاملون فيه فى معابد وكنائس متعددة، ولكنهم فى النهاية ينتجون عربات يستخدمها العالم أجمع..!!.

المحتويات

